

بَابُ الْمَوْتِ



جَابْرِيلْ غَارَسِيَا مَارَكِيز  
الحائز على جَائِزَةِ نُوبَلِ لِلآدَابِ





# الصب في زمن الكوليرا

مجمع محفوظ الطبع والنشر  
محفوظة

الطبعة الأولى  
١٩٩١



دمشق - بيروت

بيروت : شارع الحمراء - ص.ب. ٥٧٢٠ / ١١٢

دمشق : الجمار - ص.ب. ٦٢٠٨

لغائف ٢٢٥٢٢٦ - سجل تماري ٤٩٨٥٧



غابرييل غارسيا ماركيز

# الحب في زمن الكوليرا

رواية

ترجمها عن الإسبانية: صالح علماfi

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

GABRIEL GARCIA MARQUEZ

EL Amor En Los Tiempos Del Colera

Diciembre 1985

Editorial Bruguera, S.A.

ولسد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٨ في أراكانكا، شمال كولومبيا، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية، لينتقل بعدها إلى الجامعة. عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما، وباريس (عام ١٩٦٠ حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده، فاضطر إلى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء!) - كتب حينذاك روايته «ليس للكولونيل من يكاتبه». كما أنه أقام في مكسيكو وكتب عدة سيناريوهات سينمائية. نشر ماركيز أول قصة له عام ١٩٥٥ وكانت «غرباء الموز»، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة.

ذاع صيته بعد نشره لرائعته «مائة عام من العزلة» عام ١٩٦٧، والتي نُبّهت العالم إليه ككاتب متميز (تُرجمت إلى ٣٢ لغة بينها العربية)؛ لا بل فُجِرت اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل.

وعلى اثر ذلك، حاز يوم الجمعة في العاشر من كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٢ على جائزة نوبل للأدب وذلك (لرواياته وقصصه حيث يتدفق الواقعي والفراغي في غنى مُعقد لعالمٍ شعري يعكس حياة ونزاعات محيطه بأكمله) - كما جاء في شهادة الأكاديمية السويدية. وبذا يكون الفائز بالجائزة رقم ٧٨، وأول كولومبي ينالها، ورابع أميركي لاتيني بعد ميسترال وأستورياس، وكاربانتييه.

حقاً، إن غابرييل غارسيا ماركيز يستمد من المخيلة الكثير الكثير ليشحن به كتاباته، وبذلك يحقق تآلفاً منسجماً لعالمٍ يطغى فوق الواقع إنما جذوره متأصلة فيه ويغتني بنسغه. إنه كما الكاتب الأرجنتيني بورخس، يعتمد الخيال أو المخيلة وسيلة كبرى في الحياة والكتابة: «إن أعظم ما يمتلكه الإنسان هو الخيال» - قال بورخس. أما ماركيز، فإنه يقول في أكثر من مناسبة: «الخيال هو في تهيئة الواقع ليصبح فناً، وأيضاً «الغرائبي بأخذني ولا يبقى من الواقع إلا أرض القصة». ولكنه يوضح في مكان آخر فيقول عن مائة عام من العزلة: «إنها تنتمي إلى أدب الهروب من الواقع. كنتُ أود التعبير عن الإرادة الواعية، لا أن تعدم الواقع. ولكن علينا أن ندرك أنها لم تصالح الواقع». ويستطرد: «لنيس قول الناس أننا نتهرب من

الواقع معقولاً، فمن بطالع انتاجنا في روية يعرف أننا مُسيسون ومتوطلون اكثر من أسلافنا. وعن النقطة داعها يشرح قائلاً : «أعتقد أن سبر أغوار الواقع، دون أحكام مسبقة عقلية، ييسر أمام رويتنا بانوراما رائعة ومهما اعتقد بعضهم أن منجما هروبي، فإن الواقع سيثبت - ان عاجلاً أو آجلاً - أن المخيلة على حق».

وهكذا نفهم لماذا رفض العروض لتحويل رواياته الى أفلام سينائية، فهو يريد أن تبقى غيمة القاريء حرة غير مؤطرة : «أنا أفضل أن يتخيل قاريء كتابي الشخصيات كما يحلوه. أن يرسم ملاحظتها مثلما يريد. أما عندما يشاهد الرواية على الشاشة فإن الشخصيات ستصبح دت أشكال محددة هي أشكال الممثلين، وهي ليست تلك الشخصيات التي يمكن أن يتخيلها المرء أثناء القراءة».

وعن موقع وواقع الكاتب في المجتمع وتعامله معه، فإن ماركيز يجده بدقة : «إذا كان الأدب نتاجاً اجتماعياً فإن العمل الأدبي هو نتاج فردي بل الأكثر فردية في العالم. الأدب كامل الوحدة في الانداع. من هنا أميز بين الممارسات السياسية الجماعية والممارسة الأدبية الفردية البحتة».

أجل فماركيز الرفض لجميع أشكال الممارسات القمعية لدكتاتوريات العالم، ودكتاتوريات أميركا اللاتينية خاصة، والذي نفى نفسه طوعاً خارج هياكل البطش والقمع؛ انه هو الذي لا تختلط الأمور عليه، إذ يراها بكل سطوعها من منظار شخصه المالك لحرية، فيقول معروفاً واجب الكاتب الثوري : «أعتقد ان واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً. ذلك هو التزامه».

أشهر أعمال غارسيل غارسيا ماركيز : مائة عام من العزلة. ليس للكولونيل من يكاته، خريف البطريك، قصة موت مُعلن، في ساعة نحن... الخ.

**الصب**

**ينى زمن الكوليرا**



قدماً تمضي هذه الأماكن:  
إذ صار لها ربة متوجة

ليناندرو ديات





لا مناص: فرائحة اللوز المر كانت تذكره دوما بمصير الغراميات غير المواتية. ذلك ما ادركه الدكتور خوفينال اوربينو منذ دخوله البيت الذي ما زال غارقا في الظلام، إذ حضر على عجل للاهتمام بحالة لم تعد مستعجلة بالنسبة له منذ سنوات عديدة، فاللاجئ الانتيلي جيرميا دي سانت-آمور، مشوه الحرب، ومصور الأطفال، وأكثر خصومه رافة في لعبة الشطرنج، قد تخلص من عذابات الذكرى باستنشاقه ابخرة سيانور الذهب.

وجد الجثة مغطاة بشرشف فوق السرير الضيق، حيث كان ينام عادة، ويجواره كرسي صغير عليه الطشت المستخدم في تبخير السم. وكان يقبع على الارض، مقيدا بقائمة السرير، جسد كلب دانمركي ضخم، اسود اللون، تغطي صدره بقع بلون الثلج، وإلى جانبه العكازان. الحجرة الخائفة ذات الألوان المتنافرة، التي كانت تستخدم كحجرة نوم وغبر تصوير في الوقت ذاته، اضيئت قليلا ببريق الفجر المنسل من النافذة المفتوحة، لكنه كان ضوءا كافيا للاعتراف الفوري بسلطة الموت فقط. كانت النوافذ الاخرى، وكذلك جميع كوى الحجرة، مسدودة بخرق قماشية او مختومة بورق مقوى اسود اللون، مما ضاعف من كثافة ضيقها. وكانت هناك طاولة تحتشد بزجاجات وقنابلا لصاقات، وطشتين من التوتياء مقشري الطلاء، تحت مصباح عادي مغلف بورق أحمر. أما الطشت الثالث، الخاص بالسائل المثبت، فهو الموجود الى جانب الجثة، كانت هنالك مجلات وصحف قديمة في كل الانحاء، واكداس من مسودات الصور الفوتوغرافية في اطرزجاجية، واثاث مخلع، لكنه محفوظ كله من الغبار بقدره يد نشيطة، ومع ان هواء النافذة كان قد نفى الجو، الا انه بقي لمن هو قادر على التسيير قبس فاطر من الغراميات الكثبية لحبات اللوز المرة، كان الدكتور خوفينال اوربينو قد فكر اكثر من مرة، دون حماس مسبق، بان تلك الحجرة ليست بالمكان المناسب للموت في رحمة الله، لكنه انتهى مع مرور الوقت إلى الافتراض بان فوصى المكان هذه ربما

هي استجابة لالهام محدد من جانب العناية الالهية .

كان مفوض شرطة قد سبقه مع طالب طب شاب يتمرن للتخصص في الطب الشرعي في المستوصف البلدي، وهما من قام بتهوية الحجرة وتغطية الجثة ريثما يأتي الدكتور اوربينو. كلاهما صافحه بمهابة فيها من المواساة هذه المرة اكثر مما فيها من التوقير، فلا احد يجهل درجة الصداقة التي كانت تربطه بخيرميا دي سانت - آمور. شد المعلم الشهير على يد كل منهما، كما هي عادته دائما بمصافحة كل واحد من تلاميذه قبل بدء درسه اليومي في الطب العام، ثم رفع طرف شرشف السرير برأس ابهامه وسبابته، كما لو كان زهرة، وكشف عن الجثة شبرا فشبرا برصانة قدسية. كان الميت عاريا تماما، متيسسا ومعوجا، عيناه مفتوحتان وجسده ازرق، وبدا كأنه كبر خمسين عاما عما كان عليه في الليلة الماضية، كانت حدقاته صافيتين، وشعر رأسه وذقنه فناربا الى الاصفر، وعلى عرض بطنه أثر جرح قديم مندمل مغطى بغرز معقودة. وكانت لصدره وذراعيه ضخامة صدر وذراعي مجذوف سفينة، وذلك للجهد الذي عليه ادائه باستخدام الفكازين. أما ساقاه الخامدتان فبدتا كساقاي يتيم. تأمله الدكتور خوفينال اوربينو للحظة بقلب يعماني ألما قلما عانى مثله خلال سنوات حربه الطويلة العقيمة ضد الموت. وقال له:

- ايها الجبان. الأسوأ كان قد إنقضى .

ثم أعاد تغطيته بالشرشف واستعاد وقاره الاكاديمي. كان قد احتفل في العام الماضي بعيد ميلاده الثمانين في احتفال رسمي دام ثلاثة ايام، وفي كلمة الشكر التي ألقاها رفض مجددا اغراء التقاعد بقوله: «سيكون لدي متسع للراحة عندما اموت، وحتى هذا الاحتمال ليس ضمن مشاريعي في الوقت الراهن». بالرغم من ان سمع اذنه اليسرى كان يضعف اكثر فأكثر، ورغم انه كان يستند على عكاز ذي قبضة فضية ليخفي تعثر خطواته، فقد تابع الظهور بالمظهر الذي كان عليه في سنوات شبابه، ببذلة كاملة من الكتان مع صدرية تقطعها سلسلة ساعة ذهبية، ولحية كلحية باستور، ذات لون صدف، وشعر له اللون ذاته، مصفف مع فرق متقن في الوسط، وكانت هذه الأمور تعبيرا امينا عن طبعه، اما تأكل الذاكرة الذي كان يقلقه اكثر فأكثر، فكان يعوضه قدر الامكان بكتابة ملاحظات سريعة على قصاصات متفرقة، ما تلبث ان تختلط في كل جيوبه، كما تختلط الادوات، وزجاجات الدواء، واشياء اخرى كثيرة في -حقيبته المتخمة. لم يكن اكبر الاطباء سنا واشهرهم في المدينة حسب، بل والرجل الاكثر تمجدا فيها. ومع ذلك، فان حكمته البينة وطريقته التي لا يمكن اعتبارها ساذجة في ادارة سلطه اسمه جعلت عدد اتباعه اقل مما يستحق.

كانت تعليقاته للمفوض والطبيب المتمرن محددة وسريعة: يجب عدم اجراء التشريح.

مراثية البيت كافية لتقرير ان سبب الوفاة هو استنشاق السيانور المتفاعل في طشت مع حامض من احماض التصوير، ولقد كان جيرميا دي سانت - آمور يعرف هذه المواد جيدا، بحيث لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك سهوا. وامام استفسار من المفوض، أوقفه الدكتور بطعنة تقليدية هي احدى حركاته المعتادة: «لا تنس اني انا من سيقع على شهادة الوفاة». اصابت خيبة الامل الطبيب الشاب: فهو لم يحظ يوما بدراسة تأثيرات سيانور الذهب على جثة. وقد فوجيء الدكتور خوفينال اورينويان الشاب لم يرد ذلك في مدرسة الطب، لكنه فهم الامر فوراً بسبب خجل الشاب السريع ولهجة الانديزنة. ربما هو حديث الوصول الى المدينة. فقال له: «ان تعدد هنا وجود مجنون في الحب يمنحك الفرصة في يوم من هذه الايام»، وعندما انتهى من الحديث فقط، ادرك انه بين عددا لا حصر له من المتحررين الذين يذكرهم، كان ذلك هو اول متحرب بالسيانور ليست تعاسة الحب هي السبب في انتحاره، عندها طرأ تبدل ما على نبرة صوته المعتادة.

قال للمتمرن:

- عندما تجده، دق جيدا. اذ يوجد رمل في قلوبهم عادة.

ثم تحدث الى المفوض كما لو كان يتحدث الى احد مرؤوسيه. امره بتجنب اية التماسات كي يتم الدفن في مساء ذلك اليوم بالذات، وبأقصى درجات النكتم. قال: «انا سأكلم العملة فيما بعد». كان يعلم ان جيرميا دي سانت - آمور قد عاش حياة تقشف بدائي، وانه كان يكسب بفنه اكثر مما يلزمه للعيش بكثير، مما يستوجب وجود مال يدعي تكاليف الدفن في أحد الادراج.

- اذا لم نجدوا المال فلا تهموا. سأتولى انا تكاليف الدفن.

وأمر باعلام الصحف ان المصور قد توفي وفاة طبيعية، رغم انه فكر بان الخبر لن يهمهم باي حال. قال: «اذا اقتضى الأمر، فسأكلم الحاكم». المفوض، الذي كان موطئا جديا وذليلا، كان يعرف ان صرامة الاستاذ المتمدن تثير حفيظة اقرب اصدقائه اليه، وكان مشدوها للسهولة التي يقفز بها فوق الاجراءات القانونية للاسراع في الدفن، والشيء الوحيد الذي لم يقتحمه هو مسألة التحدث الى الاسقف ليسمح بدفن جيرميا دي سانت - آمور في مقبرة المؤمنين. وحاول المفوض، المستاء من سفاهة ذاته، ان يعتذر، فقال:

- ما اعرفه هو ان هذا الرجل كان قديسا

وقال الدكتور اورينويو:

- بل هو شيء اشد غرابية: انه قديس ملحد. لكن هذا من شؤون الرب. بعيدا، في الجانب الآخر من المدينة الاستعمارية، سمعت نواقيس الكتدرائية تدعو الى القداس

الكبير. فوضع الدكتور اوربينو نظارته ذات القوس والاطار الذهبي على عينيه، ونظر الى ساعة السلسلة، المربعة الرقيقة، التي يفتح غطاؤها بنابض، انه يوشك ان يتخلف عن موعد صلاة العنصرة.

كان في الصالة آلة تصوير ضخمة على عجلات كتلك التي في الحدائق العامة، وستارة عليها رسم يمثل منظر شفق بحري، وكانت الجدران مغطاة بصور اطفال عليها تواريخ تذكارية: ذكرى المشاركة الاولى، التنكربقناع ارنب، عيد الميلاد السعيد، لقد رأى الدكتور اوربينو هذه الجدران وهي تتغطى تدريجيا، سنة بعد اخرى، اثناء تأمله المتروي في امسيات الشطرنج، وكان قد فكر في احيان كثيرة، مع اختلاجه كآبة، بأن في معرض صور المصادفة هذا توجد نواة مدينة المستقبل، التي ستسلس وتفسد على يد هؤلاء الاطفال المجهولين، والتي لن يبقى فيها حتى رماد مجده.

على طاولة العمل، الى جانب علبة فيها عدة غلايين محفور عليها رسوم ذئاب بحر، كانت رقعة الشطرنج وعليها دور غير مكتمل. ورغم تعجبه واكتنابه، لم يستطع الدكتور اوربينو مقاومة اغراء دراستها. كان يعلم انها لعبة الليلة الماضية، فقد كان جبرميا دي سانت - آمور يلعب مساء كل يوم من ايام الاسبوع، ومع ثلاثة خصوم مختلفين على الاقل، لكنه كان يصل دائما الى نهاية اللعب ثم يضع الرقعة مع الاحجار في علبتها، ويضع العلبة في احد ادراج المكتب. وكان يلعب بالاحجار البيضاء دوما، ولم يكن هنالك من شك في انه كان سيخسر تلك اللعبة بعد اربع حركات اخرى دون مفر. وقال لنفسه: «لو كان ثمة جريمة، لكان هذا دليلا جيدا. فانا لا اعرف سوى شخص واحد قادر على نصب مثل هذا الكمية المثقن». ما كان بمقدوره العيش دون ان يبحث فيما بعد عن السبب الذي جعل ذلك الجندي الجامح، المعتاد على الصراع حتى اخر قطرة دم، يتخلى عن المعركة الاخيرة في حياته دون حسمة.

في الساعة السادسة صباحا، وفيما الحارس الليلي يقوم بجولته الاخيرة، رأى الورقة المثبتة على الباب الخارجي: ادخل دون طرق الباب واتصل بالشرطة. بعد ذلك بقليل هرع مفوض الشرطة مع طالب الطب المتمرن، وقاما كلاهما بتفتيش البيت بحثا عن دليل ضد رائحة اللوز المر التي لا يمكن اخفاؤها. واثناء الدقائق القليلة التي استغرقتها دراسة دور الشطرنج غير المنتهي، اكتشف المفوض بين الاوراق التي على المكتب مغلفا موحها الى الدكتور خوفيسال اوربينو، مختوما بعدة اختام من الشمع الاحمر، مما جعل تمزيقه ضروريا لاجراج الرسالة منه. ازاح الطبيب الستارة السوداء عن النافذة ليحصل على انارة افضل، ثملقى اول الامر نظرة سريعة على الاحدى عشرة ورقة المكتوبة بخط انيق على الوجهين،

ومع قرأ الفقرة الاولى ادرك انه قد تخلف عن صلاة العنصرة . قرأ بنفس مضطرب ، عائدا الى ما قرأه في عدة صفحات ليمسك مجددا بالخيط المفقود ، وعندما انتهى ، بدا وكأنه يرجع من مكان قصي وزمان سحيق . كان هموده باديا ، رغم اجتهاده للتحليولة دون ذلك : كانت شفتاه بلون الجشة الازرق ذاته ، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف اصابعه عندما اعاد طي الرسالة وادعها جيب صدرته . عندئذ تذكر وجود مفوض الشرطة والطبيب الشاب ، فابتسم لهما من خلال غلالة الاسي وقال :

- لا شيء يستحق الذكر . انها تعليقاته الاخيرة .

كان هذا نصف الحقيقة ، لكنها اعتقدا انها الحقيقة الكاملة ، لانه امرها بانتزاع بلاطة مخملخة في الارضية ، حيث وجدا دفتر حسابات مستعملا كثيرا ، وفيه كانت رموز فتح صندوق الخزنة ، لم تكن هناك نقود كثيرة كما توهموا ، لكن ما وجدوه كان يزيد عن تكاليف الدفن وتسديد التزامات اخرى ضئيلة الشأن . كان الدكتور اوربينو مدركا حينئذ انه لن يتمكن من الوصول الى الكندرائية قبل القداس . فقال :

- انها المرة الثالثة التي تخلف فيها عن قداس الاحد ، مذ بلغت سن الرشد . لكن الله يتفهم .

وهكذا فضل البقاء بضع دقائق اخرى ليحل جميع التفاصيل ، رغم انه لم يكن قادرا على احتمال شوقه لاطلاع زوجته على مضمون الرسالة . وعد بان يخبر لاجئي الكاريبي الكثيرين الذين يعيشون في المدينة ، كي يحضروا ان كانوا يودون تقديم تكريمهم الاخير للاجيء الذي كان الاكثر احتراما في سلوكه ، والاكثر فعالية وجدية ، حتى بعد ان تبين بجلاء سقوطه في احابيل خيبة الامل . وسيخبر ايضا زملاءه لاعبي الشطرنج ، الذين كانوا يتفاوتون من مهنيين مشهورين وحتى عمال بلا اسم ، اضافة الى اصدقاء آخرين اقل مواظبة ، لكنهم ربما يودون حضور الجنازة . قبل ان يعرف بامر رسالة الموت ، كان قد قرر ان يكون اول الحاضرين ، لكنه بعد قراءتها لم يعد متأكدا من شيء . انها سيبعث على اية حال اكليل ياسمين ، فربما يكون جيرميا دي سانت - امور قد عانى لحظة اخيرة من الدم . سيتم الدفن في الخامسة ، فهي الساعة المناسبة في شهر الحر الشديد . واذا ما احتاجوه لشيء فسيجدونه منذ الساعة الثانية عشرة في البيت الريفي الخاص بالدكتور لاثيديس اوليفيا ، تلميذه النجيب ، الذي سيقوم في ذلك اليوم وليمة غداء احتفالا بوييله الفضي في المهنة . كان للدكتور خوفينال اوربينو نمط بسيط من العادات يشعها منذ انقضت سنوات السلاح المضطربة الاولى ، واحرز لنفسه مكانة وسمعة لا مثيل لهما في كل المقاطعة . كان يستيقظ مع الديوك الاولى ، ويبدأ في هذه الساعة بتناول ادويته السرية : برومور الوتاسيوم

لبعث النشاط، وملح السليسين لآلام العظام في أيام المطر، وطحالب السلت للاغماء، وحشيشة البلادونا للنوم الهادئ. كان يتناول شيئا في كل ساعة، ودائما في الخفاء، لانه في حياته الطويلة كطبيب واستاذ كان دوما ضد اعطاء الوصفات المخففة لآلام الشيخوخة: كان احتمال آلام الآخرين أسهل عليه من احتمال آلامه. وكان يحمل في جيبه دائما وسادة مشبعة بالكافور يستنشقاها بعمق حين لا يكون ثمة من يراه، لينزع عن نفسه الخوف من كل هذه الادوية المختلطة.

كان يبقى في مكتبه مدة ساعة، لتحضير درس الطب العام الذي واظب على القائه في مدرسة الطب كل يوم من ايام الاسبوع، من الاثنين الى السبت، في الساعة الثامنة تماما، حتى اليوم الذي سبق موته. كما كان قارئا مطلقا على المستجدات الادبية التي يزوده بها بالبريد المكتبي الذي يتعامل معه في باريس، اوتلك التي يوصي له عليها من برشلونة وكيله المكتبي المحلي، رغم انه لم يكن يتابع آداب اللغة الاسبانية بنفس الاهتمام الذي يتابع به الأدب الفرنسي، ولم يكن على اي حال يقرأ تلك الكتب ابدا في الصباح، وانما لساعة بعد قيلولة، وفي الليل قبل ان ينام. اما بعد الانتهاء من تحضير الدرس في المكتب، فكان مارس تمرينات التنفس لمدة ربع ساعة في الحمام، مقابل النافذة المفتوحة، متنفسا دوما باتجاه الجهة التي تصدح منها الديكة، حيث الهواء النقي هناك. بعد ذلك يستحم، ويشذب لحيته ويصمغ شارب به مستحضر مشبع بكولونيا فارينا غيغينر الاصلية، ثم يلبس بدلة الكتان البيضاء مع صدرية وقبعة لينة، وحذاء من جلد الماعز. انه يحتفظ وهو في الثمانين من العمر بالتقاليد البسيطة والروح الاحتفالية التي رجع بها من باريس، بعد جائحة داء الكوليرا الكبرى بقليل. وما زال شعره المسرح جيدا مع فرق في الوسط كما كان في شبابه، لولا اللون المعدني الذي طرا عليه. كان يتناول فطوره مع العائلة عادة، لكنه يتبع ريجيما خاصا: يتناول شراب زهر الافستين، لراحة المعدة، ورأس ثوم يقوم بتقشير فصوصه واحدا واحدا ويمضغها بتمهل مع قطعة خبز، وذلك لتفادي احتشاءات القلب، ونادرا ما يكون متحررا بعد درسه اليومي من التزام مرتبط بمبادراته التمدنية، أو التزامه الكاثوليكي، او بابتكاراته الفنية والاجتماعية.

كان يتناول الغداء في بيته دوما، ثم ينام قيلولة من عشر دقائق وهو جالس على منصة الفناء، مستمعا في نومه الى اغنيات الخادما تحت اشجار المانغا، ومصغيا الى نداءات الباعة في الشارع، وصخب المحركات في الميناء، الذي تفرح روائحه مرفرفة في جو البيت في الامسيات الحارة كانها ملاك محكوم بالتعفن. ثم يقرأ بعد ذلك لمدة ساعة في الكتب الجديدة، وخصوصا الروايات والدراسات التاريخية، وبعد ذلك يلقن دروس اللغة الفرنسية والغناء

للبغاء الداجنة التي صارت منذ سنوات محطاً للعجاب المحلي . وفي الساعة الرابعة يخرج لعيادة مرضاه ، بعد ان يتناول ابريقا كبيرا من الليمونادة مع الثلج . ورغم تقدمه في السن ، كان يرفض استقبال مرضاه في العيادة ، ويصر على مواصلة علاجهم في بيوتهم ، كما فعل ذلك دائما ، مذ كانت المدينة محدودة يمكن الذهاب الى اي مكان فيها مشيا على الاقدام . عندما جاء من اوربا لأول مرة ، كان يستخدم عربة الخيول الخاصة بالعائلة ، والتي يقودها حصانان اشقران ذهبيان ، وحين لم تعد هذه العربة صالحة للاستعمال ، استبدلها بعربة من نوع فيكتوريا يقودها حصان واحد ، واستمر في استخدامها على الدوام مع ابداء بعض الازدراء للموضة ، عندما اخذت العربات بالاختفاء من الدنيا والعربات الوحيدة التي بقيت في المدينة كانت تستخدم لنزهة السياح ولحمل الاكالييل في الجنائز فقط . ومع انه كان يرفض الاعتزال ، فقد كان مدركا انهم لا يستدعونه الا لمعالجة حالات ميؤوس منها ، لكنه كان يرى في ذلك ايضا نوعا من التخصص ، كان قادرا على معرفة ما يعانيه المريض من مظهره فقط ، وكان يفقد ثقته اكثر فأكثر في الادوية المرخصة وينظر بذهول الى تعميم الجراحة ، ويقول : « ان الموضع هو اكبر دليل على فشل الطب » . وكان يفكر ان كل دواء اذا ما رايناه بمقياس دقيق هوسم ، وان سبعين بالمئة من الاطعمة العادية تعجل في الموت . وقد اعتاد ان يقول في درسه : « الادوية القليلة المعروفة على اي حال ، لا يعرفها الا بعض الاطباء » . وانتقل من حامية الشباب الى موقع كان هو نفسه يعرفه على انه موقع انساني جبري : « كل امرئ هو سيد موته ، والشيء الوحيد الذي بالامكان عمله عندما تحين الساعة ، هو مساعدته على الموت دون خوف او ألم » . ورغم هذه الافكار المتطرفة ، والتي كانت تشكل جزءا من الفلكلور الطبي المحلي ، فان تلاميذه القدماء ما زالوا يستشيرونه حتى بعد ان اصبحوا اطباء راسخين في المهنة ، اذ كانوا يعترفون له بتلك التي كانت تسمى حينئذ النظرية الطبية ، ولقد كان دوما طبيبا غالبا واستثنائيا ، وكان زبائنه يسكنون البيوت الفاخرة في حي الفيريس .

كان يقوم بجولة منهجية منتظمة لدرجة ان زوجته كانت تعرف الى اين تبعث في طلبه اذا ما طرأ شيء مستعجل خلال جولته المسائية . وفي شبابه كان يتأخر في مقهى الباروكية قبل ان يرجع الى البيت ، وهكذا اتقن لعب الشطرنج مع شركاء حماء ومع بعض لاعبي الكاريبي ، لكنه منذ مطلع القرن لم يعد الى مقهى الباروكية وحاول تنظيم دوري وطني في الشطرنج تحت رعاية النادي الاجتماعي ، وكان في هذه الفترة ان جاء جيرميا دي سانت - آمور ، بركتيه الميتين وبلا مهنة تصوير الاطفال في ذلك الحين ، وقبل انقضاء ثلاثة اشهر كان معروفا لكل من يحسن تحريك فيل على رقعة شطرنج ، لان احدا لم يتمكن من كسب جولة منه . لقد كان

بالنسبة للدكتور خوفينال اوربينو لقاء معجزة، في وقت اصبحت لعبة الشطرنج لديه هوى لا حدود له ولم يعد هناك خصوم كثيرون يشبعون رغبته في اللعب.

وبفضله، امكن لجيرميا دي سانت - أمور ان يصبح ما آل اليه بيننا . لقد اصبح الدكتور اوربينو حاميه اللامشروط، وكفيله في كل شيء، حتى دون ان يتكلف مشقة التقصي عمن هو، او عما يفعله، او من اية حرب بلا امجاد جاء بتلك الحالة من العجز والعطل . ثم اقترضه اخيرا المال لاقامة محل التصوير، هذا المال الذي سدده جيرميا دي سانت - أمور بصرامة حبال، حتى آخر كواريتو، مذ صور أول طفل مرتعد من بريق المغنيزيوم .

كل ذلك كان بسبب الشطرنج . كانا يلعبان اول الامر في الساعة السابعة ليلا، بعد العشاء وكان في ذلك متعة اكيدة للطبيب بفعل التفوق البارز للخصم ؛ ولكن المنفعة اخذت تتناقص في كل مرة، الى ان تساويا . وفيها بعد، حين افتتح دون غاليليو داكوتي اول فناء سينما، واصبح جيرميا دي سانت - أمور واحدا من الزبائن المداومين، اقتصر لعب الشطرنج على الليالي التي لا تعرض فيها افلام جديدة . وكان قد اصبح صديقا حميما للطبيب في ذلك الحين، فكان هذا يرافقه الى السينما، انما بدون زوجته دوما، ذلك انما لا تطيق متابعة خيط القصص المعقدة من جهة، ولان جيرميا دي سانت - أمور بدا لها من جهة اخرى، وبخاصة الشم وحدها، انه ليس بالرفيق الصالح لاحد .

يومه المختلف كان يوم الاحد . ففيه يذهب لحضور القداس الكبير في الكاتدرائية، ثم يعود الى البيت ويلبث هناك للراحة والقراءة على مصطبة الفناء . ونادرا ما كان يخرج لعيادة مريض في ايام اعتكافه، ما لم تكن الحاجة ماسة الى ذلك، ولم يعد يقبل منذ عدة سنوات اي التزام اجتماعي الا اذا كان اضطراريا . في يوم العنصرة ذاك، وبمصادفة استثنائية، وقعت حادثتان غريبتان : وفاة صديق والاحتفال باليوبيل الفضي لتلميذ بارز . ومع ذلك، فانه بدلا من العودة الى البيت دون تأخر، كما كان مقررا بعد ان ثبتت وفاة جيرميا دي سانت - أمور، ترك لنفسه ان تنقاد وراء الفضول .

ما ان صعد الى العربة حتى قام بمراجعة سريعة لرسالة الميت، ثم امر الحوزي بايصاله الى عنوان صعب في حي العبيد القديم . لقد كان ذلك القرار غريبا على عاداته، مما جعل الحوزي يرغب بالتأكد من انه لا يوجد ثمة خطأ . لم يكن هنالك من خطأ : العنوان كان واضحا، ومن كتبه لديه اسباب كافية لمعرفة جيدا . عندئذ عاد الدكتور اوربينو الى الصفحة الاولى، وغرق ثانية في ذلك المورد من الاعترافات غير المرغوب فيها والتي بامكانها تغيير مجرى حياته، حتى وهو في هذه السن، اذا ما استطاع اقناع نفسه بانها ليست هذيان شخص يائس .



أخذ مزاج السماء يتبدل منذ الصباح الباكر، كان مغنياً وبارداً، انما لم تكن هناك مخاطر هطول مطر قبل منتصف النهار وفي محاولة لايجاد طريق اقصر، دخل الجودي في ازمة المدينة الاستعمارية المرصوفة بالحجارة، واضطر للتوقف مرات عديدة كي لا يحفل الحصان من فوضى طلبة المدارس والجماعات الدينية العائدة من قداس العنصرة كانت في الشارع اكاليل مصنوعة من اوراق ملونة، وموسيقى وازهار، وفتيات يحملن مطلات ملونة ويلبسن كشاكش المسلمين ويتأملن مرور الاحتفال من الشرفات وفي ساحة الكندرائية، حيث لم يكن ممكناً تمييز شمال بطل التحرير بين اشجار النخيل الافريقية واعمدة النور الحديدية ذات المصابيح الالبصورية، كان ازدحام السيارات على اشده بسبب الخروج من الصلاة. ولم يكن هناك موطيء قدم في مقهى الباروكية المحتشم والصاحب كانت عربة الدكتور اوربيو هي عربة الحيل الوحيدة وكانت تتميز عن العربات الاخرى القليلة المثقبة في المدينة باحتمالها الدائم بريق غطائها الجلدي وياجزائها المعدنية المصنوعة من البرونز حتى لا يجعلها ملح البارود تتآكل، وكانت عجلاها ودعائمها الخشبية مطلية باللون الاحمر مع خطوط ذهبية، كما هي العربات في ليالي الحفلات في اوبرا فينا. اضاف الى ذلك ان اكثر العائلات حبا للمظاهر كانت تكنفي بان يكون قميص الجودي في عرباتها نظيفاً، بينما تابع هو مطالبة جودي عربته بارتداء بدلة الجودي المخملية الداوية وقبعة مروضي السيرك، التي فضلاً عن كونها زياً قديماً مهجوراً، كانت تنم عن تقليد غاشم في قبيظ منطقة الكاريبي.

ورغم هوسه الجنوني بالمدينة، ومعرفته بها خيراً من سواء، فقليلاً ما وجد الدكتور اوربيو سبباً كسب يوم الاحد ذاك للمغامرة دون تحفظ في فوضى حي العيد. وقد اضطر الجودي للقيام بالتعافيات عديدة والسؤال مرات ومرات للوصول الى العنوان المقصود. لقد تعرف الدكتور اوربينو عن قرب على كآبة المستنقعات، وصمتها المل، وفسواتها التي كريخ الغرين، والتي كانت تصعد في فجر ايام كثيرة حتى مخدعه مختلطة برائحة ياسمين الفناء، وكان يحس بها تمر كما لو انها ريح اليوم الفائت وليس لها اي شأن في حياته. لكن تلك العفونة التي احتفظ منها بتصور مثالي بفعل الحنين تحولت الى واقع لا يطاق ما ان بدأت العربية تتقافز في وحل الشوارع، حيث تتنازع طيور الرخمة بقايا المسلخ التي يدفعها البحر الى مدخل الميناء. وعلى العكس من مدينة الفيريس، المبنية بيوتها من الحجر، كانت البيوت هنا مشادة من اخشاب كالحة وسقوف من التوتياء ومعظمها يستقر فوق دعائم خشبية للحيلولة دون تسرب مجاري التصريف المتعاظمة والمكشوفة، المورثة عن الاسبان. كل شيء كان يبدو بائساً ومهجوراً، لكن قصف موسيقى جوقة عنصرة الفقراء كان يخرج من الحانات القدرة بلا رب

ولا قانون . وعندما وجدا العنوان اخيرا ، كانت تلمح بالعربة عصابة اطفال عراة يسبحون من زينة الحوذي المسرحية ، وكان على هذا ان يفزعهم بالسوط ليعتدوا . اما الدكتور اورينو ، الذي هيا نفسه لزيارة سرية ، فقد ادرك بعد فوات الاوان انه لا سذاجة اشد خطورة من السذاجة في سنه .

لم يكن في مظهر البيت الخارجي ما يميزه عن البيوت الاقل حظا ، سوى النافذة ذات الستارة المخرمة وبوابة منتزعة من كنيسة قديمة . طرق الحوذي مقرعة الباب ، وعندما تأكد من صحة العنوان ، ساعد الطبيب على النزول من العربة . كانت البوابة قد فتحت دون ضجة ، وفي العتمة الداخلية كانت تقف امرأة ناضجة ، متشحة بالسواد المطلق وتضع وردة على اذنها . ورغم سنوات عمرها ، التي لم تكن اقل من الاربعين ، فانها ما زالت تبدو خلاسيه شاحخة ذات عيين ذهبيتين قاسيتين ، وشعر مثبت على شكل الرأس وكأنه خوذة من القطن الحديدي . لم يعرفها الدكتور اورينو ، رغم انه قد رآها عدة مرات في شرود ادوار الشطرنج في محل المصور ، وقد وصف لها في احدي المناسبات اوراق الكينا من اجل الحمى الثلاثية ، مد يده اليها ، فتناولتها بين يديها ، ليس لمصافحته وانما لمساعدته على الدخول . كانت الصالة تعمق براثة وهسيس ايكلة لامرية ، وكانت مليئة باثاث واشياء مورة باتقان ، كل شيء في مكانه الطبيعى . فتذكر الدكتور اورينودون مرارة دكان بائع عاديات في باريس ، في يوم اثنين خريفى من ايام القرن الماضي ، في ٢٦ شارع مونتمارت .

جلست المرأة مقابله وحدته باسبانية ركيكة قائلة :

- اعتبر نفسك في بيتك يا دكتور . لم اكن انتظرك بمثل هذه السرعة .

احس الدكتور اورينويانه مكشوف . دقق فيها بقلبه ، دقق في حدادها الكثيف ، في وقار كاتبها ، وفهم عندئذ ان زيارته تلك بلا فائدة ، لانها كانت تعرف اكثر منه بكل ما هو وارد وممرر في رسالة جيرميا دي سانت - أمور . وهكذا كان . لقد رافقته حتى ساعات قليلة قبل موته ، كما رافقته خلال ما يقرب من عشرين سنة بولاء ورقة منقادة اليه بها يشبه الحب ، ودون ان يعرف ذلك احد في عاصمة الاقليم الناعسة هذه ، حيث اسرار الدولة ذاتها كانت مشاعة . لقد تعارفا في مشفى للعابرين في بورت - او- برنس ، حيث ولدت هي ، وحيث امضى هوسنواته الاولى كهارب ، ثم لحقت به الى هنا بعد سنة في زيارة قصيرة ، مع انها كلاهما كانا يعلمان دون اتفاق مسبق بانها جاءت لتبقى الى الابد ، كانت تتولى تنظيف وترتيب مخبر التصوير مرة في الاسبوع ، لكن أسوأ الجيران تفكيرا ما كانوا يخلطون الظاهر بالحقيقة ، لانهم كانوا يفترضون مثل كل الناس ان عاهة جيرميا دي سانت - أمور ليست في المشي فقط . وحتى الدكتور اورينو ذاته كان يفترض ذلك لاسباب طبية راسخة تماما ، ولم

يظن يوما ان تكون له امرأة لولم يكشف له ذلك في الرسالة . غير انه لم يستطع ان يفهم كيف ان كائنين راشدين وحريين وبلا ماض ، على هامش اهتمامات مجتمع غارق في شؤونه ، قد اختارا نكبة الحب المحرم . وشرحت له ذلك : «كانت تلك هي رغبته» . ثم ان تقاسمها السرية مع رجل لم يكن رجلها تماما في يوم من الايام ، وتعرفها اثناء ذلك على انفجارات السعادة الفورية اكثر من مرة ، لم يكن ليبدو لها بالوضع غير المرغوب فيه ، بل على العكس : ربما ان الحياة اثبتت لها بان تلك هي الطريقة النموذجية .

لقد ذهب الليلة الماضية الى السينما ، كل منهما بمفرده ، وجلسا في مقعدين منفصلين ، كما يفعلان مرتين في الشهر على الاقل مذ اقام المهاجر الايطالي دون غاليليو داكونتي صالة السينما المكشوفة في اطلال دير من القرن السابع عشر . ورأيا فلما مأخوذا عن كتاب كان رالجا في العام الفات ، وكان الدكتور اوربينو قد قرأه بقلب مكروب لبربرية الحرب : لا جديد في الجبهة . ثم اجتمعا بعد ذلك في المخبر ، وهناك وجدت انه يقاسي التشتت والحنين ، وفكرت ان ذلك بتأثير المشاهد القاسية للجرحى المحتضرين في الوحل . فحاولت تسليته بدعوته الى لعب الشطرنج ، وقد وافق ليرضيها ، لكنه كان يلعب دون تركيز ، بالقطع البيضاء طبعاً ، الى ان اكتشف قبلها انه سيهزم بعد اربع حركات اخرى ، فاستسلم بلا كبرياء . حينئذ ادرك الطبيب ان خصم اللعبة الاخيرة كان هذه المرأة وليس الجنرال خير ونيموارغوتي ، كما افترض . فتمتم مدهوشا :

- انها لعبة متقنة ! .

فأصرت بان لا فضل لها في ذلك ، وان جيرميا دي سانت - أمور الهائم في ضباب الموت ، كان يحرك الاحجار دون حب ، وعندما اوقف اللعب ، في حوالي الساعة الحادية عشرة والربع ، كانت موسيقى حفلات الرقص العامة قد توقفت ، فطلب منها تركه وحيدا . كان يريد كتابة رسالة الى الدكتور اوربينو ، الذي يعتبره اكثر الرجال الذين عرفهم وقارا ، اضافة الى كونه صديق الروح ، كما كان يجب ان يقول ، رغم ان التشابه الوحيد بينهما هو ادمانها لعبة الشطرنج على انها حوار للعقل وليست علما . عندئذ عرفت ان جيرميا دي سانت - أمور قد وصل الى نهاية الاحتضار ، وانه لم يبق له في الحياة الا ما يكفي لكتابة الرسالة . لم يستطع الطبيب تصديقها ، فهتف :

- كنت تعلمين اذن ! .

فأكدت بانها لم تكن تعلم فقط ، وانما ساعدته ايضا على تجاوز الاحتضار بنفس الحب الذي ساعدته به على اكتشاف السعادة . لان الشهور الاحد عشر الاخيرة في حياته كانت احتضارا قاسيا .

قال الطبيب :

- كان واجبك ان تبليني عنه .

فقالت مستنكرة :

- انا لا استطيع فعل ذلك . . كنت احبه كثيرا .

الدكتور اوربينو، الذي كان يعتقد بانه سمع بكل شيء في الدنيا، لم يسمع ابدا في حياته شيئا من هذا القبيل، يجري الاعلان عنه بكل هذه البساطة، نظر اليها بحواسه الخمس وجها لوجه ليثبتها في ذاكرته كما هي في تلك اللحظة : كانت تبدو وكأنها إله طاف، متمسكة في ثوبها الاسود، بعينيها اللتين كعيني افعى والوردة التي على اذنها . منذ سنوات بعيدة، وعلى شاطئ متوحد من شواطئ هايتي، حيث كانا يرقدان عاريين بعد الحب، قال لها جرميا دي سانت - آمور وهو يتهد فجأة : «لن اصبر كهلا ابدا» . وقد فهمت هي ذلك على انه نية بطولية للنضال دون هوادة ضد نكبات الزمن، لكنه اوضح قصده اكثر : كان لديه تصميم حاسم على وضع حد لحياته في السبعين .

لقد اتمها في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني للعام الحالي، فحدد حيثث عشية عيد العنصرة كموعدها اخير، لانه اعظم اعياد المدينة المكرسة لعبادة الروح القدس . لم يكن هناك تفصيل من تفاصيل الليلة الماضية لم تكن قد عرفت مسبقا، فكثيرا ما كانا يتحدثان في ذلك، مكابدين معا سيل الايام الجارف الذي لن يستطيع اي منها إيقافه . كان جرميا دي سانت - آمور يحب الحياة بعاطفة مبهمة، كان يحب البحر والحب، يحب كلبه ويحبها، وكلما اقترب اليوم الموعود كان يهوي اكثر فأكثر في اليأس، كما لو ان موته لم يكن قرارا ذاتيا وانما قدرا حتميا .

قالت :

- عندما تركته وحيدا في الليل، لم يكن من اهل هذه الدنيا .

كانت تريد اخذ الكلب معها، لكنه تأمله وهو يغفو بجانب العكايزين وداعبه باطراف اصابعه، وقال : «اسف، لكن مستر وودرويلسون سيمضي معي» . طلب منها ان تربطه بقائمة السرير فيها هو يكتب، وفعلت ذلك بعقدة زائفة ليتمكن الكلب من الافلات، وكان هذا هو العمل الوحيد الذي قامت به دون احلاص، وقد بررت برغبتها في الاستمرار بتذكر السيد من خلال عيني كلبه الشنوتيتين . لكن الدكتور اوربينو قاطعها ليخبرها بان الكلب لم يفلت . فقالت : «ذلك لانه لم يشأ الافلات اذن» . وفرحت، لانها تفضل ان تتذكر الحبيب الميت كما طلب هو منها في الليلة السابقة، عندما قطع كتابة الرسالة التي كان قد بدأها ونظر

اليها للمرة الاحيرة، وقال:

- تذكريني بوردة.

كانت قد وصلت الى بيتها بعد منتصف الليل بقليل. استلقت لتدخن في السرير وهي بملابسها، واخذت تشعل سيجارة من عقب الاخرى متيحة له الوقت ليكمل الرسالة التي كانت تعلم انها طويلة وشاقة، وقبيل الثالثة بقليل، عندما بدأت الكلاب تنبح، وضعت الماء على النار لتصنع القهوة، وارتدت ملابس الحداد السوداء وقطفت من الفناء اول وردة من وردات الفجر، لقد تنبه الدكتور اوربينو قبل ان يقرر هجر ذكرى تلك المرأة التي لا تفقدى، وظن انه يعرف السبب: بامكان انسان بلا مبادئ فقط ان يتجاوب الى هذا الخدم مع الألم. تابعت تقديم حججها له حتى نهاية الزيارة: لن تذهب الى الجنائزة، لانها وعدت الحبيب بذلك، رغم ان الدكتور اوربينو اعتقد انه فهم عكس هذا في احدى فقرات الرسالة. ولن تسفح دمعة واحدة، ولن تهدر ما تبقى لها من سني الحياة بطبخ نفسها على نار هادئة في مرق الذكري، ولن تدفن نفسها في الحياة لتجهز كفنها بين هذه الجدران الاربعة كما هي العادة المفضلة للنساء الوطنيات. كانت تفكر ببيع بيت جبرميا دي سانت - أمور، الذي اصبح بكل محتوياته ملكا لها منذ الآن كما هو وارد في الرسالة، وستابع العيش كما عاشت دائما دون ان تشكوشيا في مائة الفقراء هذه التي عاشت فيها سعيدة.

لاحقت تلك العبارة الدكتور خوفينال اوربينو وهو في طريق العودة الى بيته: «محنة الفقراء هذه». انه ليس بالتعبير المجاني. فالمدينة، مدينته، ما زالت على هامش الزمن كما كانت: نفس المدينة الملتهية والقاحلة بمخاوفها الليلية ولمذات البلوغ المتوحدة، حيث تصدأ الازهار ويفسد الملح. المدينة التي لم يصبها شيء خلال اربعة قرون سوى الهرم البطيء ما بين شجيرات الغار الذابلة والمستنقعات المتعفنة. في الشتاء، امطار فجائية ومخرقة تجعل المراحيض تفيض وتحول الشوارع الى برك وحل نتن. وفي الصيف، غبار لا مرئي، خشن كطباشير حمراء متقدمة، يتسرب حتى من اكثر فجوات الخيال احكاما، هائجا برياح مجونة تنتزع سقف البيوت وتحمل الأطفال في الهواء. وفي ايام السبت، تغادر جماعات المولدين الفقراء بصخب اكواخ الكرتون والصفائح القائمة على ضفاف المستنقعات، مع حيواناتهم الداجنة وامتعة اكلهم وشربهم الرخيصة، ويحتلون بهجوم مرح الشواطىء الحصوية في القطاع الاستعماري. وقد كان بعضهم، بين اكبرهم سنا، يحملون حتى سنوات قليلة وسم العبيد الملكي، مطبوعا بالحديد المحمى على الصدر. وكانوا يرقصون في نهاية الاسبوع بلا رحمة، ويسكرون حتى الموت بكحول مقطر في البيوت، ويهارسون الحب الحزين خائلا

الايكاسكو، وفي منتصف ليل الاحد يجزبون مهرجاناتهم بمشاجرات دامية يخوضونها جميعهم ضد جميعهم . اتهم الناس المندفعون انفسهم الذين يتسربون في بقية ايام الاسبوع الى ساحات وازقة الاحياء القديمة، بعربات محملة بكل ما يمكن شراؤه وبيعه، ويثبون في المدينة الميتة جنون مهرجان بشري له رائحة السمك المقلي: حياة جديدة .

ان الاستقلال عن السيطرة الاسبانية، ثم الغاء الرق بعد ذلك، قد عجلا بحالة الانحطاط المشرف التي ولد وترعرع فيها الدكتور اوربينو. حيث كانت عائلات الزمن الغابر العظيمة تفرق بصمت في قصورها المجردة من الالفة . اما في تفرعات الشوارع المرصوفة التي قاومت بفاعلية عالية مفاجآت الحروب وانزالات القراصنة، فكانت الشجيرات الملتفة تندلى من الشرفات وتفتح صدوعا في جدران الجير والحجر حتى في البيوت التي ما زالت في حالة حسنة، وعلامة الحياة الوحيدة في الساعة الثانية ظهرا هي تمارين البيانو الخافتة في عتمة القيلولة . كانت النساء تحتن من الشمس في غرف النوم الباردة والمشبعة بالبحور كاحتائهن من عدوى فاحشة، بل ويغطين وجوههن بالطرحة في صلوات الفجر، وكن يارسن جبهن ببطء وصعوبة، وغالبا ما تعكر هذا الحب خواطر مشؤومة، فيها الحياة تبدو لهن امرا لا نائيا . وعند المغيب، في وقت ازدحام حركة المرور، تنطلق من المستنقعات عاصفة من البعوض السفاح، وموجة خفيفة من بخار السطح البشري الحار والكثيب، مثيرة في اعماق النفس قلق الموت .

ان حياة المدينة الاستعمارية، التي اعتاد خوفينال اوربينو الشاب رسم صورة مثالية لها في لحظات حنينه الباريسية، لم تكن حينئذ الا وهما من اوهام الذاكرة . لقد كانت اكثر مدن الكاريبي ازدهارا في القرن الثامن عشر، خصوصا بامتيازها كأكبر سوق للرقيق الافريقي في الامريكيتين، وكونها مقر اقامة حكام مملكة غرناطة الجديدة، الذين كانوا يفضلون مزاوله شؤون الحكم من هنا، مقابل اقيانوس العالم، بدلا من العاصمة البعيدة والمتجمدة، التي تشوش الحس الواقعي بمطرها الازلي . وكانت تتجمع فيها عدة مرات في السنة اساطيل السفن المحملة بكنوز بوتوسي، وكيثو، وفيراكروث، وكانت المدينة تعيش سنوات مجدها في ذلك الحين . وفي يوم الجمعة، الثامن من حزيران ١٧٠٨، في الساعة الرابعة مساء، جرى اغراق السفينة سان خوسيه التي كانت قد ابهرت لثوها باتجاه قادش وعلى متنها محاولة من الاحجار والمعادن الثمينة قيمتها نصف مليون بيزو من عملة ذلك الزمن، اغرقها اسطول انكليزي مقابل مدخل الميناء، ولم يكن قد جرى استخراجها بعد مرور اكثر من قرنين على غرقها . ولقد كان من عادة المؤرخين ان يذكروا تلك الثروة القابعة في القيعان المرجانية، مع جثة القبطان الطافية على جنبها في مقر القيادة، كرمز للمدينة الغارقة في الذكريات .

. في الحاناب الآخر من الخليج، في حي لامانعا السكني، كان منزل الدكتور خوفينال اوربينو في زمن آخر. انه بيت فسيح وبارد، مؤلف من طابق واحد، ورواق اعمدة متتالية في المنصة الخارجية، المطلة على مستنقع الابخرة العفنة وركام السفن الغارقة في الخليج. كانت ارضية البيت مرصوفة ببلاط شطرنجي، أبيض واسود، من المدخل وحتى المطبخ، وكثيرا ما عُزي هذا الى هوى الشطرنج الذي يسيطر على الدكتور اوربينو، دون تذكر انه كان ضعفا عاما من جانب البنائين الكتالانيين الذين شادوا في بدايات القرن حي محدثي النعمة ذلك. كانت الصالة فسيحة، وسقفها عال جدا كما هوي بقية البيت، ولها ست نوافذ واسعة تطل على الشارع، وكانت منفصلة عن غرفة الطعام بباب زجاجي صخم ومزين بفروع دالية وعناقيد وفتيات فانتازات يحملن نايات آلهة الحقول في غابة من الر ونز. اثاث حجرة الاستقبال، بما في ذلك ساعة البندول التي لها شكل حارس حي في الصالة، كان كله اثاثا انكليزيا اصيلا من اواخر القرن التاسع عشر. والمصاييح المعلقة كانت من قطع كريستال صخري، وكانت هنالك في كل الانحاء اصص ومزهريات من سيفريس وثماثيل آلهة من الرخام المعرق. لكن ذلك التناقض الاوروبي كان مفقودا في بقية اجزاء البيت، حيث ارائك، الخيزران تختلط مع كراس هزازة من فينا ومقاعد جلدية من الصناعة اليدوية المحلية. وفي غرف النوم، كانت توجد اضافة الى الاسرة، شباك نوم معلقة رائعة من سان خاينتو مطرز عليها بخيوط حريرية اسم صاحب البيت بحروف قوطية، وكانت حوافها محاطة بهدايا ملون. اما الردهة المصممة في الاصل من اجل حفلات العشاء، الى جوار صالة الطعام، فقد استخدمت كصالة موسيقى صغيرة تقام فيها حفلات موسيقية للخاصة عندما يحضر عازفون شهير ون. وقد جرت تغطية البلاط بالسجاد التركي المشتري من معرض باريس الدولي لتعميق الصمت في جو البيت. وكان هناك فونوغراف من طراز حديث الى جانب رف عليه اسطوانات حسنة الترتيب. وكان البيانو الذي لم يعزف عليه الدكتور اوربينو منذ سنوات يقبع في احد الاركان مغطى بشرشف من مانيتا. وفي سائر ارجاء البيت كان يظهر حرص وحكمة امرأة راسخة الاقدام في الارض.

لم يكن هنالك في البيت، رغم ذلك، مكان يكشف جلال المكتبة المرتبة، والتي كانت هيكل الدكتور اوربينو قبل ان تقوده الى الشيخوخة. فهناك، وحول طاولة خشب الجوز الخاصة بوالده، ورائك الجلد الوثيرة، جدران مغطاة حتى النوافذ بحزائن ذات رفوف وابواب زجاجية، رتب فيها بنظام شبه جنوبي ثلاثة آلاف كتاب متماثلة مجلدة بهجلد عجل وعلى عقبها الحروف الاولى من اسمه مكتوبة بهاء الذهب. وعلى عكس الحجرات

الآخري، التي كانت تحت رحمة صخب وروائح الميناء الكريهة، كانت المكتبة تنعم دوماً بصمت دير ورائحته. كان الدكتور أوربينو وزوجته اللذان ولدا وترعرعا في ظل الخرافة الكاربية القائلة بفتح الابواب والنوافذ لادخال البرودة غير الموجودة في الواقع، قد أحسا في البدء بقلبيهما يضيقان بفعل الحبس. لكنها ما لبثا ان اقتنعا بفعالية الطريقة الرومانية لمواجهة الحر، التي تتلخص باغلاق البيوت في قيط آب حتى لا يدخل هواء الشارع الملتهب، وفتحها على مصارعها لريح الليل، فأصبح بيته منذ ذلك الحين اكثر البيوت رطوبة تحت شمس لامانغا الحارقة، وكان نوم القيلولة في عتمة المخادع يبعث على السعادة، وكذلك الجلوس على الرواق لرؤية مرور سفن الشحن الثقيلة الرمادية القادمة من نيواورليانز، والسفن الخشبية ذات العجلة الخلفية وهي تضيء انوارها في العشية، وتنفق بشار الموسيقى المنبعثة منها مزيلة الخليج الراكدة. وكان بيته هو الأكثر مقاومة ما بين كانون الاول واذار، حين تهدم ريح الشمال المدارية سفوف البيوت، وتقضي الليل مدومة كالدثاب الجائعة حول البيت بحثا عن منفذ تدخل منه. ولم تكن الشكوك تراود احدا في وجود اسباب تحول دون سعادة الزوجين المقيمين فوق تلك الاسس.

لكن الدكتور أوربينو لم يكن كذلك في صباح ذلك اليوم، عندما رجع الى بيته قبل الساعة العاشرة، مشوشا من الزيارتين اللتين لم تحولا بينه وبين قداس العنصرة وحسب، بل وهددتا بتغيير طبراً عليه وهو في سن ظن ان كل شيء فيها قد انجز. كان يريد ان ينام نوم كلب ريشما يحين موعد وليمة الغداء عند الدكتور لايديس اوليفيا، لكنه وجد الخدم هائجين، يحاولون امساك البغاء التي طارت الى اعلى فرع في شجرة المانغا حين اخرجوها من القفص ليقصوها جناحيها. كانت ببغاء متوترة ومعتوهة، لا تتكلم عندما يطلبون منها الكلام، وانما عندما ينساها الجميع، وتتكلم حينئذ بوضوح ودقة ليست متوفرة بكثرة لدى الكائنات البشرية. لقد درها الدكتور أوربينو شخصيا، وكان هذا امتيازاً لم يحظ به احد من افراد الاسرة، حتى ولا اولاده عندما كانوا اطفالا.

كانت في البيت منذ اكثر من عشرين سنة، ولا احد يعرف كم سنة عاشت قبل ذلك، وكان الدكتور أوربينو يجلس مساء كل يوم، بعد القيلولة على شرفة الفناء، وهو المكان الأكثر برودة في البيت، مستخدماً اصعب الاساليب التربوية، حتى توصل الى جعل البغاء تتحدث بالفرنسية كأكاديمي. بعد ذلك، وبدوافع الفضيلة المحضة، علمها مرافقة القداس باللاتينية، وبعض المقاطع المختارة من انجيل القديس متى، وحاول دون نجاح تلقينها العمليات الحسابية الاربع بشكل آلي. وفي احدى رحلاته الأخيرة الى اوروبا، احضر معه فونوغرافا ذا نغير، وعددا كبيرا من الاسطوانات الشائعة اضافة الى مقطوعات الكلاسيكيين



الاثني عشرين لديه . ويسوما بعد يوم ، ومرة بعد اخرى خلال عدة شهور ، اسمع البيغاء اغنيات اغنيات جيلبرت وارستيد براون ؛ اللذين كانا بهجة فرنسا وطربها في القرن الماضي ، الى ان حفظتها البيغاء عن ظهر قلب ، وكانت تغني بصوت امرأة اذا كانت الاغنية لها ، وبصوت رجل اذا كان المغني هو ، وتبني الغناء بقهقهة ماحنة هي انعكاس متقن للمقهقهات التي تطلقها الخادومات عندما يسمعنها تغني بالفرنسية ، وقد وصلت اخبار طرافتها بعيدا جدا ، مما جعل بعض الزوار البارزين الذين يأتون في السفن النهرية من اقاليم الداخل ويطلبون الاذن احيانا لرؤيتها ، وقد حاول بعض السائحين الانكليز الذين كانوا يتوافدون بكثرة في تلك الاثناء على متن سفن نيواورليانز المحملة بالموز ، ان يشترها باي ثمن . لكن يوم مجدها الاكبر هو اليوم الذي جاء فيه رئيس الجمهورية دون ماركو فيدل سواريز ، مع وزراء حكومته بكاملهم ، الى البيت للتأكد من صحة سمعتها . وصلوا في حوالي الساعة الثالثة مساء ، محتثين بقبعات وبدلات المراسم التي لم ينزعوها طوال ايام الزيارة الرسمية الثلاثة ، تحت سماء آب المتقدمة ، وقد اضطروا للانصراف مخدولين كما جاؤوا ، لان البيغاء رفضت ان تقول حتى ان هذا المنقار هو منقاري ، خلال ساعتين من اليأس ، رغم التوسلات والتعودات والحجل العام الذي احس به الدكتور اوربينو ، الذي اصر على تلك الدعوة الجريئة رغم تحذيرات زوجته الحكيمة .

ان مجرد احتفاظ البيغاء بامتيازاتها بعد حادثة العجرفة التاريخية هذه كان دليلا نهائيا على مكانتها المقدسة . لم يكن مسموحا ابقاء اي حيوان اخر في البيت ، باستثناء السلحفاة البرية ، التي عادت للظهور في المطبخ بعد ثلاث اواربع سنوات ظنوا خلالها انها قد ضاعت الى الابد . وهذه لم يكن ينظر اليها ككائن حي ، وانما كانت اشبه بتميمة جامدة من اجل حس الطالع ، ولم يكن احد يدري على وجه التحديد مكانها . كان الدكتور اوربيو يصير على اعلان كراهيته للحيوانات ، ويعلل ذلك بكل انواع الحرافات العلمية والحجج الفلسفية التي تقع الكثيرين ، لكنها لا تنفع في اقناع زوجته ، كان يقول ان من يفرطون في حب الحيوانات هم القادرون على اقتراف ابشع القساوات مع البشر . وكان يقول ان الكلاب ليست وفيه وانما هي ذليلة ، وان القطط انتهازية وخائنة ، وان الطواويس ليست الا عراقل مزركشة ، وان الارانب تشير الجشع ، والقرود تعدي البشر بحمي الشبق والديكة ملعونة لانها استخدمت لانكار المسيح ثلاث مرات .

امسا فيرمينا دائما ، زوجته ، والتي كان لها من العمر حينئذ اثنتان وسبعون سنة وكانت قد فقدت مشيتها الغزلانية التي كانت لها في زمن مضى ، فهي مولعة حد العبادة بالازهار الاستوائية والحيوانات الداجنة ، ولقد استغلت في بدء الزواج تأجج الحب لتقتني منها في

البيت اكثر بكثير مما ينصح به العقل السليم . كان اول ما اقتنته هو ثلاثة كلاب دلماسية لها اسماء اباطرة رومان تنازعت فيما بينها افضال انثى متشرقة باسم ميسالينا ، ما تكاد تلد تسعة جراء حتى تجبل بعشرة اخرين . بعد ذلك جاءت القطط الحبيشة بوجوهها التي كوجوه النور واخلاقها القردسونية ، والقطط الفارسية الحولاء ذات العيون البرتقالية ، التي كانت تدرع حجرات النوم كذلال شبحية وتملأ الليل صخباً بموائها في اجتماعات حبها التي كاجتماعات الساحرات . وكان هناك لبضع سنوات قرد امازوني مقيد من خاصرته الى شجرة المانغا في الفناء ، وكان يثير نوعاً من العاطفة لوجهه الكثيب كوجه الاسقف اوبدوليو ، كما كانت لعينه سذاجة عيني الاسقف ، وطلاقة يديه ذاتها ، ولم يكن هذا هو السبب الذي دفع فيرمينا دائماً للتخلص منه ، وانما عادته الرذيلة بالاستمناء على شرف سيدات المجتمع .

كانت هناك جميع انواع عصافير غواتيالا في اقفاص تملأ الممرات ، وكانت توجد كراوين متنبئة وبلشونات المستنقعات ذات القوائم الطويلة الصفراء ، وغزال صغير يطل من النوافذ ليأكل ورود المزهريات . وقبل الحرب الاهلية الاخيرة بقليل ، عندما دارت للمرة الاولى احاديث عن زيارة محتملة للبابا ، احضروا من غواتيالا طائر الجنة الذي تأخر في المجيء وقتاً اطول مما تأخره في العودة الى وطنه ، بعد ان تبين ان الاعلان عن الزيارة البابوية كان اشاعة اطلقتها الحكومة لاحافة الليبراليين المتأمرين . وفي مناسبة اخرى ، اشتركوا من مراكب مهربي كوراثا والشرعية قفصاً من الاسلاك المعدنية فيه ستة غربان معطرة ، كتلك التي كانت تمتلكها فيرمينا دائماً وهي صبية في بيت والدها ، ورغبت في اقتنائها وهي متزوجة ، لكن احدا لم يهتمل خفقات اجنحتها الدائمة التي كانت تضمخ جو البيت برائحة اكاليل الموتى . كما جلبوا افعى اناكوندا طولها اربعة امتار ، كانت انفاسها الساهرة تبعث القلق في ظلمة غرف النوم ، رغم انهم حققوا ما ارادوه منها ، فانفاسها الابدية كانت تبعد الخفافيش والسمندر ، ويختلف انواع الحشرات المؤذية التي تهاجم البيت في شهور المطر . اما الدكتور خوفينال اوربينو المنهمك في ذلك الحين بمسؤولياته المهنية ، والغارق في نشاطاته الحضارية والثقافية ، فكان يكتفيه الافتراض بان زوجته ، وسط كل هذه الحيوانات البغيضة ، ليست اجمل امرأة في منطقة الكساريي وحسب ، بل واكثرهن سعادة ايضاً . ولكن في احد الايام الماطرة ، وبعد يوم عمل منهك ، وجد في البيت كارثة اعادته الى الواقع . فمن صالة الاستقبال وعلى مدى البصر كانت تتناثر حيوانات ميتة غارقة في بركة من الدماء ، فيها الخادومات المتسلقات على الكراسي دون ان يدرين ما الذي عليهن عمله ، لم يكن قد استعدن السيطرة على انفسهم من هول المجزرة بعد .

القضية هي ان احد الكلاب البوليسية الالمانية، اصيب بنوبة سعار جنونية مفاجئة، وراح يمزق كل حيوان يجده في طريقه من أي جنس كان، الى ان واثت جنائني البيت المجاور الشجاعة لمواجهته وتمزيقه بمنجله. ما كانوا يعرفون كم هي الحيوانات التي عضها، او نقل اليها العدوى بزيده ريقه الاخضر، فأمر الدكتور اورينو والحال هذا يقتل ما بقي حيا من الحيوانات واحراق اجسادها في حقل مهجور، ثم طلب من خدمات مستشفى الرحمة تعقيم البيت تعقيبا شاملا. والحيوان الوحيد الذي نجا لان احدا لم يتذكره، كان ذكر السلحفاة حسن الطالع.

وللمرة الاولى رأيت فيرمينا دائما ان زوجها عث في احد الشؤون البيتية وحاذرت من الحديث بعد ذلك عن الحيوانات لفترة طويلة من الزمن. وكانت تعزي نفسها بصور ملونة من كتاب التاريخ الطبيعي للينيو، قامت بوضعها في أطروعلقتها على جدران الصالة. وربما كانت ستفقد الامل في رؤية اي حيوان في البيت ثانية، لولا ان اللصوص خلعوا في فجر احد الايام نافذة الحمام وسرقوا المرحاض الفضي الموروث من خمسة اجيال. ركب الدكتور اورينو اقفالا مزدوجة في حلقات النوافذ، واحكم اقفال الابواب من الداخل بمزالج حديدية، ونجأ الاشياء الثمينة في صندوق الكنوز، واعتاد متأخرا على العادة الحربية بالنوم والمسدس تحت الوسادة. لكنه اعترض على شراء كلب باسل، ملقح او غير ملقح، فقلت اومقيده، حتى ولو تركه اللصوص على العظم.

قال:

- لن يدخل هذا البيت كائن لا يحسن الكلام.

قال ذلك ليضع حدا للحجج زوجته الواهية، المصرة مجددا على شراء كلب، دون ان يعلم ان ذلك القرار المتعجل سيكلفه حياته، اذ تمكنت فيرمينا دائما، التي كان طبعها الجفاف قدرق بفعل السنين، وتشبثت بزلة لسان زوجها: وبعد شهر من السرقة ذهبت الى مراكب كوارثاو الشرعية واشترت ببغاء ملكية من باراماريو كانت تحسن اطلاق شتائم البحارة فحسب، لكنها تنطقها بصوت انساني مما جعلها تستحق ثمنها الغالي البالغ اثني عشر ستافو. كانت ببغاء جيدة، اخف مما ينجيل لمن يراها، رأسها اصفر ولسانها اسود، وهو الشيء الوحيد الذي يميزها عن ببغاوات المانغلير والتي لا تتعلم الكلام حتى ولا بتحامييل زيت البطم. وقد انحنى الدكتور اورينو، الخاسر الجيد، امام ذكاء زوجته، وفوجيء هو نفسه بالظرافة التي اضافهاها تعليم الخادما على الببغاء المشعشع. ففي الامسيات المطيرة، حين تنحل عقدة لسانها لسعادتها بريشها المبتل، كانت تنطق عبارات من ازمان اخرى لا يمكن

ان تكون قد تعلمتها في البيت، مما يحمل على التفكير بانها اكبر سنا مما تبدو عليه . وقد انهارت اخر تحفظات الطبيب عندما حاول اللصوص في احدى الليالي دخول البيت ثانية من كوة السقف، واخافتهم البيغاء بنباح ما كان له ان يكون اكثر شبيها بالنباح لو ان صاحبه كان كلبا حقيقيا، وبالصراخ: نشالين نشالين نشالين، وهما طرفتان منفذتان لم تتعلمهما في البيت . وكان حينئذ ان تولى الدكتور اورينو مسؤوليتها، فأمر باقامة عمود حمالة تحت شجرة المانغا مع اناء للماء واخر للموز الصغير الناضج، وارجوحة للقفز عليها . وفي الفترة ما بين كانون الثاني واذار، عندما يصبح الليل باردا والجو في الخارج غير صالح للحياة بسبب رياح الشال المداوية، ينقلونها للنوم في غرف النوم داخل قفص مغطى بحرام، رغم ان الشكوك كانت تساور الدكتور اورينو من ان داء الحنّب المزمّن لدى البيغاء، قد تكون له اثار خطيرة على تنفس الشر . وكانوا طوال عدة سنوات يقصون ريش جاحيها ويفلتونها لتسير على هواها بمشيئها المائلة التي كمشية فارس عجوز . لكنها راحت تتظافر في احد الايام بحركات بهلوانية بين دعائم المطبخ فهوت في قدر الطبخ وهي تعربد بصيحبتها البحرية فلينج من يستطيع النحاة . ولحسن الحظ ان الطاهية تمكنت من اخراجها بالمغرفة، وهي مسلوقة وبلا ريش، ولكنها على قيد الحياة . منذ ذلك الحين صاروا يقبونها في القفص حتى اثناء النهار، رغم الاعتقاد الشعبي السائد بان البيغاوات الحبيسة في اقفاص تنسى ما تعلمته، وما عادوا يخرجونها الا في برودة الساعة الرابعة لتلقي دروس الدكتور اورينو على شرفة الغناء، ولم ينتبه احد في الوقت المناسب الى ان اجنحتها قد نمت واصبحت طويلة بما فيه الكفاية، حتى صباح ذلك اليوم حين كانوا يستعدون لقصها، فطارت هاربة الى اعلى شجرة المانغا .

لم يتمكنوا من الامساك بها طوال ثلاث ساعات . وقد لجأت الخادومات، بمساعدة خادومات الجوار، الى كل الحيل لجعلها تنزل، لكنها بقيت متشبثة بمكانها، صارخة وهي تكاد تنفجر من الضحك: يحيا الحرب الليبرالي، اللعنة، فليحيا الحزب الليبرالي، وهي صرخة جريئة قد تكلف اربعة سكارى منتشين حياتهم . ما كاد الدكتور اورينو يراها بين اوراق الشجرة، حتى حاول اقناعها بالاسبانية والفرنسية، بل وباللاتينية، والبيغاء ترد عليه باللغات ذاتها والتأكيد ذاته ونبرة الصوت ذاتها، لكنها لم تتحرك عن قمة الشجرة . وحين اقتنع ان احدا لن يستطيع اقناعها بالحسن، امر الدكتور اورينو ان يطلبوا مساعدة رجال الاطفاء، الذين كانوا لعنة الحضارية الاكثر حداثة .

وفعلا، كان يطفئ الحرائق، حتى وقت قريب، متطوعون يستخدمون سلام بنائين وسطول ماء تجلب كيفما اتفق، وكانت اساليبهم مشوشة، بحيث كانوا يسببون في معظم الاحيان اضرارا تغرق اضرار الحريق . انها منذ العام الماضي، وبفضل حملة تبرعات قامت بها

جمعية الترقى العام، والتي كان خوفينال اوربينورئيس شرف لها، أصبح مناك فريق اطفاء محترف وسيارة صهريج مزودة بصفارة وباقوس، وخرطومى ماء عالي الضغط، وكان رجال الاطفاء هم تقليعة تلك الايام، لدرجة انهم في المدرسة كانوا يوقفون الدروس عندما يسمعون نواقيس الكنائس تقصر بذعر، كي يذهب الاطفال لرؤيتهم وهم يطفئون النار. وكان هذا هو كل ما يفعلونه في البدء. لكن الدكتور اوربينوروى للسلطات البلدية بانه رأى رجال الاطفاء في هامبورغ يبعثون الحياة في طفل عثروا عليه متجمدا في احد الاقبية بعد تلج استمراره طوله عدة ايام. كما انه رأى في احد اذقة نابولي، ينزلون ميتا في تابوت من شرفة طابق عاشر، لان ادراج المبنى كانت شديدة الانحناء ولم يتمكن ذووالميت من اخراجه الى الشارع. وهكذا كان ان تعلم رجال الاطفاء المحليون تقديم خدمات مستعجلة اخرى، كخلع اقفال او قتل افاع سامة، وقدمت لهم مدرسة الطب دورة خاصة بمبادئ الاسعاف الاولى في الحوادث الصغرى. وهذا لم يكن سخفا ان يطلب منهم المساعدة في انزال بغاء عن شجرة، ولا سيما هذه البغاء المتميزة بخصال كثيرة كسيد نبيل. قال الدكتور اوربينو: «قولوا لهم ان هذا بناء على طلي». ومضى الى حجرة النوم ليرتدي ملابس حفلة الغداء. والحقيقة ان مصير البغاء في هذه اللحظة، التي يشعر فيها بالضيق من رسالة جيرميا دي سانت - آمور، لم يكن يهمه.

كانت فبرمينا دائما قد اردت فستانا حريريا، فضفاضا ومفلتا، خصره عند الوركين، ووضعت قلادة من اللاليء الاصيلة بست لفات طويلة متدرجة، واتعلت حذاء املىس دا كعب عال لا تستخدمه الا في المناسبات الرسمية، فالسنون لم تعد تسمح لها بعسف كثير. لم يكن ذلك الزي الذي على الموضة بالزي المناسب لجدة وقوة، لكنه كان ملائما تماما لجسدها ذي العظام الطويلة، والذي ما زال نحىلا وعشوقا، وليديها اللدنتين الخاليتين من اية شامة شيخوخة، ولشعرها الفولاذي الازرق، المقصوص بشكل مائل على مستوى الخد. والشيء الوحيد الذي ما زالت تحتفظ به من صورة زفافها هو عيناها اللوزيتان الصافيتان وكبرياء الامة، لكن ما كان ينقصها فعل السن كانت تعوضه بخلقها وتجعله يفيض بجدها. كانت تشعر انها على ما يرام: فعصكر مشدات الخصر المعدنية، والخصور المقيدة، والارداق المرفوعة بحيل تعتمد على الخرق القماشية، أصبحت كلها غابرة، وصارت الاجساد المتحررة، المتنفسة حسب مشيئتها، تعرض كما هي، حتى في الثانية والسبعين من العمر. وجدها الدكتور اوربينو جالسة مقابل خوان الزينة، تحت رياش المروحة الكهربائية البطيئة، واضعة القبعة التي لها شكل الناقوس والمزينة بازهار بنفسج مصنوعة من اللباد. كانت حجرة النوم فسيحة ومشعة، فيها سرير انكليزي مغطى بكلة وردية، ونافذتان

مفتوحتان تطلان على اشجار الفناء حيث ينفذ صرير الزيزان الداهلة لاحتساسها باقتراب المطر . لقد اعتادت فيرمينا داءا، ومنذ العودة من رحلة الزفاف ، على اختيار ملابس زوجها بها يتلام مع حالة الطقس والمناسبة ، ووضعها مرتبة على كرسي منذ الليلة السابقة ليجدها جاهزة لدى خروجه من الحمام . وهي لا تذكر منذ متى بدأت بمساعدته على ارتداء ملابسه ، ثم اخبرا على الباسه ، وكانت واعية انها بدأت تفعل ذلك بدافع الحب في اول الامر ، ولكنها أصبحت مضطرة لعمل ذلك منذ نحو خمس سنوات لانه لم يعد قادرا على ارتداء ملابسه بنفسه . لقد احتضنا منذ وقت قريب باليويل الذهبي لزواجهما ، وليس بإمكان احدهما العيش لحظة واحدة دون الآخر ، اودون التفكير به ، مع انهما يمان ذلك اقل فأقل كلما استفحلت الشيوخة . ولم يكن بمقدوراي منها القول ان كانت تلك العبودية المتبادلة تركز على الحب ام على الراحة ، لكنهما لم يتساءلا عن ذلك ابدا ويديهما على القلب ، اذ فضل كلاهما دوما تجاهل الجواب . لقد بدأت نكتشف شيئا فشيئا تعثر خطي زوجها ، واضطراب مزاجه ، وتصعد ذاكرته ، وعادته الاخيرة بالبكاء وهوانهم ، لكنها لم تر في ذلك علامات صدا نهائي بين ، بل عودة سعيدة الى الطفولة . ولذا لم تعامله على انه شيخ صعب وانما كطفل هرم ، ولقد كانت تلك الخدعة الهاما من العناية الالهية لكليهما لانها وضعتهم بمعنى عن الشفقة .

لا بد ان الحياة كانت ستصبح شيئا آخر لكليهما ، لو انهما عرفا في الوقت المناسب ان تصرف كوارث الزواج العظيمة اسهل من تصريف المناكفات اليومية الصغيرة ، واذا كانا قد تعلمنا شيئا معا فهو ان الحكمة تأتينا في الوقت الذي لا تعود به ذات نفع . لقد احتملت فيرمينا داءا بقلب مثقل ، طوال سنوات ، استيقاظات زوجها الاحتفالية الباكورة . كانت تنسب باخر خيوط النعاس كي لا تواجه قدر صباح جديد يحمل معه نذير الشؤم ، فيما يستيقظ هو براءة طفل وليد : كل يوم جديد هو يوم يكسبه في الحياة . كانت تسمعه ينهض مع الديكة ، واول علامة من علام الحياة يقوم بها هي كحة لا مبرر لها يبدو وكأنه يتعمدها لا يقاط زوجته . كانت تسمعه يهمهم ، ليلفلقها فحسب ، فيما هو يبحث باللمس عن خفيه اللذين يجب ان يكونا الى جوار السرير . وتسمعه يخطون نحو الحمام متملسا خطواته في الظلام . وبعد ان يقضي ساعة في مكتبه ، وحين تكون قد عادت لتغفو من جديد ، تسمعه يعود ليرتدي ملابسه دون ان يشعل النور حتى هذا الوقت . لقد سأله يوما ، في لعبة من ألعاب الصالون ، كيف يعرف نفسه ، فقال : «اني رجل يرتدي ملابسه في العتمة» . كانت تسمعه وهي عارفة انه لا حاجة لاي صوت من تلك الاصوات التي يصدرها ، وانه يفعل ذلك متعمدا ومتظاهرا العكس ، تماما مثلما هي مستيقظة وتظاهرها ليست كذلك . وكانت اسابه صحيحة : فهو لم

يحتاج اليها ابدا حية وصاحبة، كما يحتاج اليها في هذه اللحظات العصبية.\*  
لم تكن هناك من هي اكثر منها اناقة في النوم، اذ كانت تنام في وضعية راقصة، مسندة  
احدى ذراعيها على جبهتها. كما لم يكن هنالك من هو اكثر وحشية منها عندما يقلقون  
احساسها بالاعتقاد انها نائمة وهي ليست كذلك، كان الدكتور اوربينو يعرف انها تبقى  
مصغية الى ادنى ضجة يثيرها، بل وتكون شاكرة له، لانهما تجد بذلك من تلقى عليه اللوم في  
ايقاظها منذ الخامسة صباحا، وقد كان الامر كذلك حقا، لدرجة انه في المناسبات القليلة التي  
كان يتلمس فيها بحثا عن خفيه في الظلام في مكانها المعتاد، كانت تقول له فجأة بصوت  
ناعس: «لقد تركتها البارحة في الحمام». ثم تردف في الحال بصوت صاح وغاضب:  
- ان اكبر مصيبة في هذا البيت هي ان المرء لا يجد فيه الى النوم سبيلا.

وعندئذ تنقلب في الفراش، وتشعل النور دون ان تأخذها اية راحة بنفسها، سعيدة  
بانتصارها الاول لهذا النهار. لقد كانت في العمق لعبة لكليهما، لعبة خرافية وشريرة، لكنها  
منعشة في الوقت نفسه: انها احدى سعادات الحب المدجن الخطيرة. ولكن بسبب احدى  
هذه الالعب التافهة كانت الثلاثين سنة الاولى من الحياة المشتركة على وشك الانهيار لان  
الصابون لم يكن موجودا في الحمام في احد الايام.

بدأ الامر ببساطة روتينية. كان الدكتور اوربينو قد رجع الى حجرة النوم، في الزمن  
الذي كان ما يزال يستحم فيه دون مساعدة، وبدأ بارتداء ملابسه دون اشعال النور. اما  
هي، فكانت ما تزال في وضعها الجنيني الدافئ كمعادتها في مثل هذا الوقت: عيناها  
مغمضتان، تنفسها هادئ، وهذه الذراع المستندة الى الجبهة وكأنها في رقصة مقدسة. لكنها  
كانت نصف نائمة، كما هي العادة، وكان يعرف ذلك. وبعد صرصة طويلة من بدلة الكتان  
المنشأة في العتمة، كلم الدكتور اوربينو نفسه قائلا:  
- منذ اسبوع وانا استحم بلا صابون.

عندئذ استيقظت، وتذكرت، وانقلبت غضبا ضد العالم، لانها نسيت بالفعل وضع  
صابونة جديدة في الحمام. لقد لاحظت غياب الصابون منذ ثلاثة ايام، وكانت قد اصبحت  
تحت الدوش، ففكرت باحضار قطعة صابون فيما بعد، لكنها نسيت فيها بعد الى اليوم  
التالي. وفي اليوم الثالث حدث لها الشيء نفسه. لم يكن قد مضى اسبوع في الواقع، كما  
يدعي ليضاعف من احساسها بالذنب، وانما ثلاثة ايام لا تغتفر، ثم ان الغضب من  
احساسها بانها فوجئت وهي على خطأ اخرجها عن طورها، فسارعت كمعادتها للدفاع عن  
نفسها بالهجوم:

صرخت دون وعي:

- لقد استحمت كل هذه الايام، وكان الصابون دوما في مكانه . ورغم معرفته الجيدة لاساليبها في الحرب، فانه لم يستطع احتمالها هذه المرة . ومضى ليعيش في غرف القسم الداخلي في مشفى الرحمة تحت اية ذريعة مهيبة، ولم يعد يظهر في البيت الا لاستبدال ملابسه عند المساء، قبل ان يقوم بجولة عبادته على بيوت المرضى . وكانت تذهب الى المطبخ عندما تسمع مجيئه، متصنعة عمل اي شيء، وتبقى هناك الى ان تسمع وقع حوافر حصاني العربية في الشارع، وكلما حاولا حل الخلاف في الشهور الثلاثة التالية، فان الشيء الوحيد الذي كانا يتوصلان اليه هو تعقيده . لم يكن مستعدا للعودة الى البيت ما دامت لا توافق على انه لم يكن يوجد صابون في الحمام، ولم تكن مستعدة لاستقباله ما دام لا يعترف بانه كذب وهو واع لتعذيبها .

ومنحها الحادث طبعاً فرصة لاستحضار حوادث اخرى، وتذكر الكثير من المسائل الصغيرة والصباحات القلقة . وبعثت الاحقاد احقاداً اخرى، وفتحت جراح قديمة كانت ملتصقة لتنزف من جديد، وقد فزع كلاهما لليقين المدمر بانها لم يفعل شيئاً خلال سنوات طويلة من الصراع الزوجي سوى رعاية الاحقاد . ووصل به الامر لان يقترح عليها التقدم معا للاعتراف المفتوح امام نيافة الاسقف اذا اقتضى الامر، ليكون الرب هو الحكم الاحير الذي يقرر اذا كان في مصبنة الحمام صابون ام لا . اما هي التي كانت تمتلك مرتكزات قوية حتى ذلك الحين، فقد اضاعتها بصرخة هستيرية :

- فليذهب السيد الاسقف الى الخراء !

هزت تلك الشتيمة ركائز المدينة، وكانت منطلقاً لحكايات واقاويل ليس من السهل تكذيبها، وبقيت عالقة في المأثور الشعبي كتعبير شائع : «فليذهب السيد الاسقف الى الخراء !» . ومدركة انها قد تجاوزت الحد، سارعت الى اتخاذ رد الفعل التي انتظرتها من زوجها، فهددته بالانتقال وحدها الى بيت ابيه القديم، الذي ما زال ملكاً لها، رغم انه مؤجر كمكاتب عامة . لم يكن ذلك تبجحاً : كانت تريد الذهاب حقاً، غير مبالية بالفضيحة الاجتماعية، وقد تنبه الزوج الى ذلك في الوقت المناسب . ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لتحدي تهورها . فاستسلم ليس بمعنى القبول بانه كان يوجد صابون في الحمام، لان ذلك سيكون اهانة للحقيقة، وانما وافق على ان يستمر بالعيش في البيت نفسه، ولكن في حجرتين منفصلتين، ودون ان يكلما بعضهما . وهكذا كانا ياكلان، ويصرقان المواقف ببراعة فائقة بتبادل الطلبات من احد اطراف المائدة الى الطرف الاخر بواسطة ابنيهما، دون ان يتبناه الابنان الى انها لا يتبادلان الحديث .



وبما انه لا وجود لحمام في مكتبه ، فان هذه الصيغة قد حلت الخلاف حول الضوضاء الصباحية ، لانه اصبح يدخل للاستحمام بعد ان ينتهي من تحضير درسه ، ويتخذ الاحتياطات الحقيقية كي لا يوقظ زوجته . وفي احيان كثيرة كانا يلتقيان ويتظران بالدور لتنظيف اسنانهما قبل النوم . وبعد اربعة شهور ، استلقى ليقرا في الفراش الزوجي فيما هي خارجة الى الحمام ، كما كان يحدث كثيرا ، فغلبه النعاس ، استلقت الى جانبه بحركة مفرطة في الخشونة لتجعله يستيقظ وينصرف . واستيقظ بالفعل شبه استيقاظ ولكنه بدلا من ان ينهض اطفأ مصباح السرير واستراح على وسادته . فهزته من كتفه لتذكره بان عليه الذهاب الى مكتبه ، لكنه كان يشعر مجددا بانه في حالة جيدة على فراش الريش الموروث عن اسلافه ، ففضل الاستسلام .

قال لها :

- دعيني هنا ، نعم ، كان هناك صابون .

حين كانا يتذكران هذا الحادث ، بعد ان اصبحا عند منعطف الشيخوخة ، ماكانا ليصدقا الحقيقة المذهلة بان ذلك الشجار كان الاخطر خلال نصف قرن من الحياة المشتركة ، والشجار الوحيد الذي بعث فيهما كليهما رغبة الاذعان والبدء في حياة اخرى . وحتى عندما اصبحا عجوزين وديمين كانا يحاذران من ذكره ، لان الجراح قليلة الالتئام سرعان من تعاود التزيف وكأنها جراح الامس .

كان هو اول رجل سمعته فيرمينا داثا يتبول . سمعته في ليلة الزفاف في قمرة السفينة التي حملتها الى فرنسا ، فيما الدوار ينهكها ، وبدأ لها وقع ينبوعه الحصاني قويا ومتسلطا ، مما ضاعف رعبها من الاذى الذي يخيفها . وقد كانت تلك الذكرى تعاود محيلتها بكثرة ، كلما اضعفت السنون من قوة النبوع ، لانها لم تستطع الصبر ابدا على تلويشه حافة مقعد المرحاض كلما استخدمه . وقد حاول الدكتور اوربينوا اقناعها ، بحجج سهلة الفهم لمن يرغب في فهمها ، ان ذلك الحدث يتكرر يوميا ليس بسبب اهماله ، كما كانت تصر هي ، وانما لسبب عضوي : فينبوعه في سنوات صباه كان محددا ومستقيما ، حتى انه كسب وهو في المدرسة بطولية التسديد للماء زجاجات ، ولكنه لم يضعف فحسب مع استخدامات السن ، وانما اصبح زائفا كذلك ، واخذ يتشعب ، الى ان اصبح في نهاية الامر ينبوعا وهما يستحيل توجيهه ، رغم الجهود الكثيرة التي يبذلها لتصحيح مساره . كان يقول : ولا بد ان اخترع المرحاض ذا المقعد لا يعرف شيئا عن الرجال . وكان يساهم في السلام البقي بعمل يومي هو اقرب الى الذل منه الى التواضع : كان يسمح بورق صحي حواف مقعد المرحاض كلما استخدمه ، وكانت تعرف انه يفعل ذلك ، لكنها لم تكن تقول شيئا ما لم تقع روائح الامونياك في الحمام ، عندئذ

تعلن الامر وكأنه اكتشاف جريمة : «ان هذا يشير قرف حظيرة ارناب». وعلى مشارف الشيخوخة، ادى تشاقل جسد الدكتور اوربينو الى الهامه الحل النهائي : صاربيول وهو جالس، كما تفعل هي، مما حافظ على مقعد المرحاض نظيفا، وجعله يتخذ وضعاً ظريفاً . كان يقوم بشؤونه حيثذ بشكل سيء . لكن انزلاقاً في الحمام كاد يودي بحياته جعله يتخذ موقفاً حذراً من الدوش . فالبيت، رغم كونه من البيوت الحديثة، كان يفتقد حوض البانيو المعدني ذا القوائم التي كقوائم الاسد، والذي كان استخدامه شائعاً في بيوت المدينة الاستعمارية، فقد امر هو بانتزاعه منذرعا بحججه الصحية : ان حوض البانيو هو احدى قذارات الاوروبيين الكثيرة، الذين لا يستحمون الا في يوم الجمعة الاخير من كل شهر، ثم انهم يفعلون ذلك وسط الماء المتسخ بالوساخة نفسها التي يريدون ازالته عن اجسادهم . وهكذا طلبوا صنع صفيحة كبيرة من الصفيح على قوائم من خشب غوايا كان المتين، حيث اصبحت فيرمينا دائماً تحمم زوجها بنفس طقوس تحميم الاطفال حديثي الولادة . كان الحمام يستمر لأكثر من ساعة، بباء فاتر غليت فيه اوراق العطرة وقشور البرتقال، وكان للحمام تأثير مهدئ عليه يجعله يغفو في النقيع المعطر احياناً . وبعد تحميمه، تساعده فيرمينا دائماً على ارتداء ملابس، وترشه ببودرة التالك ما بين ساقيه، وتدهنه بدهن جوز الهند في مواضع الساط، وتلبسه سرواله الداخلي بحنان شديد كما لو كان حفاضة طفل رضيع، وتتابع الباسه الثياب قطعة قطعة، من الحورب حتى ربطة العنق ذات المشبك الياقوتي . وصارت الصباحات الزوجية أكثر سكوناً، لانه عاد الى طفولته التي انتزعها منه الاولاد . وانتهت هي من جانبها الى الاسجاس مع النظام العائلي، لان السنوات كانت تمضي بالنسة لها ايضا، فاصبحت تنام اقل فأقل، وقبل ان تتم السبعين صارت تستيقظ قبل زوجها .

في يوم احد العنصرة، عندما رفع الشرف عن جثة جبرميا دي سانت - أمور، انكشف للدكتور اوربينو امر كان يرفض التفكير فيه حتى ذلك الحين في ابحاراته الجلية كطبيب ومؤمن . فبعد سنوات طويلة من التعايش مع الموت، وبعد صراعه ولمسه باطنا وظاهرا لسنوات عديدة، كانت تلك هي المرة الاولى التي تمجرأ فيها على النظر الى وجه الموت، وكان الموت ينظر اليه ايضا . لم يكن احساسه خوفاً من الموت لا : فالخوف كان بداخله منذ سنوات، يحيا معه، كان ظلاً اخر فوق ظله، منذ ليلة استيقظ فيها قلقاً لرؤيته حلماً مشؤوماً جعله يدرك ان الموت ليس احتيالا ماثلاً فقط، كما احسه دائماً، وانما هو واقع قائم . وبالمقابل، فان ما رآه يومذاك هو حضور جسدي لشيء لم يكن قد تجاوز كونه تصوراً يقينياً حتى ذلك الحين . وقد اسعده ان يكون اداة العناية الالهية لهذا الكشف هو جبرميا دي سانت - أمور، الذي اعتبره دوماً قديساً مجهول فضل ذاته، ولكن عندما كشفت له الرسالة حقيقة هويته، وماضيه

الفساد، وقدرته اللامعقولة على الخداع، احس بان شيئا نهائيا لا رجعة فيه قد طرأ على حياته .

ومع ذلك فان فيرمينا دائما لم تسمح له بنقل عدوى مزاجه المكفهر اليها . لقد حاول ذلك بالطبع فيما هي تساعد على دس ساقبه في البنتال وتزور صف ازارار القميص الطويل . لكنه لم يصل الى ما يريد لان التأثير على فيرمينا دائما لم يكن سهلا ، وخصوصا في موت رجل لم تكن تحبه . كانت تعرف بالكاد ان جيرميا دي سانت - أمور هو رجل مقعد ذو عكازين لم تره ابدا ، وانه قد فر من فصيلة الإعدام في احدى التمردات الكثيرة في واحدة من جزر الانثيل العديدة . وانه عمل مصورا لاطفال بدافع الحاجة وصار الاكثر شهرة في الاقليم كله ، وانه قد كسب دور شطرنج من شخص تذكر هي ان اسمه توريمولينوس بينما الحقيقة ان اسمه كابا بلانكا .

قال لها الدكتور اوربينو:

- لم يكن سوى هارب من كايينا، ومحكوم بالمؤبد على جريمة فظيعة اقترفها . وتصوري ان الامر وصل به الى اكل اللحم البشري .

اعطاها الرسالة التي كان يريد حمل اسرارها معه الى القبر ، لكنها خبأت الاوراق المطوية في خوان الزينة ، دون ان تقرأها ، واقتلت الدرج بالمفتاح ، كانت معتادة على قدرة زوجها الكبيرة على الاندهاش ، وعلى احكامه المبالغ فيها والتي اخذت تصبح اكثر تعقيدا مع مرور السنوات ، وعلى ضيق افق لا يتلاءم مع صورته العامة . لكنه في تلك المرة تجاوز حدوده المعتادة . وافترضت ان زوجها ليس معجبا بجرميا دي سانت - أمور لما كان عليه فيها مضى ، وانما لما بدأ يكونه منذ قدومه بلا متاع سوى حقيبة المنفيين التي كان يحملها ، ولم تستطع ان تفهم لماذا فجع الى ذلك الحد باكتشاف هويته متأخرا . ولم تفهم لماذا يبدوله فظيعا ان يكون على علاقة بامرأة سرية اذا كان هذا الامر عادة وراثية بين الرجال الذين هم من صنفه ، بها في ذلك هو نفسه في لحظة جحود . وقد رأت في مساعدتها له على تنفيذ قراره بالموت دليلا مؤثرا على الحب . وقالت : «واذا ما قررت انت عمل ذلك ايضا لاسباب جدية كتلك التي كانت لديه ، فان واجبي ان افعل مثلما فعلت هي» . ووجد الدكتور اوربينو مرة اخرى نقطة عدم الفهم البسيطة التي اثارت حفيظته طوال نصف قرن .

- قال :

- انت لا تفهمين شيئا . ان ما يغيظني ليس ما كانه او ما فعله ، وانما الخدعة التي جعلها تنظلي علينا جميعا خلال هذه السنوات الطويلة .

بدأت عيناه تغروران بدموع سهلة، فيما تصنعت هي التجاهل وردت :  
- حسنا فعل . فلوانه قال الحقيقة لما كنت انت ولا هذه المرأة المسكينة، ولا احد في  
البلدة احبه كما احببتموه .

ثبتت الساعة ذات السلسلة في عروة الصدرية . وعقدت له ربطة العنق ووضعت له  
المشبك الياقوتي . ثم مسحت دموعه ونظفت لحيته الباكية بالمندبل المبلل بعطر اغوا فلوريدا ،  
ووضعت في جيب الجاكيت على الصدر فاتحة اطرافه كزهرة مانوليا . دقت ساعة السندول  
دقاتها الاحدى عشرة في البيت الراكد، فقالت وهي تقوده من ذراعه :  
- اسرع . سنصل متأخرين .

كانت اميتا ديتشامباس، زوجة الدكتور لاينديس اوليفيا، وبناتها السبع المتحمسات،  
قد اعددن كل شيء من اجل ان يكون غداء اليوبيل الفضي هو حدث السنة الاجتماعي ،  
منزل العائلة القائم في مركز المدينة التاريخي وهو بيت المال سابقا، كان قد غير من طرازه  
المعماري مهندس فلورنسي مرم من هنا مثل ربيع شوم، وحول الى كنائس على الطراز  
الفينيسي بقايا اكثر من اربعة معابد من القرن السابع عشر . كان في البيت ست حجرات نوم  
وصالونان للطعام والاستقبال، واسعان وحسنا التهوية، لكنها لا يستعان لمدعوي المدينة،  
فضلا عن النخبة التي ستأتي من الخارج . كان الرواق اشبه بباحة دير، في وسطه نافورة  
حجرية يغرد الماء فيها، وجنائن من الهيليوتربو تعطر البيت عند المغرب، لكن الفسحة  
المقنطرة لم تكن كافية لكل تلك الالقاب العظيمة . ولهذا قرروا اقامة حفل الغداء في بيت  
العائلة الريفي، على بعد عشر دقائق في السيارة على الطريق العام، ففيه ساحة فسيحة  
وشجيرات غار هندية كثيفة ونيولوفر مهجن في مسيل ماء وديع، رجال مطعم دون سانتشو،  
نصبوا بتوجيه من السيدة اوليفيا، مظلات شواذر ملونة في الاماكن التي لا ظلال فيها، واقاموا  
تحت اشجار الغار مستطيلا من الطاومات يتسع لثمة واثنين وعشرين شخصا، مع شراشف  
كثانية بيضاء لجميع الطاومات، واغصان ورد طازجة على طاولة الشرف . كما اقاموا منصة  
لفرقة موسيقى الآلات الهوائية التي كان برنامجها يقتصر على موسيقى راقصة وفالسات وطنية،  
ولرباعي وتري من مدرسة الفنون الجميلة، هي مفاجأة السيدة اوليفيا لاستاذ زوجها الموقر،  
الذي سبرأس الغداء، ومع ان اليوم المحدد للاحتفال لم يكن يتفق تماما مع ذكرى التخرج،  
فقد اختاروا يوم احد العنصرة ليضاعفوا من ضخامة معنى الحفلة .

بدأت الاستعدادات قبل ثلاثة شهور، خوفا من نسيان شيء او عدم انجازه في الموعد  
المحدد، احضروا الدجاج الحي من ثيناغا دي اورو، لشهرة هذا الدجاج في منطقة الساحل  
كلها، ليس بحجمه وطعمه اللذيذ وحسب، وانما لانه في الزم الاستعماري كان يعفر في

اراضي الطمي ، فكانوا يجلدون في حوصلته حصيات من الذهب الخالص ، وكانت السيدة اوليفيا شخصيا ، برفقة بعض بناتها وبعض الخدم ، تصعد الى متن السفن العابرة القمحة لتتقي افضل ما يصل من كل مكان لتشريف مكانة زوجها . لقد احتاطت لكل شيء ، باستثناء ان الحفلة ستكون يوم احد حزيران في سنة متأخرة الامطار . وقد ادخلت امر خطر كهذا في حسابها صباح يوم الحفلة بالذات ، عندما خرجت الى القداس الكبير وفزعت لرطوبة الهواء ، ورأت ان السياء كثيفة وواظية وان البصر لا يصل لرؤية الافق البحري . ورغم علائم التحس هذه ، فقد ذكرها مدير الارصاد الجوية ، الذي التفت به في الصلاة ، بانه لم يحدث في تاريخ المدينة المشؤوم جدا ، حتى ولا في أقدس فصول الشتاء ، ان هطل المطر في يوم العنصرة . ورغم ذلك ، فعندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ، وفيما كان معظم المدعويين يتناولون المقبلات في الهواء الطلق ، جعل انفجار الرعد الأرض تهتز ، وأطاحت ريح بحرية عنيفة بالموائد وحملت المظلات في الجو ، وانهارت السهائم بمطر كالكلوت .

لقد تمكن الدكتور خوفينال اوربينوم الوصول بجهود مضنية في فوضى العاصفة ، مع اخر الضيوف الذين التقى بهم في الطريق ، وكان يريد الوصول الى البيت قافزا من العربات مثلهم فوق الاحجار ، عبر البهو المضطرب ، لكنه قبل اخيرا امثلة ان يحمله رجال دون سانشو على الاذرع تحت مظلة من قماش اصفر ، وجرى اعداد الطاولات المنفصلة من جديد على احسن وجه ممكن داخل البيت ، وحتى في غرف النوم ، ولم يبق المدعوون بلقي جهد لاختفاء مزاجهم الغارق بالماء ، كان الحرفي البيت كانه مرجل سفينة ، اذ انهم اغلقوا النوافذ لينعموا بدخول المطر الذي يطل مائلا بفعل الريح . كان يوجد على الطاولة في الفناء بطاقة تحمل اسم كل مدعو وتحدد مكانه ، وكان مقررا ان يكون هناك جانب للرجال وبخار للنساء ، كما هي العادة في ذلك الحين ، لكن البطاقات التي تحمل الاسماء اختلطت داخل البيت ، وجلس كل واحد كيفما استطاع ، بفوضى هائلة خالفت لمرة واحدة على الاقل تقاليدنا الاجتماعية البالية ، ووسط الكارثة ، كانت اميتا دي اوليفيا تبدو وكأنها في كل مكان ، بشعرها المبلل وثوبها الرائع الملطخ بالوحل ، لكنها تملو على المصيبة بابتسامة لا تقهر تعلمتها من زوجها كي لا تتيح للعوازل ان يشمتوا . وبمساعدة بناتها ، المصاحفات في الكورنفسه ، تمكنت الى حد ما من حجز الاماكن على طاولة الشرف ، فكان الدكتور خوفينال اوربينو في الوسط والاسقف اوريدوليو ري الى يمينه . وجلست فيرمينا دائما الى جانب زوجها ، كما اعتادت ان تفعل دوما ، خوفا من ان يغلبه التعاس اثناء الغداء وان يسكب الحساء على قبة سترته . واحتل الموقع المقابل الدكتور لاثيديس اوليفيا ، وهو خمسيني ذو مظهر انثوي ، محضف جيدا بقواه ، ولا علاقة لروحه الاحتفالية بتشخيصاته الطبية الصائبة . وامتلأت بقية مقاعد

الطاولة بممثلي السلطات الاقليمية والبلدية ، وملكة جمال العام الفائتة ، التي قادها الحاكم من خراعا ليجلسها الى جواره ، ورغم انه لم تكن هناك عادة طلب زري خاص في الدعوات ، ولا سيما في غداء ريفي ، فقد كانت السيدات يرتدين بدلات سهرة وحلي من احجار كريمة ، ومعظم الرجال يلبسون بدلات قائمة مع ربطة عثق سوداء ، وبعضهم يرتدي الستر الرسمية البيضاء ، وذوو المشاغل الكثيرة وحدهم ، ومنهم الدكتور اوربينو ، كانوا يرتدون بدلات يومية ، وفي كل مكان كانت توجد نسخة من المينيو<sup>(١)</sup> ، مطبوعة بالفرنسية مع رسوم مذهبة .

ذرعت السيدة اوليفيا ، المرتبة من احوال الحر ، البيت راجية من الجميع يخلع سترهم لتناول الغداء ، لكن احدا لم يجز على ان يكون قدوة للآخرين . ولقد لفت الاسقف انتباه الدكتور اوربينو الى ان ذلك الغداء هو غداء تاريخي بطريقة ما : فهناك يجتمع لأول مرة على طاولة واحدة ، وبعد التأم الجروح وتبدد الاحقاد ، فريقا الحروب الاهلية التي اغرقت البلاد بالدم منذ الاستقلال . كان هذا التفكير يتلاءم مع حماس الليبراليين ، وخصوصا الشباب منهم الذين تمكنوا من اختيار رئيس من حزبهم بعد خمس واربعين سنة من هيمنة المحافظين . ولم يكن الدكتور اوربينو متفقا في ذلك : فرئيس ليرالي لا يبدوله اقل او اكثر من رئيس محافظ ، سوى انه اسوأ هنادما . ومع ذلك ، لم يشأ معارضة الاسقف . رغم انه رغب بان يلمح له ان احدا لم يدع لحضور الغداء من اجل افكاره وانما لشرف عتده ، وان هذه كانت دائما فوق نكبات السياسة وفطائع الحرب . واذا نظرنا بهذا المنظار ، فليس هنالك اي خلل حقا .

توقف وابل المطر نجاة كما بدأ ، وانتهت الشمس في السماء الصافية فورا ، لكن العاصفة كانت من العنف بحيث انتزعت بعض الاشجار من جذورها ، وتحول الماء المتجمع حول الفناء الى مستنقع راكد ، اما الكارثة الكبرى فكانت في المطبخ ، حيث اقيمت عدة مواعد من الطوب في القسم الخلفي من البيت ، في العراء ، وما كاد الطهاة يضعون القدور بمنأى عن المطر ، حتى راحوا يضيئون قننا ثميناً في نزع الماء من المطبخ الغارق واقامة مواعد جديدة على عجل في الرواق الخلفي ، ولكن حالة الطوارئ انتهت في الواحدة ظهرا ، ولم يكن ينقص سوى الحلوى التي كلفت بصنعها راهبات سانتا كلارا ، اللواتي وعدن بارسالها قبل الساعة الحادية عشرة . وكانت الخشية من ان تكون ساقية الطريق الرئيسي قد فاضت كثيرا ، كما يحدث عادة في فصول شتاء اقل قساوة ، ففي هذه الحالة لا يمكن وضع الحلوى في الحسب قبل مرور ساعتين . ما ان توقفت المطر حتى فتحو النوافذ ، فلطف الهواء المنقى بكبريت

(١) قائمة باصناف الطعام

العاصفة جو البيت . ثم امروا بان تعزف الفرقة الموسيقية برناجمها على منصبة الرواق، لكن ذلك لم ينفع سوى في زيادة الجزع ، لان دوي النحاس داخل البيت كان يضطربهم لتبادل الحديث صراخا . فامرت اميتتادي اوليفيا المنهكة من الانتظار، والتي كانت تبتمس وهي على حافة الدموع ، بتقديم الطعام .

بدأت فرقة مدرسة الفنون الجميلة الوتربة بالعزف وسط صمت رسمي استمر حتى النغمات الاولى من معزوفة لاثساس لموزارت . ورغم الاصوات التي اخذت تعلوا اكثر فاكثا وتصبح اشد اختلاطا، ورغم عرقلة خدم دون سانتشو الزوج الذين لم يكن الفراغ بين الموائل يكفي لمروهم وهم يحملون الصواني التي يتصاعد منها البخار، فقد تمكن الدكتور اوربينو من الاحتفاظ بقناة مفتوحة على الموسيقى حتى نهاية البرنامج . كانت قدرته على التركيز تنقص سنة بعد اخرى، حتى انه كان يضطر الى تسجيل كل حركة شطرنج يقوم بها على الورق ليعرف اين صار في اللعب . ومع ذلك، فهو ما زال قادرا على مواصلة محادثة جدية دون ان يغفل خيط الموسيقى ، رغم انه لا يصل في ذلك الى الحد الذي يصله قائد اوركسترا الماني، كان صديقا حبيبا له خلال فترة اقامته في النمسا، اذ كان يقرأ بوة موسيقية لدون جيوفاني فيما هو يسمع تانهاوزر.

المقطوعة الثانية في البرنامج كانت الموت والصبية ، لشوبرت، وبدا له انها تعزف بدوامية سهلة . وفيما هو يستمع اليها بمعاناة شديدة، من خلال الجلبة الجديدة التي اثارها ادوات ألطعام في الصحون، كان يحتفظ بنظره معلقا بشباب ذي وجه وردي حياه بانحناءة من رأسه . لا شك انه رآه في مكان ما، لكنه لا يذكر اين . ان هذا يحدث له كثيرا مع الاسماء، فهو ينسى احيانا اسماء اقرب الناس اليه، وكذلك مع الحان زمن اخر، مما يثير فيه قلقا خفيفا، جعله يفضل الموت في احدي الليالي على الاحتمال حتى الفجر . وكان على وشك الوصول الى هذه الحالة عندما اضاء له بريق مشفق ذاكرته : الشاب هواحد تلاميذه من العام الفائت . وفوجيء برؤيته هنا، في مملكة الصموة، لكن الدكتور اوليفيا ذكره بانه ابن وزير الوقاية الصحية، وقد جاء الى هنا لتحضير اطروحة في الطب الشرعي . و اشار له الدكتور خوفينال اوربينو بتحية سعيدة من يده، فوقف الشاب ورد على التحية باحترام . اما لم يخطر للدكتور اوربينو حينئذ، ولا فيما بعد، بانه المتمرن الذي كان معه صباح هذا اليوم في بيت حيرميا دي سانت - آمور.

مع احساسه بالراحة لهذا الانتصار الجديد على الشيخوخة، غادر الغنائية الصافية المنساة لآخر مقطوعة موسيقية في البرنامج، لم يستطع تحديد هويتها . وقد اخبره بعد ذلك عازف الكمان الشاب في المجموعة، الذي رجع من فرسا منذ وقت قريب، بان المقطوعة هي

الرباعية الوترية لغابرييل فاوريه، الذي لم يكن الدكتور أوربينو قد سمع باسمه رغم ترصده الدائم لكل جديد من أوروبا. فIRMينا دائما، المنتبهة إليه، كمادتها، وخصوصا عندما تراه ساهما وسط الناس، توقفت عن تناول الطعام ووضعت يدها الدنيوية على يده، وقالت له: «لا تفكر في الامر اكثر». فانتسم لها الدكتور أوربينو من الضفة الاخرى للغيبوبة، وكان ان عاد حينئذ للتفكير فيها كانت هي تخشاه. تذكر جبرميا دي سانت-أمور، موسدا في هذه الساعة في التابوت بزيه العسكري الزائف وميدالياته الكاذبة، تحت نظر اطفال الصور المتهمه. التفت نحو الاسقف ليطلمعه على خبر الانتحار، لكنه كان عارفا به. كان قد تحدث معطولا في هذا الامر بعد القداس الكبير، بل انه تلقى طلبا من الكولونيل جير ونيوارغوتي، باسم لاجئي الكاريبي، لدفنه في الارض الطاهرة. قال: «ان الطلب بعد ذاته برأيي هوقلة احترام»، ثم، بلهجة اكثر ادمية، سآله ان كان يعرف سبب الانتحار. ورد عليه الدكتور أوربينو بكلمة صحيحة ظن انه اخترعها في تلك اللحظة: خوف الشيخوخة. الدكتور اوليفيا، الذي كان منصرفا باهتمامه الى اقرب الضيوف مه، تركهم لبرهة ليشارك في الحوار مع استاذة. قال: «من المؤسف اننا ما زلنا نلتقي بمنتحردافعه للانتحار ليس الحب». ولم يفاجأ الدكتور أوربينو من التعرف على افكاره في آراء تلميذه النحيب. فقال:

- بل الاسوأ من ذلك ان الانتحار تم بسيانور الذهب. ما ان قال ذلك حتى احس بان الشفقة قد عادت لتتغلب على مرارة الرسالة، ولم يرجع الفصل في ذلك الى زوجته وانما الى معجزة من معجزات الموسيقى، حينئذ حدث الاسقف عن القديس الملحد الذي تعرف هو نفسه عليه في امسيات الشطرنج البطيئة، وحدثه عن تكرسه لفنه من اجل اسعاد الاطفال، وعن سعة اطلاعه العجيبة على كل شؤون الدنيا، وعن عاداته الاسبارطية، وقد فوجيء هو نفسه بنقاء الروح الذي مكنه من الانفصال فجأة وبشكل كامل عن ماضيه. ثم حدث العمدة عن اهمية شراء ارشيف مسودات الصور لحفظ صور جيل ربما لن يعود للشعور بالسعادة خارج صوره، جيل في يديه مستقبل المدينة. لقد دعر الاسقف لان كاثوليكيًا مواظبا ومطلعا تجرأ على التفكير بقدسية منتحر، لكنه وافق على المبادرة الى ارشفة مسودات الصور، واراد العمدة ان يعرف ممن عليه ان يشتريها. فكوى الدكتور أوربينو لسانه بجمرة السر، لكنه استطاع احتماها دون الكشف عن واردة الارشيف السرية، وقال: «انا ساتولى الامر». واحس باننه افندى بوفائه المرأة التي تركها قبل خمس ساعات. لاحظت فيرمينا دائما ذلك، وجعلته يعاها بصوت واطيء على حضور الدفن. طبعًا سأفعل - قال مرجعا عن نفسه - كل شيء الا هذا.



كانت الخطبة قصيرة وبسيطة، وبدأت فرقة الآلات النفضية بعزف موسيقى غوغائية، غير مقررّة في البرنامج، وانتقل المدعوون الى الشرفات بانتظار ان ينتهي رجال فندق دون سانتشومن نزح الماء المتجمع في الفناء، ليرؤا ان كان هنالك من سينحس للرقص. والوحيدون الذين بقوا في الصالة هم مدعو وطاولة الشرف، الذين كانوا يجنفلون باحتساء الدكتور اوربينو نصف كأس من البراندي دفعة واحدة في نخب اخير. ليس هناك من يذكر انه فعل ذلك قبل اليوم، ما عدا ارتشافه كأس نبيذ من صنف فاخر، مع وجبة خاصة جدا في مناسبات قليلة، لكن قلبه طلب هذا في ذلك اليوم، وكان ضعفه حسن لائابة: اذ احس مجددا، بعد سنوات وسنوات، برغبة في الغناء. وكان سيفعل ذلك دون شك، بناء على طلب عازف الكيان الشاب الذي تطوع لمرافقته، لولا ان سيارة من السيارات الجديدة اجتازت احوال الفناء بسرعة، ملوثة الموسيقين بالوحل ومثيرة طيور البط في الانفاص بنفيراها الذي كصوت البط، وتوقفت امام مدخل البيت. نزل الدكتور ماركو اوريليو اوربينو داثا وزوجته وهما غارقان بالضحك، يحملان في كل يد صينية مغطاة بقباش محرم. وكانت هناك صوان اخرى مماثلة في المقاعد الخلفية، وعلى ارضية السيارة الى حطب السائق ايضا. انها الحلوى المتأخرة. وبعد ان توقف التصفيق وصفير السخريه الودود، شرح الدكتور اوربينو داثا بجديّة كيف ان الراهبات طلبن منه نقل الحلوى قبل ان تبدأ العاصفة، لكنه رجع من الطريق العام لان احدهم قال له بان بيت والديه يحترق، اصاب الذعر الدكتور خورفينال اوربينو دون ان ينتظر انتهاء ابنه من الحكاية. لكن زوجته ذكرته بانه هو نفسه قد امر باستدعاء رجال الاطفاء للامساك بالبيغاء، وقررت اميتادي اوليفيا، المتألقة بهجة، ان تقدم الحلوى على الشرفات، حتى ولو كان ذلك بعد تناولهم القهوة، لكن الدكتور اوربينو وزوجته انصرفا دون تذوقها، لان الوقت المتبقي لا يكاد يكفي لنوم قبلولته المقدسة قبل ان يذهب الى الجنّازة.

نام قبلولته، انها لوقت قصير وبشكل سيء، لانه عندما عاد الى البيت، وجد ان رجال الاطفاء قد تسببوا باضرار تقارب بخطرتها اضرار حريق، ففي محاولتهم لافراق البيغاء، اسقطوا احدي الاشجار بخراطيم الضغط المرتفع، ودخلت دفقة ماء سيئة التصويب من نافذة حجرة النوم الرئيسية محدثة اضرارا لا مجال لاصلاحها في الاثاث وفي صور الاجداد المجهولين المعلقة على الجدران. وقد هرع الجيران عندما سمعوا جرس سيارة الاطفاء، معتقدين ان حريقا قد شب. واذا كانت لم تحدث قلاقل اسوأ، فلان المدارس كانت مغلقة لان اليوم هو يوم احد، وعندما ايقنوا انهم لن يتمكنوا من الوصول الى البيغاء حتى باستخدام السلام ذات الاجزاء الاضافية، اخذ رجال الاطفاء يحطمون الاغصان

بالفؤوس، وكان ظهور الدكتور اوربينودا هو الذي منعهم من بتر جذع الشجرة. فتوقفوا بعد ان وعدوا بالرجوع بعد الساعة الخامسة ليرأوا ان كانوا يخولونهم بتقليم الشجرة. وفي طريقهم لوثوا الشرفة والصالة بالوحل، ومزقوا سجادة تركية هي المفضلة لدى فيرمينا داتا، فكانت كارثة بلا طائل. اضافة الى ان الرأي السائد كان القائل بان البيغاء قد انتهزت فرصة القوضى لتهرب عبر الباحات المجاورة، وقد بحث عنها الدكتور اوربينو فعلا بين اوراق الشجرة، ولم يتلق ردا بآية لغة، ولا حتى بالصغير والغناء، فاعتبرها مفقودة ومضى لينام في حوالي الساعة الثالثة وقبل ذلك تلذذ بمتعة بوله المصغى بالهلون الدافئ.

يقظ الاسى. ليس الاسى الذي احسه صباحا وهو امام جثة صديقه، وانما الغماة اللامرئية التي كانت تضمخ روحه بعد القيلولة، والتي اعتبرها اخطارا الهيا بانه يعيش اخر امسياته، لم يكن يعي حتى بلوغه سن الخمسين حجم او وزن احواله احشائه. وشيثا فشيثا، وفيها هو يردد مغمض العينين بعد القيلولة اليومية، بدأ يشعر باحشائه في جوفه، جزءا جزءا، بدأ يحس حتى بشكل قلبه المسهد، وكبد الغامض، وبكر يسه الكتم، وراح يكتشف ان جميع الناس، بما فيهم اولئك الاكبر منه سنا، كانوا اصغر منه، وانه الوحيد على قيد الحياة من بين ابناء صوره جيله النائي. وعندما تنبه الى حالات نسيانه الاولى، سارع لاستخدام طريقة سمعها من احد اساتذته في مدرسة الطب: «من لا ذاكرة له فليصنع ذاكرة من الورق». لكنها لم تكن سوى وهم زائل، اذ وصل الى اقصى درجات النسيان بنسيانه ما تعنيه ملاحظات التذكير التي كان يدسها في جيوبه، وصار يلذع البيت بحثا عن نظارته التي يضعها على عينيه، ويعيد ادارة المفتاح بعد ان يكون قد اقفل الباب، ويضيع خيط القراءة بنسيانه مقدمات البراهين او اوصاف الشخصيات. لكن اكثر ما كان يقلقه هو ارتيابه بقدرة العقلية ذاتها: وشيثا فشيثا، في غرق محتم، كان يشعر بانه يضع معنى العدالة.

ومن خلال التجربة وحدها، وذلك دون مرتكزات علمية، كان الدكتور خوفينا اوربينو يعرف ان معظم الامراض القاتلة لها رائحة خاصة، لكن ايا منها ليس محدد الرائحة كما هو داء الشيخوخة. كان يلمس ذلك في الجثث المفتوحة على طاولة التشريح، ويتعرفه حتى في اكثر المرمى اتقانا في اخفاء سنهم الحقيقي، وفي عرق ثيابه بالذات، وفي التنفس الاعزل لزوجته النائمة. ولولا انه كان في اعياقه، مسيحيا على الطريقة القديمة، فربما كان قد اتفق مع جرميا دي سانت - آموربان الشيخوخة هي حالة تردد يجب تفاديها مسبقا. ان العزاء الوحيد، حتى بالنسبة لمن كان رجلا جيدا في السرير مثله، هو الانطفاء البطيء. والرووف للرغبة: السلام الجنسي. لقد كان وهو في الحادية والثمانين يتمتع بوعي يجعله يدرك انه مشدود الى هذا العالم بخيوط واهية قد تنقطع دون الم بمحرد حركة بسيطة اثناء النوم، واذا

كان يفعل كل ما يمكنه للاحتفاظ بتلك الخيوط فذلك لخوفه من الا يجد الرب في ظلمات الموت.

كانت فيرمينا دائما قد انهمكت في ترتيب حجرة النوم التي عاث فيها رجال الاطفاء، وقبيل الساعة الرابعة بقليل حملت الى زوجها كأس الليمونادة اليومي مع الثلج المكسر، وذكرته بان عليه ان يرتدي ملابسه ليذهب الى الجنائز. كان تحت تناول يد الدكتور هذا المساء كتابان اثنان: الانسان، ذلك المجهول لالكسيس كاريل، وتاريخ سان ميشيل لأكسيل مونث. ولم يكن الكتاب الاخير قد فتح بعد، فطلب من ديغا باردو، الطاهية، ان تأتيه بفتاحة الكتب العاجية التي نسيها في حجرة النوم. ولكن عندما جازوه بها كان قد بدأ القراءة في كتاب الانسان ذلك المجهول في الصفحة المعلمة بمغلف رسالة: كانت لا تزال امامه بضع صفحات قليلة لانها الكتاب. قرأ بتهمل، شافا الطريق عبر منعطفات نقطة الم في الرأس عزاهها الى نصف كأس البراندي الذي شربه في النخب الاخير. وفي وقفاته عن القراءة كان يتناول رشفة من الليمونادة، او يتهمل في قضم قطعة من الثلج، كان لابس جوربيه، وقمصه دون وضع الياقة المنفصلة، فيما حملتا البنطال المطاطيتان بخطوطهما الخضراء تتدليان على جانبي خصره، وكان يزعجه مجرد التفكير بان عليه استبدال ملابسه من اجل الجنائز. ما لبث ان توقف عن القراءة، ووضع الكتاب فوق الكتاب الاخر، وبدأ يتأرجح على مهل في كرسي الخيزران الهزاز، متأملا من خلال الاسى شجيرات الموز في مستنقع الفناء، وشجرة المانغا منتوفة الاغصان، ونمل ما بعد المطر الطيار، والضياء الفاني لمساء اخرينفضي الى الابد. كان قد نسي انه كان يملك ببغاء في احد الايام وانه احبها كما يحب كائنا بشريا، عندما سمعها فجأة: «ببغاء ملكي». سمعها قريبا جدا منه، الى جواره تقريبا. ثم رآها في الحال على أوطأ اغصان شجرة المانغا. فصرخ بها:

- عديمة الحياء.

وردت الببغاء بصوت مطابق تماما:

- عديم الحياء هوانت يا دكتور.

تابع الحديث معها دون ان يرفع نظره عنها، ريشا لبس جزمته بحذر شديد حتى لا يثيفها، ودس يديه في حمالتي البنطال، ونزل الى الفناء الذي ما زال موحلا متلمسا الطريق بعكازه كي لا يصطدم بدرجات المصطبة الثلاث. بقيت الببغاء دون حراك. وكانت تقف على ارتفاع منخفض جدا، للدرجة انه مد لها العكاز لتقف على قبضته الفضية، كما تفعل عادة، لكن الببغاء اعرضت عنها. قفزت الى غصن مجاور، اعلى قليلا لكن الوصول اليه اسهل، حيث كان السلم الخاص بالبيت مسندا قبل مجيء رجال الاطفاء. قدر الدكتور

«ورينو الارتراف»، وفكرانه بارتقاء عارضتين من عوارض السلم سيتمكن من الامساك بها .  
صعد الدرجة الاولى ، مغنيا اغنية يعرفها كلاهما ليشتت انتباه الطائر الفظ الذي كان يكرر  
الكلمات دون الموسيقى ويتبعد على الغصن بحركات جانبية . صعد العارضة الثانية دون  
مشقة وهو . . . . .ك السلم بكلتا يديه ، وبدأت البيغاء بتريد الاغنية كاملة دون ان تبدل  
مكانها . ارتقى العارضة الثالثة ، ثم الرابعة في الحال ، اذ انه اساء تقدير ارتفاع الغصن ،  
وحينئذ تشبث بيده اليسرى بالسلم وحاول امساك البيغاء باليمنى . كانت ديغنا باردو،  
الحادمة العجوز قادمة لتنبيهه الى انه يكاد يتأخر عن موعد الجنائز ، فرأت ظهر الرجل  
الصاعد على السلم ، ولم تكن لتصدق انه هولولا الخطوط الخضراء التي على حمالة البطال  
المطاطية .

صرخت :

- يا ربنا! اقدس! سيقتل نفسه! .

امسك الدكتور اورينو بعنق البيغاء وهو يتهد ظافرا : انتهى الامر ، لكنه افلتها فورا ،  
لان السلم انزلق تحت قدميه وبقي هومعلقا لبرهة في الهواء ، فادرك حينئذ انه قد مات دون  
قربان رباني ، ودون ان يتاح له الوقت ليندم على شيء اوليودع ايا كان ، في الساعة الرابعة  
وسبع دقائق من مساء يوم احد المنصرة .

كانت فيرمينا دائما في المطبخ تذوق حساء العشاء ، عندما سمعت صرخة الرعب التي  
اطلقتها ديغنا باردو وجلبه خدم البيت ثم خدم البيوت المجاورة . القت بملعقة التذوق  
وحاولت الركض بقدر ما استطاعت مع ثقل سنبا الذي لا سبيل الى هزيمته ، صارخة  
كمجنونة ، دون ان تعرف حتى الان حقيقة ما جرى تحت اوراق شجرة المانغا ، وقفز قلبها  
مفتتا عندما رأت رجلها مطروحا على ظهره في الوحل ، ميتا في الحياة ، لكنه ما زال يقاوم  
ضربة الموت الاخيرة ريثما تصل هي . تمكن من التعرف عليها وسط الحشد ومن خلال دموع  
الالم التي لا تتكرر لموتها ، وتطلع اليها لآخر مرة والى الابد بعينين اشد بريقا ، واكثر  
حزنا ، واعظم امتنانا عما رآته طوال نصف قرن من الحياة المشتركة ، واستطاع ان يقول لها مع  
النفس الاخير :

- الله وحده يعلم كم احببتك .

كانت ميتة مشهودة ، وليس ذلك من فراغ ، لما ان انهى دراسته التخصصية في فرنسا ،  
حتى ذاع صيت الدكتور خوفاينال اورينو في البلاد بانه من درأ مسبقا ، باساليب مستحدثة  
وصارمة ، اخطار جائحة الكوليرا الاخيرة التي تعرض لها الاقليم . فالجائحة السابقة ، التي  
جاءت وهو ما يزال في اوربوا ، تسببت في موت ربع عدد السكان على الاقل خلال ثلاثة

شهور، بما في ذلك ابوه، الذي كان طبيبا بارزا ايضا. بهذه الشهرة السريعة وباعانة من الارث العائلي، اسس المؤسسة الطبية، وهي المؤسسة الاولى والوحيدة في اقاليم الكاريبي لسنوات طويلة، وكان رئيسا لها مدى الحياة، ثم انشأ اول عتديات لمياه الشرب بعد ذلك، واول نظام للصرف، ودعا لاقامة السوق العام المسقوف الذي جعل شاطئ لاس اينهاس صحيا بعد ان كان مجمعا للتلانة. كما كان رئيسا لأكاديمية اللغة وأكاديمية التاريخ. وقد نصبه بطريك القدس فارسا من مرتبة سانتوسيولكر وخدماته التي قدمها للكنيسة، ومنحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من مرتبة فارس. كما كان محركا فعالا في جميع الجمعيات المدنية والمدنية التي اقيمت في المدينة، وخصوصا الجمعية الوطنية، المؤلفة من مواطنين مؤثرين ليست لديهم طموحات سياسية، يمارسون نفوذهم على الحكومات والتجارة المحلية بافكار متنوعة تتسم بالجرأة بالمقارنة مع الظروف التاريخية. من هذه الافكار، واكثرها جدارة بالذكر، كانت تجربة منطاد حمل في طيرانه الاول رسالة الى بلدة سان خوان دي لاسيناغا، قبل زمن طويل من التفكير بالريد الجوي كوسيلة عقلانية، ومن افكاره ايضا اقامة المركز الفني، الذي اسس مدرسة الفنون الجميلة في المبنى ذاته الذي مازالت تحتله حتى الان، كما رعى طوال سنوات عديدة مهرجان الزهور في نيسان.

وهو وحده تمكن من تحقيق ما اعتبر مستحيلا خلال قرن من الزمن: اعادة افتتاح مسرح الكوميدي، الذي تحول الى ملعب لصراع الديكة ومربي ديوك منذ العهد الاستعماري. كان ذلك تنويجا لحملة مدنية استعراضية شاركت بها جميع قطاعات المدينة بلا استثناء، في تحرك حاشد اعتبره الكثيرون جديرا بقضية اهم. ومع ذلك، فقد جرى افتتاح مسرح الكوميدي في الوقت الذي لم تكن توجد فيه مقاعد ولا مصابيح، وكان على الحضور ان يجلبوا معهم ما يجلسون عليه وما يستضيئون به في الاستراحات بين الفصول. وفرضت آداب الاتيكيت القائمة في اعظم مسارح اوربا، حيث انتهزت سيدات المجتمع الراقي الفرصة لعرض فساتينهن الطويلة ومعاطف الفراء في حر الكاريبي الحائق، انما كان لا بد من السماح للخدم بالدخول ليحملوا المقاعد والمصابيح، وكذلك بعض الاطعمة التي كانوا يرون انها ضرورية لاحتمال البرامج الطويلة التي لا تنتهي، والتي استمر احدها حتى ساعة صلاة الفجر الاولى. وافتتح الموسم بفرقة اوربا فرنسية كان الجديد لديها استخدام قيثارة في الاوركسترا، وكان مجدها التليد في الصوت النقي والموهبة الدرامية لمغنية تركية تغني وهي حافية وتضع خواتم ذات احجار كريمة في اصابع قدميها. ومنذ الفصل الاول لم تعد مرئية تقريبا وفقد المغنون اصواتهم بفعل الدخان المنطلق من مصابيح زيت الكوروثو، لكن كتبة وقائع المدينة اهتموا بمحو هذه المواقف الصغيرة وتعظيم ما هو جدير بالذكر. وقد كانت هذه دون شك

أكثر مبادرات الدكتور أوربينو انتشاراً، إذ انتقلت عدوى حمى الأوباء إلى قطاعات في المدينة لا تخطر على بال، وكانت منطلقاً لجيل كامل من الأسوليدات والعطيلين، ومن العابدات والسيفريدين<sup>(١)</sup>، لكن ذلك كله لم يصل إلى الحد الذي تمناه الدكتور أوربينو، ألا وهو رؤية نصار الموسيقى الإيطالية وأنصار فاغنر يواجهون بعضهم بعضاً بالعكاز أثناء الاستراحات.

لم يقبل الدكتور أوربينو مطلقاً أي منصب رسمي من المناصب التي كثيراً ما كانت تعرض عليه دون شروط، وكان ناقداً قاسياً للأطباء الذين يستغلون سمعتهم المهنية ليرتقوا المناصب السياسية. ورغم أنه اعتبر ليبرالياً دوماً، واعتاد على التصويت في الانتخابات لمرشحي هذا الحزب، فربما كان كذلك آخر أبناء الأسر الكبيرة الذي يركع في الشارع لدى مرور مركبة الأسقف. وكان يعرف نفسه كنصير طبيعى للسلام، ونصير للصالح النهائي بين الليبراليين والمحافظين من أجل مصلحة الوطن. لكن سلوكه العام كان ذاتياً لدرجة أن أحداً لم يعتبره موالياً له: فالليبراليون يرون فيه قوطياً من قوطي الكهوف، والمحافظون يقولون إن ما ينقصه هو أن يكون ماسونياً فقط، ويتبعد عنه الماسونيون باعتباره كاهناً متخفياً يعمل في خدمة الكرسي البابوي. وأقل نقاده دموية كانوا يفكرون بأنه ليس سوى أرستقراطي غارق في ملذات ألعاب عيد الزهور، فيما الأمة تنزف في حرب أهلية لا تنتهي.

عمالان وحيدان قام بهما فقط ويديا غير منسجمين مع هذه الصورة. الأول هو انتقاله إلى بيت جديد في حي محدثي الثراء، بدلاً من قصر الماركيز دي كاسالديرو القديم، والذي كان بيت العائلة لأكثر من قرن. والعمل الآخر هو زواجه من آية جمال شعبية، بلا القاب ولا ثروة، تلك التي كانت تسخر منها سرا السيدات ذوات الألقاب الطويلة إلى أن اقتنعن بالقوة أنها قادرة على اللف بهن سبع لفات برشاقتهما وطبعها. وقد كان الدكتور أوربينو يضع في اعتباره دوماً هذه العثرات وغيرها مما يحيط بصورته العامة، ولم يكن هناك من هو أكثر منه وعياً لحالته كأختر رجل من أبناء لقب آخذ في الانقراض. فأبناءه كانوا نهاية سلالة لا بصيص أمل لها في الاستمرار. ابنه الذكر، ماركو أورليو، طبيب مثله ومثل كل أسلافه في كل جيل، لم يفعل شيئاً يستحق الذكر، حتى أنه لم ينجب ابناً، رغم تجاوزه الخمسين من العمر. وأوفيليا، ابنته الوحيدة، متزوجة من موظف مرموق في مصرف بينو أورليانز، وقد بلغت سن اليأس ولم تنجب سوى ثلاث بنات دون أي مولود ذكر. مع ذلك، ورغم أن انقطاع رحمها في بنوع التاريخ كان يسبب له الأسى، فإن أكثر ما كان يقلقل الدكتور أوربينو من الموت هو الحياة

(١) صيغة جمع لاسماء أسولة، عطيل، عايلة، سيفريدي، وهي شخصيات درامية مشهورة.

المتوحدة التي ستعيشها فيرمينا دائما بدونه .

لقد اثارت المسألة على كل حال قلقا ، ليس بين ذويه فحسب ، بل انها انتقلت بالعدوى الى عامة الشعب ، الذي خرج الى الشوارع على أمل التعرف ولوعلى بريق الاسطورة . اعلنت ثلاثة ايام من الحداث ، ونكست الاعلام على الدوائر العامة ، وقرعت نواقيس جميع الكنائس دون توقف الى ان ختم الضريح في مدفن العائلة . وقامت مدرسة الفنون الجميلة بطبع وجه الجثة لاستخدامها كقالب لتمثال نصفي بالحجم الطبيعي ، ولكن تم التخلي عن المشروع لان احدا لم يرتق طبع الوجه امينة بعد التحول الذي اصابه اثر رعب اللحظة الاخيرة ، ثم رسم فنان شهير مرمم هنا مصادفة ، وهو في طريقه الى اوروبا ، لوحة زيتية ضخمة بواقعية مؤثرة ، يظهر فيها الدكتور اوربينو متسلقا السلم في اللحظة القاتلة التي مد فيها يده للامساك بالبيغاء . والشيء الوحيد الذي كان يناقض الحقيقة الخام في القصة هو انه لم يكن يرتدي في اللوحة قميصه الذي بلا ياقة وحمالي السروال المخططين بالاخضر ، وانما القبعة المدورة والسترة السوداء المأخوذة عن صبرة منشورة في الصحف خلال سنوات الكوليرا . وقد عرضت هذه اللوحة بعد شهر قليلة من المسألة كي يراها الجميع بلا استثناء ، في صالة السلك الذهبي الفسيحة ، وهي دكان لبيع المواد المستوردة يؤمها سكان المدينة بأسرها . بعد ذلك علقت على جدران عدد من المؤسسات العامة والخاصة التي رأت انه من الواجب تقديم فروض الاحترام لذكرى نبيل شهير ، ونقلت اخيرا في جنازة ثانية لتعلق في مدرسة الفنون الجميلة ، حيث اخرجها من هناك بعد سنوات طويلة طلاب الرسم بالذات لاحراقها في ساحة الجامعة كرمز لجمالية وازمنة مكروهة .

منذ اللحظة الاولى في حياتها كأرملة ، بدا ان فيرمينا دائما ليست بائسة كما خشي زوجها . فقد اتخذت موقفا متصليا بالاصرار على عدم السماح باستخدام الجثة في سبيل اية قضية ، كما اتخذت موقفا مماثلا من برقية رئيس الجمهورية ، الذي امر بعرض الجثمان في الحجره الخانقة في صالة الاحتفالات التابعة للسلطة المحلية ، وعارضت بنفس الصرامة ان يجري السهر على الجثمان في الكندرائية ، كما طالب الاسقف شخصا ، ووافقت على نقله الى هناك خلال قداس الجسد الحاضر في المراسم الجنائزية . ورغم توسط ابنها ، المذلول لكثرة هذه المطالب وتنوعها ، حافظت فيرمينا دائما باصرار على فكرتها الريفية القائلة بان الموتى لا ينتمون الى احد سوى عائلاتهم ، وبانه سيجري السهر على الجثة في البيت مع تقديم القهوة المرة وكعك الجبن والدقيق ، وافساح المجال لكل من يشاء لان يبيكه كما يرغب . لم يجز السهر التقليدي الذي يدوم سبع ليال ، بل اغلقت الابواب بعد الدفن ولم تعد تفتح الا لزيارات حميمة .

وضع البيت تحت نظام الموت . كل شيء ذي قيمة نقل الى مكان آمن ، ولم يبق على الجدران العارية سوى اثار الصور المنزوعة من مكانها . وصفت الكراسي الخاصة وتلك المستعارة من الجيران بمحاذاة الجدران في الصالة ، وحتى في غرف النوم ، وبدت المساحات الفارغة فسيحة جدا ، وكان للاصوات زنين خاص ، لان قطع الاثاث الكبيرة قد ابعدت ، ما عدا بياناو الكونشيرات والقابع في ركنه تحت شرشف ابيض . وفي وسط المكتبة ، فوق طاولة والده ، كان مهدا في التابوت من كان خوفينال اوربينودي لاكايي ، وقد تصلبت على وجهه حالة الرعب الاخيرة التي احسها ، ومعه في التابوت العباءة السوداء وسيف فرسان سانتو سيولكرو الحربي . بينما فيرمينا دائما الى جانبه ، مرتعشة ولكن مسيطرة على نفسها تماما ، تتلقى التعازي بلا دراماتيكية ، ودون ان تتحرك تقريبا ، حتى الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالي ، عندما ودعت زوجها من الرواق الخارجي قائلة له وداعا بمندبل في يدها .

لم يكن من السهل عليها ان تناسك هكذا مذ سمعت صرخة ديفنا باردو في الفناء ، ووجدت شيخ حياتها يحترق في الوحل ، وقد كانت ردة فعلها الاولى مشبعة بالامل ، لان عينيه كانتا مفتوحتين وفيهما بريق ضوء مشع لم تره في حديثه ابدا من قبل . رجت الله ان يمنحه لحظة من الحياة على الاقل ، كي لا يمضي دون ان يعرف كم احبته فوق شكوكهما كليهما ، واحست باستعجال لا يقاوم للبدء معه بالحياة ثانية منذ البداية لتقول له كل ما لم تقله ، ولتفعل على احسن وجه كل شيء كانت قد اساءت صنعه في الماضي . ولكنها اضطرت للاستسلام امام عناد الموت ، لقد تحلل منها الى غضب اعمى ضد العالم ، بل وضد نفسها بالذات ، وهذا ما رسخ سيطرتها على نفسها ومنحها الشجاعة لمواجهة العزلة منفردة . لم تجد هدنة منذ ذلك الحين ، لكنها حاذرت من الاتيان باية حركة قد يبدو فيها ما ينم عن المها . واللحظة الوحيدة التي احست فيها بشيء من التأثر ، وكان تأثرا لا إراديا ، كانت في الساعة الحادية عشرة من ليل الاحد ، عندما حملوا التابوت الذي ما زالت تنبعث منه روائح كروائح السفن ، بمقابضه النحاسية وتنجيده الحريري اللثير . لقد امر الدكتور اوربينودا باغلاقه فوراً ، فجاء البيت كان مملوءا بروائح كل تلك الزهور في الحر الخائق ، واحس بانها قد رأى اول الظلال البنفسجية على عنق ابيه . وفيما هي ساهية ، سمعت في الصمت : « ان المرء ليصبح شبه متعفن وهو حي في مثل هذه السن » . وقبل ان يغلقوا التابوت ، نزع فيرمينا دائما خاتم الزواج من يدها ووضعت في يد زوجها الميت ، ثم غطت يده بيدها كما كانت تفعل دائما كلما فاجأته شاردة وسط الناس . وقالت له :

- سنلتقي قريبا جدا .



احس فلورينتينوارثا، المختفي بين جموع الوجهاء والاعيان، بحرية تخترق خاصرته، لم تكن فيرمينا دائما قد ميزته وسط صخب التمزيات الاولى، مع ان احدا لم يكن اكثر حضورا ولا اكثر فائدة منه في شؤون تلك الليلة المستعجلة. فهو الذي نظم العمل في المطابخ الغاصة حتى لا تنقص القهوة. وحصل على كراس اضافية عندما لم تعد كراسي الجيران كافية، وامر بوضع الاكوابيل الزائدة في الفناء عندما لم يعد في البيت متسع لأكليل اخر. وتولى امر عدم انقطاع البراندي من اجل ضيوف الدكتور لاينديس اوليفيا، الذين علموا بالخبر المشؤوم وهم في اوج الاحتفال باليوبيل الفضي، فجاءوا فرعين ليتابعوا احتفالهم وهم جالسون على شكل دائرة تحت شجرة المانغا. وكان هو وحده من احسن التصرف حين ظهرت البيغاء الهاربة عند منتصف الليل في صالة الطعام رافعة رأسها وفاتحة جناحيها، مما اشاع قشعريرة ذهول في البيت، اذ كانت تبدو وكأنها تقدم عرض توبة وتكفير. امسكها فلورينتينوارثا من عنقها دون ان يتيح لها الوقت لتصرخ بأي من صرخاتها الحمقاء، وحملها الى الاصطبل في قفص مغطى. لقد فعل كل تلك الامور بصمت كامل وفعالية فائقة، لم تتبها بجلا لاحد كي يفكر بان ما يفعله هو تدخل في شؤون الآخرين، وانما مساعدة لا تمن في ساعة الشؤم التي يمر بها البيت.

كان يبدو عليه انه شيخ هرم خدوم وجدي. جسده عظمي ومعتدل، بشرته بنية ومراء، وعيناه شرهتان تطلان من وراء النظارة المستديرة ذات الاطار المعدني الابيض، له شارب رومسي طرفاه المدببان مثبتان ببادئة مثبتة، بطريقة متخلفة بعض الشيء عن العصر. وكان اخر ما تبقى له من الشعر على الصدغين مسرحا الى اعلى ومثبتا بمثبت شعر في وسط رأسه السامع، كحل اخير لصلعة متكاملة. ان مروءته الطبيعية واساليه الهادئة تسلب اللب في الحال، ولكن كان هناك امران يشيران الشكوك في عازب متباد في عزوبيته: لقد انفق مالا كثيرا، وحيلة واسعة وتصميا شديدا كي لا تظهر اثار السنوات الست والسبعين التي انما في شهر اذار الاخير، وكان مقتنعا في عزلة روحه بانه قد احب بصمت اكثر بكثير من اي كان في هذا العالم.

في ليلة موت الدكتور اوربينو كان يرتدي الملابس التي كانت عليه عندما فاجأه الخبر، وقد كانت نفس الملابس التي يرتديها دائما بالرغم من حر حزيران الجهنمي: بدلة من القماش الاسود مع صدرية، وشريط حريري معقود على الياقة القاسية، وقبعة من البلد، ومظلة من غملم اسود كان يستخدمها كمكاز ايضا. ولكن ما ان بدأ الفجر ينبلج حتى اختفى من مكان السهر على الميت لمدة ساعتين، عاد بعدهما مع اول اشعة الشمس بمظهر طارج، فقد حلق ذقنه جيدا وتطيب لمستحضرات تجميل، وارتنى سترة سوداء من تلك التي لم تعد تستخدم

الا في الجنائزات اوفي مراسم الاحتفال بالجمعة الحزينة ، وياقة ذات ربطه عنق مع شريطة  
الفسان بدلا من الكرافنة ، وقبعة مستديرة . كما كان يحمل المظلة ، وليس ذلك بفعل العادة  
وحدها ، وانما لانه كان متأكدا من ان المطر سيهطل قبل الثانية عشرة ، وقد اخبر بذلك  
الدكتور اورينودا ليرى ان كان بالامكان تقديم موعد الدفن ، وحاولوا ذلك فعلا ، لان  
فلورينتينوارثا ينتمي الى عائلة ملاحين وهو نفسه يرأس شركة الكرايبي للملاحة النهرية ،  
مما يسمح بالافتراض انه يفهم بالارصاد الجوية . لكنهم لم يتمكنوا من اخطار السلطات  
المدنية والعسكرية في الوقت المناسب ، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة ، والفرقة الموسيقية  
الحربية وفرقة موسيقى الفنون الجميلة ، والمدارس والجمعيات الدينية التي كانت متفقة على  
الساعة الحادية عشرة ، وهكذا فان الجنائز التي كان مقررا لها ان تكون حدثا تاريخيا انتهت  
شذرا بفعلا وبابل المطر المدمر . وكان قليلا عدد الذين تمكنوا من الغوص في الوحل  
للوصول الى مدفن العائلة الذي تظله شجرة ثيبيا استعارية تمتد ايكتها الى ما فوق جدار  
المقبرة . وتحث هذه الايكة بالذات ، انما في المنطقة الخارجية المخصصة للمتحرين ، كان  
لاجثو الكرايبي قد دفنوا في عصر اليوم السابق جيرميادي سانت - أمور ، وكلبه بجواره ،  
تنفيذا لمشيئته .

كان فلورينتينوارثا احد الفلائل الذين واصلوا حين الانتهاء من الدفن . لقد ابتلت  
حتى ملابسه الداخلية ، ووصل الى بيته مذعورا من تعرضه للاصابة بنزلة صدرية بعد كل  
هذه السنوات من الرعاية الدقيقة والاحتياطات المفرطة . اعد لنفسه ليمونادة دافئة مع قليل  
من البراندي ، وتناولها في السرير مع قرصين من الاسبرين وتعرق عرقا غزيرا وهو متدثر  
بحرام صوفي الى ان استعاد جسده حرايته العادية . وعندما رجع الى بيت العزاء احس  
بالحساس الكامل . كانت فيرمينا دائما قد تولت من جديدة قيادة البيت المكسوس والمهيا  
لاستقبال المعزين ، وكانت قد وضعت على المذبح الذي في المكتبة صورة لزوجها الميت  
مرسومة بالباستل ، وعلى اطرافها شريط حداد . في الساعة الثامنة كان هناك حشد كبير من  
الناس وكان الحر خائفا كما في الليلة السابقة ، ولكن بعد قداس الصباح بث احدهم رجاء  
يطلب الى الناس الانصراف باكرا كي تستريح الارملة للمرة الاولى منذ عصر يوم الاحد .  
ودعت فيرمينا دائما معظم المعزين وهي الى جانب المذبح ، لكنها رافقت المجموعة  
الاخيرة من الاصدقاء الحميمين حتى الباب الخارجي ، لتغلقه بنفسها ، كما اعتادت ان تفعل  
دائما ، وكانت تستعد لعمل ذلك باختر نفس متبق في صدرها عندما رأت فلورينتينوارثا  
مرتديا ملابس الحداد في وسط الصالة الخاوية . احسست بالسعادة ، لانها كانت قد محته من

حياتها منذ سنوات طويلة، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تراه فيها بوعي طهره النسيان. ولكن قبل ان تتمكن من شكره لهذه الزيارة، وضع قبعته فوق موضع القاب، وشق الدمل الذي كان قوام حياته، بان قال لها بصوت مرتعش ووقور:

- فير مينا. لقد انتظرت هذه الفرصة لاكثر من نصف قرن، لاکرر لك مرة اخرى قسم وفائي الابدی وحيي الدائم.

ظلت فير مينا دانا انها تقف امام معتوه، ولم تكن لديها الاسباب لفكر بان فلورينتينو اريثا كان ملها في تلك اللحظة بنعمة الروح القدس. وكان رد فعلها الاول ان لعته لانتهاكا حرمة البيت فيما جثت زوجها ما زالت ساخنة في القبر. لكن الوقار منعها من الغضب، فقالت له: «انصرف. ولا تدعني اراك ثانية في السنوات المتبقية لك في الحياة» ثم اعادت فتح الباب الخارجي على اتساعه بعد ان كانت قد بدأت باغلاقه، واختتمت قائلة:

- وارجو ان تكون سنوات قليلة.

عندما سمعت خطواته تنطفئ في الشارع المقفر، اغلقت الباب ببطء شديد، واقفلته بالمفعل والرتاجات، وواجهت قدرها وحيدة، لم تكن تعي تماما، حتى اليوم، وزن وحجم الماسة التي اثارتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، والتي ستلاحقها حتى موتها. بكت لأول مرة منذ مساء للصبية، دون شهود، وكانت هذه هي طريقها الوحيدة في البكاء. بكت لموت زوجها، لعزالتها وغضبها، وعندما دخلت غردها الخاوي بكت نفسها، لانها لم تنم في هذا الفراش وحيدة منذ فقدت عذريتها الا مرات قليلة. كل اشياء زوجها كانت تستثير بكاءها: الخلف ذو الشراية، البيجاما التي تحت الوسادة، مكانه الفارغ في خوان الزينة، رائحته الشخصية على بشرتها بالذات، وهزها خاطر مبهم: «على الناس اللذين يجبههم المرء ان يمسوتوا مع كل اشيائهم». لم تكن بحاجة لمساعدة احد كي تنام، ولم ترغب باكل شيء قبل النوم. ورجت الله، وهي مثقلة بالاسى، ان يبعث لها المسوت في هذه الليلة بالذات وهي نائمة، وعلى هذا الامل نامت. نامت دون ان تدري بانها نائمة، لكنها كانت تدري انها حية في نومها، وان لديها نصف سرير فائض عن حاجتها، وانها ترقد على جنبها في الطرف الايسر، كما هي عادت، انها ينقصها توازن الجسد الاخر على الطرف المقابل من السرير. وفيما هي نائمة تفكر، فكرت بانها لن تستطيع النوم ابدا بهذا الحال، وبدأت تنتحب وهي نائمة، ونامت منتحبة دون ان تغير وضعها على حافة السرير، الى ما بعد انتهاء صياح الديكة بكثير. وابظلتها شمس الصباح غير المرغوبة من دونه. وحينئذ فقط ادركت بانها قد

نامت طويلا دون ان تموت، منتجة في الحلم، وفيما هي تنام منتجة كانت تفكر بفلوريتينو  
ارثا اكثر من تفكيرها بزوجها الميت.

أما فلورينتينو أريشا فلم يتوقف عن التفكير بغير مينا دانا لل لحظة واحدة منذ أن رافضته بلا استثناء إثر غراميات طويلة متناقضة ، وقد انقضت منذ ذلك الحين إحدى وخمسون سنة وتسعة شهور وأربعة أيام . لم يكن عليه حمل حساب النسيان بوضع خط صغير يومي على جدران زنزانه ، لأنه لم يكن يمر يوم إلا ويحدث شيء يذكره بها . كان له من العمر عند القطيعة اثنتان وعشرون سنة وكان يعيش وحيداً مع أمه ، ترانسيتو أريشا ، في نصف بيت مُستأجر في شارع لاس بيتساناس ، حيث كانت لامه منذ سنوات شبابها تجارة خردوات وحيث كانت تنسل كذلك نسيج قمصان ومزق قماشية قديمة لتبيعها كقطن لجرحى الحرب . وكان هو ابنها الوحيد ، أنجته من لقاء عابر مع صاحب السفن المعروف دون بيرو الخامس لوايша ، أكبر الأشقاء الثلاثة الذين أسسوا شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، مقدمين بذلك دفعة جديدة للملاحة البخارية في نهر مجدلينا .

لقد مات دون بيرو الخامس لوايشا عندما كان ابنه في العاشرة من العمر . ورغم أنه كان يتولى دوماً أمر نفقاته سراً ، فإنه لم يعترف به أبداً كإبن له أمام القانون ، ولم يترك له ما يضمن مستقبله ، وهكذا بقي فلورينتينو أريشا يحمل لقب أمه فقط ، مع أن حقيقة نسبه كانت معروفة للجميع . وبعد موت الوالد ، كان على فلورينتينو أريشا أن يترك المدرسة ليعمل كمتنمر في وكالة البريد ، حيث كانوا يكلفونه بفتح الأكياس وترتيب الرسائل ، وإعلام الجمهور بوصول البريد عن طريق رفع راية البلد المرسل فوق باب المكتب .

ولقد لفتت حصاصته انتباه عامل التلغراف ، المهاجر الألماني لوتاريو توغوت ، الذي كان يعزف الارغن أيضاً في حفلات الكتدرائية الكبيرة ويعطي دروساً في الموسيقى في البيوت . وعلمه لوتاريو توغوت منهاج رموز المودرس وطريقة استخدام جهاز التلغراف ، وكانت دروس الكمان الأولى كافية ليشابح فلورينتينو أريشا العزف السامعي كمحترف . عندما تعرف على

فيرمينا دائماً، وهو في الثامنة عشرة من عمره، كان أكثر الشبان شهرة في وسطه الاجتماعي، فهو أفضل من يرقص على انغام الموسيقى الدارجة ويلقي القصائد العاطفية التي يحفظها عن ظهر قلب، كما كان دوماً وهن طلب اصدقائه الذين يريدون من يعزف لهم سيرناد كما منفرد تحت شرفات خطيباتهم. كان نحيلاً منذ ذلك الحين، له شعر هندي يبسطه بمرهم ذي رائحة، ويضع نظارة قصر النظر التي تضاعف من حدة مظهره المخدول. وازافة إلى قصر النظر، كان يعاني من امساك مزمن اضطره إلى استخدام الحقن الشرجية المليئة طوال حياته. كانت لديه بدلة احتفالية واحدة، ورثها عن ابيه المتوفى، لكن ترانسيوارثا كانت تحافظ عليها جيداً بحيث تبدو جديدة في كل يوم أحد. وبالرغم من هزاله، وعزلته، وطريقة لبسه الكثيفة، فان فتيات مجموعته كن يضربن قرعة سرية ليلعبن لعبة البقاء معه، وكان هو نفسه يلعب ليلقى معهن، حتى اليوم الذي تعرف فيه على فيرمينا دائماً وانتهت براءته.

لقد رأها للمرة الأولى في عصر يوم كلفه فيه لوتاريو توغوت بايصال برقية إلى شخص بلا عنوان واضح اسمه لورينثودا، وجده في منطقة حديقة البشارة، في واحد من أقدم البيوت، شبه مهدم، وفناؤه الداخلي يبدو كفناء دير، فيه شجيرات كثيفة في الاجزاء المزروعة ونافورة حجرية بلا ماء. لم يشعر فلورينتينوارثا بأي صوت ادمي وهو يتبع الخادمة الحافية تحت قناطر الممر، حيث كانت توجد صناديق امتمعة لم تفتح بعد، ومواد بناء بين بقايا الحص والاسمنت المتراكم، لقد كانوا يقومون باصلاح شامل للبيت. وفي نهاية الممر كانت توجد غرفة مكتب مؤقتة حيث كان ينام القيلولة وهو جالس وراء الطاولة رجل بدين جداً له سواف طويلة مجمدة تمتلئ بشاربيه. وكان اسمه فعلاً لورينثودا، ولم يكن معروفاً تماماً في المدينة لانه وصلها منذ أقل من سنتين، ولم يكن رجلاً ذا صداقات كثيرة.

تلقي البرقية كما لو انها استمرار لحلم مشؤوم، ولاحظ فلورينتينوارثا العينين الزرقاوين الضاربتين إلى السواد بنوع من الشفقة الرسمية، والاصابع المرتعشة تحاول تفتيت شمع الختم، وخوف القلب الذي رآه مرات كثيرة على وجوه الذين يلقون البرقيات ممن لم يعتادوا بعد على التفكير بالبرقيات دون ان يربطوها بالموت. عندما قرأها استعاد السيطرة على نفسه. تهمد: «اخبار حسنة». ومنح فلورينتينوارثا خمس ريالات، موضعاً له بابتامة مطمئنة انه ما كان سيعطيه النقود لو ان الاخبار كانت سيئة. ثم ودعه مصافحاً، وهي ليست عادة شائعة في معاملة موزع البرقيات، ورافقته الخادمة حتى الباب المؤدي إلى الشارع، ليس ذلك لارشاده بقدر ما هو لمراقبته. سارا في نفس الطريق باتجاه معاكس عبر الممر المقنطر، لكن فلورينتينوارثا أدرك هذه المرة بان هناك أحداً في البيت، لان ضوء البهو كان مفعماً

بصوت امرأة تردد درس قراءة، ولدى مروره مقابل حجرة الخياطة رأى عبر النافذة امرأة مسنة وصبية، تجلسان على مقعدين متجاورين، وكلاهما تتابعان القراءة في الكتاب ذاته الذي تحمله المرأة مفتوحاً في حضنها. بدا له الأمر كرويا غريبة: الابنة تعلم أمها. كان تقديره خاطئاً جزئياً، لأن المرأة هي عمّة الصبية وليست أمها، رغم أنها ربتها كما لو كانت أمها. لم يتوقف المدرس، لكن الصبية رفعت نظرها لترى من الذي يمر عبر النافذة، وكانت هذه النظرة العابرة أصل كارثة حب لم تنته بعد مرور نصف قرن من الزمان.

الشيء الوحيد الذي استطاع فلوريتينو أريثا أن يتحراه عن لوريتودا هوانه قدم من سان خوان دي لا ثيناجا مع ابنته الوحيدة وشقيقته العزباء بعد فترة قصيرة من جائحة الكوليرا، والذين رأوه ينزل إلى البر لم يراودهم الشك بأنه قد جاء ليقيم، إذ كان يحضر معه كل ما يحتاجه بيت حسن التجهيز. كانت زوجته قد توفيت فيما ابنته لا تزال طفلة صغيرة. واسم اخته اسكولاستيكا، ولها من العمر أربعين سنة وهي تقفي نذراً بلبس مسوح القديس سان فرانسيسكو عند خروجها إلى الشارع، وتكتفي بربط حبل الطائفة على خصصها فقط حين تكون في البيت. أما الصبية فعمرها ثلاث عشرة سنة وتدعى باسم أمها الميتة نفسه: فيرمينا.

كان يُفترض أن لوريتودا رجل ذو موارد، لأنه يعيش في بحبوحة دون ممارسة مهنة معروفة، وقد اشترى نقداً بيت البشارة غير المكتمل، والذي كان اصلاحه يتطلب على الأقل ضعف المائتي بيزو ذهبية التي دفعها ثمناً له. وكانت الابنة تدرس في مدرسة ظهور العذراء المقدسة، حيث كانت تتعلم أنسات المجتمع الراقى منذ قرون فن ومهنة التحول إلى زوجات مدبرات ومطيمات. في العهد الاستعماري وخلال السنوات الجمهورية الأولى كانوا لا يقبلون في المدرسة إلا واثات الألقاب الكبيرة فقط. ثم اضطرت العائلات القديمة المهارة بفصل الاستقلال إلى الخضوع لوقائع الازمنة الجديدة ففتحت المدرسة ابوابها للجميع المتقدمات اللواتي يستطعن دفع نفقاتها، دون الاهتمام بانسابهن، والشرط الوحيد الجوهري السلي بقي قائماً هو أن يكن بنات شرعيات لزواج كاثوليكي. لقد كانت مدرسة غالبية التكاليف على أية حال، ومجرد كون فيرمينا داثة تدرس هناك هو بعد ذاته مؤشراً على الوضع المادي للعائلة، وأن لم يكن مؤشراً على وضعها الاجتماعي. لقد شجعت هذه الأخبار فلوريتينو أريثا، إذ أوضحت له أن الصبية الجميلة ذات العينين اللوزيتين كانت في متناول أحلامه. ولكن سرعان ما ظهر نظام اببها الصارم كعائق لا سبيل إلى تجاوزه. فعلى العكس من التلميذات الاخريات، اللواتي كن يذهبن إلى المدرسة في مجموعات أو برفقة خادمة متقدمة في السن، كانت فيرمينا داثة تحضي دوماً مع عمته العزباء، وكان سلوكها يشير الى

انه ليس مسموحاً لها بأي نوع من اللهو.

وهكذا كان أن بدأ فلوريتينواريثا حياته الصامتة بقلب مكبوت . كان يجلس منذ الساعة السابعة صباحاً وحيداً على أقل مقاعد الحديقة ظهوراً للعيان ، متظاهراً بقراءة ديوان شعري ظل أشجار اللوز، إلى أن يرى مرور الصبية المستحيلة بزيها المدرسي ذي الخطوط الزرقاء ، وجراها ذي الرباط الذي يصل حتى الركبتين ، وحذاءها الرجالي برباطه المتقاطع ، وبضفيرة وحيدة نخينة مربوطة في طرفها بشريط ومتدلية على الظهر حتى خصرها . كانت تمشي بكبرياء طبيعي ، رأسها مرفوع ، ونظيرها ثابت ، وخطوتها سريعة ، وانفها شامخ ، وحقية كتبها المدرسية مضغوطة بيديها المتصالبين على صدرها ، وبمشية غزالة تجعلها تبدو محصنة على الرصانة . وإلى جانبها ، تمضي شادة خطواتها بصموية ، عمتها بمسوحها البني وحزام طائفة سان فرانسيسكو ، بحيث لا تترك أدنى فثرة للاقتراب . كان فلوريتينواريثا يراها تمران في الذهاب والاياب أربع مرات في اليوم ، ومرة واحدة أيام الأحاد عند الخروج من القداس الكبير ، وكانت رؤية الصبية تكفيه . وشيئاً فشيئاً ، أخذ يرسم لها في غيخته صورة مثالية ، بشاهر خيالية ، وبعد مرور اسبوعين لم يعد يفكر بأي شيء سواها . وهكذا فكر بان يبحث لها رسالة مكتوبة على ورقة بخطه الرائع كخطاط . لكنه احتفظ بها عدة أيام في جيبه ، مفكراً بطريقة لتسليمها اليها ، وفيما هو يفكر كان يكتب عدة ورقات جديدة قبل ان ينام ، بحيث أخذت الرسالة الاصلية تتحول إلى معجم في الغزل المتأثر بالكتب التي حفظها غيباً لكثرة ما قرأها وهو ينتظر في الحديقة .

وفي بحثه عن وسيلة لايصال الرسالة ، حاول التعرف على بعض تلميذات المدرسة ، لكنهن كن بعيدات جداً عن عالمه . كما بدا له بعد تفكير طويل انه ليس من الحكمة اطلاق أحد على نواياه . ورغم ذلك ، توصل لأن يعرف ان فيرمينا دائماً كانت قد دعيت إلى حفلة رقص من حفلات السبت يُعقد مجيئها إلى البلدة ، وإن أبياها لم يسمح لها ان تذهب متعللاً بعساة حاسمة : «كل شيء في وقته المناسب» . أصبحت الرسالة تضم أكثر من ستين ورقة مكتوبة على الوجهين عندما لم يعد بمقدور فلوريتينواريثا احتياك ضغط سره أكثر . ففتح قلبه دون تحفظ لأسه ، وهي الشخص الوحيد الذي كان يبيع نفسه مفتاحتها ببعض اسراره . انفعلت ترانسترواريثا حتى الدموع لسداجة ابنها في شؤون الحب ، وحاولت توجيهه بأنوارها . بدأت باقناعه بعدم تسليم المجلد الغنائي ، الذي لن يتوصل من خلاله إلا إلى افزع فتاة أحلامه ، التي يُفترض بانها ليست ذات خبرة في أمور القلب مثله . وقالت له ان الخطوة الأولى هي جعلها تنبته إلى اهتمامه بها ، حتى لا يأخذها بالتصریح لها عن حبه على حين غرة ويكون لديها متسع من الوقت للتفكير .



وقالت له :

- ومن عليك الوصول اليها أولاً وقبل كل شيء هي العمة وليس النتاة .  
كلا النصيحتين كانت حكيمة دون شك ، لكنهما جاءتا متأخرتين . فالواقع انه منذ اليوم  
الذي أهملت فيه فيرمينا دائماً لبرهة قصيرة درس القراءة الذي كانت تلقنه لعمتها ، ورفعت  
بصرها لترى من الذي يمر في الرواق ، كان فلورينتينوارثا قد أثر فيها بمظهره المخدول . وفي  
الليل ، اثناء تناول الطعام ، تحدث والدها عن البرقة ، وهكذا كان ان عرفت ما الذي جاء  
يفعله فلورينتينوارثا في البيت ، وما هي مهنته . وقد ضاعفت هذه المعلومات من اهتمامها ،  
اذ كان اختراع التلغراف بالنسبة لها ، كما هو بالنسبة لاناس كثيرين في تلك الحقبة ، أمراً له  
علاقة بالسحر . وهكذا تعرفت على فلورينتينوارثا منذ المرة الأولى التي رآته فيها يقرأ تحت  
أشجار الحديقة ، ورغم انه لم يثر فيها أي نوع من القلق إلى ان لغت العمة نظرها إلى انه  
كان يجلس هناك منذ عدة اسابيع . وعندما رآته فيها بعد اثناء الخروج من القديس ، ترسخت  
قناعة العمة بان كل هذه اللقاءات لا يمكن ان تكون مصادفة ، وقالت : « ليس من اجلي  
يحتمل هذا الازعاج » . اذ رغم سلوكها الصارم ومسوح العفة التي تتسبب به ، كانت العمة  
اسكولاستيكا تحمل غريزة الحياة وتميل إلى المشاركة فيها ، وهما أفضل صمتين فيها . ويجرد  
الفكرة بان هناك رجلاً مهتماً بأبنة اخيها كان يثر فيها انفعالاً لا يقاوم . أما فيرمينا دائماً فكانت  
ما تزال بمنجى حتى من مجرد الفضول بشأن الحب ، الشيء الوحيد الذي اشار به فيها  
فلورينتينوارثا هو قليل من الاسى ، اذ بدأ لها عليلاً . لكن العمة قلت لها انه لا بد من  
العيش طويلاً لمعرفة الطبيعة الحقيقية للرجل ، وكانت مقتنعة ان ذاك الذي يجلس في الحديقة  
ليراهما تخمان ، لا يمكن إلا ان يكون مريضاً بداء الحب .

كانت العمة اسكولاستيكا ملجأ تفهم وعطف للابنة الوحيدة لزواج بلا حب . لقد ربتها  
منذ موت امها ، وبالمقارنة مع لورينثودا ، كانت تتصرف كشريكة اكثر منها كعمة . وهكذا  
كان ظهور فلورينتينوارثا بالنسبة لها تسليية جديدة تضاف إلى الانسليات الكثيرة التي  
تبتدعها لتعضية وقتها الميت . أربع مرات في اليوم ، كلما اجتازنا -مديقة البشارة ، كانتا  
تسرعان للبحث بنظرة فورية عن ذلك الحارس الضامر ، الخجول ، ضئيل الشأن ، والذي  
يرتدي بشكل شبه دائم ملابس سوداء ، رغم الحر ، ويتظاهر بالقراءة تحت الأشجار . «ها هو  
هناك» ، تقول التي تكتشفه أولاً ، كاتمة ضحكاتها ، قبل ان يرفع نظره ويرى المرأتين  
الصارمتين ، البعديتين عن حياته ، وهما تحتازان الحديقة دون ان تنظرا اليه .  
قالت العمة في احدى المرات :

- يا للمسكين . لا يجرؤ على الاقتراب لانني معك ، لكنه سيحاول ذلك يوماً اذا كانت نواياه جدية ، وعندها سيسلمك رسالة .

واحتياطاً لاي نوع من المصائب علمتها التواصل بحروف يدوية ، وكانت تلك وسيلة ضرورية للغراميات المحرمة . وقد اثار المشاوير العرصية ، وشبه الصيبانية ، فضول فيرمينا داثا إلى الجديد ، ولكن لم يخطر لها أبداً طوال عدة شهور ان تمضي إلى أبعد من ذلك . لم تعرف أبداً متى بدأت تسليتها تتحول إلى قلق ، ويتحول دمها إلى زبد للاسراع برؤيته ، وقد استيقظت في احدى الليالي مذعورة لاسها رأتها يتألمها في الطلام من طرف السرير . عندئذ تمت من اعماقها ان تتحقق تكهنات العمة ، وصارت تدعو الله في صلواتها ان يمنحه الشجاعة كي يسلمها الرسالة ، لتعرف فقط ما الذي سيقوله فيها .

لكن دعواتها لم تستجب ، وكانت الوقائع معاكسة لذلك . حدث هذا في الفترة التي صارح فيها فلوريتينو أريشا انه وثنته هذه عن عزمه بتسليم السبعين ورقة من الغزل ، وهكذا كان على فيرمينا داثا ان تتابع الانتظار بقية تلك السنة . أخذ قلقها يتحول إلى يأس كلما اقتربت عطلة كانون الأول المدرسية ، إذ أخذت تتساءل عما ستفعله لترآه ويراها ، خلال الشهور الثلاثة التي لن تذهب خلالها إلى المدرسة ، وقد ألحت عليها الشكوك دون أن تجد لها حلاً في ليلة الميلاد ، حين مرها احساس بانه ينظر اليها بين جموع المصلين في القديس ، ولقد اثار هذا القلق في قلبها . ولم تكن لتجرؤ على الالتفات وهي تجلس بين أبيها وعمتها ، وكان عليها ان تكبح نفسها كي لا يلاحظ اضطرابها . ولكنها أحست به في فوضى الخروج قريباً جداً منها ، وواضحاً جداً وسط الحشد ، ودفعتها قوة لا تقاوم للنظر من فوق كتفها وهي تغادر المعبد من الممر الأوسط ، ورأت حيثئذ على بعد شبرين من عينيها العينين الآخرين الجليديتين ، والوجه الملوح ، والشفتين المتحجرتين برعب الحب . اضطربت لجسارتها ، وتشبثت بذراع العمة اسكولاستيكا كي لا تسقط على الأرض ، فأحست هذه بالعرق البارد على اليد عبر القفاز المخرم ، وشجعتها بإشارة موافقة لا مشروطة خفية . ووسط دوي الألعاب النارية والطبول ، وسط أعمدة الانارة الملونة المنصوبة أمام الأبواب ، وصخب الجموع المتعطشة للسلام ، هام فلوريتينو أريشا كمن يسير وهو نائم حتى الفجر مراقباً الاحتفال من خلال دموعه ، ومذهولاً في التخيل بانه هو ، وليس الرب ، من ولد في تلك الليلة .

ازداد ذهنيته في الاسبوع التالي ، حين مروقت القليلة بيت فيرمينا داثا دون أمل . ورآها تجلس مع عمتها تحت أشجار اللوز في الفناء . كان المشهد تكراراً للوحة التي رآها في مساء اليوم الأول في حجرة الخياطة : الصبية تلتقن العمة درس القراءة . لكن فيرمينا داثا كانت مختلفة الهيئة وهي بدون زيا المدرسي ، إذ كانت ترتدي عباءة من الكتان الأبيض بها ثنايا

كثيرة تسدل من كتفيها وكأنها رداء اغريقي، وعلى رأسها اكليل من ازهار الياسمين الطبيعية يمنحها مظهر إلهة متوجة. جلس فلورينتينوارثا في الحديقة، حيث تأكد انه سيكون مرثياً، ولم يلجأ عندئذ إلى اسلوب التظاهر بالقراءة، وإنما جلس، والكتاب مفتوح، مركزاً بصره على الأنسة السامية، التي لم تبادله ولو نظرة شفقة.

ظن في البدء ان الدرس تحت أشجار اللوز هو تغيير طارئ، ربما بسبب الاصلاحات التي لا تنتهي في البيت، لكنه أدرك في الايام التالية ان فيرمينا دائماً ستكون هناك، تحت نظره، في مساء كل يوم وفي الساعة ذاتها طوال شهور العطلة الثلاثة، وألمه هذا اليقين حاسة جديدة. لم يشعر بانها رائته، ولم يلحح أية علامة تدل على اهتمام أو إهمال. ولكن في لامبالاها كان ثمة بريق مختلف شجعه على المثابرة. وفجأة، في عصر يوم من أيام كانون الثاني، وضعت العمة شغلها على الكرسي وتركت ابنة اخيها وحدها في الفناء بين نثارة الأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار اللوز. ومدفوعاً باعتقاده المتهور بانها الفرصة المناسبة، اجتاز فلورينتينوارثا الشارع وانتصب أمام فيرمينا دائماً، قريباً جداً منها بحيث شعر بشهقتها وبتنفسها الودي الذي سيميزها فيه طوال حياته المتبقية. حدثها برأس مرفوع ويتصميم لن يصل اليه ثانية إلا بعد نصف قرن ولنفس السبب.

قال لها :

- الشيء الوحيد الذي اطلبه منك هو أن تقبلي رسالة مني.

لم يكن الصوت الذي انتظرته فيرمينا دائماً منه : كان صوتاً واثقاً ومتسلطاً لا علاقة له بأساليبه الحاملة. ودون ان ترفع نظرها عن التطريز، اجابته : «لا استطيع قبولها دون اذن والدي». ارتعش فلورينتينوارثا بدفء ذلك الصوت الذي لن ينسى جرسه المنطفيء طوال حياته. لكنه استمر على ثباته، ورد في الحال : «احصلي على الاذن». ثم رفق من لهجة الأمر برجاء : «انها مسألة حياة أو موت». لم تنظر فيرمينا دائماً اليه، ولم تتوقف عن التطريز، لكن قرارها فتح له باباً يتسع للعالم بأسره، حين قالت له :

- عد مساء كل يوم وانتظر إلى ان أبدل مقعدي.

لم يفهم فلورينتينوارثا ما عتته حتى يوم الاثنين من الاسبوع التالي، عندما رأى وهو على مقعده في الحديقة نفس المشهد الذي يراه كل يوم مع تبدل وحيد : حين دخلت العمة "اسكولاسيكا إلى البيت، نهضت فيرمينا دائماً وجلست على المقعد الآخر. عندئذ اجتاز فلورينتينوارثا الشارع وهو يضع زهرة كاميليا بيضاء في عروة سترته، وانتصب امامها. قال : «هذه هي اعظم لحظة في حياتي». لم ترفع فيرمينا دائماً نظرها اليه، وإنما تفحصت الجوار نظرة دائرية وراة الشوارع المقفرة في سبات الجفاف وزويدة أوراق ميتة تتقاذفها الريح.

فقلت :

- اعطني إياها .

كان فلوريتينو أريشا قد فكر بان يحمل اليها الورقات السبعين التي صار قادراً على استظهارها من الذاكرة لكثرة ما أعاد قراءتها، لكنه حسم أمره بعد ذلك بالاكتماء بنصف ورقة مختصرة وواضحة يعاها فيها على ما هو جوهري فقط : وفأزه تحت أية ظروف، وحبه الابدي . أخرجها من جيب سترته الداخلي، ووضعها أمام عيني المطرزة الخزينة التي لم تتجراً حتى ذلك الحين على النظر اليه . رأت المغلف الأزرق يرتعش في يد جدها الرعب، ورفعت طارة التطريز ليضع الرسالة، اذ انها غير قادرة على السماح له برؤية ارتعاش أصابعها . وحدث حينئذ ان ارتعش عصفوريين أوراق أشجار اللوز، وأفلت في الوقت ذاته ذرقة على التطريز . فأبعدت، فیرمينا دانا الطارة، وخبأتها وراء المقعد كي لا يتبّه لما حدث، ونظرت اليه للمرة الأولى بوجهه ملتهب . فقال فلوريتينو أريشا المتحمّد والرسالة في يده : «ان هذا فال خير» . شكرته بابتسامتها الأولى اليه، وانتزعت منه الرسالة، ثم طوتها واختفتها في صدرتها . قدم لها حينئذ زهرة الكاميليا التي كنت في عروته، فرفضتها : «انها زهرة التزام» . وعادت فوراً للاختباء في رصانتها، وقد وعّت ان الوقت قد نفذ .

قلت :

- اذهب الآن ولا ترجع إلى أن أخبرك .

عندما راها فلوريتينو أريشا لأول مرة، اكتشفت امه ذلك قبل ان يخبرها، لانه فقد النطق والشهية وراح يقضي الليالي مسهداً يتقلب في الفراش . لكنه حين بدأ ينتظر الرد على رسالته الأولى، تضاعف الجزع وتحول إلى اختلاطات مترافقة مع برازوقيء أخضرين، وفقد القدرة على التوجه وعمانى من اغشاءات مفاجئة، ففزعت أمه لان حالته لا تنتمي إلى اضطرابات الحب وانما إلى اختلاطات الكوليرا . وكذلك عراب فلوريتينو أريشا، وهو طبيب مثلي عجوز، وامين اسرار ترانسيتودانا مذ كانت عشيقة سرية، فزع أيضاً للوهلة الأولى من حالة المريض، لان نبضه كان ضعيفاً وتنفسه رملياً وعرقه شاحباً كحالة المحتضرين . لكن الفحص كشف له عدم وجود حمى، ولا آلام في أي موضع، والشيء الوحيد الذي كان يشعر به هو حاجة مستعجلة للملح لحسواكتفى باستجواب مخاتل، للابن أولاً ثم للأم، ليتأكد مرة اخرى ان أعراض الحب هي نفس أعراض الكوليرا . فوصف له نقيع ازهار الزيزفون لتتهاسك أعصابه واقترح عليه تغيير الجو للبحث عن العزاء في البعد، لكن ما كان يشاقه فلوريتينو أريشا هو عكس ذلك تماماً : الاستمتاع بعذابه .

كانت انسيتر أريشا امرأة اربعينية حرة، لديها ميل محبط إلى السعادة بفعل الفقر، وكانت

تشارك في آلام ابنها كما لو أنها آلامها، فهي تقدم له المشروبات المهدئة حين تلاحظ انه أخذ يهذي أو تدثره بأغطية صوفية لتخدد القشعريرة التي تتأبه، لكنها تشجعه في الوقت ذاته على التسلية بانهاك نفسه، فهي تقول له:

- انتهز الفرصة لتتألم بقدر ما تستطيع الآن وأنت شاب، لأن هذه الأمور لا تدوم طول الحياة.

أما في وكالة البريد فلم يكونوا يفكرون بهذه الطريقة طبعاً، إذ كان فلورينتينواريتا يهمل في عمله، ويمضي ساهياً فيخلط بين الأعلام التي يعلن بها عن وصول البريد، ففي أحد أيام الأربعاء رفع العلم الألماني بينما كانت السفينة القادمة تابعة لشركة ليلاند وتحمل بريد ليفربول، وكان يرفع في أي يوم آخر علم الولايات المتحدة مع أن السفينة القادمة تنسب لشركة جنرال ترانساتلانتك وتحمل بريد سانت-نازير. وقد كانت تشوشات الحب تلك تسبب تأخيراً في توزيع البريد وتثير احتجاجات كثيرة من جانب الجمهور، وإذا كان فلورينتينواريتا لم يطرد من عمله فلأن لوتاريوتوغوت احتفظ به في قسم التلغراف وأخذ ليعلمه العزف على الأرغن في كورال الكتدرائية. كانا يرتبطان بحلف عصي على الفهم بسبب فارق السن بينهما، إذ كان بالامكان اعتبارهما جداً وحفيداً، لكن علاقتهما كانت حسنة جداً سواء في العمل أم في حانات الميناء، حيث يلتقي محبو السهر حتى ساعة متأخرة من الليل دون وساوس طبقية، اعتباراً من سكارى الصدقات وحمم الشباب الراقين ذوي الملابس البروتوكولية الذين يهربون من حفلات النادي الاجتماعي ليأكلوا فطائر الجبن المقلية مع أرز جوز الهند. لقد اعتاد لوتاريوتوغوت الذهاب إلى هناك بعد ودية التلغراف الأخيرة، وكاد يدركه الصباح في معظم الأحيان وهو ما يزال يشرب البنوش الجهايكي ويعزف الأوكورديون مع طواقم ملاحي سفن جزر الانتيل الحمقى. كان بديناً، يشبه السلحفاة، له لحية مذهب ويضع لدى خروجه ليلاً طاقيّة من تلك التي تمثل رمز الجمهورية الفرنسية، ولم يكن ينقصه إلا درع مضيء ليصبح مشابهاً تماماً للقديس نيقولا. وكان يجز مرة واحدة كل أسبوع على الأقل على واحدة من عصفورات الليل، كما اعتاد تسمية أولئك اللواتي يعين الحب الطارئ في فندق للعابرين من البحارة. وكان أول ما فعله بشيء من اللذة المثقنة، حين تعرف على فلورينتينواريتا، هو تعريفه على اسرار فردوسه. كان يختار له العصفورات اللواتي يبدون له أفضل من سواه، ويساومهن في السعر والطريقة، ثم يعرض عليه أن يدفع له من ماله الخاص مقابل الخدمات التي يقدمها. لكن فلورينتينواريتا لم يكن يوافق: كان في عزيرته، ولقد قرر أن يبقى كذلك مالم يفعل ذلك عن حب.

كان الفندق عبارة عن قصر استعماري منهواو، قسمت صالوناته الكبيرة وغرف المرمرفيه إلى مخادع صغيرة بورق مقوى ملئء بثقوب أحدثتها المطاري، وكانت تؤجر لممارسة الحب أو للتفرج على من يارسه. وثمة احاديث تدور عن متلصص سملوا له عينه بمسلة حياكة، وعن آخر تعرف على زوجته بالذات فيما هويتلصص، وعن نبلاء من الطبقة الراقية كانوا يتنكرون بزي بائعات خضمار ليغرقوا انفسهم مع العسكريين العابرين، وعن حوادث اخرى حول متلصصين ومتلصص عليهم، مما جعل مجرد التفكير بالنظر إلى الحجرة المجاورة أمراً مرعباً بالنسبة لفلورينتينواريا. ولم يتمكن لوتاريوتوغوت من اقناعه بان الرؤية والسماح للآخرين بالمشاهدة هي من آداب امراء اوروبا.

وعلى العكس من الاعتقاد الذي قد تثيره بدائته، كانت للوتاريوتوغوت دوامة شاروبيم تبدو وكأنها برعم وردة، ويبدو ان هذا كان عيباً حسن الطالع، لان اكثر العصفورات استعمالاً كن يتنازعن النوم معه، وكانت صراخاتهن المدبوحة تهز ادراج القصر. وتبعث رعشة الرهبة في اشباحه. كان يقال بانه يستخدم مرهماً محضراً من سم الثعابين يلهب به ارحام النساء، لكنه كان يقسم بانه لا يملك أية وسائل سوى تلك التي وهبه الله اياها. كان يقول متفجراً بالضحك: «وانه الحب وحده». وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة ليذكر فلورينتينواريا بانه ربما كان يقول الصدق. ثم انتهى إلى الاقتناع من خلال تربية العاطفية في زمن متأخر، حين تعرف على رجل يعيش حياة ملك باستغلاله ثلاث نساء في الوقت ذاته. كانت النساء الثلاث يقدمن له الحساب في الفجر، ذليلات عند قدمية ليفنرهن احتفاظهن بمبالغ زهيدة، والمكافأة الوحيدة التي كن يرغبن فيها هي قبوله الاضطجاع مع من تأتيه بأكبر قدر من المال. وكان فلورينتينواريا يعتقد بان الخوف وحده قادر على ايصالهن إلى مثل هذا الدل. لكن احدى الفتيات الثلاث فاجاته بالحقيقة المعاكسة حين قالت له:

- ان هذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلا بالحب.

ولم يكن السبب في توصل لوتاريوتوغوت لان يكون أحد أهم زبائن الفندق هو فجوره، بقدر ما كان ظرافته الشخصية. ولقد كسب فلورينتينواريا كذلك احترام صاحب المحل لكونه صموئلاً ورمناً، وقد اعتاد في اقصى مراحل كربه ان يحبس نفسه ليقرأ الاشعار وكتيبات الدموع في الحجرات الخائفة، وكانت احلامه تخلف أعشاش سننوت سوداء على الشرفات وهمس قبلات وخفق أجنحة في خمود الطهييرة. وفي المساء، حين يخف الحر، كان يستحيل عليه ألا يستمع إلى احاديث الذين يأتون لاغراق انفسهم من العمل في حب سريع، وهكذا أصبح فلورينتينواريا يعرف خيانات زوجية كثيرة، بل وبعض اسرار الدولة، من الزبائن المرموقين، ومن رجال السلطات المحلية الذين كانوا يأتون عشيقاتهم العابرات دون ان

يحتاطوا كي لا يسمعونهم من هم في الغرف المجاورة. وكان هكذا ان علم أيضاً بأنه على بعد أربعة فراسخ بحرية إلى الشمال من سوتافيتتوترد غارقة، في قاع البحر منذ القرن السابع عشر، سفينة اسبانية محملة بأكثر من خمسمئة ألف بيزون من الذهب الخالص والاحجار الكريمة. لقد اذهلته القصة، لكنه لم يعد للتفكير فيها إلا بعد مضي عدة شهور، عندما اثار جنون الحب شوقه لاستخراج الثروة الغارقة كي يجعل فيرمينا دائماً تستحم في أحواض من الذهب.

بعد سنوات من ذلك، حين كان يحاول ان يتذكر كيف كانت في الواقع تلك الصبية التي رسم لها في ذهنه صورة مثالية بسمياء الشعر، لم يكن يستطيع تمييز ملامحها وسط امسيات تلك الازمنة المؤثرة، وحتى حين كان يلحمها دون ان تراه، في ايام الجزع التي انتظر فيها الرد على رسائله الأولى، كان يراها بصورة مختلفة في وهج الساعة الثانية ظهراً تحت وابل من زهر اللوز، حيث كان الوقت نيساناً في أي شهر من شهور السنة. كان اهتمامه الوحيد في ذلك الحين منصباً على مرافقة لوتاريو توغوت بالكمان على المنصة المخصصة للكورال، وذلك ليرى كيف تتموج عباها بنسيم الانشاد. لكن هذيانه بالذات كان السبب في القضاء على متعته هذه، اذ أصبحت الموسيقى الدينية الصوفية مناسبة جداً لحالة روحه، مما جعله يحاول الهابها بفالسات حب، ورأى لوتاريو توغوت نفسه مضطراً لطرده من الكورال. وكان ان استسلم في هذه الفترة لأكل ازهار الياسمين التي كانت تزرعها ترانستواريثا في احواض الفناء فتعرف هذه الطريقة على طعم فيرمينا دائماً. وفي هذه الفترة أيضاً وجد في قاع احد صناديق أمه زجاجة تحتوي لراً من ماء الكولونيا التي كان يبيعها مهرة بحارة شركة هامبورغ اميركان لاين، ولم يقاوم اغراء تذوقها للبحث فيها عن طعم آخر للمرأة المحبوبة. وتابع شرب الزجاجة حتى الفجر، منتشياً بفيرميني دائماً من خلال رشقات كاوية، في حانات الميناء أولاً ثم إلى جوار البحر بعد ذلك وهو غائب عن الوعي فوق ملطم الامواج حيث يتعزى العشاق الذين لاسقف لديهم بممارسة الحب، إلى ان راح في غيبوبة. انتظرت ترانستواريثا حتى الساعة السادسة صباحاً بروح معلقة في خيط، ثم مضت تبحث عنه في المخابيء التي لا تخطر ببال احد، وبعيد منتصف الليل وجدته يتخبط في بركة من القيء المعطر في احدى تمرجات الشاطئ حيث يقذف البحر الغرقى.

انتهزت فترة النقاثة لتؤنبه على سلبه في انتظار الرد على الرسالة. ذكرته بأنه لا يمكن للضعفاء دخول مملكة الحب، لأنها مملكة قاسية وصارمة، وان النساء لا يستسلمن إلا للرجال المصممين، لانهم يبعثون فيهن الطمأنينة التي يتعطشن اليها لمواجهة الحياة. وربما استوعب فلوريتينو ارثا الدرس اكثر مما ينبغي. فلم تستطع ترانستواريثا اخفاء احساسها بالفخر،

كقوادة اكثره منها كأم، حين رآته يخرج من دكان الخردوات بالبدلة السوداء والقبعة القاسية وربطة الشاعر على الباقة الصلبة، فسألته مازحة ان كان ذاهباً إلى جنازة فأجاب وأذناه تتقدان : «يكاد الامريكون سواء». وقد انتهت إلى انه يكاد لا يستطيع التنفس من الخوف، لكن تصميمه كان حاسماً. قدمت له النصائح النهائية، وباركته، ووعدته وهي غارقة في الضحك بزجاجة اخرى من ماء الكولونيا ليحتقلاً معاً بانتصاره.

مذ سلم الرسالة، قبل شهر، نقض عدة مرات الوعد الذي قطعه بعدم العودة إلى الحديقة، لكنه كان حذراً جداً في التحفي. كل شيء كان يسير على حالة : ينتهي درس القراءة تحت الاشجار في حوالي الثانية ظهراً، حين تستيقظ المدينة من القيلولة، ثم تتابع فيرمينا دائماً التطريز مع عمته حتى انخفاض الحر. لم ينتظر فلورينتينو اريثا إلى ان تدخل العمه إلى البيت، بل اجتاز الشارع بخطوات عسكرية اتاحت له تجاوز ارتعاش ركبته. لكنه لم يتوجه إلى فيرمينا دائماً وإنما إلى العمه.

قال لها :

- تفضلي وإتركيني على انفراد مع الأنسة للحظة، فلدي شيء هام أود ان أقوله لها.

فقالت العمه :

- وقع ! لا يوجد أمر من أمورنا لا أستطيع سماعه.

قال :

- لن أقول شيئاً اذن، لكنني أحذرك بانك ستكونين المسؤولة عما سيحدث.

لم يكن هذا هو الاسلوب الذي انتظرته اسكولاستيكا دائماً من العريس المثالي، لكنها نهضت مرتعبة، لأنها 'أحست لأول مرة باحساس مفاجيء ان فلورينتينو اريثا انها كان يتكلم بوحى من الروح القدس. وهكذا دخلت إلى البيت لاستبدال ابر التطريز، وتركت الشاين وحدهما تحت أشجار اللوز عند مدخل البيت.

لم تكن فيرمينا دائماً تعرف في الواقع إلا القليل عن معدن العاشق الصامت الذي ظهر في حياتها مثل سنوثة شتوية، والذي لم تكن تعرف حتى اسمه لولا ترقيعه على الرسالة. ولقد استقصت حينئذ وعرفت انه ابن بلا أب لامرأة عزباء مجدة وجدية، لكنها موسومة بوسم ناري لاشفاء منه لخطيئتها الوحيدة وهي شابة. وقد علمت انه ليس صبي التلغراف، كما افترضت، وإنما هو مساعد جيد التأهيل وذو مستقبل واعد، وفكرت بانه أوصل البرقية إلى أبيها كذريعة ليراه فقط. وقد فتنها هذا الافتراض. كما كانت تعرف انه واحد من موسيقي الكورال، رغم انها لم تتجرأ أبداً على رفع بصرها لتتأكد من وجوده اثناء القداس، إلا انها في



أحد أيام الأحاد وفيها مجموعة الآلات تعزف للجميع، أحست بان الكمان يعزف لها وحدها. لم يكن نموذجاً للرجل الذي كانت ستختاره. لكن نظارته وزيه الكهنوتي، وراساليه الغامضة اثارَت فيها فضولاً من الصعب مقاومته، لكنها لم تتصور ابداً ان يكون الفضول هو أحد مصادد الحب الكثيرة.

هي نفسها لم تستطع ان تفهم كيف قبلت الرسالة. لم تؤنّب نفسها، لكن وعدّها الملح برد الجواب أخذ يتحول إلى عائق أمام الحياة. ان كل كلمة من ايها، وكل نظرة عابرة، واذني حركة يقوم بها كدت تبدو لها مصيدة لكشف سرها. على هذا الحال من الذعر كانت، فهي تمتنع عن الحديث على المائدة خوفاً من زلة تفضحها، واصبحت مراوغة حتى في تعاملها مع العمدة اسكولاستيكا، رغم ان هذه كانت تشاطرها جزعها المكتوم كما لو كان خاصاً بها. وصارت تجسب نفسها في الحمام في أي وقت، دونها حاجة، وتعيد قراءة الرسالة محاولة اكتشاف رموز سرية، أو معادلة سحرية غيابة في واحد من الثلاثمئة واربعة عشر حرفاً في الشانّي وخمسين كلمة، على أمل ان تجد فيها أكثر مما تقوله. لكنها لم تجد شيئاً أكثر مما فهمته في القراءة الاولى، عندما هرعت لتحبس نفسها في الحمام بقلب مجنون، ومزقت المغلف آملة برسالة مطولة ومحموعة، ولم تجد سوى ورقة صغيرة معطرة أفرعها اقتضاضها.

لم تفكر أول الامر جدياً بأنها مجرّة على الرد، لكن الرسالة كانت واضحة جداً بحيث لم تكن هناك وسيلة لتصريفها. وفي اثناء ذلك، ووسط اضطراب شكوكها، فاجأت نفسها وهي تفكر بفلورينتينو اريثا، أكثر وياهتمام أكبر مما تريده لنفسها، بل وكانت تتساءل مكدره لماذا لم يأت إلى الحديقة في موعده المعتاد، دون ان تذكر انها هي التي طلبت منه عدم الرجوع إلى ان تفكر بالرد. وهكذا صارت تفكر به بشكل لم تتصور يوماً انها ستفكر فيه بأحد، كانت تهجس به حيث لا يكون، متمنية وجوده حيث لا يمكن ان يكون، مستيقظة فجأة يراودها احساس بانه يراقبها وهي نائمة في الظلام، لدرجة انها حين سمعت وقع خطواته الخاسمة فوق نشارة اوراق الحديقة الصفراء، لم تستطع ان تصدق انها ليست سخرية اخرى من خيالها. ولكن عندما طالها بالرد على رسالته بتسلط لا علاقة له بنحافته، تمكنت من السيطرة على ذعرها وحاولت مداراته بقول الحقيقة: انها لاتعرف بماذا ترد عليه. ومع ذلك فان فلورينتينو اريثا لم ينج من هاوية ليتردد أمام التي تليها، فقال لها:

- اذا كنت قد قبلت استلام الرسالة، فمن قلة الذوق عدم الرد عليها.

كانت هذه هي نهاية المتابعة. فقد اعتذرت فيرمينا داثا، التي سيطرت على نفسها، عن تأخرها ووعده رسمياً بانه سيحصل على الرد قبل انتهاء العطلة المدرسية. ووفت بوعدّها. ففي يوم الجمعة الاخير من شهر شباط، وقيل ثلاثة أيام من اعادة افتتاح المدارس. ذهبت

العمة اسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن تكلفة ارسال برقية إلى قرية بيدرا دي مولير، التي لا يرد ذكرها في قائمة الخدمات البرقية، وسعت لأن يتولى الرد على استفسارها فلوريتينو دانا، متظاهرة بانها لم تره أبداً من قبل، لكنها عند الخروج تتمدت ان تنسى على الطاولة كتاب صلوات مجلد بجلد ضب، فيه مغلف من ورق مبطن ومزين بصورة مذهبة. أمضى فلوريتينو اريشا، الذي أختل من السعادة، بقية ذلك المساء وهو يأكل الورد ويقرأ الرسالة، ويراجعها حرفاً حرفاً مرة بعد أخرى، وكلما قرأ أكثر كان يأكل المزيد من الورد، وعند منتصف الليل كان قد قرأها مرات ومرات وأكل ورداً كثيراً جعل امه تشده من اذنه كخروف وتجره على شرب زيت الخروع.

كانت تلك هي سنة الحب العنيف. ولم يكن في حياة اي منهما شيء سوى التفكير بالآخر، وانتظار الرسائل بشوق كشوق الرد عليها. ولم يحدث طوال ذلك الربيع من الهذيان، ولا في السنة التالية ان اتاحت لهما فرصة للتواصل بصوت عال. بل واكثر من ذلك: منذ ان رأيا بعضهما لأول مرة وإلى ان كرر عليها قواره بعد نصف قرن، لم يحصل أبداً على فرصة للقاء منفردين ولا لتبادل الحديث عن حبهما. ولكن لم يمر يوم واحد خلال الشهور الثلاثة الاولى دون ان يتبادلا الرسائل، بل كان يكتبان لبعضهما الرسائل مرتين يومياً في احدى الفترات، الى ان فزعت العمة اسكولاستيكا لشراة النار التي ساهمت هي نفسها في اخراجها.

بعد ان حملت الرسالة الأولى إلى مكتب التلغراف وكأنها تريد ان تثار من حفظها بالذات، راحت تسهل عملية تبادل الرسائل شبه اليومية، في لقاءات تبدو عرضية في الازقة، ولكن لم تكن تملك الشجاعة لرعاية تبادل حديث بينهما، مهما كان ذلك الحديث تافهاً وقصيراً. ثم ادركت بعد مرور ثلاثة شهور ان ابنة اخيها ليست مؤهلة لغرام فتى، كما بدا لها أول الامر، واصبحت حياتها هي مهددة بفعل نار الحب تلك. لم تكن لدى اسكولاستيكا بالفعل وسيلة اخرى للمعيشة سوى احسان اخيها، وكانت تعلم ان طبعه المتسلط لن يغفر لها أبداً تلاعباً كهذا بالثقة التي منحها اياها. ولكن قلبها لم يطاوعها في نهاية الامر على تعريض ابنة اخيها لمحنة قاسية كالتي رعتها هي منذ شبابها، فسمحت لها باستخدام وسيلة تمنحها وهم الاحساس بالبراءة. وكانت وسيلة بسيطة: تضع فيرmina دنا رسالتها في خبأ في طريقها اليومي بين البيت والمدرسة، وفي هذه الرسالة تخبر فلوريتينو اريشا عن المكان الذي ستجد الجواب فيه. ثم يفعل فلوريتينو اريشا الشيء ذاته، وهكذا أخذ تأنيب الضمير الذي كانت تحسه العمة اسكولاستيكا ينتقل إلى زوايا الكنائس، وفجوات الأشجار، وشقوق انقاض الحصون الاستعمارية، كانا يجدان الرسائل مبللة بالمطر أحياناً، او ملوثة بالوحل، او ممزقة لضيق

الفجورة، كما فقدت بعض الرسائل لاسباب مختلفة، لكنها كانا يجدان دوماً وسيلة لاعادة الاتصال.

كان فلورينتينو اريثا يكتب كل ليلة دون ان تأخذه رحمة بنفسه، متسهماً حرفاً بحرفاً بدخان مصباح زيت الكوروزو في القسم الخلفي من دكان الخردوات، وكانت رسائله تصبح أكثر اسهاباً وجنوناً كلما أجهد نفسه في محاكاة شعرائه المفضلين الذين تنشر اعمالهم في سلسلة المكتبة الشعبية، التي وصل عدد اجزائها في ذلك الحين إلى اكثر من ثمانين مؤلفاً. أما أمه التي حثته على التمتع في عذابه، فأخذت تصاب بالذعر لاعتلال صحته، وصارت تصيح به من غرفة النوم عندما تسمع صياح أول الديكة: «ستستنزف دماغك. ليس من امرأة تستحق كل هذا.» فهي لا تذكر انها عرفت أحداً يمثل هذه الحالة من الضياع. أما هو فلم يكن يعيرها اهتماماً. كان يصل إلى المكتب أحياناً دون ان يكون قد نام، شعره مشعث من الحب، بعد ان يكون قد اودع الرسالة في المخبأ المتفق عليه لتجدها فيرمينا داثا وهي في طريقها إلى المدرسة. أما هذه بالمقابل، فكانت خاضعة لحراسة الأب ولرصد الراهبات المشين، ولم تكن تستطيع إلا بالكاد ملء نصف صفحة من الدفتر المدرسي وهي حابسة نفسها في الحمام أو متظاهرة بتسجيل ملاحظات اثناء الدرس. وليس بسبب السرعة وخوف المفاجآت فقط، انما بسبب طبعها أيضاً، كانت رسائلها تتجنب اية اشعارات عاطفية وتقتصر على سرد وقائع حياتها اليومية بأسلوب يوميات الرحلات البحرية المتسرع. لقد كانت في الواقع رسائل هوى، تسعى إلى الاحتفاظ بالجمهر متقدماً ولكن دون ان تضع يدها في النار، فيها فلورينتينو اريثا يحترق ويتحول إلى رماد في كل سطر يخطه. وفي سعيه لنقل اليها عدوى جنونه، كان يرسل لها ابيات شعر محفورة برأس دبوس على وريقات زهرة كاميليا. وكان هو، وليس هي، من تجرباً على وضع خصلة من شعره في احدى الرسائل، لكنه لم يتلق أبداً الاجابة المرجوة، ألا وهي تبلة من ضفيرة فيرمينا داثا. انها تمكن من جعلها تخطو خطوة اخرى على الأقل، اذ أصبح يتلقى منذ ذلك الحين أوراق زهور مجففة في قواميس، واجنحة فراشات، وريش عصافير فاتنة، ثم انها اهدته في عيد ميلاده سنتمتراً مربعاً من مسوح القديس بيلدرو كلافيير، تلك التي كانت تباع بالخفاء في تلك الايام بسعر لا يمكن للتلميذة في سنها ان تدفعه. وفي احدى الليالي، ودون سابق انذار، استيقظت فيرمينا داثا مرتعدة لسماعها سيرناد كيان منفرد تعزف فالسا محدداً. لقد اهتزت فرحاً وهي تشعر ان كل نغمة انها هي بمثابة شكر على نباتاتها المجففة، وعلى الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها، وعلى خوفها من الامتحانات وهي تفكر به اكثر من تفكيرها بالعلوم الطبيعية، لكنها لم تتجرأ ان تصدق بان فلورينتينو اريثا قادر على اقتراف مثل هذا التهور.

في صباح اليوم التالي، واثناء تناول الفطور، لم يستطع لورينثو داثا مقاومة الفضول. أولاً، لانه لم يكن يعرف ما تعنيه معزوفة واحدة في لغة السيرتاد، وثانياً، انه رغم اهتمامه في الاصغاء لم يستطع ان يحدد في أي بيت كان العزف. واكدت العمة اسكولاستيكا، هديه أعصاب أبعاد النفس إلى ابنة الأخ، انها رأت من خلال ستارة نافذة غرفة نومها ان عازف الكيان المنفرد كان في الجانب الاخر من الحديقة، وقالت ان معزوفة وحيدة على اية حال هي ابلاغ بالقطيعة. وفي رسالته لهذا اليوم، اكد فلوريتينو اريثا انه هو صاحب السيرناد، وان هذا الغالس من تأليفه وانه أطلق عليه نفس الاسم الذي يطلقه على فيرمينا داثا في قلبه: الربة المتوجة. لم يعد لعزف هذا اللحن في الحديقة، لكنه كان يختار الليالي القمرية لعزفه في أماكن متناوبة بحيث تسمعه دون ان يتولاها الذعر في مخدعها. وقد كان أحد أماكنه المفضلة هو مقبرة الفقراء، المكشوفة للشمس والمطر فوق تلة جرداء كانت طيور الرخمة تتخذها مكاناً للنوم، حيث كانت الموسيقى تصدح بأصداً ما وراقية. ثم تعلم فيما بعد التعرف على اتجاه الريح، وهذا صار يتأكد ان صوته يصل إلى حيث يريد ان يصل.

في شهر آب من هذه السنة، نشبت حرب أهلية جديدة من تلك الحروب الكثيرة التي خربت البلاد منذ أكثر من نصف قرن، وكانت تهدد بالتساع لتشمل البلاد بأسرها، فرضت الحكومة قوانين الطوارئ وحظر التجول منذ الساعة السادسة مساءً في ولايات ساحل الكاريبي. ورغم حدوث بعض الاضطرابات واقتراف القوات العسكرية لجميع انواع التكتيل التسفي، استمر فلوريتينو اريثا في غيبوبة غير عابيه بحال الدنيا، وفاجاته دورية عسكرية في فجر أحد الايام وهويقلق عفة الموتى باستفزازاته الغرامية. ولقد نجا بمعجزة من تحقيق أولي بتهمة انه جاسوس يبعث الاخبار بإشارات ضوئية إلى السفن الليبرالية التي تجوب المياه المجاورة متحينة الفرصة للانقضاض.

قال فلوريتينو اريثا:

- أي جاسوس وأية لعة. أنا لست سوى عاشق بائس.

نام ثلاث ليال مكبلاً من كاحليه في زنازين الحامية المحلية. وحين أطلقوا سراحه أحس بانه قد عُين لقصر مدة الحبس، وبقي حتى ايام شيخوخته، عندما أصبحت تختلط في ذاكرته ذكرى حروب اخرى كثيرة، يفكر بانه الرجل الوحيد في المدينة، وربما في البلاد، الذي جر بقدميه اصفاً زنتها خمسة اوطال من اجل قضية حب.

كادت تنفسي ستان على بردهما المحموم عندما عرض فلوريتينو اريثا في احدى رسائله الزواج رسمياً على فيرمينا داثا. كان قد بعث اليها عدة مرات في الشهور الستة السابقة زهرة كاميليا بيضاء، لكنها كانت تعيدها اليه في الرسالة التالية، حتى لا يرتاب من استمرار كتابتها

اليه، انسا دون مخاطر الالتزام . والحقيقة انها كانت ترى دائماً في ذهاب زهرة الكاميليا وبجيئها مداعبة غرامية، ولم يخطر لها يوماً أن تفكر فيها كنقطة انعطاف في مصيرها . اما عندما وصلها عرض الزواج الرسمي ، فقد أحست انها تتمزق بأول مغالب الموت . وروت الأمر للعمة اسكولاستيكا وهي هلعة ، فتناولت العمة الاستشارة بالشجاعة والفظنة التي لم تمتلكها وهي في العشرين من عمرها عندما كان عليها ان تقرر مصيرها .

قالت لها :

- أجيبه بنعم، حتى ولو كنت تموتين فزعاً، وحتى لو ندمت فيما بعد، لانك على أية حال ستندمين طوال حياتك ان أنت أجبت به بلا .

ولكن فيرمينا دانا كانت مشوشة رغم هذه النصيحة، فطلبت مهلة لتفكر في الأمر . طلبت شهراً في البدء، ثم شهراً آخر وآخر، وعندما امتت الشهر الرابع دون ان تعطي ردها عادت تتلقى زهرة الكاميليا البيضاء ولكن ليس الزهرة وحدها كما في مرات سابقة، وانما هي مرفقة باخطار حازم انها ستكون المرة الأخيرة : اما الآن وإما القطيعة النهائية . حينئذ كان فلوريتينو اريشا هو الذي رأى وجه الموت في مساء ذلك اليوم بالذات حين تلقى مغلفاً به قصاصة ورقة طويلة منزعة من هامش دفتر مدرسي، كتب عليها الرد في سطر واحد بقلم رصاص : حسناً، أوافق على الزواج منك ان أنت وعدتني بالأناجيري على أكل البافانجان .

لم يكن فلوريتينو اريشا مهيباً كمثل هذا الرد، لكن امه كانت كذلك . فمذ كلمها لأول مرة، قبل ستة أشهر، عن نيته بالزواج، بدأت ترانستيو اريشا بمشاوراتها لاستئجار كامل البيت الذي كانت تنقسمه حتى ذلك الحين مع عائلتين اخريين . لقد كان البيت بناء مدنياً من القرن السابع عشر، مؤلفاً من طابقين، حيث كانت توجد ادارة التبغ أبان السيطرة الاسبانية، وقد افلس مالكوه واضطروا لتأجيريه مجزئاً لافتقارهم إلى الموارد اللازمة لاستمراره في العمل . قسم من البيت كان يطل على الشارع، حيث كانت صالة البيع سابقاً، وقسم آخر في نهاية باحة مرصوفة حيث كان المعمل، وهناك اسطبل واسع جداً يستخدمه المستأجرون الحاليون جميعهم لغسل الملابس ونشرها . كانت ترانستيو اريشا تشغل القسم الأول، وهو الأكثر ملاءمة والأفضل حالاً، رغم كونه الاضيق أيضاً . في صالة البيع القديمة أقامت دكان خردواتها، ببوابة تطل على الشارع، وإلى جانبها المستودع القديم الذي لا وجود فيه لاية فتحة تهوية سوى كوة السقف، وفيه كانت تنام ترانستيو اريشا . وما وراء الدكان هو نصف الصالة الآخر، المقسوم بباب خشبي ثلاثي المصارع، كانت توجد فيه طاولة حوها أربع كراسي تستخدم للطعام والكتابة في الوقت ذاته، وهناك كان يعلق فلوريتينو اريشا

ارجوحة نومه حين يباغته الفجر وهو يكتب . كان المكان مناسباً لها ، لكنه غير كاف لشخص آخر معها ، وخصوصاً اذا كان هذا الشخص احدى آנסات مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، التي رمم ابوها انقراض بيت مهدم حتى أعاده وكأنه جديد ، بينما العائلات ذات السبعة ألقاب تنام خائفة من انهيار اسقف المنازل فوقها اثناء النوم ، وقد تمكنت ترانسيتواريثا من الحصول على وعد من صاحب البيت بالسباح لها بشغل رواق الفناء لمدة خمس سنوات ، على ان ترمم البيت وتجعله في حالة حسنة .

كانت تملك الموارد اللازمة . فالى جانب دخلها الحقيقي من دكان الخردوات ومن نسلات النسيج موقفة النزف ، الذي كان يكفيها لعيش حياتها المتواضعة ، كانت قد ضاعفت مدخراتها بتقديهما القروض لزيائتها من الفقراء الجدد الخجولين الذين يوافقون على فوائدها الباهظة لكتابتها الاسرار . كانت سيدات لمن مظهر الملكات ينزلن من العربات الفاخرة أمام باب دكان الخردوات ، دون وصيفات أو خدم مزعجين ، فيتظاهرن بانهن يردن شراء مطررات هولندية وحواشي من الحرير المحبوك ، ثم يرهن بين دمتين أخر مصاغ فردوسهن المفقود . وتخرجهن ترانسيتواريثا من حرجهن بتقديرها الشديد لأصلهن النبيل ، لدرجة ان معظمهن كن ينصرفن وهن يجمدن الشرف اكثر من حمدهن المعروف . وخلال أقل من عشر سنوات كانت من ممتلكاتها الحلبي المستردة مرات عديدة والمعادة للرهن وسط الدموع مجدداً ، وكذلك الأرباح المتحولة إلى ذهب والمدفونة في جرة تحت السرير عندما اتخذ ابنها قرار الزواج . حينئذ راجعت حساباتها . واكتشفت انها لا تستطيع القيام بعملية صيانة البيت من الانهيار لمدة خمس سنوات فحسب ، بل ربما تستطيع ببعض الحيلة وشيء من الحظ ان تشتريه لاحفادها الاثنى عشر الذين كانت ترغب ان ينجبهم ابنها . وكان فلورينتينواريثا قد عيّن معاوناً أول لمسؤول مكتب التلغراف بصفة مؤقتة ، وكان لوتاريوتورغوت يريد تسليمه ادارة المكتب حين يذهب هولتولي ادارة مدرسة التلغراف والمنظمة المنتظر افتتاحها في العام التالي .

وهكذا كان الجانب العملي من الزواج محلولاً . ومع ذلك ، رأت ترانسيتواريثا ضرورة الاتهام بشرطين هائلين . الأول هو الاستعلام عن حقيقة لورينثوداثا ، الذي لا تترك لهجة أية شكوك حول أصله ، أما هويته ووسائله في الحياة فليس هناك من يعرف عنها خيراً يقيناً . والثاني هو ان الخطوبة يجب ان تطول حتى يتعارف الخطيبان بعمق عبر العلاقة الشخصية وان يحفظ أمر الخطوبة طي الكتان الصارم إلى ان يتأكدا كلاهما من عوافقهما . واقترحت ان ينتظرا حتى تنتهي الحرب . وقد وافق فلورينتينواريثا على الاحتفاظ بالسرية المطلقة ، سواء للأسباب التي عرضتها أمه أو لطبعه المحب للكتان . وكان موافقاً كذلك على اطالة مدة الخطوبة لكن النهاية بدت له لا واقعية ، لأن البلد لم يعرف خلال نصف قرن من الاستقلال

يوماً واحداً من السلام الأهلي . فقال :

- سنشيخ بهذا ونحن ننتظر.

ولم يكن عرابه ، الطبيب التجاني ، والذي كان يشارك مصادفة بالحديث ، يعتقد بان الحروب عائق . وكان يرى انها ليست سوى مشاكل فقراء يسوقهم ملاكو الأرض كالجواميس ، ضد جنود حفاة تسوقهم الحكومة . وقال :

- الحرب في الجبل . ومذ أدركت أنا بأنني أنا ، لم يقتلونا هنا في المدينة بالرصاص وانما بالقرارات .

لقد حُلت على اي حال جميع تفاصيل الخطوبة في رسائل الاسبوع التالي . ووافقت ، فيرمينا داثا ، بناء على نصيحة العمة اسكولاسيتكا ، على استمرار الخطوبة لمدة سنتين وعلمي . الكتان المطلق ، واقرحت ان يطلب فلوريتينو اريثا يدها عندما تنتهي من المدرسة الثانوية في عطلة أعياد الميلاد . وان يتفقا في الوقت المناسب على طريقة اعلان الخطوبة حسب درجة القبول التي ستكون قد حصلت عليها من ابوها . وحتى ذلك الحين ، تابعا تبادل الرسائل بنفس الحماس ونفس الكثرة ، ولكن دون المخاوف السابقة . وأخذت رسائلهما تمل الى لحة عائلية وتبدو كأنها رسائل زوجين . ولم يكن هناك ما يعكر احلامها .

ولقد طرأ تبدل على حياة فلوريتينو اريثا . اذ منحه الحب المتبادل اماناً وقوة لم يعرفها ابداً ، وأصبح دؤباً في العمل مما سمح للوتاريو توغوت تعيينه نائباً له في السلطات دون بدل اي مجهود . وكان مشروع مدرسة التلغراف والمغطة قد فشل في ذلك الحين ، فكرس الألماني وقت فراغه للأمر الوحيد الذي يحبه فعلاً ، ألا وهو الذهاب إلى الميناء لعزف الاوكرديون وتناول البيرة مع البحارة ، ثم الانتهاء من كل ذلك في فندق العابريس . وقد انقضى زمن طويل قبل ان يعرف فلوريتينو اريثا ان تأثير لوتاريو توغوت في مكان اللذة ذاك انها هوعائد إلى امتلاكه المحل ، وكونه رب عمل عصفورات الميناء . لقد اشتره شيئاً فشيئاً ، بمدخراته خلال سنوات طويلة ، لكن من كان يدبر الفندق . لأمنه هورجل قصير ، نحيل وأعمور ، رأسه كالفرشاة ، وقلبه طيب واليف لدرجة ان أحداً لم يكن يفهم كيف نامكانه ان يكون وكبلا مناسباً . لكنه كان كذلك . أو على الأقل هذا ما بدا لفلوريتينو اريثا عندما قاله له الوكيل ، دون ان يكون هو قد طلب منه ، بانه هيأ له غرفة دائمة في الفندق لايحل فيها مشاكل ما تحت البطن فقط ، حين يقرر ذلك ، بل ليجد مكاناً أكثر هدوءاً لمطالعة و لرسائل الحب التي يكتبها . وفيما كانت الشهور المتبقية لاعلان الخطوبة تمضي ، أخذ يقتضي في الفندق وقتاً أطول مما يقتضيه في المكتب والبيت ، وجساءت فترات لم نعد ترانستو اريثا تراه إلا عندما يأتي لاستبدال ملابسه .

صارت المطالعة رذيلة لا يرتوي منها . فمنذ علمته أمه القراءة ، كانت تشتري له كتب المؤلفين الشهابيين المزينة بالرسوم ، والتي كانت تباع على انها حكايات للأطفال ، لكنها في الواقع كنت أفسد ما يمكن قراءته في جميع الاعمار . كان فلوريتينواريثا يسردها عن ظهر قلب وهو في الخامسة ، سواء في الدروس أو في سهرات المدرسة ، لكن تألفه معها لم يهدئ من رعبه . بل على العكس ، كان يفاقمه . وهكذا فقد كان لتحوله إلى الشعر مفعول المسكن . فما ان بلغ سن الرشد حتى كان قد استهلك حسب ترتيب صدورها ، جميع كتيبات المكتبة الشعبية التي كانت تشتريها له ترانستواريثا من المكتبيين الذين يعرضون بضاعتهم عند بوابة الكتبة العموميين ، حيث توجد جميع انواع الكتب ، ابتداء من هوميرس وحتى أقل الشعراء المحليين قيمة . ولم يكن يحيز ما يقرأه : كان يقرأ الكتيب الذي يأتيه ، كما لو كان شأنًا من شؤون القدر . ولم تكفه كل سنوات القراءة لمعرفة الغث من السمين في العالم الذي قرأه . والشيء الوحيد الذي كان واضحاً لديه هو انه عند المفاضلة بين النثر والشعر يفضل الشعر ، ومن بين الاشعار يفضل أشعار الحب ، التي كان يحفظها غيباً دون قصد منذ القراءة الثانية ، وبسهولة اكبر حين تكون مقفلة وموزونة جيداً ، وعندما تكون مؤثرة كثيراً .

كان هذا هو المنهل الاساسي لرسائله الأولى إلى فيرمينا دائما ، حيث كان يورد مقاطع كاملة دون طهي من أشعار الرومنسيين الاسبان ، وبقيت رسائله كذلك إلى ان اضطرت الحياة الواقعية إلى الاهتمام بالشؤون الدنيوية اكثر من الاهتمام بشجون القلب . وكان في ذلك الحين قد خطا خطوة اخرى نحو قصص الدموع المسلسلة وانواع اخرى اكثر دنيوية من نثر عصره . وكان قد تعلم البكاء مع أمه وهو يقرأ الشعراء المحليين الذين يباعون في الساحات وتحت القناطر في كتيبات بستافين لكل منها . لكنه كان قادراً في الوقت نفسه على لقاء أفضل أشعار العصر الذهبي القشتالي عن ظهر قلب . وعموماً كان يقرأ كل ما يقع بين يديه ، وحسب ترتيب وقوعه بين يديه ، حتى انه بعد زمن طويل من سنوات حبه الأول القاسية تلك ، وعندما لم يعد شاباً ، قرأ من أول صفحة وحتى آخر صفحة مجلدات كنز الشباب العشرين ، ومجموعة الكلاسيكيين الكاملة حسب طبعة جازنير هنس المترجمة ، والاعمال الأكثر سهولة التي كان ينشرها دون فيثنتي بلاسكو ايبانث في سلسلة الواهدون .

ولم تكن فترة فتوته في فندق العابرين على أية حال تقتصر على المطالعة وكتابة الرسائل المحمومة ، وانما ادخلته أيضاً في أسرار ممارسة الحب دون حب . كانت الحياة تدب في البيت بعد انتصاف النهار ، عندما تستيقظ صديقاته العصفورات عاريات كما ولدتهن امهاتهن ، وهكذا كان فلوريتينواريثا يجد نفسه لدى عودته من العمل في قصر مسكون بحوريات



عاريات، يعلقن صارخات على اسرار المدينة، التي يطلعن عليها بوشايات اصحابها بالذات. وكانت كثيرات منهن يعرضن في عريهن اثاراً من الماضي ندوب طعنات خناجر في البطن، أو اثار أعيرة نارية تبدو كالنجوم، أو احاديد ضربات بسكاكين الحب. أو خياطات عمليات قيصرية يجريها الجزارون. وتحضر بعضهن خلال النهار ابائهن الصغار، أبناء مرارة الشباب وتهوره التمساء، ويشزعن عنهم ملابسهم فور دخولهم حتى لا يشعر الصغار بانهم مختلفون في جنة العراة. وقد كانت كل منهن تطهو طعامها وحدها، ولم يكن هناك من يأكل خيراً من فلورينتينواريشا عندما يدعونه، لانه يختار أفضل ما لدى كل منهن. كان ذلك احتفالاً يومياً يستمر حتى المساء، حين تصطف العاريات لدخول الحمام وهن يغين، بينما يستعرن من بعضهن الصابون، أو فرشاة الاسنان، أو المقصات، وكانت بعضهن تقص شعر الاخريات، ثم يرتدين ملابسهن سهلة الخلع، ويطلين وجوههن كمهرجات بمكيات، ويخرجن لاصطياد أول طرائدهن الليلية. وحينئذ تصبح حياة البيت غامضة ولا انسانية وتصبح المشاركة فيها مستحيلة دون دفع الثمن.

لم يكن لفلورينتينواريشا مكان أفضل منه يقضي فيه وقته مذ تعرف على فيرمينا داثا، فهو المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه بالوحدة. بل وأكثر من ذلك: انه المكان الوحيد الذي صار يشعر وهو فيه بانه معها. وربما لهذه الاسباب نفسها كانت تمش هناك امرأة متقدمة في السن، أنيقة، ذات رأس مفضض بديع، لا تشارك في حياة العاريات الطبيعية، ويكن لها جميعهن احتراماً قديساً. لقد حملها إلى هناك خطيب ما وهي شابة، وبعد ان تمتع بها لبعض الوقت هجرها لمصرها. وقد توصلت رغم وصمتها إلى زواج سعيد، وعندما أصبحت كبيرة في السن، ووحيدة، تنازع ابناها وبناتها الثلاث متعة حملها للعيش معهم، أما هي فلم يخطر لها مكان أكثر جدارة بالحياة من فندق الماجنات الخنونات ذاك. وكانت حجرتها الدائمة هناك هي بيتها الوحيد، وهذا ما جعلها تتوافق فوراً مع فلورينتينواريشا، الذي كانت تقول عنه انه سيصير عالماً مشهوراً في العالم بأسره، لانه قادر على اغناء روحه بالمطالعة في جنة الشبق. وقد أبدى لها فلورينتينواريشا من جانبه عطفاً شديداً، فكان يساعدها في شراء حاجاتها من السوق، واعتاد ان يمضي بعض الاماسي متحدثاً اليها، وكان يفكر بانها امرأة عالمة في الحب، اذ قدمت له اضاءات كثيرة حول حبه، دون ان يكشف لها عن سره.

واذا كان لم يسقط في الاغراءات الكثيرة التي في متناول يده قبل ان يعرف حب فيرمينا داثا، فانه لن يفعل ذلك بعد ان أصبحت خطيبته الرسمية. وهكذا كان فلورينتينواريشا يعيش مع الفتيات، يقاسمهن الافراح والاتراح، دون أن يخطر بباله أبوباهن المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. وقد جاء حادث طارئ ليؤكد صرامة قراره. ففي الساعة السادسة من

مساء أحد الايام ، وفيها الفتيات يرتدين ملابسهن استعداداً لاستقبال زبائن الليل ، دخلت إلى حجرتها العاملة المكلفة بتنظيف الأرضية : امرأة شابة لكنها مترهلة وشاحبة ، ترتدي ملابسها ككاثبة في مملكة العاريات . وكان يراها يومياً دون أن يشعر بانها تراه . كانت تنقل بين الحجرات حاملة المكناس ، وسطل القمامة ومسحة خاصة تلتقط بها عن الارض مناعات الحمل المستخدمة . دخلت إلى الغرفة حيث كان فلورينتينواريثا يقرأ كعادته ، وكنت الأرض بحذر شديد كعادتها ، كي لا تزعجه وفجأة مرت بمحاذاة السرير ، وأحس باليد الدافئة والطرية فوق صليب بطنه ، وأحس بها تبحث عنه ، أحس بها تحده ، وأحس بها تحلّ الأزرار فيها تنفسها يملأ الغرفة . وتظاهر بأنه يقرأ إلى ان لم يعد قادراً على الاحتفال ، فاضطر للاعراض عنها بجسده

فزعت المرأة ، بالتحذير الأول الذي اعطوها اياه لمنحها وظيفة عاملة هو ألا تضاجع أحداً من الزبائن . ولم يكن عليهن ان يقلن لها ذلك ، لانها كانت ممن يفكرن بان الدعارة ليست في المضاجعة مقابل المال ، وانها في مضاجعة الغرباء . كان لها ابنان ، كل منهما من زوج مختلف ، وليس ذلك في مغامرات عرضية ، وانما لانها لم تتمكن من حب رجل يرجع اليها بعد المرة الثالثة . لقد كانت حتى ذلك الحين امرأة ليست على عجلة من أمرها ، وكانت مهابة بطبيعتها للانتظار دون يأْس ، ولكن الحياة في ذلك البيت كانت اقوى من عفنها . كانت تدخل إلى العمل في السادسة مساء ، وتقضي الليل كله متنقلة من حجرة الى اخرى ، كائنة الأرض بأربع ضربات من مكنستها ، جامعة موانع الحمل المستخدمة ، ومستبدلة شراشف الأسرة . ولم يكن سهلاً تصوير كمية الاشياء التي يخلفها الرجال بعد الحب . انهم يتركون قيثاً ودموعاً ، وهذا كان يبدو لها مفهوماً . لكنهم كانوا يخلفون كذلك الكثير من الغاز العلاقات الجنسية : بقع دم ، لطخات براز ، عيون زجاجية ، ساعات ذهبية ، اسنان اصطناعية ، علب تحتوي على خصل شبر ذهبية ، رسائل حب ، رسائل تجارية ، رسائل تعزية . . رسائل من كل صنف . وكان بعضهم يعود بحثا عن اشياءه المفقودة ، لكن معظم الاشياء كانت تبقى هالك ، وكان لوتاريو توغوت يحفظها تحت قفل ، مفكراً بان ذلك القصر الساقط في المحنة ، مع آلاف الاشياء الشخصية المنسية ، سيتحول عاجلاً أم آجلاً إلى متحف للحب .

كان العمل قاسياً وأجره ضئيلاً ، لكنها كانت تقوم به على أحسن وجه . أما ما لم تكن قادرة على احتماله فيه: التهديدات ، والتأوهات ، وصرير نوابض الأسرة التي كانت ترسب في دمها بحرقه ولم شديد ، وما ان يأتي الفجر حتى تكون عاجزة عن احتمال تلهمها للاضجاع مع أول شحاذ تلتقي به في الشارع ، أو مع أي سكبر مبدد يقدم لها هذه الخدمة دون مطالب أو أسئلة اخرى . كان ظهور رجل بلا امرأة ، كفلورينتينواريثا ، فتي ونظيف ، بمثانة هدية من

السما بالنسبة لها . ذلك انها لاحظت منذ اللحظة الأولى انه مثلها: معوز للحب . أما هو، فلم يكن يحس بها تعافيه . لقد احتفظ بعذريته في سبيل فيرمينا داثا، وليست هناك قوة أو منطق في هذا العالم يشنيه عن عزمه .

وعلى هذا المنوال كانت حياته تسير قبل أربعة شهور من الموعد المحدد لإعلان الخطوبة، عندما ظهر لورينشوداثا في الساعة السادسة صباحاً في مكتب التلغراف، وسأله عنه . وبما انه لم يكن قد حضر بعد، فقد انتظره جالساً على المقعد حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق، ناقلاً من أصبح إلى آخر الخاتم الذهبي الثقيل المرصع بياقوتة نقية، وعندما رآه يدخل عرفه فوراً على انه موظف التلغراف، فأمسكه من ذراعه وقال له :

- تعال معي أيها الشاب . لدينا ما نتحدث فيه معاً لخمس دقائق حديث رجل لرجل .  
وانقاد فلورينتينوارثا، الذي صار لونه أخضر مثل ميت . . لم يكن مهيباً لهذا اللقاء، لان فيرمينا داثا لم تجد الفرصة ولا الوسيلة لاندازه . والقضية هي انه في يوم السبت الفائت، دخلت الاخت فرانكا دي لا لوث، رئيسة راهبات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، إلى درس المعرفة الكونية بصمت أفعى، وفيها هي تتجسس على التلميذات من فوق اكتافهن، اكتشفت ان فيرمينا داثا تنظاها بانها تسجل ملاحظات على الدفتر بينما هي في الواقع تكتب رسالة حب . كانت هذه الخطيئة، حسب قوانين المدرسة، سبباً كافياً للطرد . ولدى استدعائه على عجل إلى مكتب الادارة، اكتشف لورينشوداثا الثقب الذي كان يتسرب منه نظامه الحديدي . وقد اعترفت فيرمينا داثا، بقوة طبعها، بخطيئة الرسالة، لكنها رفضت الكشف عن هوية الحبيب السري . وعادت ترفض أمام محكمة الانضباط، التي أقرت لهذا السبب حكم الطرد . ورغم ذلك، فقد قام الأب بتفتيش غرفة نومها التي كانت حتى ذلك الحين مكاناً مقدساً لا يجوز خرق حرمة، ووجد في الصندوق ذي القاع المزدوج رسائل ثلاث سنوات، غبأة بمحبة تضاهي المحبة المبذولة في كتابتها . لم يكن توقيع المرسل يحتمل الخطأ، لكن لورينشوداثا لم يستطع ان يصدق حينئذ، ولا فيما بعد، ان ابنته لا تعرف عن خطيئها الخفية سوى مهتة في التلغراف وهوايته في عزف الكمان .

ولقناعته ان علاقة على هذا القدر من الصعوبة لا يمكن فهمها إلا بنسر شقيقته، فانه لم يسمح لهذه حتى بنعمة الاعتذار، وانما اجبرها على الابحار دون استئناف في مركب إلى سان خوان دي لاثنيناغا . ولم تسترح فيرمينا داثا إلى الابد من عذاب ذكرأها الأخيرة، في مساء اليوم الذي ودعتها فيه عند البوابة وهي تنقد بالحمى في مسوحها البني، ورأها تختفي بعظامها البارزة وشحورها تحت مطر الحديقة حاملة متاعها الوحيد المتبقي لها في الحياة : حقبة العزباء، وبعض النقود، البيت لا تكاد تكفيها للحياة شهراً، ملفوفة بمنديل في طرف كمها .

وما ان تحررت من سلطة والدها فيها بعد حتى بعثت من يبحث عنها في مقاطعات الكاريبي ، سائلة عنها كل من قد تعرف اليها ، ولم تجد أي خبر عن اثارها إلا بعد مرور حوالي ثلاثين سنة ، عندما تلقت رسالة تناقلتها أيد كثيرة خلال زمن طويل ، وفيها يخبرونها بانها ماتت في حوالي المئة من العمر في عجز اغوا دي ديوس الصحي . لم يتبأ لورينثودا بالشراسة التي سترد بها ابنته على العقاب الظالم الذي راحت ضحيته العمة اسكولاستيكا ، تلك العمة التي كانت ترى فيها امها التي لا تكاد تتذكرها . لقد حبست نفسها مقفلة الباب بالرتاج في غرفة النوم ، دون طعام أو شراب ، وعندما تمكن اخيراً من جعلها تفتح الباب ، بالتهديد أولاً ثم بالتوسلات المنافقة ، وجد نفسه أمام لبوة جريح لن تعود ابنة خمس عشرة سنة إلى الأبد .

حاول اغراءها بكل أنواع التملق . حاول افهامها أن الحب في سنها ما هو إلا سراب ، وحاول اقناعها بالحسن ان تعيد الرسائل وترجع إلى المدرسة لتطلب الصفح جانية ، ووعدا بكلمة شرف انه سيكون أول من سيساعدها لتكون سعيدة مع خطيب محترم . لكنه كان كميّ يتحدث ميتاً . أحس بالهزيمة ، وانتهى إلى فقدان أعصابه أثناء غداء يوم الاثنين ، وفيها هويشرق بالسباب والشتائم على حافة الهيجان ، تناولت سكين اللحم ووضعتها على عنقها ، بلا دراماتيكية وبنض ثابت ، وعينين ذاهلتين لم يجرؤ على تحديدها . وكان ان قرر حينئذ المخاطرة بالحديث كرجل لرجل ، لمدة خمس دقائق ، مع الدخيل المشؤوم الذي لا يذكر انه رآه يوماً ، والذي وقف في طريق حياته في ساعة نحس . وبمحض العادة تناول المسدس قبل ان يخرج ، لكنه حرص على حمله مخبأ تحت القميص .

لم يكن فلورينتينو اريشا قد استرد انفاسه عندما قاده لورينثودا من ذراعه عبر ساحة الكندراتية حتى رواق الاقواس في مقهى الباروكية ، ودعاه للجلوس على المصطبة الخارجية ، لم يكن هناك زبائن اخرون في مثل هذا الوقت ، وكانت امرأة زنجية تمسح بلاط الصالة الضخمة ذات الواجهات الزجاجية المتشظية والمفجرة ، حيث كانت الكراسي ما تزال موضوعة بالمقلوب فوق الطاولات الرخامية . كان فلورينتينو اريشا قد رأى لورينثودا مرات كثيرة وهو يلعب ويشرب النبيذ هناك مع استوربي السوق العام ، الذين يشتبهون في مشادات صارخة حول حروب مزمنة اخرى غير حروبنا . ولقد تساءل مرات كثيرة ، وهويعي قدرية الحب ، كيف سيكون لقاءه الذي سيتم عاجلاً أم آجلاً مع هذا الرجل ، ذلك اللقاء الذي لن تحول دونه قوة انسانية ، لانه مكتوب منذ الازل في قدر كل منهما . لقد رأى في الأمر شجاراً لامتكافئاً ، ليس لأن فيرمينا دائما لم تكن قد نهته في رسائلها إلى طبع ابنيها العاصف فحسب ، بل لانه هونفسه لاحظ من قبل ان له عينين غاضبتين حتى حين يقهقه صاحكاً

على طاولة اللعب . ان كل ما فيه كان محصلة شراسة : كرشه اللثيم ، وطريقته المُفخّمة في الكلام ، وساقاه اللتان كسافي وشَقّ ، ويدها الغليظتان مع النصر المختنق بفص الباقوت الشيء اللين الوحيد فيه ، والذي تبه اليه فلورينتينواريثا مذ رأه يمشى لأول مرة ، هوشيته الغزلاية التي كمشية ابنته . ومع ذلك ، فانه لم يره فظاً كما كان يظن حين اشار له إلى الكرسي ليجلس ، ثم انه استرد انفاسه عندما دعاه لتناول كأس من خمرة لها طعم اليانسون . لم يكن فلورينتينواريثا قد تناول مشروباً كهذا في الثامنة صباحاً من قبل لكنه وافق شاكراً ، لانه كان بحاجة اليه وبسرعة .

لم يتأخر لورينثودانا فعلاً أكثر من خمس دقائق في عرض غرضه ، وفعل ذلك بصراحة مجردة جعلت الأمر يحتل على فلورينتينواريثا . لقد وضع نصب عينيه ، منذ وفاة زوجته ، هدفاً وحيداً ، هوان يجعل من ابنته سيدة عظيمة . وكان السبيل الى ذلك طويلاً وشائكاً بالنسبة لتاجر بغال لا يحسن القراءة ولا الكتابة ، رغم ان سمعته كلص مواشي لم تكن مؤكدة بنفس درجة انتشارها في مقاطعة سان خوان دي لا ثييناغا . أشعل سيجار بغال ، وقال متحسراً : « الشيء الوحيد الذي اعتره أسوأ من اعتلال الصحة هو سوء السمعة . ومع ذلك - قال - ان سر ثروته الحقيقي هوانه لم يكن يجعل اي من بغاله يعمل بقدر ما كان هونفسه يعمل وبتصميمه ، حتى في اكثر ازمان الحرب مرارة ، حين كانت القرى تستيقظ متحولة إلى ركام والحقول إلى هشيم . ورغم أن ابنته لم تطلع يوماً على مخطط مصيرها ، إلا انها كانت تتصرف كشريكة متحمسة . فهي ذكية ومنظمة ، حتى انها علمت اباهما القراءة بالسرعة نفسها التي تعلمت هي بها . وفي الثانية عشرة من عمرها كانت مطلعة على الواقع بشكل يؤهلها لتسيير شؤون البيت دون حاجة للعملة اسكولاستيكا . وتنهذ : « انها بغلة ذهبية » . وعندما انتهت ابنته المدرسة الابتدائية ، بدرجات قصوى في كل المواد ، مع تنويه شرف في حفل الختام ، أدرك ان بلدة سان خوان دي لا ثييناغا أصبحت ضيقة على احلامه . عندئذ صفى ممتلكاته من الاراضي والمواشي ، وانتقل بقوى جديدة وسبعين ألف بيزو ذهباً إلى هذه المدينة المنهارة ، ذات الابعاد المنخورة ، ولكن حيث المجال متاح لامرأة جميلة ومؤدبة على الطريقة القديمة ان تولد من جديد بزواج محظوظ . لقد كان اقتحام فلورينتينواريثا حياتها عائفاً غير متظر في ذلك المخطط الصارم . « اني آت لا تقدم منك برجاء » . قال لورينثواريثا . ثم بلل عقت السيجار بخمر اليانسون ، وأخذ منه نفساً بلا دخانه واختتم بصوت مغموم :

- ابتعد عن طريقنا .

كان فلورينتينواريثا قد اصفى اليه وهويتناول رشفات من خمر اليانسون ، منذ اكتشاف ماضي فيرمينا دانا ، حتى انه لم يسأل نفسه عما سيقوله عندما سيتكلم . وما ان

وقت الكلام حتى انتبه الى ان تقرير مصيره متوقف على ما سيقوله . فسأل :

- هل كلمتها ؟

قال لورينثوداثا :

- هذا ليس من اختصاصك .

وقال فلورينتينو اريشا :

- انني أسأل لانني أرى انها هي التي عليها ان تقرر.

فقال لورينثوداثا :

- لأشياء من هذا . فالقضية قضية رجال ويجب تسويتها بين الرجال .

أصبحت نبرة صوته متوعدة، والتفت زبون على طاولة مجاورة لينظر اليهما وتكلم فلورينتينو اريشا بأخفض صوت ممكن ولكن بأقصى ما لديه من تصميم .

قال :

- لا أستطيع اجابتك على اية حال دون ان أعرف رأيها، لان ذلك سيكون خيانة .

حينئذ شد لورينثوداثا نفسه إلى الورا في المقعد، بأجفانه المحمرة والرطبة، ودارت عينه اليسرى في محجرها لتستقر مائلة إلى الخارج . ثم خفض صوته أيضاً وقال :

- لا تجبرني على قتلك باطلاق النار عليك .

أحس فلورينتينو اريشا ان احشائه قد امتلأت برغوة باردة، لكن صوته لم يرتعش، لانه أحس أيضاً بأنه ملهم بوحى من الروح القدس . فقال ويده على صدره :

- اطلق .

كان على لورينثوداثا ان ينظر اليه بجانبه، كالبيغاوات، ليراه بالعين المائلة . ولم ينطق الكلمات الثلاث، وانما بدا وكأنها يبصقها مقطعاً مقطعاً :

- يا - ابن - العا - هر - ة !

في ذلك الاسبوع بالذات حمل ابنته إلى رحلة النسيان . لم يقدم لها أي تفسير، سوى انه اقتحم غرفة نومها وشاربه ملوث بالغضب المختلط مع السيجار المضغ، وأمرها بان تجهز أمتعة السفر. سأله إلى أين سيذهبان، فأجابها: «إلى الموت». وحاولت وهي فزعة من هذا الجواب الذي يشابه الحقيقة كثيراً، مواجهته بشجاعة الأيام الماضية، لكنه نزع حزامه ذا الابرزيم النحاسي، وطواه على قبضته، ثم هوى على الطاولة بجلدة دوت في ارجاء البيت كأنها طلقة بندقية . فعرفت فيرميا داثا جيداً مدى قوتها ومناسبتها، وهكذا أعدت أمتعة السفر ولفتها ببساطين وارجوحة نوم، ووصعت كل ملابسها في صندوقين كبيرين، وهي متأكدة من انها رحلة بلا عودة . وقبل ان ترتدي ثيابها، حبست نفسها في الحمام وتكثت من كتابة رسالة

وداع قصيرة إلى فلوريتيسواريشا على ورقة منتزعة من مجموعة الورق الصحي . ثم قصت صغيرتها كاملة من مستوى الرقبة بمقص تقليم ، ولقتها في علبة من المخمل مطرزة بخيوط ذهبية وبعثت بها مع الرسالة .

كانت رحلة مجنونة . مرحلتها الأولى وحدها استغرقت أحد عشر يوماً برفقة قافلة بقالى الانديز ، على صهوة بغلة فوق جروف سلسلة سيرا نيفادا الوعرة ، وقد امضوها وهم مخدرون بالشمسوس اللاهبة أو مبليين بأمطار تشرين الافقية ، وبأنفاس مخدرة في معظم الاحيان بفعل الروائح المنومة التي تنبعث من الجروف . وفي اليوم الثالث للرحلة انزلت بغلة هائجة بسبب ذباب الدواب وهوت مع فارسها ساجبة معها مجموعة البغال المربوطة واياها كلها ، واستمرت زعقة الرجل وعنقوده المؤلف من سبع بهائم مربوطة إلى بعضها تردد في الأودية والوهاد لعدة ساعات بعد الكارثة ، وبقيت تطن في ذاكرة فيرمينا دانا لسنوات وسنوات . لقد هوى كل متاعها مع البغال ، ولكنها في لحظة القرون التي استغرقتها السقوط إلى ان انطفأت صرخة البغال في القاع ، لم تفكر بالرجل المسكين الذي مات ولا بالقافلة التي تمزقت ، وانما كانت ترى الكارثة في ان بغلتها التي تمتطيها لم تكن مربوطة مع العمال الاخرى .

كانت المرة الأولى التي تمتطي فيها صهوة بهيمة ، ولكن رعب الرحلة والامها التي لا حصر لها ماكانت لتبدوها بهذه المראה لولا قلقها من كونها لن ترى فلوريتيسواريشا بعد اليوم ولن تتعزى برسائله . منذ بدء الرحلة لم تبادل والدها الحديث ، وهذا كان قلقاً بدوره حتى انه لم يكلمها إلا في بعض الامور الضرورية ، او اكتفى بأرسال بعض التعليمات اليها مع البقالين . وحين كان الحظ مجالفهم ، يجدون نزلاً على الطريق يُقدم فيه طعام جبلي ترفض تناوله ، ويؤجرونهم فراشاً متسخاً معرق وسول زنخين . أما غالبية الليالي فكانوا يقضونها في اكواخ هنود ، أو في منامات عامة في الهواء الطلق مشادة على حافة الدروب في صفوف من اكواخ خشبية ذات سقوف من النخيل ، حيث لكل من يصل الحق بالبقاء حتى الفجر . لم تتمكن فيرمينا دانا من النوم ليلة كاملة وهي تتعرق خوفاً ، وتحس في الظلام بحركة المسافرين الرشيقه وهم يربطون دوابهم في الاكواخ الخشبية ويعلقون اراجيح نومهم حيث يستطيعون .

في المساء ، وعند وصول أول المسافرين ، يكون المكان هيباً وهادئاً ، لكنه يتحول عند الصباح إلى ساحة مهرجان ، مليئة بعشده من اراجيح النوم المعلقة على عدة مستويات ، وهنود ارواكو الجبلين الذين ينامون مقرفين ، وتلمل الماعز المربوطة وصخب ديكة المصارعة في صناديقها الفرعونية ، والصمت اللاهث للكلاب الجبلية المدربة على عدم التناح خوفاً من مخاطر الحرب . لقد كانت تلك الاجواء مألوفة للوريتشودانا ، الذي عمل تاجراً في المنطقة

خلال نصف حياته، وكان يلتقي بشكل شبه دائم مع اصدقاء قدماء عند الفجر أما بالنسبة للالنة فكان احتضاراً مؤبداً. ان ثانة تسجنات السمك المملح، مضافة إلى فقدانها الشهية شوقاً، توصلنا إلى اتلاف عادة الأكل لديها، واذا كان لم يصحبها مس من اليأس فلائها وجدت الفرج دوماً في ذكرى فلورنتينواريتا. ولم تشك للحظة في ان تلك الأرض هي أرض النسيان. وكان هناك رعب دائم آخر هورعب الحرب. فمنذ بدء الرحلة جرى حديث عن خطر الالتقاء بالدوريات المنتشرة، وقد دربهم البغالون على مختلف الاساليب لمعرفة الجهة التي ينتمون اليها ليتصرفوا بما يتلاءم مع ذلك. وكثيراً ما كانوا يلتقون بارسالية جند على الخيول، تحت امرة ضابط، تقوم بحملة تجنيد اجباري لمجندين جدد وذلك بربطهم كالعحول واجبارهم على الجري. ومتقلة بكل هذه المخاوف، نسيت فيرمينا دانا ذاك الذي بدا لها اكثر خرافية من الامور الوشيكة الحدوث، إلى ان اختطفت دورية بلا انتهاء معروف مسافرين من القافلة في احدى الليالي وشنقتها على شجرة كابلي على بعد فرسخ واحد من المناطة. لم يكن للورينثودانا أية علاقة بهما، لكنه انزلها عن الانشودة ودفنها كمسيحيين وذلك بدافع الحمد لكونه لم يلق المصير نفسه. وكان هذا أقل ما يمكن عمله. لان المهاجمين كانوا قد ايقظوه وفوهة بندقية مصوبة إلى بطنه، واقترب منه قائد بأسبال، وجهه مطلي بسنجان أسود، وصوب نحوه ضوء مصباح يدوي، وسأله ان كان ليبرالياً أم محافظاً. فقال لورينثو دانا :

- لست هذا ولا ذاك. أنا مواطن اسباني.

فقال الكومدان :

- يا لك من محظوظ ! - ثم ودعه رافعاً يده إلى أعلى وقال :- فليحيا الملك !

بعد يومين من ذلك نزلوا إلى السهل الساطع، حيث تقبع بلدة فاييدوبار السعيدة. كانت تقام هناك مصارعات ديكة في الباحات، وتُعرف موسيقى اوكورديون في المنعطفات، كما كان هناك فرسان يمتطون سهوات جياد كريمة، وألعاب نارية وقرع نواقيس. وكانوا قد نصبوا كذلك قلعة من الاسهم النارية. لكن فيرمينا دانا لم تعراي اهتمام حتى للجوقة الموسيقية. استضافهما الخال ليسياكوسانتشيث، شقيق امها، الذي خرج لاستقبالهم على الطريق الرئيسي ترافقة كوكبة من الفرسان الاقارب الشباب الذين يمتطون بهائم من أفضل سلالات المقاطعة، وقادوها عبر شوارع البلدة وسط فرقة الألعاب النارية. كان البيت في نطاق الساحة الكبرى، إلى جوار الكنيسة الاستعمارية المرممة عدة مرات، والتي كانت أشبه بمستودع محصولات بحجراتها الفسيحة والمظلمة، ومررها العابق برائحة عصير قصب السكر الدافئ، مقابل بستان أشجار مثمرة.



وما ان ترجلوا في الاصطبلات، حتى امتلأت صالات الاستقبال باعداد من الاقارب  
المجهولين الذين كانوا يزعمون فيرمينا دائما بسبل عواطفهم الذي لا يطاق، لانها كانت  
عاجزة عن حب أحد آخر في هذا العالم، اضافة إلى تسليخ بشرتها من امتطائها البهيمية،  
وانها كها من النعاس والاسهال، والشيء الوحيد الذي كانت تشوق اليه هو مكان منزل  
وهادئ لتبكي فيه. وكانت ابنة خالها هيلديبراند، التي تكبرها بستين ولها كبرياؤها  
الامبراطوري ذاته، هي الوحيدة التي تفهمت حالتها منذ رأتها لأول مرة، لانها كانت تكتوي  
كذلك بجمرات حب متهور. رافقتها عند المساء إلى حجرة نومها التي أعدتها لتقاسمها  
وايها، ولم تستطع ان تفهم كيف ما زالت على قيد الحياة بهذه القروح النارية في البيت.  
وبمساعدة أمها، وهي امرأة عذبة وشبيهة جداً بزوجها حتى لبيدوان وكأنها توأمان، أعدت  
لها مغطساً ونحفت لها حرارة الحمى بكبادات من ازهار جبلية، فيما كانت اسهم قلعة البارود  
النارية تهز أعماق البيت.

انصرف الزوار عند منتصف الليل، وتفرقت الحفلة العامة إلى جذوات مبعثرة، وأعارت  
ابنة الخال هيلديبراند قميص نوم قطنياً أبيض لفيرمينا دائماً، وساعدتها على الاستلقاء في  
سريري ذي شرائف نظيفة ووسادة ريش أوحث لها بغتة برعب السعادة المفاجيء. وعندما بقيتا  
وحدهما أخيراً، أغلقت الباب بالملزاج وأخرجت من تحت فرشاة سريرها مغلفاً مختوماً بشعار  
التلغراف الوطني. وكانت رؤية تعابير المكر المشعة من وجه ابنة الخال ترعّم في ذاكرة قلب  
فيرمينا دائماً رائحة أزهار الياسمين البيضاء، قبل ان تفتت باسنانها خاتم الشمع الاحمر وتبقى  
حتى الفجر متخبطة في بركة دموي البرقيات الاحدى عشر الحارقة.

وعرفت حينئذ كل شيء. فقبل الانطلاق بالرحلة، ارتكب لوريشودا خطيئة اخطار حماه  
ليسيماكو سانتشيث بالتلغراف، ويعد هذا بدوره الخبر إلى حلقة أقربائه الواسعة والمعقدة،  
المتشرة في عدد كبير من قرى ودروب المقاطعة. وهكذا لم يتمكن فلورينتيناوا من معرفة  
طريق السفر كله فقط، وإنما أقام كذلك جمعية واسعة من عمالي التلغراف لاقتفاء آثار فيرمينا  
دائماً حتى آخر قرية في كابودي لافيللا. وقد اتاح له ذلك الاحتفاظ باتصال مكثف معها منذ  
وصولها إلى فيديوار، حيث أقامت ثلاثة شهور، وحتى نهاية الرحلة في ريوهاتشا، بعد سنة  
ونصف، حين هُيئت للوريشودا ان ابنته قد نسيت، وقرر الرجوع إلى بيته. ربما لم يكن هو  
نفسه واعياً مدى تراخي مراقبته، في انشغاله بمدهات انسابه السياسيين، الذين تخلوا بعد  
كل هذه السنين عن اوهامهم القبلية وقلوبهم بقلب مفتوح كواحد منهم. لقد كانت زيارة  
مصالحة متأخرة، رغم ان الغرض الاساسي منها لم يكن كذلك. كانت هائلة فيرمينا  
سانتشيث قد عارضت فعلاً، وبكل اصرار زواجها من مهاجر بلا اصل، متوحش وكثير

الكلام ، كان يمضي عابرا في كل الاماكن ، بتجارة بغال شبة تبدو شديدة البساطة حتى ليشك في نظافتها . كان لورينودا يلعب لعبة كبيرة ، لان محبوبته هي افضل فتاة في عائلة تقليدية من عائلات المنطقة : قبيلة متشابكة من النساء الباسلات والرجال طيبي القلب وسهلي الزناد ، الذين يهبجون إلى حد الجون في مسائل الشرف . ومع ذلك ، فقد أصرت فيرمينا سانتشيث بكبريائها على قرار حبها الاعمى ، وتزوجت منه رغم غضب العائلة بسرعة كبيرة وامرار كثيرة ، فبدت وكأنها لم تفعل ذلك بدافع الحب وانما لاختفاء زلة مبكرة بغطاء مقدس .

وبعد خمس وعشرين سنة ، دون ان ينتبه لورينودا إلى ان عناده أمام حب ابنته هو تكرار لتاريخه المعيب ذاته ، كان يشكرو بلواه أمام أمائه الذي عارضوا زواجه ، كما شكاه هؤلاء في حينهم أمام أمائه . ولكن الوقت الذي كان يضيعه في حسراته كانت ابنته تكسبه في غرامياتها . وفيها هو منصرف إلى خصي العجول وترويض البغال في أرض أمائه السعيدة ، كانت هي تمضي مُفَلتة الأعنة مع فوج من بنات خو ولتها تقودهن هيلديرا ندا سانتشيث ، أجملهن وأسرعهن في تقديم الخدمات ، والتي كانت تكثفي بنظرات غتلسة في حبها الطائش لرجل يكبرها بعشرين سنة ، متزوج وأب لأولاد .

بعد اقامة طويلة في فاييدوبار ، تابعا الرحلة عبر المرتفعات المجاورة لسلسلة الجبال ، مجتازين مروجاً مزهرة وتلالاً حاملة ، واستقبلوا في جميع القرى بمثل الاستقبال الاول ، مع الموسيقى والمفرقات ، وبنات خو ولة جدييدات متواطشات ورسائل منتظمة في مكاتب التلغراف . وسرعان ما تنهت فيرمينا داا إلى ان وصولها إلى فاييدوبار ولم يكن مختلفاً ، وان جميع أيام الاسبوع في تلك المقاطعة الغنية كانت تعاش وكأنها أيام أعياد . كان الضيوف ينامون حيث يفاجئهم الليل ويأكلون حيث يصادفهم الجوع ، فالبيوت مشرعة الابواب فيها دائماً ارجوحة نوم معلقة وطبخ به بضع قطع من اللحم يغلي على موقد ، تحسباً لقدوم أحد قبل وصول برقية الاعلان عن مجيئه ، كما كان يحدث بشكل شبه دائم . رافقت هيلديرا ندا سانتشيث ابنة عمتها في بقية مراحل الرحلة ، وقادتها بسعادة عبر تشابكات الدم حتى منابع أصلها . وتعرفت فيرمينا داا على ذاتها ، وأحست بانها سيدة نفسها للمرة الأولى ، أحست بانها مرافقة ومحمية ، وان رثتها مملتان بهواء حرية أعاد لها الطمأنينة وإرادة الحياة . وبقيت تذكر تلك الرحلة حتى سنواتها الاخيرة ، وتشعر بها اقرب عهداً في ذاكرتها ، مع صحوات الحنين المضللة .

وفي احدى الليالي رجعت من جولتها اليومية مصعوقة لاكتشافها أن المرء لا يمكن ان يكون سعيداً دون الحب فحسب بل وضده أيضاً . وقد افزعها هذا الاكتشاف لان احدى بنات

أخواها استمعت مضادة الى حديث بين ابائهن ولورينثودا، لمح هذا الاخير خلاله إلى موافقته على فكرة زواج ابنته من وارث ثروة كليوفاس موسكوتي الخيالية . كانت فيرمينا دائماً تعرفه . فقد رأته وهو يذرع الساحات على متن جياده الكريمة، ذات السروج الفاخرة التي تبدو وكأنها زينة القديس، وكان أنيقاً وجذاباً، له رموش حاملة تجعل الاحجار تتنهد، لكنها قارنته في ذاكرتها بفلورينتينو اريشا الجالس تحت أشجار اللوز في الحديقة، بائساً وضامراً، مع كتاب الاشعار في حضنه، ولم تجد في قلبها ظلاً من الشك .

كانت هيلديبراندا سانتشيث تمضي في تلك الايام مهووسة بالاحلام بعد زيارة قامت بها لمعرفة اذهلتها دقة بصيرتها . فذهبت فيرمينا دائماً، المرتبة من نوايا أبيها، لاستشارتها كذلك . وقد أنبأها الورق بأنه لا وجود في مستقبلها لأي عائق أمام زواج طويل وسعيد، وند اعادت لها تلك النبوءة انفاسها، لأنها لم تكن تتصور بأنه يمكن لمصير موفق إلى هذا الحد ان يكون مع رجل آخر سوى الذي تحبه . وتولت حينئذ مقاليد اختيارها وهي سعيدة بهذا اليقين . وهكذا لم تعد مراسلاتها مع فلورينتينو اريشا مجرد كونشيرتو من الوايا والوعود الخيالية، بل عادت لتصبح منهجية وعملية، وأكثر زخماً من كل ما سبق . حددا المواعيد، وأقرا الاساليب، ورهنا حياتهما بقرارهما المشترك في الزواج دون الرجوع إلى أحد، في أي مكان وبأية طريقة، وذلك فور لقائهما من جديد . كانت فيرمينا دائماً تعتبر هذا الوعد حاسماً، لدرجة انه في الليلة التي سمح لها فيها ابوها بحضور الحفلة الراقصة الأولى كراشدة، في بلدة فونسيكا، لم تر انه من الوقرار القبول بالذهاب دون موافقة خطيبها . وفي تلك الليلة كان فلورينتينو اريشا يلعب الورق مع لوتاريسوتوغوت في فندق العابرين، عندما احبروه بأنه مطلوب في اتصال برقي مستعجل .

كان المتصل هو موظف التلغراف في فونسيكا . الذي عشق سبع محطات وسيطة لتطلب فيرمينا دائماً الاذن بحضور الحفلة الراقصة . ولكنها حين حصلت على التصريح، لم تكتف بمجرد الرد الايجابي، وانما طلبت ما يثبت ان فلورينتينو اريشا هو من يضرب مفاتيح الارسل في الطرف الآخر من الخط فعلاً . فصاغ هو مذهب اكثر منه مغالزاً عبارة تحدد هويته : قل لها أنني اقسم بالربة المتوجة . وهكذا تعرفت فيرمينا دائماً على الإشارة، وبقيت في حفلتها الراقصة الأولى كراشدة حتى الساعة السابعة صباحاً، عندما اصبح عليها الذهاب لاستبدال ملابسها كي لا تصل متأخرة إلى القديس .

كانت تملك حينئذ في قاع صندوقها كمية من الرسائل والبرقيات اكبر من تلك التي انتزعها ابوها منها . وكانت قد تعلمت ان تسلك سلوك النساء المتزوجات . وقد اعتبر لورينثودا تلك التبدلات التي طرأت على سلوكها بأنها شفاء لا شك فيه من أوهام شبابها أوصلها اليه

العد والزمن، لكنه لم يطرح عليها ابداً مشروع الزواج المتفق عليه. وأصبحت علاقتها بابيه أكثر انسياباً، ضمن التحفظات الشكلية التي فرضتها منذ طردالعمة اسكولاستيكا، مما أتاح لهما نوعاً من التعايش المريح ما كان لأحد ان يشك بانه ليس قائماً على المحبة.

وكان ان قرر فلورينتينو اريشا في هذه الفترة اخبار فيرمينا داثا في رسائله بانه مشغول في الكشف لها عن كنز السفينة الغارقة. كان يفعل ذلك حقاً، ولقد خطر له الأمر كتفحة الهام، ذات مساء منير بينا البحر يبدو وكأنه مرصوف بالآلنيوم، لكميات السمك الطافية على سطح الماء بفعل ازهار الباريا سكو. كانت جميع طيور السماء قد هاجت للمجزرة، بينا تولى الصيادون أمر افزاعها بالمجاذيف كي لا تشاركهم ثمار تلك المعجزة المحرمة. فاستخدام الساربا سكو، الذي يجدر الاسماك فقط، كان محظوراً في القانون منذ العهد الاستعماري، لكنه بقي سائداً ومستخدماً في وضع النهارين صيادي الكاريبي، الى ان استبدل بالديناميت. ان احدى متع فلورينتينو اريشا، اثناء رحلة فيرمينا داثا، كانت مشاهدة الصيادين، من فوق حائل الامواج، وهم يملؤون زوارقهم بالشباك المترعة بالاسماك المخدرة. كما كانت هناك عصبة صبيان يسبحون كأسماك القرش ويطلبون من الفضوليين القاء قطع نقدية لاستخراجها من قاع الماء. انهم اولئك الذين يطلقون سباحين للغرض ذاته للقاء عابرات المحيطات، والذين كتبت عنهم مقالات وتحقيقات رحالة كثيرة في الولايات المتحدة واوروبا، لمهارتهم في فن الغوص. لقد كان فلورينتينو اريشا يعرفهم منذ الازل، بل وقبل ان يعرف الحب، ولكن لم يخطر بباله يوماً انهم قادرون على استخراج كنز السفينة سباحة. وقد فكر بذلك مساء هذا اليوم، ومنذ يوم الأحد التالي وحتى عودة فيرمينا داثا، بعد حوالي سنة، كان لديه سبب آخر للهذيان.

لقد فُتن اوكلديس، أحد الصبية السباحين، كثيراً كما فتن هوبفكرة الاستكشاف تحت الماء، بعد محادثة لم تتجاوز عشر الدقائق. لم يكشف له فلورينتينو اريشا عن حقيقة مشروعه، بينما استفسر منه بالتفصيل عن امكاناته كغواص وبحار. سألته ان كان يستطيع النزول دون هواء الى عمق عشرين متراً، وقال له اوكلديس نعم. سألته ان كان في وضع يؤهله لقيادة زورق صياد بمفرده في عرض البحر وسط عاصفة، دون أية ادوات اخرى سوى غريزته، وقال له اوكلديس اي نعم. سألته ان كان قادراً على تحديد موقع معين على بعد ستة عشر ميلاً بحرياً إلى الشمال الشرقي من الجزيرة الكبرى في ارجيل سوتافينتو، وقال له اوكلديس اي نعم. سألته ان كان مستعداً للعمل معه بالاجر نفسه الذي يدفعه له الصيادون لقاء مساعدتهم في الصيد، وقال له اوكلديس اي نعم، انها مع اضافة خمس ريات في أيام

الآحاد. سأله ان كان يحس حماية نفسه من اسماك القرش، وقال له اوكلديس اي نعم، وان لديه تعاويذ سحرية لافزعاعها. سأله ان كان قادراً على كتان السرحتي ولو وضعوه على آلات التعذيب في قصر محكمة التفتيش، وقال له اوكلديس اي نعم. لم يقل له «لا» عن أي شيء أذن، وكان يعرف كيف يقول نعم بخصوصية لا يرقى اليها الشك. ثم عرض عليه احيراً حساب النفقات: استئجار الزورق، استئجار المجدف، استئجار عدة صيد حتى لا يرتاب أحد بحقيقة رحلاتهم. اضافة إلى حمل الطعام، وقرية ماء عذب، ومصباح زيت، وحرمة شموع من الشحم، وقرن صياد لطلب السمكة في حالة الطوارئ.

كان عمره حوالي اثني عشر عاماً، وكان سريعاً وملكاً، ومتحدثاً لا يمل الكلام، له جسد خنكليس يبدو وكأنه قد تكون ليمر بخفة من نافذة سفينة. وكانت عوامل الجو قد دغمت بشرته بحيث أصبح مستحيلاً معرفة لونها الأصلي، وهذا جعل عينيه الواسعتين الصفراوين تبدوان أكثر بريقاً. وقرر فلورينتينو اريثا على الفور بانه الشريك المناسب للمغامرة بمثل هذا الحجم، وانطلقا في تلك المغامرة يوم الأحد التالي دون أية اجراءات أخرى.

ابحرا من مرفأ الصيادين عند الفجر، مومنين جيداً وعاقدين العزم أكثر. كان اوكلديس شبه عار، لا يكاد يغطي جسده سوى المتزر الذي يضعه دوماً حول وسطه. وكان فلورينتينو اريثا يرتدي السترة الرسمية، والقبعة القائمة، وجزمته الصقيلة، ويضع ربطة الشاعر حول عنقه، ويحمل الكتاب الذي سيشتغل نفسه به اثناء الرحلة إلى الجزر. ومنذ يوم الأحد الأول انتبه الى ان اوكلديس كان بحاراً حاذقاً كما هو غواص ماهر، وان له قدرة مذهلة على الحديث عن طبيعة البحر وخردة الحديد التي على الشاطئ. فهو قادر على سرد حكاية كل هيكل من هياكل السفن التي عاث فيها الصدأ بأدق تفاصيلها التي لا ترد على بال، ويعرف عمر كل جسم طاف ومنشأ كل حطام، وعدد حلقات السلسلة التي كان الاسبان يغلقون بها الخليج. وخشية ان يكون قد عرف كذلك الغرض من هذه الحملة، وجه اليه فلورينتينو اريثا بعض الاسئلة المراوغة، وعرف من خلالها انه لا تراود اوكلديس أية شكوك حول مسألة السفينة الغارقة.

مذ سمع حكاية الكنز لأول مرة في فندق العابرين، جمع فلورينتينو اريثا كل ما امكنه من معلومات عن دروب ذلك النوع من السفن. وعرف ان السفينة سان خوسيه ليست السفينة الوحيدة في الاعماق المرجانية. لقد كانت بالفعل سفينة القيادة في اسطول تييرا فيرميه، وقد جاءت هنا بعد شهر ايار من عام ١٧٠٨، قادمة من مهرجان بورتوبيلو الخرافي في بناما، حيث حملت جزءاً من كنزها: ثلاثمائة صندوق من فضة البير وفير اكروث ومئة وعشر لآلئ جمعت واحصيت في جزيرة كونتا دورا. وخلال اقامتها التي دامت لأكثر من شهر هنا، كانت ايامها

ولياليها عبارة عن مهرجانات شعبية، قاموا بتحميلها بقية الكثر المرصود لآخراج مملكة اسبانيا من الفقر: مئة وستة عشر صندوقاً من زمرد موثو وسوموندوكو، وثلاثين مليون مسكوكة ذهبية . كان اسطول تيرا فيرميه مؤلفاً مما لا يقل عن اثني عشرة سفينة متنوعة الاحجام . وقد أبحر من هذا الميناء في رحلة يحميها اسطول فرنسي حسن التسليح، لم يستطع رغم ذلك حماية الحملة من مدافع الاسطول الانكليزي الصائبة، بقيادة القمندان كارلوس واغير، الذي كان ينتظر في اريخيل سوتا فينتو، عند مخرج الخليج . وهكذا لم تكن سان خوسيه هي السفينة الوحيدة الغرقة، مع انه لا وجود لتوثيق دقيق لعدد السفن التي تحطمت وعدد تلك التي استطاعت النجاة من نيران الانكليز. لكن الذي لا شك فيه هو ان سفينة القيادة كانت من السفن الأولى التي غرقت بكامل طاقمها مع قائدها الذي لم يتزحزح من مقصورة القيادة، وانها هي وحدها التي كانت تحمل الشحنة الكبيرة .

لقد تعرف فلورينتيناوارثا على طريق السفن القديمة من خلال رسائل قباطنة السفن في ذلك العصر، وظن بانه حدد مكان الغرق أيضاً . خرجا من الخليج ما بين حصني بوكاتشيكا، وبعد أربع ساعات من الابحار دخلا في الماء الراكد ما بين جزر الارخيل، ذلك الماء ذي الأعماق المرجانية، حيث بالامكان اسماك اسماك جراد البحر النائمة باليد . كان الهواء خفيفاً، والبحر هادئاً وصافياً، حتى ان فلورينتيناوارثا رأى نفسه معكوساً في الماء . وبعد التجديف لمدة ساعتين من الجزيرة الكبرى، وصلا إلى موقع الغرق .

أشار فلورينتيناوارثا المحتقن بالشمس الجهنمية في ملابسه المائمية على اوكليديس ان يحاول النزول إلى عمق عشرين متراً وجلب أي شيء يجده في القاع . لقد كان الماء صافياً لدرجة انه رآه وهو يتحرك في الأسفل، مثل سمكة قرش متسخة بين أسماك القرش الزرقاء التي غمر إلى جانبه دون ان تمسه . ثم رآه يختفي في عرق مرجاني، وعندما فكر بانه لم يعد لديه أي قدر من الهواء سمع الصوت وراء ظهره . كان اوكليديس واقفاً في القاع ويدها مرفوعتان والماء يغمره حتى خصره . وتابع البحث على هذا المنوال عن أماكن أعماق، متوجهين دائماً نحو الشمال، ومبحرين فوق أسماك الماتاراتا الدافئة، والحباري الهياية، وورود الظلمات، إلى ان أدرك اوكليديس بانها يضيعان وقتها . فقال له :

- اذا لم تقل لي ما الذي تريدني ان أجده، فلست أدري كيف سأتمكن من العثور عليه . لكنه لم يجره . عندئذ اقترح عليه اوكليديس نزع ملابسه والنزول معه، ولولمجرد رؤية هذه السماء الاخرى للكون التي في الأعماق المرجانية . لكن فلورينتيناوارثا اعتاد على القول بان الله انشا خلق البحر لشره من النافذة، ولم يحاول يوماً ان يتعلم العموم . بعد ذلك بقليل أصبح المساء غائماً، وصار الهواء رطباً وبارداً، وأظلمت الدنيا بسرعة مما اضطرهما للاسترشاد

بالفناد ليصلا إلى المرفأ. وقبل ان يدحلا الخليج، رأيا عابرة المحيطات المرنبية تمر قريباً جداً منها وجميع انوارها مضاءة، كانت ضخمة وبيضاء، وحلفت وراءها اثراً من رائحة لحم طازج مطبوخ وقنييط يغلي.

لقد أضاعا ثلاثة آحاد على هذا الحال، وكانا سيضيعان جميع أيام الأحاد لو لم يقرر فلورينتينواريا مشاركة اوكلديس في سره. فقام هذا عندئذ بتعديل خطة البحث كلها، ومضيا للابحار في القنال القديم الذي كانت تسلكه السفن، والذي كان يبعد أكثر من عشرين فرسخاً بحرياً إلى الشرق من المكان الذي خنه فلورينتينواريا. وقبل انقضاء شهرين، في مساء يوم بحري ماطر، بقي اوكلديس وقتاً طويلاً في القاع، وكان الزورق قد انحرف كثيراً مما جعله يسبح حوالي نصف ساعة للحاق به، حيث ان فلورينتينواريا لم يستطع تقريبه بالمجداف. وعندما تمكن من الامساك بالزورق اخبراً، أخرج من فمه قطعتي حلّي نسائية وعرضهما باحساس المثابر الفائز.

ان ما رواه حينئذ كان أخاذاً، مما جعل فلورينتينواريا يقطع على نفسه عهداً بتعلم السباحة، والغوص إلى حيث يستطيع، ليتأكد من ذلك بعينه فقط. روى انه توجد في ذلك المكان، وعلى عمق ثمانية عشر متراً فحسب، أعداد من السفن الشراعية القديمة جاثمة بين الصخور المرجانية، وانه يستحيل عليه حصر عددها، وانها موزعة في مجال فسيح لا يحيط به البصر، وروى ان أكثر ما فاجأه هو انه لا يوجد قارب واحد بين القوارب الكثيرة الطافية في الخليج، أحسن حالاً من السفن العارقة. روى ان هناك عدة سفن شراعية ما زالت أشرعتها في حالة جيدة، وان السفن الغارقة كانت تسدو للنظر في الاعماق كما لو انها غرقت بمكانها وزمانها، حتى انها ما زالت مضاءة بشمس الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت، التاسع من حزيران، الذي غرقت فيه. وروى، مختنقاً باندفاع حياله، ان أسهل سفينة يمكن تمييزها هي سان خوسيه، التي يبدو اسمها للعيان مكتوباً على مقدمتها بحروف من الذهب، لكنها في الوقت ذاته السفينة التي لحق بها اكر ضرر من مدافع الانجليز. وروى انه رأى بداخلها أخطبوطاً عمره أكثر من ثلاثة قرون، تخرج ملامسه من فتحات المدافع، وانه قد تضخم كثيراً في صالة الطعام لدرجة ان اخراجه يستوجب تفكيك السفينة. وروى انه رأى جسد قبطان السفينة بزيه الحربي طافياً على جانب في الخوض المائي المتشكل في مقصورة القيادة، وقال انه اذا كان لم ينزل الى عنابر الكنز فلان هواء رئتيه لم يكفه لذلك. وها هي الأدلة. قرط به زمردة، وميدالية عليها صورة العذراء مع سلسلتها المتأكلة بفعل الاملاح.

هكذا ذكر فلورينتينواريا الكنز لأول مرة في رسالة موجهة إلى فيرمينا دانا عنثا اليها في فونسيكا قبل عودتها بقليل. لقد كانت قصة السفينة الغارقة مألوفة لديها، اذ سمعت بها عدة

مرات من لورينثوداثا، الذي أضاع وقتاً ومالاً في محاولة لاقتناع مؤسسة غواصين ألمان للتعاون معه في استخراج الكنز الغارق. وكان سيلح على المهمة، لولا ان عدداً من أعضاء أكاديمية التاريخ أقنعوه بان اسطورة السفينة الغارقة ابتدعتها أحد حكام المستعمرات اللصوص الذي استولى بهذه الوسيلة على ثروات التاج. وكانت فيرمينا داثا تعرف، على اية حال، ان السفينة تحتم على عمق مئتي متر، حيث لا يستطيع كائن بشري الوصول اليها، وليس على عمق عشرين متراً كما يقول فلورينتينوارثا. لكنها كانت معتادة جداً على شطحاته الشعرية لدرجة انها احتفلت بمغامرة السفينة على انها واحدة من أكبر شطحات خياله. ولكنها حين توالي تلقيها لرسائل اخرى تتضمن تفاصيل اكثر غرابة، مكتوبة بجدية تضاهي جدية وعوده في الحب، اضطرت للاعتاف امام هيلديبراندا بمخاوفها من ان يكون خطيبها المخبول قد فقد عقله.

كان اوكلديس قد خرج في هذه الايام بأدلة عديدة على اسطوره، بحيث لم تعد القضية هي متابعة اللعب باقراط ونحواتهم مبعثرة ما بين الصخور المرجانية، وانما تمويل عملية ضخمة لاستخراج الخمسين سفينة مع الثروة البابلية التي تحملها في جوفها. حينئذ حدث ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً، اذ طلب فلورينتينوارثا من امه ان تساعده للوصول بمغامرته الى نهايتها الطبيعية، واكتفت هي بعض معدن الحلي باسانها، والتمعن في الاحجار الزجاجية امام الضوء لتدرك ان هناك من يتعيش على سذاجة ابنها. وأقسم اوكلديس لفلورينتينوارثا وهو جاث على ركبتيه انه لا وجود لاية شائبة تشوب أفعاله، لكنه اختفى من ميناء الصيادين في يوم الأحد التالي، ثم اختفى نهائياً ولم يعد يظهر في أي مكان.

الشيء الوحيد الذي بقي لفلورينتينوارثا من كل تلك المغامرة الفاشلة هو ملجأ الهوى في الفنار. كان قد وصل إلى هناك في الزورق مع اوكلديس، في ليلة فاجأتهم فيها العاصفة وهما في عرض البحر، واعتاد منذ ذلك الحين الذهاب في المساء لتبادل الحديث مع عامل الفنار حول عجائب البر والبحر التي لاحصر لها، والتي كان عامل الفنار يعرفها. وكانت تلك بداية صداقة عاشت متجاوزة التبذلات الكثيرة التي طرأت على الدنيا. وتعلم فلورينتينوارثا هناك تغذية ضوء الفنار بشحنات من الحطب أول الأمر، ثم ببراميل الزيت، قبل ان تصلنا الطاقة الكهربائية. كما تعلم توجيه الضوء ومضاعفته بالمرايا، وكان يحرس ليل البحر من اعلى السرج حين يحول عائق دون قيام عامل الفنار بعمله. فتعلم التعرف على السفن من اصواتها، ومن حجم انوارها في الافق، وصار يحس بان شيئاً منها يصله عائداً مع ومضات الفنار.



أما المتعة اثناء النهار فكانت شيئاً آخر، وخصوصاً أيام الأحاد. ففي حي الميريس حيث كان يعيش الثرياء المدينة القديمة، كان الشاطيء المخصص للنساء مفصلاً عن الشاطيء المخصص للرجال بجدار من الطين؛ شاطيء إلى يمين الفناء وآخر إلى يساره. وقد نصب عامل الفناء منظراً يمكن بواسطته، وبدفع سنتافو واحد، مراقبة شاطيء النساء. ودون ان يعلمن بانهن مراقبات، كانت آنسات المجتمع الراقى يعرضن خير ما لديهن في ملابس الاستحمام ذات الكشاكش الكبيرة مع أحذية خفيفة وقبعات تحفي الاجشاد كما ملابس الخروج تقريباً، اضافة إلى كونها أقل جاذبية. وكانت الامهات تقمن بالحراسة من الشاطيء وهن جالسات على كرسي الخيزران الهزازة تحت الشمس بنفس الملابس، وقبعات الريش، والمظلات التي يذهبن بها إلى القداس الكبير، خوفاً من ان يغوي بنتهن رجال الشاطيء المجاور من تحت الماء. والحقيقة انه لم يكن ممكناً من خلال المنظارة رؤية أي شيء أكثر اثاراً مما يمكن رؤيته في الشارع. لكن زبائن كثيرين كانوا يتهافون كل يوم أحد متنازعين المنظار لمجرد اللذة التافهة بتذوق ثمار ما هو غريب ومحم.

وكان فلوريتينو اريثا واحداً منهم، دافعه إلى ذلك الملل اكثر مما هو اللذة، دون ان يكون هذا الدافع الاضافي هو السبب في توطيد صداقته مع عامل الفناء. فالسبب الحقيقي هو انه بعد صد فيرمينا داثا، وعندما عاكس حمى الحب المبدد في محاولة لاستبداله، لم يعش أسعد الساعات في أي مكان آخر سوى الفناء، ولم يجد عزاء أفضل منه لمحتته. كان الفناء مكانه الاثير، حتى انه حاول خلال سنوات اقناع امه أولاً، ثم عمه ليون الثاني عشر، لمساعدته في شرائه. اذ كانت فنارات الكاريمي في ذلك الحين ملكية خاصة، وكان أصحابها يتقاضون حق العبور إلى الميناء بحسب حجم السفينة. فاعتقد فلوريتينو اريثا بانها الوسيلة الشريفة الوحيدة لاداء عمل مناسب إلى جانب الشعر. أما أمه، وعمه أيضاً، فلم تكن لتفكر بشيء من هذا، وعندما أصبح بإمكانه شراء الفناء من موارده الخاصة، كانت الفنارات قد انتقلت إلى ملكية الدولة.

ومع ذلك، لم يضع أي من هذه الاحلام سدى. فاستورة السفينة الفارقة، ثم قصة الفناء فيما بعد، خففت عنه من عياب فيرمينا داثا، وعندما لم يعد يفكر في ذلك كثيراً، جاءه خبر عودتها. فعلاً، كان لوريتو داثا قد قرر العودة بعد اقامة طويلة في ريوهاشا. لم يكن الوقت الانسب للسفر في البحر، بسبب رياح كانون الأول الموسمية. فالسفن الشراعية التاريخية، الوحيدة التي تتجرأ على مثل هذه الرحلة، قد تجد نفسها عند الفجر عائدة إلى المرفأ الذي خرجت منه، مدفوعة برياح معاكسة. وكان هذا ما حدث. كانت فيرمينا داثا قد أمضت ليلة من الاحتضار، متقيئة الصفراء، ومقيدة إلى سرير قمره تبدو وكأنها مرحاض حانة، لا بسبب

ضييقها الخائق، يقط، وانما بسبب التنازع والحر أيضاً. وكانت حركة السفينة عنيفة حتى خيل اليها عدة مرات ان احزمة السرير ستقطع، وكانت تصلها من سطح المركب نفث من صرخات محزنة تبدو وكأنها صرخات غرقى، وشخير والدها في السرير المجاور، الذي يشبه شخير النمر، تبار، عنصراً آخر من مكونات الرعب. وللمرة الأولى منذ ما يقارب الثلاث سنوات، أمضت ليلة كاملة دون أن تفكر لحظة واحدة بفلورينتينواريثا، بينما كان هو موزقاً في ارجوحة النوم في لفناء الخلفي، يحصي الدقائق السرمدية التي تفصله عن موعد عودتها دقيقة فدقيقة. وعند الفجر، توقفت الرياح فجأة، وعاد الهدوء الى البحر، وتنبهت فيرمينا دائماً الى انها قد نامت رغم آلام الدوار، اذ أيقظها صخب سلاسل المرساة. نزعَتْ عنها الاحزمة حينئذ وتطلعت من خلال الطاقة آملّة برؤية فلورينتينواريثا في فوضى الميناء، لكن ما رآته كان عتابر الجسار بين الشجار النخيل الذهبية بفعل أول أشعة الشمس، ورصيف ميناء ريوهاثشا ذي العوارض الخشبية المنخورة، الذي أبحرت منه السفينة في الليلة الماضية.

انقضت بقية النهار كالحلم في البيت نفسه الذي كانا فيه حتى يوم أمس، يستقبلان الزوار ذاتهم الذين ودعوهما، ويتحدثان معهم في الأمور نفسها، وذهلت لاحتساسها بانها تعيش للمرة الثانية جزءاً من الحياة كانت قد عاشته. وبعثت تلك الاعادة الامنية للاحداث قشعريرة في فيرمينا دائماً لمجرد تفكيرها بان رحلة السفينة ستكون كذلك أيضاً، لان ذكراها كانت تسبب لها الهلع. لكن الاحتمال الآخر الوحيد للعودة الى البيت هو في قضاء اسبوعين على متن بغلة فوق تنوءات الجبال، وفي ظروف أشد خطورة من المرة الأولى، لان حرباً أهلية جديدة كانت قد نشبت في ولاية كاوكا في جبال الانديز، وأخذت تتسع منتشرة في مقاطعات الكاريبي. وهكذا انطلقت ثانية الى المرفأ في الساعة الثامنة ليلاً، برفقة موكب الأقارب الصاخب نفسه، ودموع الوداع نفسها، والصرر المتنوعة نفسها التي تضم هدايا اللحظة الاخيرة والتي لا تتسع لها القمرات. وفي لحظة الابهجار، ودع رجال العائلة السفينة باطلاق النار في الهواء معاً، فرد عليهم لورينثودائنا من سطح السفينة باطلاق رصاصات مسدسه الخمس. وما لبث قلق فيرمينا دائماً ان تبدد سريعاً، لان الريح كانت مواتية طوال الليل، وكانت للبحر رائحة زهور ساعدتها على النوم نوماً هادئاً دون أحزمة الأمان. حلمت بانها ستعود لرؤية فلورينتينواريثا، وان هذا قد نزع الوجه الذي رآته فيه دوماً، لانه كان قناعاً في الحقيقة، لكن الوجه الحقيقي كان مطابقاً. استيقظت باكراً، مفكرة باحجية الحلم، ووجدت اباهما يتناول القهوة مع البراندي في مقصورة القبطان، وقد حرف الكحول عينه، انها بقدر قليل لا يشير إلى وجود شك في العودة.

كانوا يدخلون الميناء، وكانت السفينة تنزلق بصمت عبر مناهة القوارب الشراعية الراسية

في خليج السوق العام، الذي تصل راحته التنتة إلى عدة فراسخ في البحر، وكان الفجر مشبعاً برذاذ خفيف ما لبث ان تحول إلى وابل غزير. تعرف فلورينتينو أريثا، الذي كان قابلاً على شرفة مكتب التلغراف، على السفينة وهي تعبر خليج لاس انيمس بأشعة أخذها المطر وترسو مقابل مرفأ السوق. لقد انتظر في اليوم السابق حتى الساعة الحادية عشر صباحاً، عندما عرف من خلال برقية عابرة بتأخر السفينة بسبب الرياح المعاكسة، وعاد للانتظار في ذلك اليوم منذ الساعة الرابعة صباحاً. وتابع الانتظار دون ان يرفع نظره عن الزوارق التي تحمل إلى الشاطئ قلة من المسافرين قرروا النزول الى البر رغم العاصفة. وقد اضطر معظمهم إلى مغادرة الزوارق التي توقفت في منتصف المسافة، والوصول إلى الرصيف متخبطين في الوحل. وفي الساعة الثامنة، بعد انتظار لا طائل منه لتوقف المطر، تقدم حمال زنجي غاطس في الماء حتى وسطه وأنزل فيرمينا داثا عن حافة السفينة وحملها بين ذراعيه حتى الشاطئ، لكنها كانت مبتلة الى الحد الذي لا يستطع معه فلورينتينو أريثا التعرف عليها.

لم تكن هي نفسها تعي كم نضجت خلال الرحلة، إلى ان دخلت البيت المقلل وبدأت على الفور بالعملية البطولية لاعادته صالحاً للمعيشة بمساعدة غالاً بلاثيديا، الخادمة الزنجية، التي عادت إلى موقعها السابق كعبدة بمجرد ان أعلموها بالعودة. لم تعد فيرمينا داثا هي الابنة الوحيدة، مدلة ابنيها وضحيته في الوقت ذاته، بل أصبحت ربة وسيدة مملكة من الغبار ونسيج العنكبوت لا يمكن انقاذها إلا بقوة حب عصي على الهزيمة. لم تخف، لأنها أحست بانها ملهمة بروح صعود كافية لجعلها قادرة على تحريك العالم. وفي ليلة العودة بالذات، وفيما هم يتناولون الشوكولاته مع فطيرة الجبن على طاولة المطبخ، فوضها ابوها السلطات لإدارة البيت. وفعل ذلك بطقوس كطقوس عمل قدسي، قائلاً لها :

- اني اسلمك مفاتيح البيت.

تولت المسؤولية بحزم، مع اكملها السبعة عشر عاماً من العمر، واعية ان كل شهر من الحرية المكتسبة انما حصلت عليه بقدرة الحب. وفي اليوم التالي، بعد ليلة من الاحلام الكابوسية، عانت للمرة الأولى كأبة العودة عندما فتحت نافذة الشرفة ورائت من جديد رذاذ الحديقة الحزين، وتمثال البطل مقطوع الرأس، والمقعد الرخامي حيث اعتاد فلورينتينو أريثا الجلوس مع كتاب الاشعار. ما عادت تفكر فيه كخطيب مستحيل، انما كزوجها الذي عليها الارتباط به تماماً. واحست كم كان ثقيلاً الزمن الضائع منذ ذهابها، وكم يكلفها بقاءها على قيد الحياة من جهد، وكم من الحب يلزمها لتحب رجلها كما يشاء الله. فرجئت بانه ليس في الحديقة، كما كان يفعل في احيان كثيرة غير عابيه بالمطر، وبانها لم تتلق أية إشارة منه بأي

وسيلة، ولا حتى بالايحاء . وفجأة فبكرت ان يكون قد مات . لكنها استبعدت فكرة الشؤم في الحال، لانها في احتدام برقيات الأيام الاخيرة، وامام اقتراب موعد العودة، نسيت الاتفاق معه على وسيلة لمتابعة الاتصال عندما تعود،

والحقيقة ان فلوريثينوارشا كان يظن موقناً بانها لم ترجع بعد، إلى ان أكد له عامل التلغراف في ريوها تشا بانها قد أبحرت منذ يوم الجمعة في السفينة ذاتها التي لم تصل في اليوم السابق بسبب الرياح غير المواتية . وهكذا أمضى نهاية الاسبوع مترصداً أية علامة حياة في بيتها، وفي مساء يوم الاثنين رأى من خلال النوافذ ضوءاً متقللاً ما لبث ان انطفأ بعد الساعة التاسعة بقليل في حجرة النوم المظلة على الشرفة . لم ينم تلك الليلة، وطارده الاشواق الهائجة نفسها التي أفلقت ليلالي حبه الأولى . نهضت ترانسيوارشا مع الديوك الأولى، مذعورة لان ابنها قد خرج الى الفناء ولم يعد للدخول منذ منتصف الليل، ولكنها لم تجده في البيت . لقد مضى يتسكع هائلاً على حائل الامواج، وراح يلقي أشعار الحب على الريح، ويكي طرباً حتى مطلع الفجر . وفي الثامنة صباحاً كان يجلس تحت قناطر مقهى الباروكية، وقد أفقده السهر توازنه، محاولاً ابتداع طريقة يوصل بها إلى فيرمينا دائماً ترحيبه بقدميها، حين أحس بهزة مزلزلة تمزق احشائه .

كانت هي، تجتاز ساحة الكتدرائية برفقة عالا بلاثيدينا، التي كانت تحمل سلال المشتريات، وللمرة الأولى رآها تسير بملابس غير الزي المدرسي، وتبدو أطول مما كانت عليه عند ذهابها، وأكثر كمالاً ونضوجاً، وبجمال مصفى بمقدرة امرأة واعية . كانت صغيرتها قد نمت مجدداً، لكنها لم تكن تسدها على ظهرها وانما تتكئها فوق كتفها اليسر، ولقد نزع عنها ذلك التغير الطفيف كل اثر للطفولة . وقف فلوريثينوارشا في مكانه مصعوقاً، الى ان اجتازت مخلوقة الحلم الساحة دون ان ترفع بصرها عن طريقها . ولكن القوة التي جمدته هي نفسها التي دفعتة بعد ذلك للاسراع في اثرها حين انعطفت عند زاوية الكتدرائية وضاعت في زحمة السوق التي تبعث على الصمم .

لاحقها دون ان تراه، مستكشفاً الحركات اليومية، والنضج المبكر، وظرافة اكثر الكائنات حبة في هذا العالم، والتي كان يراها لأول مرة وهي منطلقة على سجيبتها . اذهلته السهولة التي تشق بها طريقها وسط الجموع . فبينما كانت غالا بلاثيديا تصطدم بالناس، وسلالها تتشابك وتضطر للركض كي لا تفزع اثرها، كانت هي تبهر في فوضى الشارع بجو خاص بها وزمن مختلف، دون ان تصطدم بأحد، وكأنها خفاش في الظلام . لقد خرجت مرات كثيرة إلى السوق من قبل مع العمة اسكولاستيكا، ولكن المشتريات كانت ضئيلة القيمة، فوالدها كان يتولى شخصياً مسؤولية تزويد البيت بالموث، وليس بالاثاث والمأكولات فحسب، بل

وبالملايس النسائية ايضاً. ولهذا كان خروجها الاول ذاك مغامرة اخاذة تمثلتها احلامها كطفلة.

لم تعراهما تماماً لتسرع المشعوذين الذين كانوا يقدمون لها اكسيراً للحب الابدي، ولا لرجاء المتسولين المستلقين في الدهاليز بقروحهم المدخنة، ولا للهندي المزيف الذي يحاول بيعها تمساحاً أليفاً. لقد قامت بجولة واسعة ومفصلة، دون مسار مدروس، ويتوقفات لا سبب لها سوى متعة عدم التسرع في روح الاشياء. ودخلت في كل زقاق يوجد فيه شيء للبيع، وفي كل مكان وجدت شيئاً غذى رغبتها في الحياة. تمتعت بحفيف أزهار الاقمشة في الصناديق الكبيرة المزخرفة، ولقت نفسها بالحرير المزين بالرسوم، وضحكت لضحكاتها ذاتها وهي ترى نفسها متمشحة بالملايس الشعبية مع مشط زينة ومروحة مزينة برسوم أزهار مقابل مرآة كبيرة في محلات السلك الذهبي. وفي دكان البحريرات رفعت غطاء برميل يحتوي اسماك زنكة في ماء مملح ذكرها بليلي الشمال الشرقي، وهي طفلة صغيرة، في سان خوان دي لاثيناغا. وقدموا لها سحفاً من الكانتي لتذوقه فكان له طعم عرق السوس، فاشتريت قطعتين منه لفطوريوم السبت، كما اشترت بصع شرائح من سمك القد وقطرميز كشمش مع الخمر. وفي دكان البهارات، ومن اجل التمتع بالرائحة فقط، عصرت بين كفيها أوراق مريمية وصعتر، واشترت حفنة قرنفل ذي رائحة، وحفنة يانسون مطحون، وحفنة اخرى من الزنجبيل والعرعر، وخرجت مبتللة بدموع الضحك لكثرة ما عطست من روائح لفلل كاينا. وفي البوتيكا الفرنسي، وبينما هي تشتري صابون روتير وعطر البان الهندي، وضعوا لها وراء أذنها لمسة من عطر كان شائع الاستعمال في باريس يومها، واهدوها حبة مزيلة للرائحة تسعمل بعد التدخين.

كانت تلعب لعبة الشراء حقاً، لكنها كانت تشتري ما هي بحاجة اليه فعلاً بلا مواربة، وبمقدرة لا تسمح بالظن بانها انها تفعل ذلك للمرة الأولى، فقد كانت مدركة انها لا تشتري لنفسها فقط وانما له كذلك. . انتقي عشرة ياردة من الكتان كشراشف لمائدتهما معاً، ونسيجا قطنياً لشراشف سرير الزفاف ولتهتكهما معاً عند الصباح، ومن كل صنف ما هو اكثر روعة ليتمتع به معاً في بيت الحب. كانت تطلب تخفيضاً وتتفنن طلبه، وتجادل بظرافة وقار حتى تحصل على أفضل الاصناف، وتدفع بمسكوكات ذهبية يقوم الباعة بتجريبها للاستمتاع فقط بساع رينها فوق مرمر الطاولة.

كان فلورييتينو اريشا يراقبها مبهوراً، ولاحقها مقطوع الانفاس، فاصطدم عدة مرات بسلال الخادمة التي كانت ترد بابتسامة على اعتذاراته، وقد مرت هي نفسها قريباً جداً منه حتى انه شم نسيم رائحتها، واذا كانت لم تره حينئذ فليس لعجزها عن ذلك وانما لشموخ

طريقتها في المشي . كانت تبدو له جميلة جداً ، فاتنة جداً ، ومختلفة جداً عن الناس العاديين ، بحيث لم يدرك كيف لا يختل الاخرون مثله بصناعات كعبيها على بلاط الشارع ، ولا تضطرب قلوبهم بهواء تنهدات كشكشها ، ولا يصاب العالم كله بالجنون حباً بحركة ضفيريها ، وطيران يديها ، ولجين ضحكاتها . لم يضيع حركة واحدة من حركاتها ، ولا علامة واحدة من علامات طبعها ، لكنه لم يكن ليجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من ان يفسد السحر . ولكن عندما ولجت زحمة زقاق الكتبة العموميين تنبه إلى انه يخاطر بتبديد الفرصة التي تشوق لها خلال سنوات .

كانت فيرمينا دائماً تشاطر زميلاتها في المدرسة الفكرة الغربية السائدة بان زقاق الكتبة العموميين هو مكان ضيق ، وأرض محرمة ، على الانسات المحترمات طبعاً . كان عبارة عن رواق ذي قناطر مقابل ميدان صغير حيث تتوقف عربات الاجرة وطناير الشحن التي تجرها الحمير ، وحيث تصبح التجارة الشعبية اكثر زخماً وصخباً . اسمه موروث من أيام المستعمرة ، فهناك كان يجلس منذ ذلك الحين الكتبة المكفهورون ذوو الستر الكتانية والاكمام المنفصلة التي تصل حتى المرفقين ، والذين كانوا يكتبون جميع انواع الوثائق بلسعار بائسة : مذكرات اتهام أو استرحام ، واستدعاءات قانونية ، وبطاقات تهينة أو تعزية ، ورسائل حب في اي سن كان . وليسوا هم ، بكل تأكيد ، سبب سوء السمعة التي لحقت بذلك السوق الصالح ، وانما الباعة المتجولون المحدثون الذين كانوا يقدمون من تحت طاولاتهم جميع انواع الحيل الغامضة التي تصل تهريباً في السفن القادمة من اوروبا ، ابتداء من بطاقات صور الداعرات والمراهم المهيجة ، وحتى واقيات الحمل الكتلانية الشهيرة ذات الاعراف العظائية التي تتحرك أثناء العملية ، أو تلك التي تنتهي بازهار تتفتح اوراقها حسب مشيئة المتفتح . لقد ولجت فيرمينا دائماً ، عديمة الخبرة في الشوارع ، ذلك الزقاق دون ان تنتبه إلى اين هي ماضية ، باحثه عن ظل يخفف عنها وطأة شمس الساعة الحادية عشرة .

غرقت في ضجة ماسحي الاحذية وبائعي العصافير ، عارضي الكتب الرخيصة ومشعوذي التداوي ومناديات الحلوى اللواتي يعلن بصراخ اعلى من الضجة عن حلوى كوكادا الاناس للصبايا ، وحلوى جوز الهند للحمقى ، وحلوى السكر بالعجين ليكاثيلا . ولكنها كانت تسير غير مبالية بالصخب ، وفتتها على الفور وراق كان يقدم غرضاً لانواع من حبر الكتابة السحري : حبر أحمر له لون الدم ، وحبر ذوبريق حزين لبطاقات التعزية ، وحبر فوسفوري لقراءته في الظلام ، وحبر خفي ينكشف ببريق الضوء . كانت تريد من كل الانواع لتلعب مع فلورينتيير اريثا ، وتذهله باستنابها ، ولكنها بعد عدة تجارب قررت شراء زجاجة حبر ذهبي ، بعد ذلك مضت إلى بائعات الحلوى الجالسات وراء صناديقهن الزجاجية

الكبيرة، واشترت ست قطع حلوى من كل صنف، مشيرة الى ماتريد بإصبعها من وراء الزجاج لانها لم تكن لتتمكن من اسماهن ما تريده بسبب الضوضاء: ست قطع من شعر الملاك، وستة قوالب صغيرة من حلوى الخليب، وستة مكعبات سميكية، وست قطع من كعكة اليكة، وستة اقراص من الشوكولاته، وست قطع من البسكويت المحشي، وست من لقعة الملكة، وستة من هذا وستة من ذاك، وستة من كل شيء، وكانت تضع كل ذلك في سلال الخادمة بظرافة لا تقاوم، غير عابئة بسحابة الذباب السوداء الهائجة فوق المربي، وغير مبالية بالتعفن المتواصل، وغير مبالية برائحة العرق الزنخ الذي يلتمع في الحر القاتل. ايقظتها من هذا الخدر زنجية سعيدة تضع خرقة ملونة على رأسها المكور والبديع، قدمت لها قطعة انسان مغروسة في رأس سكين جزار. فتناولتها ودستها كاملة في فمها، تذوقتها، وكانت تذوقها ونظرها شارد في الجموع، عندما سمرتها اختلاجة اضطراب في مكانها. فوراها. وقريباً جداً من اذنها بحيث لم يسمع في الضجة أحد سواها الصوت الذي قال لها :

- ليس هذا بالمكان المناسب لربة متوجة.

التفتت ورأت على بعد شرين من عينيها العينين الاخرين الجامدتين، والوجه الأزرق الضارب إلى السواد، والشفيتين المتصلبتين خوفاً، تماماً كما رأتها في زحمة صلاة منتصف الليل عندما كان قريباً منها لأول مرة، ولكنها لم تشعر بهيجان الحب كما في المرة السابقة وانما بهايوة خيبة الأمل. وبلحظة واحدة انكشف لها حجم الورطة التي اوقعت نفسها فيها، ونساءلت مذعورة كيف استطاعت ان تحتضن طوال هذا الوقت وبكل هذه القسوة خرقة قلب كذلك. وبالكاد استطاعت ان تفكر: «رباه، بالرجل البائس!». ابترسم فلورينتينوارينا، وحاول ان يقول شيئاً، حاول اللحاق بها لكنها محته من حياتها بحركة من يدها قائلة له :

- لا، ارجوك، انس كل شيء.

في مساء ذلك اليوم، وبينما والدها ينام قيلولته، بعثت اليه مع غالابلاثيديا رسالة في سطرين: عندما رأيتك اليوم، ادركت ان ماكان بيننا ليس الا وهماً. وحملت اليه الخادمة كذلك برقياته، واشعاره، وازهار كاميلياه الجافة، وطلبت منه ان يعيد الرسائل والهدايا التي بعثتها اليه: كتاب صلوات العمة اسكولاستيكا، واوراق النباتات المجففة، والستمر المربع من مسووح سان بيدرو كلاير، وميداليات القديسين، وضميرتها وهي في الخامسة عشرة مع شريط الزبي المدرسي الحريري. فكتب في الايام التالية، وهو على حافة الجنون، عدداً كبيراً من الرسائل اليائسة، وحاصر الخادمة لتحمل تلك الرسائل، لكن هذه نفدت التعليمات الصارمة بعدم استلام اي شيء سوى الهدايا المعادة. واصرت على ذلك بحسم جعل

فلورينتينو اريثا يعيد كل شيء ما عدا الضفيرة، التي لم يشأ اعادتها ما لم تستقبله فيرمينا داثا شخصياً ليتحدثا معاً ولو للحظة واحدة. ولم يتمكن من ذلك. ونزلت ترانسيتو اريثا عن كبريائها، خشية ان يتخذ ابنها قراراً قاتلاً، وطلبت من فيرمينا داثا ان تمنحها خمس دقائق من وقتها، فاستقبلتها للحظة واحدة في دهليز البيت، واقفة، دون ان تدعوها إلى الدخول، وبلا ذرة وهن. بعد يومين من ذلك، ومع انتهاء مشادة مع أمه، نزع فلورينتينو اريثا عن جدار غرفة نومه العلبة الزجاجية المغبرة حيث كان يعلق الضفيرة كأنها ايقونة مقدسة، واعادتها ترانسيتو اريثا بنفسها في علبة المخمل المطرزة بخيوط ذهبية. ولم تتح لفلورينتينو اريثا الفرصة أبداً لرؤية فيرمينا داثا على انفراد، ولا التحدث اليها اثناء لقاءاتهما الكثيرة في حياتيهما الطويلتين، إلا بعد انقضاء إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعة أيام، عندما كزرها يمين الوفاء الابدي والحب الدائم في ليلتها الأولى كأرملة.



كان خوفينال اوربينو، العازب المرغوب وهو في الثامنة والعشرين، قد عاد من اقامة طويلة في باريس، حيث اجري دراسات عليا في الطب والجراحة، منذ نزوله إلى البر قدم أدلة قاهرة على انه لم يضيع لحظة واحدة من وقته. لقد رجع اكثر تجملاً مما كان عليه عند ذهابه، واكثر تحكماً بطبائعه، ولم يكن أي من زملاء جيله ليبدو اكثر صرامة منه واكثر معرفة بعلومه، كما لم يكن اي منهم ليرقص خيراً منه على الموسيقى الدارجة او يعزف راجلاً أفضل منه على البيانو. وكانت فتيات وسطه الاجتماعي، المفتونات بمحاسنه الشخصية والمتيقنات من ثروته العائلية، يقترعن سرّاً ليلعبن أيهن ستبقى معه، وكان هو يلعب كذلك للبقاء معهن، لكنه تمكن من الحفاظ على نفسه في حالة الملاحه، صحيحاً ومغرياً، إلى ان سقط دون مقاومة أمام مفاتن فيرمينا دانا العامية.

. كان يجب ان يقول ان ذلك الحب هو ثمرة تشخيص طبي خاطيء. ولم يكن ليصدق بان ذلك قد حدث، خصوصاً في تلك الفترة من حياته، حين كان كل احتياطيه من الهوى منصباً على مصير مدينته، التي كثيراً ما قال عنها دون تردد انه لا مثيل لها في العالم. ففي باريس، وفيما هو يتنزه ممسكاً بذراع خطيبة عرضية في خريف متأخر، كان يرى انه من المستحيل تخيل سعادة اكثر صفاء من سعادة تلك الامسيات الذهبية الباريسية، المختلطة برائحة حبات الكستناء الجبلية فوق مواقد الجمر، وأنغام الاكورديونات الخافتة، والعشاق الذين لا يرتوون من قبلات متصلة لا تنتهي على الشرفات المفتوحة، ورغم ذلك، فقد قال هونفنبه، ويده على قلبه، انه غير مستعد لاستبدال هذا كله بلحظة واحدة من لحظات موطنه الكاريبي في نيسان. كان ما يزال شاباً لا يعرف ان ذاكرة القلب تمحو كل الذكريات السيئة وتضخم

الذكريات الطيبة، واننا بفضل هذه الخدعة نتمكن من احتمال الماضي. ولكنه حين عاد ورأى من شرفة السفينة رابية الحي الاستعماري البيضاء، وطيور الرخمة الجاثمة فوق السطوح، وملابس الفقراء المنشورة لتجف على الشرفات، حينئذ فقط أدرك إلى أي حد كان ضحية سهلة لأحباب الحنين الخادعة.

شقت السفينة طريقاً لها في الخليج عبر فرشة طافية من الحيوانات الغارقة، والتجأ معظم المسافرين إلى القمرات هرباً من الرائحة الثنتنة. نزل الطبيب الشاب من السفينة على جسر المرور الصغير مرتدياً بدلة كاملة من الألبكة، مع صدرية وواقية من الغبار، بلحية كلحية باستور شاب وشعر مفروق من وسطه بمرق واضح وشاحب، وبسيطرة كافية لاختفاء عقدة الحنجرة التي لم يكن سببها الحزن، واننا الرعب. كان الميناء شبه خالو، يحرسه جنود حفاة بلا زي عسكري، وكانت شقيقته وامه ينتظرن برفقة أحب أصدقائه إليه. وجدهم شاحبين وبلا مستقبل، رغم مظهرهم الديني، وكانوا يتحدثون عن الازمة وعن الحرب الأهلية كأمريعي وغربي، ولكن اصواتهم جميعاً كانت تشي برعشة مراوغة، وحدقات عيونهم بلعمة يقين تحون كلماتهم. وكانت أمه هي أكثر من اثار أشجانه، تلك المرأة التي فرضت نفسها على الحياة وهي لا تزال فتية بأناتها واندفاعها الاجتماعي، يراها الآن تذوي على نار هادئة وسط روائح الكافور التي تعبق من ملابسها كأرملة. ولا بد أنها رأت نفسها في اضطراب ابنها، فسارعت تسأله وكأنها تدافع عن نفسها، لماذا هو عائد هذه البشرة الشفافة كالبارفان.

وقال لها :

..انها الحياة يا أماء. فالمرء يتحول أخضر في باريس.

بعد ذلك، وفيما هو إلى جانبها يغرق في حر العروة المغلقة، لم يعد يحتمل قسوة الواقع الذي ينفذ اليه غلياناً من النافذة. كان البحر يبدو وكأنه من رمد، وقصور النبلاء القديمة كانت على وشك الانهيار أيام بكائر المسؤولين، وكان الثور على رائحة الياسمين اللاهبة فيما وراء إيخيرة الجنائز المكشوفة مستحيلاً. كل شيء بدا له أحمال مما كان عليه عند ذهابه، وأشد فقراً وكآبة، وكانت هناك أعداد كبيرة من الجرذان الجاثمة في مرايل الشوارع تجعل جصاني المعربة يجملان فزعين. وعلى امتداد الطريق الطويل من الميناء إلى البيت، في حي البيوت، لم يجد ما هو جدير بمشاعر الحنين التي كانت تملأه، رأى نفسه مهزوماً، فأدار وجهه كي لا يراه أماء، وأطلق لهكاته الصامتة العنان.

لم يكن قصر المركز دي كاسالديرو القديم، ومقر الإقامة التاريخي لال أورينودي لا كايه، بالقصر الذي مازال يحتفظ بشموخه وسط الانهيار. وقد اكتشف الدكتور خوفينال أورينود ذلك قلبه بتفت مذعر الدهليز المظلم ورأى نافورة الحديقة الداخلية المغبرة،

والاعشاب البرية التي بلا أزهار تعيث بها السحالي، وانبه الى نقص عدد كبير من بلاط المرمر، اضافة الى تشتم عدد من درجات السلم الرخامي الفسح ذي الدرابزين النحاسي الذي يقود الى الحجرات الرئيسية. لقد مات والده، الذي كان طبيبا متفانيا اكثر منه عالما، في جائحة الكوليرا الاسيوية التي محقت السكان منذ ست سنوات، ومعه مات روح البيت. فدونيا بلانكا، الام، المختنقة بحداد أبدي، استبدلت السهرات الغنائية والحفلات الموسيقية بصلوات مسائية يومية للذكرى الزوج المتوفى. وتحولت الشقيقتان رغم طبيعتهما وميلهما الاحتفالي الى وقود للدير.

لم يغف الدكتور اوربينو لحظة واحدة في ليلة وصوله، مرتعبا من الظلمة والصمت. وردد صلاة الروح القدس بعدد ثلاث سبحات وكذلك كل الصلوات التي يذكرها لدره الرزايا والانبيارات وانواع المصائب الليلية الاخرى، فيما دخل كروان الى حجرة النوم من النافذة غير المحكمة، وأخذ يصدح كل ساعة، عند تمام الساعة بالضبط. وعذبت صرخات الهذيان التي تطلقها المجنونات في مستشفى الراعية الالهية للمجاذيب، والقطرة عديمة الرحمة التي ترشح من الجرة الفخارية الى الجفنة ويملا صداها جوار البيت، وخطوات الكروان الطويلة التائهة في حجرة النوم، وخوفه الخلقى من الظلمة، والحضور اللامرئي للأب الميت في البيت الرحب الهاجع. عندما صدى الكروان في الساعة السادسة، مرافقا بذلك دبكة الجوار، أسلم الدكتور اوربينو نفسه جسدا وروحا الى كنف العناية الالهية، لانه لم يعد يشعر بالحاس للحياء يوما اخر في وطنه المنهار أنقاضا. ولكن عطف ذويه، وأيام الاحاد الريفية، وتملقات عازبات طبقتة الجشعة خففت كلها من مرارة الوهلة الاولى. واخذ يعتاد شيئا فشيئا على قيط تشرين الاول، وعلى الروائح الحادة، وعلى آراء اصدقائه المبكرة: غدا نرى يا دكتور، فلا تبال، الى ان انتهى للاستسلام الى شعوذة العادة. ولم يتأخر طويلا في وضع تبرير بسيط لخذلانه. وقال ان هذه هي دنياه، دنياه الكثيبة والجائرة التي منحه الرب اياها، وهو مدين لها.

أول ما فعله هو الاستيلاء على عيادة أبيه. احتفظ بالاثاث الانكليزي نفسه في مكانه، ذلك الاثاث الصلب والصارم، الذي تنتهد أخشابه مع برودة الفجر، لكنه بعث الى حجرة المهملات مؤلفات العلوم من زمن الحكام الاستعماريين وكتب الطب الرومنطقي، ووضع في الخزائن ذات الواجهات الزجاجية كتب المدرسة الفرنسية الجديدة. وانتزع عن الجدران جميع الرسوم الباهتة، باستثناء رسم الطبيب الذي ينازع الموت مريضة عارية، وقسم أبقراط

المكتوب بحروف قوطية، وعلق مكانها، الى جانب شهادة والده الوحيدة، الشهادات الكثيرة والمتنوعة التي نالها من مدارس أوربية مختلفة.

حاول ان يفرض معايير تجديدية في مستشفى الرحمة، ولكن الامر لم يكن بالبساطة التي ظنها وهو في اندفاع الشباب. فبيت الطب القديم المتمسك بخرافاته الموروثة، مثل وضع قوائم الاسرة في أوعية مليئة بالماء لمنع صعود الامراض اليها، أو المطالبة بارتداء ملابس الاتيكيت وقفازات الشمواة في صالة الجراحة، اذ كان الاعتقاد السائد حينئذ هو ان الاناقة شرط جوهرى للتعقيم. وما كانوا يطبقون تذوق الطبيب الشاب القادم خديشا، بول المريض ليكتشف وجود السكر، أو استشهاده بأراء شاركوت وتروسوكما لو كانا زميلا في الحجرة، وتحذيره الصارم في درسه من مخاطر اللقاحات القاتلة وإيماهه مقابل ذلك إيماناً مريباً بالاختراع الجديد المدعو تحاميل. لقد كان يتعثر بكل شيء: روحه المجده، تحضره الجنوني، وميله البطيء لفهم المزاج في أرض المزاج السرمدي. وكانت جميع فضائله الملموسة تثير في الحقيقة حسد زملائه الكبار وسخرية المنافقين من الشباب.

كان وضع المدينة الصحي هو هاجسه الدائم. فلجأ الى أعلى المراتب مطالباً بردم المجاري المكشوفة منذ العهد الاستعماري، والتي تشكل مرتعاً رطباً للجردان، واقامة مجاري مغلقة بدلاً منها لا تصب بقاياها في خليج السوق، كما هو الحال منذ الازل، وانما في مجمع ناء للفضلات. كانت توجد في البيوت الاستعمارية حسنة التجهيز مراحيض ذات حفر عميقة تتخمر فيها الفضلات، أما ثلثا الاهالي المكسدين في اكراخ على ضفاف المستنقعات فكانوا يقضون حاجتهم في العراء. فكان البراز يجف تحت الشمس، متحولاً الى غبار، يتنفسه الجميع ببهجة فصيح مع نسبات كانون الباردة السعيدة. لقد حاول الدكتور خوفينال اوريينو ان يفرض في المجلس الاداري اقامة دورة تأهيل اجبارية، كي يتعلم الفقراء بناء مراحيضهم الخاصة. وناضل دون جدوى لوقف رمي النفايات بين أشجار المنغلار، التي تحولت منذ قرون الى مستودعات عفونة، ولجمع تلك النفايات مرتين في الاسبوع على الاقل وإحراقها في مكان مهجور.

لقد كان واعياً لشرك مياه الشرب القاتل. لكن مجرد التفكير ببناء شبكة مائية كان يبدو فكرة خيالية، لأن من يستطيعون دعمها كانوا يملكون اباراً تحت الارض يمزنون فيها مياه أمطار سنوات عديدة تحت قشدة كثيفة من الاخضرار الطحلبي. ومن بين ابرز قطع اثاث تلك الحقبة كانت خزائن تصفية الماء المصنوعة من خشب منقوش، حيث تقطر مساماتها الحجرية ليل نهار في الخواوي. ولمنع أي كان من شرب الماء بطاسة الألمنيوم التي يخرجون بها الماء، كانوا يستنون حواف تلك الطاسة لتبدو وكأنها تاج ملك المساخر. كان الماء رائقاً وبارداً

في عتمة الفخار، يترك في الفم طعما كقطع الزهر. لكن الدكتور خوفينال اوريينولم يكن لينساق وراء خدع النقاء هذه، لانه يعرف ان قاع الخوابي، رغم كل الاحتياطات، كان هيكلا لكل انواع الدوبيات. لقد أمضى ساعات طفولته البطيئة وهو يتأملها باندهاش شبه صوفي، مقتنعا مثل معظم الناس حينئذ ان الدوبيات هي الارواح، وانها مخلوقات ماورائية تزف الى الانسات من رواسب المياه الراكدة، وانها قادرة على الاتيان بانتقامات حب حانقة. لقد رأى وهو طفل خراب بيت لازار كوندري، معلمة المدرسة التي تجرأت على صد الارواح، ورأى نتف الزجاج المنثور في الشارع وأكوام الحجارة التي قذفت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال على النوافذ. ولقد انقضى وقت طويل قبل ان يتعلم ان تلك الدوبيات هي في الحقيقة يوقات ذباب الزنكودو، لكنه تعلم ذلك كي لا ينساه ابدا، لانه أدرك منذ ذلك الحين أن ليس الدوبيات وحده، وانها ارواح شريرة اخرى كثيرة، قد تمر بسلام عبر مصافينا الحجرية الساذجة.

لقد عزي فتق كيس الخصية خلال زمن طويل ويفخر شديد الى مياه آبار الجمع، ذلك الفتق الذي يصبر على احتماله عدد كبير من رجال المدينة ليس دون خجل فحسب، بل وبنوع من الكبرياء الوطنية أيضا. وعندما كان خوفينال اوريينو طفلا يذهب الى المدرسة الابتدائية، لم يكن يستطيع كبح اختلاجة الرعب لدى رؤيته المفتوقين وهم يجلسون امام ابواب بيوتهم في الامسيات الحارة، ويهونون بمروحة يدوية على الخصية الضخمة كما لو كانت طفلا ينام بين افخاذهم. وكان يشاع ان الفتق يحاكي تغريد عصفور حزين في الليالي العاصفة، وانه يتلوى بألم لا يطاق حين يحرقون قريبا منه ريشة طائر رخمة، لكن احدا لم يكن يتذمر من تلك المحن، لان فتقا كبيرا ومحتملا بصبر هو شرف للرجل قبل كل شيء، عندما رجع الدكتور خوفينال اوريينو من اوربا كان يعرف جيدا التفسير العلمي لهذه المعتقدات، ولكنها كانت متأصلة في الايمان الخرافي المحلي الى حد دفع الكثيرين لمعارضة اغناء مياه الابار بالمعادن خوفا من ان ينزعوا منها خاصية تسبب فتق مشرف.

وكقلقه من تلوث المياه، كان الدكتور خوفينال اوريينو قلقا كذلك للحالة الصحية في السوق العام، ذلك الامتداد الفسيح مقابل خليج لاس ايناس، حيث ترسو سفن جزر الانتيل الشراعية. والذي وصفه أحد الرحالة الشهيرين بانه واحد من اكثر الاسواق غنى وتنوعا في العالم. وقد كان غنيا ووافرا وصاخبا حقا، ولكنه ربما كان كذلك اكثر الاسواق مدعاة للقلق. كان يقوم فوق مزبلته ذاتها، تحت رحمة أهواء البحر المرتفع، حيث تجشؤات الخليج تعيد الى اليابسة نفايات المجاري. وكانت ترمى هناك فضلات المسلخ المجاور من رؤوس مقطوعة، واحشاء متعفنة، وروث الحيوانات الطافي بهدوء تحت الشمس في مستنقع

من الدماء . وتأتي طيور الرحمة لتتنازع تلك الفضلات مع الجرذان والكلاب في ازدحام دائم ، وسط الغزلان وديوك سوتايفيتسو المخضبة والملقحة على افاريز العنابر ، وخضروات ارخونا الربيعية المعروضة فوق حصر على الارض . وكان الدكتور اوربينويريد جعل المكان صحيا بنقل المسلخ الى مكان اخر ، وتشيد سوق جديد مسقوف بقباب من زجاج ملون كذلك السوق الذي رآه في برشلونة ، حيث البضائع والمؤن زاهية ونظيفة حتى ان اكلها يثير الحسرة . ولكن هذا جعل اكثر اصدقائه مجاملة يضيقون ذرعا باحلامه الخيالية . فهم يقضون حياتهم متغنين بأصلهم المجيد ، ويمزايبا المدينة التاريخية ، وقيمة اثارها الدينية ، وبطولتها وجمالها ، لكنهم لا يرون سوس السنين الذي ينخرها . أما الدكتور اوربينو بالمقابل ، الذي يكن لها حبا عظيما يجعله يراها بعيني الحقيقة ، فكان يقول :

- كم هي نبيلة هذه المدينة التي ما فتئنا نحاول القضاء عليها منذ أربعمئة سنة ، ولم نتوصل الى ذلك بعد .

ومع ذلك فقد كانوا على وشك القضاء عليها . فوباء الكوليرا الذي سقطت أولى ضحاياه في مستنقعات السوق . تسبب خلال أحد عشر اسبوعا بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا . كان بعض الموتى البارزين يدفنون تحت بلاط الكنائس ، الى جوار الاساقفة والمستشارين ، والاخرون الاقل ثراء يدفنون في فناء الاديرة ، أما الفقراء فيمضون بهم الى المقبرة الاستعمارية ، على الرابية التي تصفعاها الرياح وتفصلها عن المدينة قناة مياه جافة ، لجسرها الطيني لوحة بمظلة نحت عليها بأمر أحد الحكام المتبصرين : *Lasciate ogni speranza* . *voichentrate* في الاسبوعين الاولين للكوليرا فاضت المقبرة ، ولم يكن هناك من مكان للدفن في الكنائس ، رغم انهم نقلوا الى مستودع العظام العام الرفات المتآكل لعدد كبير من الاعيان الذين ضاعت اسماؤهم . ولقد اختلط هواء الكندراية بابخرة سراديب الدفن غير المحكمة الاغلاق ، مما اضطرهم الى عدم فتح أبواب الكندراية الا بعد ثلاث سنوات ، في الحقبة التي رأت فيها فيرمينا داتلا للمرة الاولى عن قرب فلورينتينواريتا في صلاة الفجر . وامتلأ رواق دير سانتا كلارا بالقبور التي وصلت الى الممرات بين اشجار الحور في الاسبوع الثالث ، وكان لابد من تحويل بستان الدير ، الذي كان اوسع من الرواق يمرتين ، الى مقبرة . وحفروا هناك قبورا عميقة ليدفنوا فيها على ثلاث مستويات ، على عجل وبلا توابيت ، ولكنهم اضطروا للتخلي عنها لأن الارض الطافحة أصبحت مثل اسفنجة ترشح تحت وطء الاقدام دما فاسدا كرية الرائحة . عندئذ تقرر متابعة عمليات الدفن في لامانودي ديوس ، وهي مزرعة لتسمين الابقار على بعد أقل من فرسخ واحد عن المدينة ، والتي كرس فيها بعد باسم المقبرة الكونية .

مذ اذيع بلاغ الكوليرا، بدأ حصن الحامية المحلية باطلاق قذيفة مدفع كل ربع ساعة، في الليل والنهار، ايماناً بالخرافة الحضرية القائلة ان البارود يطهر الجو. ولقد كانت الكوليرا أشد فتكا بين السكان الزوج، لانهم الاكثر عددا وفقرا، ولكنها في الحقيقة لم تكن تأخذ اللون أو الاصل بعين الاعتبار. وتوقفت فجأة كما بدأت، دون ان يعرف عدد ضحاياها، ليس لان حصرهم كان مستحيلا، وانما لان احدى فضائلنا السائدة هي الخشمة أمام المصائب الخاصة.

لقد كان الدكتور ماركو اوربيليو اوربينو، والد خوفينال، بطلا مدنيا في تلك المرحلة المشؤومة، وأبرز ضحاياها أيضا. فاستناداً الى قرار رسمي، وضع الاستراتيجية الصحية وأشرف شخصيا على تنفيذها، لكن مبادراته دفعته للتدخل في كل شؤون النظام الاجتماعي، حتى صار يبدو في أخرج لحظات الوباء انه لا وجود لسلطة فوق سلطته. وعندما راجع الدكتور خوفينال اوربينو، بعد عدة سنوات، وقائع تلك الايام، ثبت له ان منهج ابيه كان يعتمد على العاطفة اكثر من اعتماده على العلم، وانه كان مناقضا للعقل في احيان كثيرة، وبهذا افصح المجال واسعا امام شرهة الوباء. وتأكد له ذلك في عاطفة الابناء الذين حولتهم الحياة شيئا فشيئا الى آباء لائهم، فتألم للمرة الاولى لانه لم يكن الى جوار ابيه في عزلة اخطائه. لكنه لم يتعرض لجداره والده. . فبنشاطه وتقائه، وشجاعته الشخصية قبل كل شيء، استحق التشريفات الكثيرة التي قدمت له عندما تخلصت المدينة من الكارثة، وبقي اسمه بجداره محفوظا الى جانب اعداد من أبطال حروب اخرى أقل نبلا.

لم يعيش ليرى مجده. فعندما اكتشف في نفسه الاختلالات التي لا شفاء منها، والتي عاينها ورق لها في الآخرين، لم يحاول حتى مجرد خوض معركة لا طائل منها، وإنما ابتعد عن الجميع كي لا ينقل العدوى الى أحد. وفي وحدته في احدى غرف الخدمة بمستشفى الرحمة، صاماً اذنيه عن نداءات زملائه وتوسلات ذويه، غير عابىء بهلع الموبوتين المحتضرين في الممرات الغاصة، كتب لزوجته وابنائهم رسالة حب محمومة، يمتن فيها لانه جاء الى الوجود، ويكشف لهم كم أحب الحياة وبأي نهم أحس بذلك الحب. كانت رسالة وداع في عشرين ورقة مؤثرة يبدو فيها تقدم المرض في اضطراب الكتابة، ولم يكن ضروريا معرفة لمن كتبت تلك الاوراق لادراك ان التوقيع قد وضع عليها مع النفس الاخير. ووفقا لمشيئته ضاع رماد جسده في المقبرة العامة، دون أن يراه أحد من أحبه.

تلقى الدكتور خوفينال اوربينو بقرية الاشعار بالوفاة بعد ثلاثة ايام في باريس، اثناء تناوله العشاء مع اصدقائه، فرفع نخب شمبانيا لذكرى ابيه قائلا: «لقد كان رجلا طيبا». وكان عليه بعد ذلك ان يؤنب نفسه لقلة نضجه. . لانه بذلك انها تجنب الواقع لكي لا ييكي. ثم

تلقي بعد ثلاثة أسابيع نسخة من رسالة ابيه ، وحينئذ استسلم للواقع . لقد انكشفت له دفعة واحدة وبعمق صورة الرجل الذي عرفه قبل أي رحل سواه ، الذي رباه وعلمه ، والذي نام وزنى مع امه طوال اثنتين وثلاثين سنة ، والذي لم يكن يدوله مع ذلك جسدا وروحا قبل هذه الرسالة ، وذلك لمجرد الاستحياء وحده . لقد كان الدكتور خوفينال اوريبنو وعائلته حتى ذلك الحين يتصورون الموت محنة تصيب الآخرين ، آباء الآخرين ، واشقاء الآخرين وازواجهم ، لكنها لا تقرب ذوبهم . فهم ذوو حيوات بطيئة ، لا يبدو ان الشيخوخة تلحق بهم ، ولا المرض أو الموت كذلك ، وانما هي حيوات تضمحل شيئا فشيئا في زمانها ، متحولة الى ذكريات وضباب زمن اخر ، الى ان يتلعها النسيان . لقد وضعت رسالة ابيه ، أكثر من برقية الخبر المشؤوم ، وجهاً لوجه مع يقين الموت . رغم ان احدى أقدم ذكرياته ، حين كان في التاسعة ، أو ربما في الحادية عشرة ، هي نوع من المؤشر المبكر الى الموت من خلال ابيه . كانا وحيدين في مكتب البيت مساء يوم ماطر ، وكان يرسم قبرات ودوار شمس بالطباشير على بلاط الارضية ، فيما والده يقرأ موليا ظهره لضوء النافذة ، وصدرته مفتوحة الازرار وعلى كمي قميصه اربطة مطاطية . وفجأة قطع القراءة ليحك ظهره بمحكاك ذي ذراع طويلة تنتهي بكف فضية في طرفها . وحين لم يستطع ، طلب من ابنه ان يحك له باظافره ، ففعل ذلك براوده شعور غريب بانه يحس بجسده وهو يحك . واخيرا تطلع اليه ابوه من فوق كتفه بابتسامة حزينة وقال له :

ـ اذا ما مت الان فانك لن تكاد تذكرني حين تصبح في مثل سني .

قال ذلك دون أي سبب ظاهر ، وطاف ملاك الموت للحظة في ظلمة المكتب البارد ، وعاد للخروج من النافذة تاركاً وراءه نشارة ريش ، لكن الطفل لم يرها . لقد انقضت اكثر من عشرين سنة منذ ذلك الحين ، وقريبا سيصل خوفينال اوريبنو الى السن التي كان فيها ابوه في ذلك اليوم . كان يعرف انه يشبهه تماما ، ولوعيه بانه كذلك ، ارتقى الان الى الوعي المرعب في انه سيفنى مثله أيضا .

صارت الكوليرا هي هاجسه . لم يكن يعرف عنها شيئا اكثر مما يتعلمه بشكل روتيني في دورة هامشية ، ولم يكن ليصدق بان هذا المرض قد سبب منذ ثلاثين سنة فقط في فرنسا ، بما في ذلك باريس ، اكثر من مئة واربعين الف وفاة . أما بعد موت ابيه فقد تعلم كل ما يمكن ان يتعلمه حول مختلف اشكال الكوليرا ، بشكل اشبه بعقاب النفس لتهدئة ذاكرته ، وكان طالبا من طلاب ابرز علماء الاوبئة في ذلك الزمان ، ومبتدع الاحزمة الصحية ، البر وفسور اديريان بروس ، والد الروائي الكبير . وهذا فانه لدى عودته الى وطنه ، واحساسه مذ كان في البحر برائحة السوق النتنة ، ثم رؤيته الجرذان في المجاري المكشوفة والاطفال الذين يتمرغون عراة



في مستنقعات الشوارع ، لم يدرك ان الكارثة قد وقعت بالفعل فقط ، بل وأيقن انها ستكرر في اية لحظة .

ولم يمض وقت طويل . فقبل ان يمر العام طلب منه تلاميذه في مستشفى الرحمة ان يساعدهم بشأن مريض احسان تغطي كل انحاء جسده بقع رقواء غريبة . وكانت رؤية الدكتور خوفينال اوربيو للمريض من الباب كافية ليتعرف على العدو . ولكن الحظ حالفهم : فالمرضى وصل منذ ثلاثة ايام على متن سفينة قادمة من كوراثا ، وقد حصر بنفسه الى العيادات الخارجية في المستشفى ، وليس هناك احتمال بان يكون قد نزل العدوى الى سواه . وعلى كل حال ، حذر الدكتور خوفينال اوربينو زملاءه ، وتمكن من جعل السلطات تنقل الانذار الى الموانئ المجاورة ليتم تحديد موقع السفينة الملوثة واجراء الحجر الصحي عليها ، وكان عليه ان يهديء من اندفاع القائد العسكري للموقع ، الذي اراد اعلان حالة الطوارئء وتطبيق العلاج بقذائف المدفعية كل ربع ساعة في الحال . وقال له بالمعية عالية :

- اقتصد بالبارود الى ان يأتي الليبراليون . فنحن لم نعد في العصور الوسطى .

مات المريض بعد أربعة ايام ، محتقنا بقيء حبيبي ابيض ، انها لم تظهر اية حالة اخرى خلال الاسابيع التالية رغم الاستنفار الدائم . بعد ذلك بقليل ، نشرت صحيفة دياريو دي كوميريشو خبرا عن طفلين ماتا بالكوليرا في مكانين مختلفين من المدينة . تم تأكد ان احدهما كان مصابا بالديزنتاريا العادية ، اما الاخر ، وهي طفلة في الخامسة ، فيبدو انها كانت مصابة بالكوليرا فعلا . فتم الحجر على ابويها واخوتها الثلاثة وعزل كل منهم على انفراد في الحجر الصحي ، كما اخضع الحي بأسره الى رقابة طبية صارمة . كان أحد الاطفال مصابا بعدوى الكوليرا ولكنه استعاد عافيته بسرعة ، وعادت الاسرة كلها الى البيت عندما زال الخطر . وخلال ثلاثة شهور سجلت احدى عشرة حالة اخرى ، ثم حدث استفحال مخيف في الشهر الخامس ، ولكن ما ان انتهت السنة حتى اعتبر انه قد تم تجاوز مخاطر الوباء . ولم يشك احد في ان صرامة الدكتور خوفينال اوربينو الصحية ، اضافة الى مقدرة مناديه الجوالين ، هي التي جعلت تحقيق المعجزة ممكنة . ومنذ ذلك الحين ، وحتى وقت متقدم من القرن الحالي ، اصبحت الكوليرا داء مستوطنا ليس في المدينة فقط وانما في ساحل الكاريبي كله تقريبا وفي حوض نهر ماجدلينا ، ولكن المرض لم يكن يتفاقم متحولا الى جائحة . لقد افادت حالة الذعر في تطبيق تنبيهات الدكتور خوفينال اوربينو بحدية اكبر من جانب السلطات العامة . ففرضت شعبة أجبارية خاصة بالكوليرا والحمى الصفراء في مدرسة الطب ، وحرى الاسراع في ردم المجاري وبناء سوق جديد بعيدا عن المزللة . ولكن الدكتور اوربيو لم يكن يعبا حيثئذ باعلان

انتصاره كما لم يعد متحمساً للاستمرار في مهماته الاجتماعية، لانه هو نفسه كان مكسور الجناح في ذلك الحين، مذهولاً ومشتتاً، ومستعداً لتغيير كل شيء ونسيان كل شيء في الحياة من اجل بارقة حب فيرمينا دانا.

لقد كان ذلك الحب فعلاً ثمرة تشخيص طبي خاطيء. اذ ان طبيباً صديقاً ظن انه لمع اعراض الكوليرا الاولى على مريضة في الثامنة عشرة، وطلب من الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لعيادتها. ذهب مساء ذلك اليوم بالذات، مذكوراً من احتمال ان يكون الوباء قد دخل هيكل المدينة القديمة، فجميع الاصابات حتى ذلك الحين اقتصرت على الاحياء الهامشية، وكانت كلها تقريباً بين الزوج. ووجد هناك مفاجآت اخرى ليست أقل جحوداً. كان البيت الغارق في ظلال استحار لوز حديقة البشارة يبدو مخرباً من الخارج كغيره من البيوت ذات الاسوار الاستعمارية، أما في الداخل فكان يسود نظام جميل وضوء خافت يبدوان وكأنهما من عصر آخر من عصور العالم. كان دهليز المدخل يؤدي مباشرة الى هوشبيلي، مربع ومطلي بكلس أبيض حديث، وفيه اشجار يرتقال مزهرة وأرضية مرصوفة بيورسلين كبورسلين الجدران. كان هناك خريماء متواصل لامرئي، واصص قرنفل على الافارير وأقفاص عصافير نادرة بين قناسر الرواق. واكثر تلك الطيور غرابة هي ثلاثة غربان في قفص كبير جداً، تضمخ جو البيت رائحة عطر مهم حين تحرك اجنتها. وبدأت عدة كلاب مقيدة في مكان ما من البيت بالعراء فجأة، وقد أطارت رائحة الغريب صوابها، لكن صرخة امرأة جعلت الكلاب تسكن تماماً، وقفزت أعداد من القطط من كل الجهات واختبأت بين الأزهار، مرتعدة من سلطة ذلك الصوت. حينئذ ساد صمت شفاف، جعل انفاس البحر الكثيب مسموعة من خلال اضطراب العصافير ووقع ماء النافورة على الحجر.

وفكر الدكتور خوفينال اوربينو، وهو يرتعش ليقينه بحضور الرب جسدياً، ان بيتاً كهذا يجب ان يكون عصياً على الوباء. لحق بغالا بلاثيديا عبر رواق القناطر، ومقابل نافذة حجرة الخياطة حيث رأى فلورينتيناوارثا لأول مرة فيرمينا دانا حين كان البهوما يزال مليئاً بالانقاض، ثم صعد الادراج الرخامية الجديدة الى الطابق الثاني، وانتظر نقل خبر وصوله قبل ان يدخل مخدع المريضة. لكن غالا بلاثيديا رجعت بملاحظة لدى خروجها: - تقول الانسة انه لايمكنك الدخول الان لأن والدها ليس في البيت.

وهكذا كان عليه ان يمود ثانية في الخامسة مساء، حسب تعليمات الخادمة، وفتح له الباب حينئذ لورينتيناوارثا شخصياً وقاده الى حجرة نوم ابنته، وبقي جالساً في عتبة الركن مقاطعاً ذراعيه ومحاولاً دون جدوى السيطرة على انفاسه المتسارعة، خلال الوقت الذي استغرقه الفحص. لم يكن من السهل معرفة من هو الاكثر ارتباكاً، أهو الطبيب بلمسه الخجول، أم

المريضة بخضر العذراء في قميص نومها الحريري، لكن أيا منها لم ينظر في عيني الآخر، وإنما كان يسألها بصوت مبهم وتجيبة بصوت مرتعش، وكلاهما متعلق بالرجل الجالس في العتبة. وأخيراً طلب الدكتور خوفينال أوربينو من المريضة أن تجلس، وفتح قميص نومها حتى الحصر بحرص لذيد: تلاًلاً صدرها الشامخ غير المسسوس، ذو الحلمتين الطفوليتين، للحظة وكأنه وميض برق في ظلاله المخدع، قبل أن تسرع لتخفيه بذراعيها المتقاطعتين. فآزاح الطبيب ذراعيها بحزم دون أن ينظر إليها، وقام بأجراء الفحص المباشر بوضع أذنه على الجلد، بادئاً بالصدر أولاً ثم الظهر.

وقد اعتاد الدكتور خوفينال أوربينو أن يقول بأنه لم يشعر بأي انفعال عندما تعرف على المرأة التي سيعيش معها حتى يوم مماته. كان يتذكر قميص النوم السماوي ذي التطريز المخرم، والعينين المحمومتين، والشعر الطويل المنسدل على الكتفين، ولكنه كان مبهوراً من اقتحام الوباء للسور الاستعماري، فلم يتمعن في شيء من المحاسن الكثيرة التي تمتلكها كمراهقة يانعة، وإنما انصب اهتمامه على أدنى قدر من الوباء قد يكون لديها. بينما كانت هي أكثر وضوحاً: لقد بدا لها الطبيب الشاب الذي كثيراً ما سمعت باسمه أثناء الحديث عن الكوليرا، متحذلقاً عاجزاً عن حب أحد سوى نفسه. وكانت نتيجة التشخيص أنها مصابة بالتهاب معوي ذي منشأ غذائي برئت منه باستخدامها علاج يبي لمدة ثلاثة أيام. اطمأن لورينشو دائماً للتأكيد بأن ابنته ليست مصابة بالكوليرا، فرافق الدكتور خوفينال أوربينو حتى باب العربة، ودفع له تسعيرة البيزو الذهبي التي بدت له غالية جداً حتى بالنسبة لطبيب يعالج الاثرياء، لكنه ودعه بامتنان مفرط. كان مبهوراً بريق كنيته والقباه، ولم يفعل شيئاً لمداراة ذلك الانبهار، بل إنه كان مستعداً للاقدام على عمل أي شيء للاتقاء به ثانية، في ظروف أقل رسمية.

كان لابد من اعتبار المسألة منتهية. لكن الدكتور خوفينال أوربينو رجع ثانية بلامناسبة في الثالثة من ظهر يوم الثلاثاء التالي، دون أن يستدعيه أحد ودون أن يبنيء أحداً بقبومه. كانت فيرمينا دائماً في حجرة الخياطة، تتلقى درساً في الرسم الزيتي. منع صديقتين أخريين عندما ظهر من النافذة بسترته البيضاء الناصعة، وقبعته العالية والبيضاء أيضاً، وأشار لها بأن تدنو. وضعت ادوات الرسم على الكرسي وسارت نحو النافذة على رؤوس أصابعها رافعة كشكش تنورتها حتى الكاحلين لتحول دون جرها على الأرض. كانت تضع أكليلاً مثبتاً على جبهتها بمشبك فيه حجر كريم لبريقه لون أشم كلون عينيها، وكان كل ما فيها ينفث برودة. وقد لفت انتباه الطبيب أنها ترتدي للرسم في البيت ملابس الخروج إلى حفلة. جس نبضها من خارج النافذة، وطلب منها أن تخرج لسانها، وفحص حلقها مستخدماً خافضة لسان من

المنسوم، ونظر الى ما تحت جفنها الاسفل، وكان كلما انتهى من شيء يشير بحركة ارتباج. كان أقل ارتباكاً من الزيارة السابقة، بينما كانت هي أكثر ارتباكاً لأنها لم تفهم سبباً لهذا الفحص الطاريء، اذا كان هو نفسه قد قال بأنه لن يعود الا اذا استدعوه لاي شيء يستجد. بل أكثر من ذلك: لم تكن راغبة في رؤيته الى الابد. عندما انتهى الفحص، خجاً الطبيب خافضة اللسان في الحقيبة المتخمة بالادوات وقتاني الدواء، وأعلقها بضربة قوية، ثم قال لها:

- انك كزهرة متفتحة لتوها.

- شكراً.

- الشكر لله - قال لها، واستشهد استشهاده خاطئاً بسان توماس -: تذكرني ان كل ما هو طيب، مهما كان منشؤه، انها هومن الروح القدس. التحين الموسيقى؟  
سأل ذلك عرضاً، مع ابتسامة ساحرة، لكنها لم تجبه. بل سألت بدورها:  
- ما قصدك من هذا السؤال؟

فقال:

- الموسيقى مهمة للصحة.

كان يؤمن بذلك أحياناً، واستمر في عما قريب، وحتى نهاية حياتها، ان الموسيقى كانت اشبه بمعادلة سحرية يستخدمها لاقامة صداقة، ولكنها فهمت الامر في ذلك الحين على انه سحرية. ثم ان صديقتها اللتين تظاهرتا بالرسم فيما هما تتحدثان أفلتتا ضحكات فثران وخباتا وجهيهما بحاملة الالوان، وهذا ما أفقد فرميناً دأثاً صوابها، فصفتت النافذة بقوة وقد اعماها الغضب. حاول الطبيب الحائر امام مصراع النافذة المخرم ان يجد طريقه الى البوابة الخارجية، لكنه أخطأ الاتجاه، وفي اضطرابه اصطدم بقفص الغربان العطرية، فأطلقت هذه زعقة صمء، وخفقت بأجنحتها مرتعبة، مضمخة ملابس الطبيب بعطر نسائي. جمده صوت لوريتودا الراعد في مكانه.

- دكتور .. انتظري حيث انت.

كان قد رأى كل شيء من الطابق العلوي، فنزل الدرج وهويزر رقميصه متغطرساً ومتورداً، وسوالفه الطويلة ما تزال مشعثة بعد حلم قبلولة سيء. حاول الطبيب ان يتغلب على الحرج:

لقد قلت لابتك انها تبدو كزهرة.

فقال لوريتودا:

انها كذلك، ولكنها زهرة كثيرة الاشواك.

مر من جانب الدكتور اوربينودون ان يحيه . ودفع مصراعي نافذة حجرة الخياطة وأمر ابنته بصرخة خشنة .

- تعالي واعتذري من الدكتور .

حاول الطبيب ان يتوسط ليحول دون ذلك ، لكن لوريشودا لم يعره اهتماما . وأصر : «أسرعى» . نظرت الى صديقتها بتوسل خفي لتتفهما ، وردت على ابيها بانه لا يوجد ما يستوجب الاعتذار ، وبأنها أغلقت النافذة لمنع استمرار دخول الشمس فقط . حاول الدكتور اوربينودون تأييد حججها ، ولكن لوريشودا أصر على الامر . حينئذ رجعت فريمينا دانا الى النافذة ، شاحبة من الغضب ، وقدمت قدمها اليمنى فيها هي ترفع ثورتها بأطراف اصابعها ، وانحنى للطبيب انحناء مسرحية وقالت :  
- أقدم لك اخلص اعتذاري أيها السيد المجل .

جاراها الدكتور خوفينال اوربينو بمزاج رائق ، رافعاً قبعته العالية بحركة كحركات الفرسان ، لكنه لم ينل ابتسامة الرحمة التي كان ينتظرها . دعاه لوريشودا بعد ذلك ليتناولوا في المكتب قهوة المصالحة فوافق مبتهجا ، حتى لا تبقى اية شكوك في انه ازال من روحه كل اثر للضغينة .

الحقيقة ان الدكتور خوفينال اوربينو لم يكن يشرب القهوة ، باستثناء فنجان واحد في الصباح قبل الطعام ، ولم يكن يتعاطى الكحول أيضاً ، ما عدا كأساً من النبيذ مع الطعام في بعض المناسبات الجليلة . لكنه لم يتناول القهوة التي قدمها اليه لوريشودا فحسب ، بل ووافق كذلك على شرب كأس من خمر اليانسون . ثم قبل فنجاناً آخر من القهوة وكأساً أخرى من الخمر ، ثم أخرى وأخرى ، رغم انه سيزور بعض المرضى الذين لم يزرهم بعد . استمع أول الامر الى الاعتذارات التي تابع لوريشودا تقديمها باسم ابنته ، التي وصفها بانها طفلة ذكية وجديبة ، جديرة بأمر من هنا أو من أي مكان آخر ، وعيبتها الوحيد ، حسب زعمه ، هو طبعها الذي يشبه طبع بغلة . لكنه بعد الكأس الثانية ظن بانه يسمع صوت فريمينا دانا يأتي من طرف الفناء ، ومضى خياله في اثرها ، ولاحقها في الليل الذي بدأ يلف البيت فيها هي تشعل اضمواء الممر ، وترش غرف النوم بمضخة مبيد الحشرات ، وتكشف الغطاء عند الموقد عن قدر الحساء الذي ستناوله هذه الليلة مع ابيها ، هو وهي وحدهما على المائدة دن ان يرفعا بصبرهما ، ودون ان يرشفا الحساء بصوت مسموع كي لا يحطما سحر الغضب ، إلى ان يستسلم الأب ويطلب الصفح منها لقسوته هذا المساء .

كان الدكتور اوربينو يعرف النساء جيداً ، فأدرك ان فريمينا دانا لن تقرب المكتب ما لم ينصرف هو منه ، لكنه تأخر على أية حال ، لانه كان يحس ان كبرياءه الحريح لن يتيح له

العيش بسلام بعد اهانة هذا المساء. ويبدو ان لورينثودا، الذي نال منه السكر، لم يلاحظ عدم اهتمامه به، اذ كان يكفي نفسه بطلاقة لسانه التي لا كايح لها. كان يتكلم طويلاً وهو يمزج عقب سيجاره المنطفئ، ويسعل بصوت عال، ويتف، ويحاول الاسترخاء بصعوبة على الكرسي الدوار الذي تثن نوابضه كأثني حيوان متهيج. لقد شرب ثلاث كؤوس مقابل كل كأس شربه ضيفه، ولم يتوقف عن الكلام إلا عندما انتهى إلى ان كلاً منهما لم يعد يرى الآخر، فنهض ليشعل المصباح. تأمله الدكتور خوفينال اوريينون من الأمام على نور الضوء الجديد، ورأى ان احدى عينييه مائلة كعين سمكة وان كلماته لا تتفق مع حركة شفتيه، وفكر بانها تخيلات تراوده لاسرافه في الكحول. حينئذ نهض واحساس اخاذ يسيطر عليه بانه في جسد ليس جسده، وانما جسد شخص ما يزال على المقعد حيث كان. واضطر للقيام بمجهود شاق كي لا يفقد اتزانه.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما خرج من المكتب يسبقه لورينثودا. كان القمر بدرًا. وكان البهو الذي زينه له خياله يطفو في حوض مائي، والافقاص المغطاة بقطع قماشية بدت وكأنها اشباح نائمة تحت الرائحة الدافئة لآزهار البرتقال الجديدة، وكانت نافذة حجرة الخياطة مفتوحة، وعلى طاولة العمل يوجد مصباح مضئ، بينا اللوحات غير المكتملة معلقة على الحوامل وكأنها في معرض. «أين أنت أيتها الغائبة»، قال الدكتور اوريينولدي مروره، لكن فبرمينا دانا لم تسمعه، ولم يكن بمقدورها ان تسمعه، لانها كانت تبكي غيضاً في مخدعها، وهي منبطحة على بطنها فوق السرير بانتظار والدها لتقاضيه على ادلاها هذا المساء. لم يكن الطبيب ليتنازل عن وداعها، لكن لورينثودا لم يعرض عليه ذلك. لقد حنّ التي براءة نبضها، وإلى لسانها الذي كلسان قطة، ولوزيتها الطريتين، ولكنه فقد الحماس حين فكرباتها لم تعد ترغب برؤية أبداً ولن تسمح له بأن يحاول ذلك. عندما دخل لورينثو ذاذا في الدهليز، أطلقت الغربان المستيقظة تحت الشرف صرخة حناثرية، فقال الطبيب بصوت عال: «ستقلع عينيك»، وكان يفكر بها، فالتفت اليه لورينثودا ليسأله ما الذي قاله.

.. فأجاب :

.. لست أنا الذي قلت، وانما هي الخمرة .

رافقه لورينثودا حتى العربة محاولاً اقناعه بقبول البيزو الذهبي كأجرة للزيارة الثانية، لكنه لم يقبله . أعطى الحوذي تعليمات صحيحة ليوصله إلى بيت المريضين اللذين عليه زيارتهما، وصعد إلى العربة دون مساعدة، لكنه بدأ يشعر بالإعياء بفعل اجتياز العربة فوق

الشوارع المرصوفة بالأحجار، فما كان منه إلا أن أمر الحوذي بتغيير الاتجاه. نظر لبرهة في المرأة ورأى أن صورته أيضاً ما زالت تفكر بفيرميا دائماً، فهز كتفيه. وأخيراً أطلق جُشأة رملية، أسند رأسه على صدره وأغفى، وفي الحلم بدأ يسمع نواقيس الحصاد. سمع نواقيس الكتدرائية أولاً، ثم نواقيس جميع الكنائس، بما فيها أجراس كنيسة سان خوان هوسبتيالريو المكسرة.

فدمدم وهونائم :

- خراء، لقد مات الموتى.

كانت أمه وشقيقتها يتناولن عشاء مؤلفاً من القهوة بالحليب وكعكة الجبن والدقيق على طاولة المآدب في صالة الطعام الكبيرة، عندما رأيته يظهر في الباب بوجه منك ورائحة غريبة تفوح منه هي رائحة عطر المومسات التي نفتشها الغربان. كان الناقوس الكبير في الكتدرائية المجاورة يرن في السكون المخيم على البيت. سألت أمه مذعورة ابن كان، لأنهم بحثوا عنه في كل الانحاء ليعالج الجنرال اغناسيو ماريا، آخر أحفاد المركز دي خايرث دي لافرا، الذي مات هذا المساء باحتقان دماغي. ومن أجله كانت ترقع الأحراس. انصت الدكتور خوفينال أورينولامه دون أن يسمعها، وأمسك باطار الباب، ثم دار نصف دورة محاولاً الوصول إلى حجرته، لكنه هوى على وجهه وسط انفجار قبيء خمر مدو.

صرخت أمه :

- يا مريم الهندسة. لا بد أن أمراً غريباً جعلك تنجيء إلى بيتك في مثل هذه الحالة لكن الأكثر غرابية لم يكن قد حدث بعد. فقد انتهز زيارة عازف البيانو المعروف روميو لوسيتش، الذي عزف مجموعة سونيتات لموزارت بعد أن انتهى حداد المدينة على الجنرال اغناسيو ماريا مباشرة. فحمل الدكتور خوفينال أورينويانو مدرسة الموسيقى على عربة تقودها اليبغال، وأحيا لفيرمينا دائماً سيرناداً أصبح مضرب المثل. استيقظت هي مع النغبات الأولى، ولم تكن بحاجة للظفر من تحريكات الشرفة لتعرف من هو صاحب هذا التكريم الفريد. والشيء الوحيد الذي أسفت له هو عدم امتلاكها شجاعة غيرها من الأسات المجربات اللواتي يفرغن محتويات المبة فوق رأس العاشق غير المرغوب فيه. أما لورينثو دائماً فقد ارتدى ملابسه على عجل أثناء عزف السيرناد، ودعا الدكتور خوفينال أورينويانو وعارف البيانو للدخول وهما ما يزالان بالملابس والزينة الخاصة بحفلة الكونشيرتو، وشكرهما على السيرناد بكأس جيد من البراندي.

سرعان ما انتهت فيرمينا دائماً إلى أن والدها يحاول أن يلين قلبها. ففي اليوم التالي للسيرناد قال لها بمواربة : «تصوري شعور أمك لو أنها عرفت بأنك مرغوبة من أحد آل

أورينودي لا كايي». فردت عليه بجفاء: «كانت ستموت ثانية وهي في التابوت». وروت لها صديقاتها اللواتي يرسمن معها ان لورينثوداثة قد ذهب إلى النادي الاجتماعي بدعوة من الدكتور خوفينال أورينوي، وان هذا الأخير كان محط تنبيه صارم لمخالفته تعليمات النادي. وحينئذ فقط علمت أيضاً أن أباه قد طلب عدة مرات الانضمام إلى النادي الاجتماعي، وان طلبه رفض في كل مرة بعدد من الكرات السوداء لا يتيح المجال للتفكير بمحاولة أخرى. لكن لورينثوداثة كان يتطلع الاهانة بكبد سكير، ويتابع استنباط الوسائل للالتقاء مصادفة بالدكتور خوفينال أورينوي، دون ان يلاحظ بان خوفينال أورينوي هو الذي كان يفعل المستحيل لجعله يلتقي به. كانا يقضيان أحياناً عدة ساعات وهما يتبادلان الحديث في المكتب، فيبقى البيت حينئذ وكأنه غارق على هامش الزمان، لان هيرمينداثة لم تكن تسمح لشيء بان يتابع خط حياته المعتاد قبل انصرافه. وكان مقهى الباروكية ملجأً وسطاً لا بأس به. وهناك علم لورينثوداثة أول دروس الشطرنج لخوفينال أورينوي، وكان هذا تلميذاً مجداً، وأصبح الشطرنج داء آخر لاشفاء منه عذبه حتى يوم مماته.

في إحدى الليالي، بعد مدة قصيرة من سيراناد البيانو المنفرد، وجد لورينثوداثة رسالة مختومة بالشمع في مدخل بيته، موجهة إلى ابنته وقد طبعت على الشمع حروف: خ. ار. ك. فلسها من تحت الباب لدى مروره أمام مخدع فيرمينا، ولم تستطع هي ان تدرك كيف وصلت الى هناك، اذ رأت انه من غير المعقول ان يكون ابوها قد تغير إلى حد ايصال رسائل عاشقها اليها. تركتها فوق الكوميدينو، دون ان تدري ما تفعله بها حقاً، وبقيت الرسالة هناك مغلقة عدة أيام، حتى مساء يوم ماطر حلمت فيه فيرمينا داثا ان خوفينال أورينوي قد رجع الى البيت ليهديها خافضة اللسان التي فحص بها حلقةا. ولم تكن خافضة الحلم من الألمنيوم وانما من معدن آخر شهى كانت قد تذوقته بلذة في أحلام أخرى، رأت انها كسرتها إلى جزئين غير متساوين وأعطته القطعة الصغرى.

عندما استيقظت، فتحت الرسالة. كانت قصيرة ومهذبة، والشيء الوحيد الذي كان يرجوه خوفينال أورينوي منها هو السماح له بان يطلب من ابوها الاذن بزيارتها. لقد تأثرت ببساطته وجدبته، والغيظ الذي رعته بالحب خلال تلك الايام خمد فجأة. نجأت الرسالة في علبة مهمة في قاع الصندوق، لكنها تذكرت انها كانت تحبىء هناك أيضاً رسائل فلورينتينو ارثا المعطرة؛ فأخرجتها من العلبة لتضعها في مكان آخر، وقد هزتها موجة من الخجل. عندئذ رأت ان خير ما تفعله هو ان تعتبر الرسالة لم تصلها، فأحرقتها بلهب المصباح، وهي ترى قطرات الشمع تنتفخ في فقاعات زرقاء فوق اللهب. تهتد «بالرجل المسكين». وفجأة تذكرت انها المرة الثانية التي تقول فيها ذلك خلال اكثر بقليل من سنة، وفكرت لهنية



بفلورينتينواريثا، وقد فوجئت هي نفسها كم أصبح بعيداً عن حياتها: بالرجل المسكين. في تشرين الأول، ومع الأمطار الأخيرة، وصلت ثلاث رسائل أخرى، مع الأولى منها علبة أقراص بنفسج من دير فلافيغي. اثنتان منها سلمها عبد مدخل البيت حوزي الدكتور خوفينال اوربينو، الذي حيا غالاً بلانديدا من نافذة العربة، وذلك كي لا تكون هناك شكوك في ان الرسائل ليست منه أولاً، وحتى لا يستطيع أحد الادعاء بان الرسائل لم تصل ثانياً. ثم ان الرسائل كانتا مخطومتين بنفس الحروف على الشمع الأحمر، ومكتوبتين بالخط الرديء الذي كانت فيرمينا دائماً تعرفه: خط طبيب. وكلتا الرسائل تنقولان من حيث الجوهر ما جاء في الرسالة الأولى، وهما مصاغتان بروح الخنوع دائماً، ولكن في اعماق لياقته بدأ يشع اشتياق لم يكن ليظهر أبداً في رسائل فلورينتينواريثا الرصينة. وقد قرأها فيرمينا دأ فور استلامها، بفارق اسبوعين بينها. وعندما كانت على وشك القائها للنار، غيرت رأيها دون ان تفسر الامر لنفسها. ولكنها رغم ذلك لم تفكر أبداً بالرد عليها.

الرسالة الثالثة من رسائل شهر تشرين الأول دُست من تحت باب البيت الفارجي، وكانت مختلفة في كل شيء عن الرسائل السابقة. فالخط كان صيبانياً لدرجة لا تدع مجالاً للشك في انها كتبت باليد اليسرى، لكن فيرمينا دائماً لم تفكر بشيء من هذا إلا عندما كشف لها النص بلذات عن مجهول لثيم. فكلت الرسالة يضع كأمرواق ان فيرمينا دائماً قد سحرت بأكاسيرها الدكتور خوفينال اوربينو، ومن هذا الاقتراض يستخلص النتائج المشؤومة. وينتهي بتهديد: اذا لم تراجع فيرمينا دائماً عن محاولتها الاستيلاء على الرجل المرغوب أكثر من أي رجل آخر في المدينة، فانها ستعرض نفسها للفضيحة العامة.

أحست بانها ضحية ظلم مجحف، لكن ردة فعلها لم تكن انتقامية، وانما على العكس تماماً: كانت ترغب في الكشف عن الفاعل المجهول لصرفه عن خطئه بكل التفسيرات المناسبة، اذ كانت موقنة بانها لن تتأثر أبداً، ومهما كانت الاسباب، بمغازلات خوفينال اوربينو. ثم تلقت في الأيام التالية رسالتين أخريين غفلين من التوقيع، فيها من الحقد مثلها في تلك الأولى، ولكن لم يكن يبدو في أي من الرسائل الثلاث ان كاتبها هو الشخص نفسه. فاما انها وقعت ضحية مكيدة، او ان قصة حبها المزيف قد وصلت إلى أبعد مما تصورته. لقد اقلقتها فكرة ان كل ذلك انها هو نتيجة تهور خوفينال اوربينو ليس إلا. وخطر لها بانه قد يكون رجلاً مختلفاً عما يوحى به مظهره الوقور، وان لسانه ربما ينطلق في زيارته فيتجبح بغزوات وهمة، كما يفعل الكثيرون من امثاله. فكرت بان تكتب له موبخة على اهانتة شرفها، ولكنها تخلت عن الفكرة، فقد يكون هذا ما يريده. وحاولت ان تستعلم من صديقاتها اللواتي يأتين للرسم معها في غرفة الحياطة، لكن الشيء الوحيد الذي سمعته هي تعليقات

سليمة العاقبة حول سيرناد اليسانو المنفرد. أحست بالغضب، والعجز، والذل. وعلى العكس من البداية، حين رغبت بالعثور على العدو الخفي لاقناعه باخطائه، أصبحت تريد فرمه الآن بمقص تشذيب الحديدية. صارت تمضي الليالي مستيقظة، محللة تفاصيل وتعابير الرسائل المجهولة، على أمل العثور على نارقة عزاء. وكان ذلك وهماً باطلاً: ففيرمينا دائماً بطبعها كنت غريبة عن عالم آل اوربينودي لاكايي الداخلي، وكانت تمتلك الاسلحة لمواجهة فنونهم الخبيرة، أما الشريرة فلا.

وأصبحت هذه القناعة أشد مرارة بعد رعب الدمية السوداء التي وصلتها في تلك الأيام بلا أية رسالة، ولكن بدا لها انه من السهل تصور مصدرها: فالدكتور خوفينال اوربيو وحده يمكن ان يكون مرسلها. انها مشتراة من المارتينيك، حسب بطاقة المنشأ، وترتدي فستاناً محكماً، لها شهر اجعد به خيوط ذهبية، وهي تغمض عينيها عند تمديدتها. لقد رأت فيها فيرمينا دائماً تسلية جعلتها تتغلب على وساوسها، فكانت تمددها على مخدتها في النهار. واعتادت على النوم معها في الليل. وبعد فترة من الزمن، اثر حلم منك، اكتشفت ان الدمية كانت تكبر: فالثياب الاصلية التي وصلت بها أصبحت تكشف عن فخذها، والحذاء تمزق بضغط نمو القدمين. كانت فيرمينا دائماً قد سمعت من قبل عن رقيات سحرية افريقية مشؤومة، ولكن أياً منها لم يكن رهيباً كهذه. ولم تستطع، من جهة اخرى، تصور ان يكون رحل كخوفينال اوربينو قادراً على ارتكاب فظاعة مماثلة. وكانت عفة: فالدمية لم يوصلها الحوذي، وانما بائع قريده عابر، لم يستطع أحد ان يقدم لها خبراً يقياً عنه. وفي محاولة لحل اللغز، فكرت فيرمينا دائماً للحظة بفلورينتينوارثا، الذي كانت تجهمه بثير فزعها، لكن الحياة تكفلت باقناعها بخطئها. ولم يتضح السر أبداً وكان مجرد تذكره يبعث فيها قشعريرة رعب إلى ما بعد زواجها بكثير، وانجابها أولاداً، واعتقادها بانها مختارة القدر وأسعد النساء.

المحاولة الاخيرة للدكتور اوربينو كانت توسط الاخوت فرانكاديلوث، رئيسة راهبات ظهور العذراء المقدسة، التي لا تستطيع رفض طلب من عائلة أيدت طائفها منذ استقرار هذه الطائفة في الامريكيين. حصرت برفقة راهبة مستجدة في الساعة التاسعة صباحاً، وتسلتا كلتاها لمدة نصف ساعة بأقفاص العصافير ريشا تنتهي فيرمينا دائماً من الاستحمام. كانت ألسانية رجولية تتكلم بنبرة معدنية ولها نظرة أمرة لاعلاقة لها بعواطفها الصيبانية. ولم يكن في هذا العالم ما تكرهه فيرمينا دائماً اكثر من كرهها لها وبما رأتها على يديها، وبمجرد تذكر شفقتها الكاذبة كان يسبب لها حرقصة عقرب في احشائها. وما ان تعرفت عليها من باب الحمام حتى عادت تعيش دفعة واحدة جميع عذابات المدرسة، وحلم القداس اليومي الذي لا يطاق، ورعب الامتحانات، ومسامي المستجديات الدنيشة، وكل الحياة المفسدة بموشور الفقر

الروحي . أما الاخت فرانكا دي لالوث بالمقابل ، فقد حينها بمرح بدا نزيهاً . وأبدت دهشتها لنموها ونضجها ، وأطرت على حكمتها في تدبير شؤون البيت ، وذوقها الرقيق الظاهر في الفناء ، وفي مجمرة أزهار البرتقال . ثم أمرت المستجدة بانتظارها ، وعدم الاقتراب كثيراً من الغربان القادرة على انتزاع عينيها في لحظة اهمال ، وبحث عن مكان منزل تجلس فيه لتتحدث على انفراد مع فيرمينا داثا . فدعتها هذه إلى الصلاة .

كانت زيارة قصيرة وفظة . فالاخت فرانكا دي لالوث ، ودون اصابة الوقت في الديباجات ، عرضت على فيرمينا داثا رد اعتبار مشرف . كما ان سبب الطرد سيمحي ، ليس من المحاضر فقط ، وانما من ذاكرة الطائفة أيضاً ، وهذا سيتيح لها استكمال دراستها والحصول على الشهادة الثانوية في الآداب . أرادت فيرمينا داثا الحاترة ان تعرف السبب .

فقالته الراهبة :

- كل ذلك بناء على طلب شخص جدير بكل شيء ، ورغبته الوحيدة هي إسعادك أو

تعرفين من هو ؟

حينئذ فهمت الأمر . وسألت نفسها كيف يمكن لامرأة غيرت مسار حياتها من أجل رسالة بريئة ان تقوم الآن بدور رسول الحب ، لكنها لم تتجرأ على قول ذلك . وقالت بالمقابل انها عرفت الرجل المعني ، وانها تعرف كذلك بانه لا يملك الحق للتدخل في حياتها .

فقالته الراهبة :

- الشيء الوحيد الذي يرجوه هو ان تسمح لي بالتحدث اليك لخمس دقائق . وأنا

متأكدة ان أباك سيوافق .

أصبح غضب فيرمينا داثا اشد زحماً لفكرة ان اباه متواطىء في تلك الزيارة . فقلت :

- لقد رأينا بعضنا مرتين حين كنت مريضة . وليس من سبب يدعو للقاء الآن .

وقالته الراهبة :

- ان هذا الرجل هو بمثابة هدية من العناية الالهية بالنسبة لأي امرأة لها دماغ عرضه

اصبعان .

وتابعت الكلام عن فضائله ، وعن ورعه ، وانكبابه على خدمة المعذنين . وفيها هي تتكلم أخرجت من كمها مسبحة ذهبية تنتهي بمسيح منحوت من العاج ، وهزتها أمام عيني فيرمينا داثا . انها من آثار العائلة ، وعمرها أكثر من مئة سنة ، صاغها صانع من سيينا وباركها البابا كليمنت الرابع .

- انها لك - قالت لها .

أحست فيرمينا داثا بتيار دافق من الدم في اوردها ، وتجرات . حينئذ على القول :

- لا أستطيع ان أفهم كيف تقبلين القيام بمهمة كهذه، اذا كنت ترين في الحب خطيئة .

تظاهرت الاخت فرانكا دي لالوث بانها لم تدرك مغزى الملاحظة، لكن اجفانها التهبت .  
وتابعت تحريك المسبحة مقابل عينيها . وقالت :

- خير لك ان تتفاهمي معي ، فقد يجيء بعدي نياقة الاسقف، وسيكون الحال معه مختلفاً .

فقال فيرمينا داثا :

- فليأت .

خبأت الاخت فرانكا دي لالوث المسبحة الذهبية في كمها، ثم أخرجت من الكم الآخر منديلاً مستعملاً كثيراً، ومجعداً على شكل طابة، واحتفظت به مضغوطاً في قبضتها، ناظرة إلى فيرمينا داثا من بعيد جداً بابتسامة حانية وتهدت .

- مسكينة أنت يا بنيتي، ما زلت تفكرين بذلك الرجل .

مضغت فيرمينا داثا الالهانة وهي تنظر إلى الراهبة دون ان يرش لها جفن، وحدثت في عينيها، دون ان تتكلم، وهي تمضغ بصمت، إلى ان رأت بسعادة لانهاية عينيها الرجلين تغرورقان بالدموع . ومسحتها الاخت فرانكا دي لالوث بالمنديل المكور، ونهضت واقفة وهي تقول :

- لقد صدق والدك حين قال بانك بغلة .

لم يأت الاسقف . وكان الحصار سينتهي في ذلك اليوم، لولا ان هيلديبرندا سانتشيت جاءت لقضاء أعياد الميلاد مع ابنة عمته، فتبدلت الحياة لكلتيهما . استقبلوها في السفينة القادمة من ريوهاتشا في الساعة الخامسة صباحاً، وسط اضطراب مسافرين يحضرون من لدوار، فيما نزلت هي من السفينة مشعة وناضجة، بروح هائجة بفعل الليلة البحرية السيئة . جاءت محملة بصناديق الديكة الرومية الحية وبكل انواع الثمار التي طرحها بساتينهم الزاهرة، كي لا ينقص الطعام على أحد أثناء زيارتها . وبعت والدها ليسيياكو سانتشيت يسأل ان كانوا بحاجة إلى موسيقيين من أجل حفلة الفصح، لأن أفضل الموسيقيين متوفرين تحت تصرفه، ويعد بأنه سيعث فيما بعد بشحنة من الألعاب النارية . ويعلن أيضاً بأنه لن يستطيع المجيء لأخذ ابنته قبل شهر أذار، وهذا يعني ان لديها متسعاً من الوقت تعيشانه معاً .

بدأت الفتاتان في الحال . استحمتا معاً منذ مساء اليوم الأول، عاريتين، وطهرتا بعضهما بهاء البركة . تعاونتا على ذلك جسديهما بالصابون، وأخرجت كل منهما الصبيان من شعر

الآخري، وقبل أن نأزدا فيهما، ونهدهما الصلبة، وتأملت كل منهما في مرآة الآخري لترى قسوة الزمن عليهما مذ رأتا بعضهما عاريتين آخر مرة. كانت هيلديبراندا ضخمة ومتينة، ذات بشرة دهية، لكن شعر جسمها بأسره كان شعر مولدة، قصير ومفتول وكأنه رغوة أسلاك. أما فيرمينا دائماً فكانت ذات عري شاحب، خطوطه طويلة، وبشرة صافية ناعمة الزغب. جعلتهما غالباً ثلاثيديا تضعان سريرين متقابلين في حجرة النوم. لكنها كانتا تستلقيان في سرير واحد أحياناً وتتحدثان بعد إطفاء النور حتى الفجر، وتدخان سيجاراً من النوع الرفيع الذي يدخله قطاع الطرق. كانت هيلديبراندا قد أحضرته معها مخبأ في بطانة الصندوق، وكان عليهما أن تحرقا بعد التدخين أوراق ارمينا لتنقية هواء الحجرة الذي يصبح كهواء اكواخ الرعاة. لقد دخنت فيرمينا دائماً للمرة الأولى في فايبودبار، وتابعت التدخين في فونسيكا، وفي ريوهاش، حين كانت تحبس نفسها مع عشر من بنات أخوالها في حجرة ليتحدثن عن الرجال ويدخن في الخفاء. وتعلمت التدخين بالقلب، وذلك بوضع طرف السيجار المشتعل في فمها، كما يدخن الرجال في ليالي الحرب كي لا تفضح جرة السيجار. لكنها لم تدخن أبداً منفردة. وأصبحت تفعل ذلك مع هيلديبراندا في بيتها كل ليلة قبل أن تنام. ومنذ ذلك الحين اكتسبت عادة التدخين، رغم أنها كانت تدخن في الخفاء دوماً، وحتى بالخفاء عن زوجها وأولادها، ليس ذلك لأنه كان يُنظر إلى المرأة المدخنة في العلن بغير الرضى، وإنما لان متعتها كانت تكتمل في السرية.

كانت رحلة هيلديبراندا قد فُرِضت عليها كذلك من جانب أبويها في محاولة لابعادها عن حبها المستحيل، رغم أنهم اقنعوها بأنها مسافرة لمساعدة فيرمينا دائماً على حسم أمرها في وجهة حسنة. وقد وافقت هيلديبراند على أمل السخريّة من النسيان، وافتقت مع موظف التلغراف في فونسيكا ليوصل رسائلها بأقصى قدر من الكتمان. ولذا كان ياسها مرياً حين علمت أن فيرمينا دائماً قد صدت فلوريتينو أريشا لان هيلديبراندا كانت تملك رؤية كونية للحب، وتفكر أن ما يطرأ على حب يؤثر على جميع غراميات العالم بأسره. ولكنها لم تتخل عن مشروعها. ذهبت، بجرأة سببت لفيرمينا دائماً أزمة رعب، إلى مكتب البريد بغرض كسب جميل فلوريتينو أريشا.

ما كان لها أن تتعرف عليه، إذ لم يكن فيه أي ملمح من الصورة التي رسمتها له في خيالها من خلال فيرمينا دائماً. وللوهلة الأولى رأت أنه يستحيل أن تكون ابنة عمها قد أوشكت على الجنون في سبيل ذلك الموظف الذي لا يكاد يلفت الانتباه، والذي له ملامح كلب مضروب بالعصا، بملابسه التي كملاس خاخام منكوب وأساليبه غير القادرة على إثارة قلب أحد. لكنها ما لبثت أن ندمت لهذا الانطباع الأول، عندما وضع فلوريتينو أريشا نفسه

في خدمتها بلا أية شروط وحتى دون أن يعرف من تكون . . ولم يعرف ذلك أبداً . ما كان لأحد ان يفهمها مثله ، فلم يطلب منها الافصاح عن هويتها كما لم يطلب أي عنوان . ووضع حلاً بمتى البساطة : عليها ان تمر بمكتب التلغراف مساء كل اربعاء ليسلمها الردود باليد ، ولا شيء سوى ذلك وعندما قرأ رسالة هيلديبراندا المكتوبة سألها إن كانت توافق على تعديل يقترحه ، فوافقت . فكتب فلورينتينواريثا بعض التعديلات بين السطور ، ثم شطبها ، واعد كتابتها ، حتى لم يعد لديه فراغ بين السطور ، واخيراً مزق الورقة وكتب رسالة مختلفة تماماً بدت لها مثيرة . وعندما خرجت هيلديبراندا من مكتب التلغراف كانت على حافة الدموع .

وقد قالت لفيرمينا دائماً :

- انه قبيح وكتيب . لكنه ينضج حباً .

وكان اكثر ما لفت انتباه هيلديبراندا هو عزلة ابنة عمتها . وقد قالت لها بانها تبدو كعانس في العشرين من العمر . فهيلديبراندا المعتادة على اسرة كثيرة العدد ومزرعة ، في بيوت لا أحد يعرف بالتحديد عدد الذين يعيشون فيها ولا من هم الذين سيتناولون الطعام في كل وجبة ، لم تستطع ان تتصور فتاة في مثل سنها تحجز نفسها في الحياة الخاصة . وهكذا كانت فيرمينا دائماً : فمئذ استيقاظها في السادسة صباحاً ، والى ان تطفئ نوره حجرة النوم ، كانت تكرس نفسها لاضاعة الوقت . فالحياة تُفرض عليها من الخارج : أولاً ، ومع صباح الديكة الأولى ، يوقظها بائع الحليب بمقرعة الباب . ثم تدق بائعة السمك على صندوق اسياك الأبرميس التي ما زالت تحتضر فوق فرشة من الاعشاب البحرية ، وتأتي التشكيلة الفاخرة من خضروات بساتين ماريما السفلى وفواكه سان خاينتو . بعد ذلك ، وطوال النهار ، يقرع الجميع الباب : المتسولون ، بائعات اليانصيب ، راهبات الاجسان ، المجلخ بنايه ، ومُشترى القناني الفارغة ، ومُشترى الذهب المكسر ، ومُشترى ورق الجرائد ، والعجريات المزيفات اللواتي يقرأن الحظ في أوراق اللعب ، وفي خطوط الكف ، وفي بقايا القهوة ، وفي ماء الجفنة . كان الاسبوع يمر على غالابلاتيديا وهي تفتح الباب وتغلقه لتقول لا ، عد في يوم آخر ، أولتصرخ من الشرفة بمزاج معكر ان توقفوا عن الازعاج ، اللعنة ، لقد اشترينا كل ما نحتاجه . كانت قد حلت محل العملة اسكولاستيكا بحماسة شديدة وظرافة كبيرة ، حتى ان فيرمينا دائماً كانت تخطيء فتظنها العملة وتحبها على انها كذلك . كانت مسكونة بهواحسن عبدة . فما ان تجد لحظة فراغ حتى تمضي إلى غرفة الاشغال لتكوي الملابس البيضاء . وتتركها على أحسن حال ، وتحفظها في الخزائن مع ازهار الحزامي ، ولم تكن تكوي وتطوي ما كانت قد غسلته فقط وانما كذلك الملابس التي فقدت رونقها لقلة الاستخدام . وبلا اهتمام ذاته كانت تحافظ على ملابس فيرمينا سانتشيث ، والدة فيرمينا ، المتوفاة منذ أربعة عشر عاماً أخلت . لكن فيرمينا

دائماً هي التي كانت تتخذ القرارات . فهي من يأمر بأعداد ما يجب للطعام ، وما يجب إعداده شراؤه ، وما يجب عمله في كل حالة ، وهذا كانت تقرر مسار حياة بيت لا يوجد فيه في الواقع ما يجب تقريره . فبعد ان تنتهي من تنظيف الأقفاس ووضع الطعام للعصافير ، والتأكد من ان الازهار ما عادت بحاجة لشيء ، تصبح دون اتجاه . وبعد طردها من المدرسة ، كثيراً ما كانت تبقى نائمة منذ القيلولة ولا تستيقظ حتى اليوم التالي . ولم تكن دروس الرسم إلا وسيلة مسلية أخرى لاضاعة الوقت .

كانت علاقاتها بأبيها خالية من العواطف منذ نفي العمة اسكولاستيكا ، لكنها وجدت سبيلاً إلى العيش معاً دون عراقيل . فحينما تستيقظ ، يكون قد خرج إلى أعماله . وندراً ما كان يتخلف عن طقس الغداه ، مع انه لم يكن يأكل شيئاً تقريباً ، اذ كان يكتفي بالمقبلات والاصناف الجليقية الخفيفة التي تقدم في مقهى الباروكية . ولم يكن يتناول العشاء أيضاً : كانوا يتركون له حصته من العشاء على المائدة ، في صحن واحد مغطى بصحن آخر ، رغم معرفتهم بأنه لن يأكلها حتى اليوم التالي بعد اعادة تسخينها على الفطور . وكان يعطي ابنته النقود اللازمة للنفقات مرة كل اسبوع ، وبحسب تلك النقود جيداً ، وكانت تنصرف بها بصرامة ، لكنه كان يلبي عن طيب خاطر اي طلب تطلبه لنفقات طازجة . لم يساومها على قرش في يوم من الأيام ، ولم يطلب منها بياناً بالحساب يوماً ، لكنها كانت تنصرف وكأنها ستقدم كشفاً بالحساب أمام محكمة قديمة . لم يتحدثها أبداً عن طبيعة أعماله وحالتها ، كما لم يرافقها لتتعرف على مكاتبه في الميناء ، تلك التي في موقع محطور على الأنسبات دخوله حتى وهن بصحبة آبائهن . ولم يكن لوريشودائا يرجع إلى بيته قبل الساعة العاشرة ليلاً ، وهي ساعة حظر التجول في مراحل الحرب الأقل خطراً . وكان يبقى حتى ذلك الحين في مقهى الباروكية ، يلعب كل شيء ، لانه كان متخصصاً في جميع ألعاب الصالونات ، ومعلماً جيداً لهذه الألعاب أيضاً . وكان يعود دوماً إلى بيته في حالة من الاتزان العقلي ، دون أن يوقظ ابنته ، رغم انه كان يتناول أول كأس من خمر البانسون عند استيقاظه ويتابع مضغ عقب سيجاره المنطفيء وشرب عدد من الكؤوس المتفرقة طوال النهار . لكن فريسيا دائماً أحست بدخوله في إحدى الليالي سمعت وقع خطواته كخطوات قوزاقي على الدرج ، ولهاته الضخم في مر الطابق الثاني ، وضرباته بكف يده على باب غرفة النوم . فتحت له الباب ، وفزعت للمرة الأولى من عينه المنحرفة وكلماته المضطربة .

قال لها :

.. لقد انهرنا . انه الانهيار الكامل ، وهما انتذي قد علمت  
كان ذلك هو كل ما قاله ، ولم يعد لقول ذلك أبداً ، ولم يتحدث ما يشير إلى انه قال الحقيقة ،

لكن فيرمينا دائما وعت بعد تلك الليلة انها وحيدة في الدنيا . كانت تعيش على أحد هوامش المجتمع ، فصدقاتها القديبات في المدرسة كن في ساء محرمه عليها ، وقد أصبح الامر اكثر صعوبة بعد فضيحة طردها ، لكنها لم تكن بمثابة جارة لجيرانها أيضاً ، لان هؤلاء تعرفوا عليها بلا ماض وبزى مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، أما عالم ابوها فكان عالم التجار وحالي السفن ، عالم لاجئي الحروب في وكر مفهى الباروكية العام ، عالم رجال متوحدين . لقد خففت دروس الرسم من عزلتها في السنة الاخيرة ، لان المعلمة كانت تفضل الدروس الجماعية وقد اعتادت ان تأتي معها بتلميذات اخريات إلى حجرة الخياطة ، لكنهن فتيات من اوساط اجتماعية مشوشة وغير محددة . لم يكن بالنسبة لفيرمينا دائما اكثر من صديقات مستعارات ينتهي تأثيرهن مع انتهاء كل درس . أرادت هيلديبراندا ان تفتح البيت ، ان تهويه ، ان تأتي بالموسيقين والالعب النارية وقلاع البارود من عند ابوها واقامة حفلة رقص كرنفالية يقوض عصفتها حالة ابنة عممتها المنخورة ، لكنها سرعان ما تنهت إلى أن نواياها غير مجدية . والسبب بسيط : لا يوجد من يشارك في الحفلة .

وكانت هيلديبراندا على اي حال هي التي وضعتها في الحياة . ففي المساء ، وبعد دروس الرسم ، كانت ترافقها إلى الشارع للتعرف على المدينة ، وقد ارثها فيرمينا دائما الطريق الذي كانت تقطعه يوماً مع العمة اسكولاستيكا ، ومقعد الحديقة حيث كان فلورينتيناواريثا يتظاهر بالقراءة لينتظرها ، والازقة التي كان يلاحقها فيها ، ومخابىء الرسائل ، والقصر المشؤوم الذي كان سجن السانتوافيثوفيا مضى وتحول إلى مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، التي تكرهها من أعماق روحها . صعدتا إلى رابية مقبرة الفقراء ، حيث كان فلورينتيناواريثا يعزف الكمان حسب اتجاه الرياح لتسمعه وهي في الفراش ، ومن هناك رأتا المدينة التاريخية بكاملها ، والسقوف المهشمة والجدران المتآكلة ، وانقراض الحصون بين الاجمات ، والجزر المتناثرة في الخليج ، واكواخ البؤس حول المستنقعات ، والكاربي الرحب . في ليلة عيد الميلاد ذهبتا إلى القديس في الكندراتية ، وجلست فيرمينا في المكان الذي تصلها فيه موسيقى فلورينتيناواريثا على أحسن وجه ، وأرت ابنة خالها المكان الدقيق الذي رأت فيه لأول مرة عن قرب عينية المرتبتين في ليلة كهذه الليلة . وغامرتا بالذهاب وحدهما إلى زقاق الكتبة العموميين ، واشترتا الحلوى ، وتوقفتا في دكان الأوراق السحرية ، وأرت فيرمينا دائما ابنة خالها المكان الذي اكتشفت فيه فجأة ان حبها لم يكن اكثر من سراب . ولم تنتبه هي نفسها إلى ان كل خطوة خطتها من البيت الى المدرسة ، وكل مكان في المدينة ، كل لحظة من ماضيهما القريب ما كان لها من وجود إلا بفضل فلورينتيناواريثا . ولفتت هيلديبراندا انتباهها إلى ذلك ، لكنها لم توافق على الأمر ، لانها لم تقبل يوماً حقيقة ان فلورينتيناواريثا ، بخيره أو شره ، هو الشيء الوحيد



الذي حدث لها في الحياة .

في هذه الايام جاء المدينة مصور فوتوغرافي بلجيكي ، وأقام استوديو تصويره في اعالي رزاق الكتبة ، وانتهاز كل قادر على الدفع الفرصة ليلتقط صورة . وكانت فيرمينا وهيلديبراندا من الأوائل . أفرغت خزانة ملابس فيرمينا سانتشيث ، واقتسمتا ازهى الملابس ، والمظلات ، واحذية الاحتفالات ، والقبعات ، وارتدتا ملابس سيدات كانت سائدة منذ نصف قرن . ساعدتهما غالبا بلاثيديا على شد أحزمة الخصر ، وعلمتهما كيف تتحركان في هياكل التنانير الداخلية المصنوعة من الاسلاك ، وكيف تلبسان القفازات ، وتزرران الاحذية ذات الكعوب العالية . وفضلت هيلديبراندا قبعة عريضة الخواف مزينة بريش نعام يتدلى على ظهرها . ووضعت فيرمينا قبعة اكثر حداثة ، مزينة بفواكه جصية ملونة وأزهار كرينولينا . ثم ضحكتا لمظهرهما عندما رأتا في المرأة انهما تشبها صور الجدات ، وانطلقتا سعيدتين ، ضاحكتين ، لتلتقطا صورة عمرهما . رأتهما غالبا بلاثيديا وهما تجتازان الحديقة وقد فتحتا مظلتيهما ، مستندتين كيفما اتفق على كعوب احديتهما ، ودافعتين تنانيرهما المكشكشة مع جسدهما كله في مشية كمشية الأطفال ، فباركتهما كي يساعدهما الله في صورهما .

كانت هناك جلبة مقابيل استوديو البلجيكي ، اذ كان يلتقط صوراً لبيني ثيبنو ، الذي كسب في تلك الايام بطولة الملاكمة في بناما . كان يرتدي سروال الملاكمة والقفازات ويضع التاج على رأسه ، ولم يكن تصويره بالامر السهل ، اذ كان عليه ان يقف في وضعية الهجوم لمدة دقيقة ، وان يتنفس أقل ما يمكن ، لكنه ما ان يتخذ وضعية الاحتراس حتى ينطلق انصاره المتعصبون بالتصفيق والهتاف ، فلا يستطيع مقاومة اغراء اسعادهم بعرض فنونه . وعندما جاء دور الفتاتين كانت الساء قد تلبدت بالفيوم وبدا أن المطر سيهطل حتماً ، لكنهما سمحتا للمصور بتعفير وجهيهما بالنشاء واستندتا إلى عمود رخامي بشكل طبيعي ، وتمكنتا من الوقوف دون حراك لوقت بدا أطول من المعقول بكثير . وكانت صورة خالدة . عندما توفيت هيلديبراندا ، وهي على مشارف المئة من عمرها ، في مزرعتها المساة فلوريس دي ماريا ، وجدوا نسختها من الصورة في خزانة مخدعها المقفلة ما بين ثنايا شرافش معطرة ، الى جانب بقايا رسالة محتها السنون . وقد احتفظت فيرمينا دائماً بنسختها لسنوات طويلة في الصفحة الأولى من الألبوم عائلي ، حيث اختفت دون ان يعرف أحد كيف ، أو متى ووصلت إلى يدي فلورينتينو اريثا اثر سلسلة من المصادفات التي لا تصدق ، بعد ان تجاوزا كلاهما السبعين .

كانت الساحة المقابلة لرزاق الكتبة تغص بالنساء حتى الشرفات عند خروج فيرمينا وهيلديبراندا من استوديو البلجيكي . لقد نسيتا أن وجهيهما أبيضان بالنشاء وشفتيهما مطليتان بمرهم له لون الشوكولاته ، وأن ملابسهما لاتناسب الساعة ولا الحقبة الحالية . واستقبلهما

الشارع بفيض من السخرة . فانزوتا وحاولتا الحرب من الاستهزاء العام ، حين شفت العربية التي يقودها جوادان اشقران ذهبيان طريقها وسط الحشد . فتوقفت السخرية وتفرقت الجموع المعادية . لن تستطيع هيلديراندا ان تنسى أبداً رؤيتها الأولى للرجل الذي ظهر على ركاب العربية ، بقبعته الملساء ، وسترته البروكار وحركاته الماهرة ، وعذوبة عينيه ، وسلطة حضوره . ورغم انها لم تكن قد رأته من قبل ، الا انها عرفتة في الحال . كانت فيرمينا دائماً قد حدثتها عنه ، فعلت ذلك مصادرة وبلا أية مصلحة ، في مساء يوم من أيام الشهر الماضي حين لم تشأ المرور قرب بيت المركيز دي كاسالدويرولان عربية الخيول الذهبية كانت تقف أمام الباب . واختبرتها من هو صاحب العربية وحاولت ان تشرح لها سبب نفورها ، دون ان تقول لها كلمة واحدة عن طلبه الزواج منها . كانت هيلديراندا قد نسيته . ولكنها عندما تعرفت عليه وهو عند باب العربية وكأنه طيف من حكاية خيالية ، احدى قدميه على الارض والاخرى على ركاب العربية ، لم تستطع ان تفهم أسباب نفور ابنة عمته منه .

- اصعدا من فضلكم - قال لها الدكتور خوفينال اوربينو - سأوصلكما حيث تأمران . بدأت فيرمينا دائماً القيام بحركة مهمة ، لكن هيلديراندا كانت قد وافقت . أنزل الدكتور فينال اوربينو قدمه إلى الأرض وساعدها على الصعود إلى العربية بأطراف اصابعه ، وهو لا يكاد يلمسها . وحين لم تجد فيرمينا مخرجاً صعدت وراءها ، بوجه يتقد حرجاً . كان البيت يبعد أربع كوادرات فقط ، ولم تنتبه الفتاتان إلى ان الدكتور اوربينو قد اتفق مع الحوذي ، ولكن لا بد أن الأمر كذلك ، لأن العربية استغرقت اكثر من نصف ساعة في الوصول . كانتا تجلسان على المقعد الرئيسي ، وجلس هو مقابلهما مولياً ظهره لاتجاه سير العربية . التفتت فيرمينا بوجهها نحو النافذة وغرقت في الفراغ . أما هيلديراندا ، فكانت مفتونة ، وكان الدكتور اكثر فتنة بافتتانها . وما ان انطلقت العربية حتى أحست برائحة جلد المقاعد الطبيعي الدسمة ، وحمية العربية من الداخل ، فقالت انها تراها مكاناً مناسباً للعيش فيه . وسرعان ما أخذها يضحكان ويتبادلان المزاح كصديقين قديمين ، وعرجا على لعبة كلمات ذات رطانة بسيطة ، تتلخص بادخال مقطع صوتي متوافق بين كل مقطعين . كانا يتظاهران بالاعتقاد ان فيرمينا لا تفهمهما ، رغم معرفتهما بانها ليست فاهمة فحسب ، بل ومنصتة اليهما أيضاً ، ولذا كانا يتابعان اللعب . وبعد هنية من الوقت ، وكثير من الضحك ، اعترفت هيلديراندا بانها ماعادت تحتمل الألام التي يسببها لها الحذاء فقال الدكتور اوربينو : - الامر في غاية البساطة . هلمي لئر من ينتهي أولاً .

وبدا بحل رباط حذائه ، وقبلت هيلديراندا التحدي . لم يكن الأمر سهلاً لأن مشد الاسلاك ما كان يسمح لها بالانحناء ، لكن الدكتور اوربينو تأخر متعمداً ، إلى ان أخرجت

حذاءها من تحت التنورة بضحكة ظافرة، وكأنها اصطادات الحذاء لتوها من بركة راكدة. عندئذ نظرا معاً إلى فيرمينا، ورأيا بروفيل وجهها اكثر حدة من أي وقت آخر على خلفية المساء الفاضل. لقد كانت غاضبة ثلاثاً: للوضع غير اللائق الذي هي فيه، ولسلوك هيلديبراندا الشائن، وليقينها بان العربية تحول على غير هدي لتأخير الوصول. لكن هيلديبراندا كانت منغلقة من عقابها. وقد قالت:

- لقد ادركت الآن ان ما يزعجني ليس الحذاء وانما هذا القفص من الاسلاك.  
وأدرك الدكتور اوربينوا انها تعني التنورة الداخلية، فأمسك بالساحة على الفور، وقال:  
« الامر في غاية البساطة. اخلعها. » وبحركة شعوزة سريعة اخرج مندبلاً من جيبه وعصب عينيه قائلاً:  
- أنا لا أرى.

أبرزت العصابة نقاء شفثيه بين اللحية المستديرة السوداء والشارب ذي الطرفين المدبين وأحست هي بارتعاشة زعزعت كيافها. فنظرت إلى فيرمينا، ولم تجدها غاضبة الآن، وانما مرتعبة من ان تكون هي على استعداد لخلع تنورتها. فالتحذت هيلديبراندا وضعاً جدياً وسألت باشارات من يديها «ماذا نفعل؟». واجابتها فيرمينا دانا بالطريقة ذاتها بانها ستلقي بنفسها من العربة اذا هم لم يذهبوا الى البيت مباشرة.

قال الطبيب:

- انني أنتظر.

فقالت هيلديبراندا:

- بإمكانك ان ترى.

عندما نزع الدكتور خوفينال اوربينوا العصابة عن عينيه، وجدها قد تغيرت، وأدرك أن اللعب قد انتهى، وانه انتهى بصورة سيئة. وبإشارة منه دار الحوذي بالعربة دورة كاملة، ودخل في حديقة البشارة في اللحظة التي كان فيها مشعل الانوار يشعل المصابيح العامة، وقرعت جميع الكنائس نواقيسها داعية إلى صلاة التبشير. نزلت هيلديبراندا مسرعة ومضطربة بعض الشيء لانها أغضبت ابنة عمها، وودعت الطبيب بمصافحة سطحية. وفعلت فيرمينا مثلهما، ولكن حين حاولت سحب يدها بالقفاز الأملس. ضغط الدكتور اوربينو بقوة على اصبعها الوسطى قائلاً:

- ما زلت أنتظر ردك.

حينئذ سحبت فيرمينا يدها بقوة، وبقي القفاز الفارغ معلقاً في يد الطبيب، لكنها لم تنتظر لاستعادته. وذُهِبَ إلى النوم دون أن تأكل. أما هيلديبراندا، فبعد ان تناولت العشاء في

المطبخ مع غالاً بلاثيديا، دخلت الى حجرة النوم وكان شيئاً لم يحدث، وعلفت بظرافتها الطبيعية على أحداث المساء. ولم تخف حماسها للدكتور اوربينو، وأطرت على اناقته ولطفه، ولم تعقب فيرمينا على كلامها بشيء، ولكنها كانت محتاطة للمناكفة. واعتبرت هيلديبراندا انها في لحظة معينة، حين عصب الدكتور اوربينو عينيه ورأت بريق اسنانه المنتظمة بين شفتيه الورديتين، أحست برغبة لاتقاوم لأكله بالقبلاط. فانقلبت فيرمينا داثا نحو الجدار ووضعت حداً للحديث دون رغبة في الاساءة، بل انها كانت تضحك، ومن أعياق نلبها، وقالت:

— يالك من عاهرة!

نامت متقافزة، وكانت ترى الدكتور اوربينو في كل مكان، رأته يضحك، ويعني، ويطلق شرر كبريت من اسنانه وعينه معصوبتان، ويسخر منها برطانة لاقواعد لها في عربة مختلفة كانت تصعد نحو مقبرة الفقراء. واستيقظت قبل الفجر بكثير منهكة، وبقيت مستيقظة وعيناها مغمضتان تفكر بالسنوات الطويلة التي ما زال عليها ان تعيشها. بعد ذلك، وفيها هيلديبراندا تستحم، كتبت رسالة بأقصى سرعة، وطوتها بأقصى سرعة، ودستها بأقصى سرعة في مغلف، وقبل ان تخرج هيلديبراندا من الحلم بعثتها مع غالاً بلاثيديا الى الدكتور خوفينال اوربينو. كانت واحدة من رسائله. وقد كتبت له عليها: أجل يا حكتور، كلم والدي. دون اي حرف أكثر أو أقل.

حين علم فلورينتينا اريشا أن فيرمينا داثا ستزوج من طبيب نبيل وثري، متعلم في أوروبا وذو شهرة فريدة في مثل سنه، لم تكن هنالك قوة قادرة على اخراجه من مذلتة. وقد فعلت ترانستيواريشا أكثر مما هو ممكن لتعزيتة بأساليب كاساليب عروس عندما رأت انه فقد النطق والشهية وانه يقضي الليل مسهداً يبكي دون راحة، إلى ان تمكنت بعد اسبوع من جعله يأكل. حينئذ تحدثت إلى ليون الثاني عشر لوايشا، الحي الوحيد من الاخوة الثلاثة، ورجته دون ان توضح الاسباب، ان يقدم عملاً لابن اخيه ليقوم بأي شيء في المؤسسة البحرية، على ان يكون ذلك في أي ميناء منسي وسط الغابات من موانئ نهر مجدلينا، حيث لا وجود لبريد ولا تلغراف، وحيث لا يلتقي بأحد ينقل له شيئاً عن مدينة الضياع هذه. لم يمنحه العم عملاً احتراماً لزوج اخيه، التي لم تكن تحتل مجرد وجود البندوق، لكنه حصل له على وظيفة عامل تلغراف في فيسا دي ليفيا، مدينة الاحلام الواقعة على بعد أكثر من عشرين مرحلة، والتي ترتفع حوالي ثلاثة آلاف متر فوق مستوى شارع لاس فينتاناس.

لم يعِ فلورينتينا اريشا أبداً تلك الرحلة العلاجية. وسيتذكرها دوماً مثل كل ماحدث له في تلك الفترة، من خلال زجاج محنته المغيش. عندما استلم برقية التعيين في المنصب لم يفكر باخذها على محمل الجد، لكن لوتاريو توغوت أقنعه بحجج ألمانية ان مستقبلاً باهراً ينتظره في

الادارة العامة . وقال له : « ان التلغراف مهنة المستقبل » . واهداه زوجاً من القفازات الملساء ومعطفاً ذا ياقة من الفرو مجرباً في شهور كانون الجليدية في بافيرا . واهداه العم ليون الثاني عشر بدلتين وجزمة واقية من المطر كانت لشقيقه الاكبر ، وقدم له بطاقة الرحلة مع قمرة في السفينة التالية . قيفت ترانسييتواريتا الملابس على مقياس ولدها ، الذي كان أقل بدانة من أبيه وأقصر بكثير من الألماني ، واشترت له جوارب صوفية وسراويل داخلية طويلة كي لا ينقصه شيء لمواجهة قسوة السهب . وكان فلورينتيناواريتا ، المتصلب من شدة المعاناة ، يساعد في الاعداد للرحلة كما بإمكان ميت أن يساعد في مراسم جنازته . لم يقل لأحد انه ذاهب ، ولم يودع أحداً ، واحتفظ بالكتمان الحديدي الذي لم يكشف فيه لأحد سوى امه سر عاطفته المقهورة ، ولكنه في عشية السفر اقترف حماقة قلبية اخيرة كان يمكنها ان تكلفه حياته . ارتدى في منتصف الليل بدلة الأحد ، وعزف وحيداً تحت شرفة فيرمينا داثا فالس الحب الذي وضعه لها ، والذي لا يعرفه احد سواهما الاثنين ، وكان خلال ثلاث سنوات شعار توافقهما المتناقض - عزفه مدمماً بكلمات الاغنية ، على الكمان الغارق بالدموع ، وبالهام زخم جعل كلاب الشارع تبدأ بالصراخ منذ النفثات الأولى ، ثم تلتها كلاب المدينة بأسرها ، ولكنها أخذت تصمت بعد ذلك شيئاً فشيئاً في افق الموسيقى ، الى ان انتهى الفالس بصمت ما ورائي . لم تُفتح الشرفة ، ولم يطل أحد الى الشارع ، حتى ولا الحارس الليلي الذي يهرع عادة بفانوسه ، محاولاً التحضرز بالاستماع الى فئات موسيقى السيرنادات الليلية . لقد كان ذلك الفصل رقية تفريج عن فلورينتيناواريتا ، لانه ما ان خبا الكمان في علبة وابتعد في الشوارع الميتة دون ان يلتفت إلى الورا ، حتى فقد الشعور بانه سيفادر في صباح اليوم التالي ، وانتابه ماس بانه قد غادر منذ سنوات طويلة وبقرار قاطع ألا يعود أبداً .

كان قد أعيد تعميد السفينة ، وهي واحدة من ثلاث سفن متشابهة لدى شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، باسم مؤسس الشركة : بيوس الخامس لوانيا . كانت عبارة عن بيت عائم من طابقين خشبيين فوق هيكل من الحديد ، عريض ومستو ، وبخاطس حده الأقصى خمسة أقدام يتيح للسفينة التغلب على أعماق النهر المتفاوتة على أحسن وجه . السفن الاقدم كانت بنيت في سينسيناتي في منتصف القرن ، حسب النموذج الخرافي للسفن التي كانت تقوم بالعبور من نهر اوهميو إلى الميسيسيبي ، وكان لها في كل جانب عجلة دفع تتحرك بطاقة مرجل بخاري وقوده الحطب . ومثل هذه كانت سفن شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، ففي الطبقة السفلية ، وعلى مستوى الماء تقريباً ، هناك الآلات البخارية والمطابخ ، والحظائر الكبيرة حيث كان البحارة يعلقون شباك نومهم ، متقاطعة على عدة مستويات . أما الطابق العلوي فكانت مقصورة القيادة وقمرات القبطان وضباطه ، وصالة اللهو وصالة الطعام ، حيث كان يدعى

المسافرون المرموقون مرة واحدة على الاقل للعشاء ولعب الورق. أما في الطبقة الوسطى فكانت توجد ست قمرات من الدرجة الاولى على جانبي ممر يستخدم كصاله طعام عادية، وهناك في المقدمة صالة جلوس مفتوحة فوق النهر، لها شرفة خشبية مزخرفة وأعمدة من الحديد، حيث كان المسافرون العاديون يعلقون شباك نومهم ليلاً وخلافاً للنماذج القديمة، لم تكن لهذه السفن عجلتا دفع على الجانبين، وانما عجلة واحدة في المؤخرة، ذات رياش أفقية تحت مراحيض طبقة المسافرين الخائفة. لم يتكلف فلورينتينو اريثا مشقة استكشاف السفينة فور صعوده إلى متنها، في الساعة السادسة صباحاً من يوم أحد حزيرانى، كما يفعل عادة من يسافرون لأول مرة بدافع الغريزة. وقد وعى الحالة التي هوفها عند الظهيرة فقط، وبينما كانت السفينة تبهر مقابل دسكرة كالامار، حين ذهب للتبول في المؤخرة ورأى من فتحة المرحاض العجلة العملاقة ذات العوارض الخشبية تدور تحت قدمية بقعقة بركانية وزبد وبخار ملتئين.

لم يكن قد سافر أبداً من قبل. كان يحمل صندوقاً من الصفيح فيه ملابس السهب، والروايات المصورة التي كان يشتريها في اجزاء شهرية، وكان يخطبها بنفسه مع اغلفة من الورق المقوى، وكتب أشعار الحب التي يحفظها ويلقيها عن ظهر قلب، والتي توشك ان تتحول إلى رماذ لكثرة ما أعاد قراءتها. كان قد خلف الكيان الذي يرتبط إلى حد بعيد بكنبته، لكن أمه أجبرته على حمل صرة السفر التي تضم عدة نوم شعبية وعملية: وسادة، ودثار، ومبولة من التوتياء، وكلة غرمة للحماية من البرغش، كل هذا ملفوف بحصيرة مربوطة بحبلين لتعليقها كأرجوحة نوم في حالة الطوارئ، لم يكن فلورينتينو اريثا يريد حملها، فقد ظن انها لن تفيده بشيء في قمرة مزودة بأسرة مستوية، ولكن كان عليه ان يشكر لأمه حسن تدبيرها منذ الليلة الأولى. وفعلأ، فقد صعد في اللحظة الاخيرة إلى المركب مسافر يرتدي ملابس بروتوكولية كان قد وصل ذلك الصباح في سفينة قادمة من اوروبا، وكان يرافقه حاكم المقاطعة شخصياً. وهو يريد متابعة الرحلة فوراً مع زوجته وابنته، وكذلك خادمه الذي يرتدي زي الخدم والصناديق السبعة ذات الحواشي المذهبة والتي صعدت بمشقة على السلم. وتمكن القبطان، وهو وارد من كورثاو، من إثارة الشعور الوطني بين الكريوليين لتأمين راحة المسافرين الطاريء. وشرح لفلورينتينو اريثا بمزيج من القشتالية والبايمانتو<sup>(١)</sup> ان الرجل البروتوكولي هو الوزير المفوض الجديد لانكلترا المسافر إلى عاصمة الجمهورية، وذكره بأن تلك المملكة قد قدمت موارد حاسمة لاستقلالنا من الهيمنة

١، لهجة محلية شائعة في كوراساو، وهي مزيج من الاسبانية والهولندية. (م)

الاسبانية، وبناء عليه فان أية تضحية ستكون ضئيلة الشأن في سبيل ان تشعر عائلة رفيعة المقام وهي في بيتنا بانها احسن حالاً من بيتها. وطبعاً تخلى فلوريتينو اريثا عن قمرته.

لم يأسف لذلك في البدء، اذ كان ماء النهر غزيراً في تلك الفترة من السنة، وكانت السفينة تبعد دون عواقب في الليلتين الأوليين. كان افراد طاقم السفينة يوزعون على المسافرين بعد العشاء، في الخامسة مساءً، نوعاً من الاسرة المطوية سطحها من قماش الخيم المتين، وكان كل مسافر يفتح سريره حيث يستطيع، ويجهزه بالحرق التي في صرة سفره ثم ينصب فوقه الكلبة المخرمة. أما الذين يملكون اراجيح نوم فكانوا يعلقونها في الصالون، والذين لا يملكون شيئاً ينامون على موائد صالة الطعام متدثرين بشراشف الطاولات التي لم تستبدل إلا مرتين خلال الرحلة. كان فلوريتينو اريثا يمضي معظم الليل ساهراً متخيلاً انه يسمع صوت فيرمينا دائماً في نسيم النهر البارد، راعياً الوحدة بذكرياته، مستمعاً غناء في لهات السفينة المتقدمة بخطوات حيوان ضخمة في الظلمات، إلى ان تظهر اولى البقع الوردية في الافق وينشق النهار الجديد فجأة على صحارى فسيحة ومستنقعات ضباب. وكانت الرحلة تبدو له حينئذ دليلاً آخر على حكمة أمه، وأحسن بحاسة لتجاوز النسيان.

بعد ثلاثة ايام من المياه المواتية، أصبح الابحار أكثر مشقة بين المصاطب الرملية المفاجئة وتعكر الماء الذي يخفي مدى عمق النهر. أصبح النهر عكراً وصار يضيق أكثر فأكثر وسط غابة عظيمة من الاشجار المتشابكة، حيث كان يظهر من حين لآخر كوخ من القش إلى جانب اكوام الحطب المعدة لمراحل السفن. ويبدو ان لغط البغاوات وصياح القردة اللامرئية كان يفاقم من قبض الظهيرة. أما في الليل، فكان لابد من ربط السفينة للنوم، فيصبح مجرد كون المرء حياً حينئذ أمراً لا يطاق. فاضافة للحرو والبرغش تأتي روائح شرائع اللحم المملح المنشورة على دربزيات السفينة لتجف. فكان معظم المسافرين، وخاصة الاوربيين منهم، يغادرون نائمة القمرات ويقضون الليل وهم يذرعون سطح المركب، وهشون جميع انواع الهوام بنفس المناشف التي يمسحون بها العرق المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بفعل اللسع.

وكان قد اندلع في تلك السنة أيضاً فصل جديد من الحرب الاهلية المتقطعة بين الليبراليين والمحافظين، فانخذل القبطان احتياطات شديدة الصرامة لحفظ النظام الداخلي وأمن المسافرين. وفي محاولة لمنع وقوع الاخطاء والاستفزازات، حظرت ممارسة التسلية المفضلة في رحلات ذلك الزمان، ألا وهي اطلاق النار على التماسيح القابعة تحت الشمس على الضفاف. وفيما بعد، حين انقسم المسافرون إلى فريقين متعادين أثناء احدى المناقشات،

قام بمصادرة أسلحة الجميع وإعداداً بكلمة شرف ان يعيدها عند انتهاء الرحلة . كان صارماً في هذا الامر حتى مع الوزير البريطاني الذي خرج منذ صباح اليوم التالي لبدء الرحلة بملبس الصيد، حاملاً غدارة احتياطية وبنديقة صيد بسبطين من تلك المستخدمة في صيد النمر . ثم أصبحت القيود أكثر تشدداً بعد اجتياز مرفأ تينيريفي ، حيث التقوا بمركب يرفع راية صفراء ، هي علامة الوباء . ولم يحصل القبطان على أية معلومات حول تلك العلامة المرعبة ، لان السفينة الاخرى لم تجب على اشارتهم . لكنهم التقوا في ذلك اليوم بالذات بسفينة اخرى محملة بمواش من جامايكا ، واعلمتهم هذه بان سفينة الراية الوبائية تحمل على متنها مريضين بالكوليرا ، وان الوباء كان يحدث اضراراً وخسائر في مجرى النهر الذي عليهم الابحار فيه ، عندئذ منع المسافرون من مغادرة السفينة ليس في الموانئ التالية فحسب ، بل وفي الاماكن غير المأهولة حيث كانوا يتوقفون للتزود بالخطب . وهكذا اعتاد المسافرون فيما تبقى من الرحلة حتى مرفأ النهاية ، والتي استمرت ستة أيام اخرى ، على عادات السجون . ومن هذه العادات ، المشاهدة الضارة لرزمة من بطاقات الصور الجسدية الهولندية التي كانت تنتقل من يد إلى اخرى دون ان يعلم أحد علم اليقين من أين أتت ، مع أن أي مجرب للسفر في النهر لم يكن ليجهل انها لا تكاد تشكل إلا عينة من مجموعة القبطان الخرافية . ولكن حتى هذه التسلية التي لا امل فيها انتهت إلى مضاعفة السأم .

احتمل فلورينتينو اريثا قسوة الرحلة بصبر معدني كان يحزن أمه ويغيب اصدقاءه . لم يخالط أحداً . وكانت الايام بالنسبة له تمضي سهلة وهو جالس مقابل الدرازين ، يراقب التماسيح الجائمة تحت الشمس على الضفاف بأشداق مفتوحة لاقتناص الفراشات ، ويتأمل قطعان مالك الحزين المفزوعة التي تنطلق فجأة من المستنقعات ، والأطم<sup>(١)</sup> التي ترضع صغارها من اثدائها الامومية الضخمة وتفاجيء المسافرين ببكائها النسوي . وفي أحد الايام رأى ثلاثة أجساد آدمية تطفو في الماء ، كانت منتفخة وخضراء ، وفوق كل منها عدد من طيور الرحمة . مر أولاً جسداً رجلين ، احدهما بلا رأس ، ثم جسد طفلة صغيرة السن راح شعرها المفلت كشعر ميدوزا يتموج متلوياً من اثر تخور السفينة في الماء . لم يعرفوا أبداً ، لانه لا سبيل إلى معرفة ، ان كان هؤلاء من ضحايا الكوليرا أم ضحايا الحرب ، لكن الرائحة اللثة لوثت ذكرى فيرmina دانا في ذاكرته .

هكذا كان دائماً : فأي حدث ، خيراً كان أم شراً ، يذكره بها . في الليل ، حين كانوا

(١) الأطم : جمع أطوم وهو حيوان لبون ، يأوي الى الماء ، مؤخره يشبه السمك ، له بدان وليس له رجلان وطونه حوثاني اقدم . يعرف كذلك بقر الماء .



يربطون السفينة ويتمشى معظم المسافرين دون عزاء على السطح، كان هويراجع عن ظهر قلب تقريباً الرويات المصورة تحت مصباح الكربور في صالة الطعام، وهو المصباح الوحيد الذي يبقى مضاء حتى الصباح. وكانت المآسي التي قرأها مرات ومرات تستعيد سحرها حين يستبدل ابطالها المتخيلين بمعارفه في الحياة الواقعية، ويحتفظ لنفسه ولغيره دائماً بأدوار الحب المستحيل. وفي ليال أخرى كان يكتب لها رسائل مكروية، ما تلبث مقاطعها أن تتبدد في المياه الجارية دون توقف نحوها. وهكذا كانت تمر أقدس الساعات عليه متمصصاً شخصية أمير خجول أوفارس عاشق أحياناً، وملتحمحاً في أحيان أخرى بجلده المكوي كعاشق في رحلة نسيان، إلى ان تهب أولى النسيمات فينصرف الى النوم جلوساً على مقاعد الشرفة توقف عن القراءة في إحدى الليالي أبكر من المعتاد، وكان يتجه ساهياً إلى دورات المياه حين فتحت باباً لدى مروره في صالة الطعام المقفرة، وأمسكت يد صقربكم قميصه وادخلته إلى القمرة. أحس بالكاد بجسد غير محدد السن لامرأة عارية في الظلام، كانت مغطاة بعرق ساخن وتنفسها غير منتظم. دفعته على ظهره فوق السرير، وفكت ابريزم حزامه، وحلت الازرار وامتنطه كفارس، وجردته من عذريته دون أعجاد. سقطا كلاهما منهكين في فراغ هوة بلا قرار لها رائحة مستنقع قريبس. وبقيت جائمة فوقه لهنيهة بعد ذلك وهي تلهت دون هواء، ثم لم يعد لها وجود في الظلام.

قالت له :

- انصرف الآن وانس كل شيء. فهذا لم يحدث أبداً.

كان الهجوم مباغتاً وناجحاً لا يمكن تصنيفه كحياقة مفاجئة مبعثها الضجر، وانما كثمرة خطة محكمة بكل مراحلها وبأدق تفاصيلها. وضاعف هذا البقين الجذاب من تلهف فلورينتينوارشا، الذي أحس وهو في ذروة اللذة باكتشاف لا يمكن تصديقه، بل نه رفض قبوله، وهو ان حب فيرمينا دائماً الخادع يمكن استبداله بعاطفة دنيوية. وهكذا كان أن صمم على كشف هوية مفتضبه الماهرة، فلربما وجد في غريزتها كفهدة علاجاً لمحتته. لكنه لم يتوصل اليها. بل على العكس. فكلمها تعمق في التحري كلما شعر بأنه يتعد عن الحقيقة.

لقد حدث الهجوم في القمرة الأخيرة، لكن هذه القمرة كانت متصلة بالقمرة قبل الأخيرة بباب داخلي، بحيث تصبح القمرتان معاً جناح نوم عائلي فيه أربع اسرة. وهناك كانت تسافر امرأتان شابتان، وأخرى متقدمة في السن إلا انها ذات مظهر حسن، ومعهم طفل عمره بضعة شهور. كن قد التحقن بالرحلة من برانكو دي لوبا، وهو الميناء الذي يعملون فيه بضائع وركاب مدينة مامبوكس مذ أصبحت هذه المدينة على هامش طريق السفن البخارية بسبب

أهواء النهر، وكان فلوريتينو اريثا قد دقق بهن لكونهن يحملن الطفل في قفص عصافير ضخمة.

كن يسافرن بملابس حديثة كتلك التي ترتديها المسافرات في عابرات المحيط الضخمة، ببطانات تحت التنانير الحريرية، وياقات مخرومة وقبعات عريضة الحواف مزينة بزهور كريزولينا، وكانت الشابتان تسبدلان زيتنهما وملابسهما كلها عدة مرات في اليوم، حتى بدا وكأنهما تحملان معهما جوهن الربيعي، بينما المسافرون الآخرون يختنقون في الحر. وثلاثتهن كن يساريات في استخدام المظلات ومراوح الريش. لم يستطع فلوريتينو اريثا ان يحدد حتى نوع العلاقة التي تربطهن، رغم كونهن دون شك من أسرة واحدة. لقد فكر أول الأمر بان الكبرى هي أم الآخرين، لكنه أدرك فيما بعد انها ليست كبيرة في السن بما يكفي لتكون كذلك، ثم انها ترتدي ملابس حداد لا تشاطرها اياه الآخرين. ولم يتصور ان تكون احدهن قد تجرأت على فعل فعلتها فيما زميلتاها نائمتان في السريرين المجاورين، والافتراض الوحيد المعقول هو انها استغلت فرصة عارضة، أو مدبرة، بقيت أثناءها وحيدة في القمرة. وتحقق من اثنتين منهن تخرجان أحياناً للاستمتاع بالبرودة حتى وقت متأخر فيما تبقى الثالثة لرعاية الطفل، لكنهن في إحدى الليالي القاطنة خرجن ثلاثتهن معاً برفقة الطفل النائم في قفص الخيزران المغطى بظلة من نسيج شفاف.

ورغم اختلاط كل هذه المؤشرات، فقد تعجل فلوريتينو اريثا الى استبعاد ان تكون كبرى الثلاث هي منفذة الهجوم، ثم برأ في الحال ساحة الصغرى أيضاً، التي كانت اجهلهم وأجراًهن. فعل ذلك دون مبررات مقنعة، ولأن مجرد رصده المثلث للنساء الثلاث حثه على الاقتناع برغبته الداخلية في ان العاشقة العابرة هي أم الطفل الحبيب في القفص. ولقد فتنه هذا الافتراض إلى الحد الذي جعله يفكر بها أكثر من تفكيره بفيرمينادنا، دون ان يهتم بها كان يبدو واضحاً في ان تلك الأم حديثة الولادة كانت تعيش لابنها فحسب. لم يكن لها من العمر أكثر من خمس وعشرين سنة، وكانت نحيلة ومذهبة، ذات أجفان برتغالية تجعلها أكثر بعداً، وكان لأي رجل ان يكتفي بفتات من حنانها الذي تغدقه على ابنها. فمذ تناول طعام الفطور وحتى ساعة النوم كانت تهتم بشؤونه في الصلاة، فيما زميلتاها الآخرين تلعبان الدمينو الصيني، وحين توفق إلى تنويمه، تعلق القفص من سقفه في أكثر الاماكن برودة على شرفة السفينة. لكنها لم تكن تتخلى عنه حتى بعد ان ينام، وانما تهز القفص مترنمة بأغنيات العرائس، فيما أفكارها تطير مبتعدة عن مصاعب الرحلة. تثبت فلوريتينو اريثا بانها ستكشف نفسها عاجلاً أم آجلاً ولومن خلال ايساء بسيطة. وصار يراقب حتى تبدلات تنفسها من خلال ايقاع القلادة الدينية التي تعلقها فوق بلوزتها القطنية الرقيقة، مدققاً فيها

دون تستر من فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته، وارتكب الوقاحة المدروسة باستيداله مكانه في صالة الطعام ليجلس مقابلها. لكنه لم يحصل على أدنى مؤشريدل على انها هي حقاً من تملك النصف الآخر من سره. والشئ الوحيد الذي بقي له منها، عندما نادتها زميلتها الصغرى، هو اسمها: روسالبا.

في اليوم الثامن أبحرت السفينة بصعوبة باللغة عبر مضيق عكر محصور بين جرفين من صخور رخامية، وبعد الغداء رست في بويرتونا، حيث سينزل المسافرون الذين سيتابعون الرحلة نحو المناطق الداخلية من مقاطعة انتيوكيا، وهي إحدى أكثر المقاطعات تأثراً بالحرب الأهلية الجديدة. كان الميناء مؤلفاً من نصف دزينة من أكواخ السعف وحانة خشبية سقفها من التوتياء، تحرسه عدة دوريات من الجنود الحفاة وسيئي التسليح، إذ كانت لديهم معلومات عن خطة أعددها المتمردون للسطو على السفن. وفيها وراء البيوت ترتفع نحو السماء قمم مجموعة وعرة من الجبال عليها طريق ضيق له شكل حدوة الفرس منحوت على حافة الهاوية. لم ينم أحد من على ظهر المركب نوماً مطمئناً، لكن الهجوم المتظر لم يحدث اثناء الليل، واستيقظ الميناء متحولاً إلى مهرجان أحدي، حيث الهنود الذين يبيعون تماثيل مصنوعة من عاج نباتي واكاسير للحب، ووسائط للفواغل المتأهبة للانطلاق في صعود يستمر ستة أيام عبر غابات السحليبات في سلسلة الجبال المركزية.

كان فلوريتينو ارشيا قد سها وهو يتأمل عملية تفريغ السفينة على كواهل الزنوج، رأى انزال صناديق الخرف الصيني، وآلات البيانو التي تباع لعازيات افغادو، ولم يدرك إلا متأخراً ان جماعة روسالبا هي بين المسافرين الذين سيقفون على البر. لقد رآهن يمتطين البهائم من جانب واحد، منتعلات جزمات امازونية وحاملات مظلات ذات ألوان مدارية، وعندئذ خطا الخطوة التي لم يتجرأ عليها في الايام الماضية: حيا روسالبا بيده مودعاً، فردت عليه النساء الثلاث بطريقة واحدة، وبألغة أملت أحشاءه لجسارته المتأخرة. رآهن يقمن بالالتفاف حول الحانة، تتبعهن البغال المحملة بالصناديق، وعلب القبعات وقفص الطفل، ثم رآهن بعد قليل يتسلقن حافة الجرف الجبلي وكأنهن صف من النمل البغلية، واختفين من حياته. حينئذ أحس انه وحيد في الدنيا، وجاءته الضربة القاضية من ذكرى فيرمينا دانا، التي بقيت كامنة خلال الايام الاخيرة.

كان يعلم انها ستزوج يوم السبت القادم، في حفلة زفاف صاخبة، وكونه أحبها، وسيحبها إلى الأبد أكثر من أي كان، لا يمنحه الحق حتى بالموت من أجلها. والحسد الذي كان يفرقه حتى ذلك الحين بالدموع، أصبح سيد روجه. فأخذ يدعو الله ان ينزل صاعقة العدالة الالهية لتصعق فيرمينا دانا حين تهم بقسم يمين الحب والولاء لرجل لا يريد لها زوجة

له إلا لتكون حلية اجتماعية . وكان يستغرق في رؤيا العروس، عروسه هو أو عروسة لا أحد، ملقاة فوق بلاط الكتدرائية فيما ازهار البرتقال تهطل كالثلج مبلله بندى الموت، وتموج طرحتها الزبدي فوق المرمر الجناثري الذي يضم أربعة عشر مطراناً مدفونين مقابل المذبح الكبير . ولكن ما ان ينتهي الانتقال، حتى يندم لأفكاره الشريرة، وعندها يرى فيرمينا دانا وهي تنهض معافاة، لسواه ولكن حية، لانه غير قادر على تصور الدنيا بدونها . لم يعد ينام، وإذا كان يلتقط بضع لقيمات أحياناً فأنها يفعل ذلك لتومه بان فيرمينا دانا قد تكون معه على المائدة، أو كي لا يمنحها شرف الصوم من أجلها . وكان يعزي نفسه في بعض الأحيان بالاعتناع انه لا بد لفيرمينا دانا في نشوة حفلة الزفاف، أو في ليالي شهر العسل المحمومة، من ان تعاني ولو للحظة، لحظة واحدة على الأقل، لحظة على أي حال، حين ترفع إلى وعيها شيخ الخطيب المخدوع، المهان، المبصوق، فتنهار سعادتها .

عشية الوصول إلى ميناء كاراكولي، وهو المحطة النهائية للرحلة، أقام القبطان حفل السوداع التقليدي، بمشاركة اوركسترا آلات نفخية مؤلفة من طاقم السفينة، وباطلاق ألعاب نارية من مقصورة القيادة . كان وزير بريطانيا العظمى قد اجتاز الأوديسه بصبر نموذجي، متصيداً بألة التصوير الحيوانات التي لم يتحوا له قتلها ببندقية الصيد، ولم تكن تمر ليلة دون ان يظهر في صالة الطعام بملابس الاينكيت . لكنه خرج إلى الحفلة النهائية بزي ماك تافيتش الاسكتلندي، وعزف القرب بمرح، وعلم كل من رغب رقصاته الوطنية، وقبل الفجر اضطروا لنقله محمولاً إلى قمرته . أما فلوريينوارينا الذي أضناه الألم، فقد اتخذ ركناً منعزلاً على سطح السفينة حيث لا تصله أخبار الحفلة، وغطى نفسه بمعطف لوتاريوتوغوت محاولاً مقاومة قشعريرة عظامه . كان قد استيقظ في الخامسة صباحاً، كما يستيقظ المحكوم بالاعدام صباح يوم تنفيذ الحكم . ولم يكن قد فعل شيئاً طوال يوم السبت سوى تخيل كل طقس من طقوس زفاف فيرمينا دانا لحظة بلحظة . وفيما بعد، عند عودته إلى البيت، ادرك انه كان قد أخطأ في التوقيت وان كل شيء حدث بطريقة مختلفة عما تصوره، وقد كان يتمتع بمزاج طيب جعله يضحك من اوهامه .

لكنه كان على أي حال يوم السبت عاطفي انتهى بنوبة جديدة من الحمى، عندما هيء له بانها اللحظة التي يحاول فيها العريس ان الهرب خفية من حفلة الزفاف ليستسلما إلى لذاثذ الليلة الأولى . وقد رآه احدهم وهو يرتعش من الحمى وأنذر القبطان بذلك، فغادر هذا الحفلة مع طبيب السفينة خشية ان تكون اصابة الكوليرا، وبعثه الطبيب اجتياطاً إلى قمرة الحجر الصحي بعد اعطائه جرعة لا بأس بها من البرومور . وعندما بانث لهم اتوار كاراكولي

في اليوم التالي، كانت الحمى قد تراجعت وكان يتمتع بمعنويات عالية، لانه في خود المسكنات قرر فجأة ودون أية اجراءات اخرى بانه سيبحث بمستقبل التلغراف الباهر إلى الجحيم وسيرجع على السفينة نفسها إلى شارع القديم، شارع لاس فينتاناس.

ولم يجد صعوبة في حملهم على اعادته معهم مقابل القمرة التي تنازل عنها الممثل الملكة فكتوريا. رغم ان القبطان حاول ثنيه عن عزمه أيضاً بحجج مفادها ان التلغراف هو علم المستقبل. وقال له ان الامر كذلك لدرجة انهم يعملون لاختراع جهاز خاص لتركيبه في السفن. لكنه فند كل حجة، وانتهى القبطان إلى القبول باعادته معه، ليس كرددين القمر، وانما لانه كان يعرف حقيقة علاقته بشركة الكاريبي للملاحة النهرية.

تمت رحلة النزول في أقل من ستة أيام، أحسن فلورينتينواريثا بعدما انه في بيته ثانية منذ دخولهم فجراً في بحيرة لاس ميرثيديس، ورؤيته أضواء زوارق الصيد المتناثرة وهي تتلوى مع تيار السفينة. كان الوقت ما يزال ليلاً عندما رسوا في خليج نينيوبريدو، وهو آخر مرفأ للسفن البخارية النهرية، على بعد تسع فراسخ من البحر، قبل ان يجرفوا قاع النهر ويعيدوا وضع الممر الاسباني القديم موضع الاستخدام. وكان على المسافرين الانتظار حتى الساعة السادسة صباحاً ليركبوا مجموعة من زوارق الاجرة الصغيرة التي تحملهم إلى هدفهم النهائي. لكن فلورينتينواريثا كان متشوقاً بما دفعه للذهاب قبل ذلك بكثير في مركب البريد، الذي تعرف عليه موظفوه كواحد من جماعتهم. وقبل ان يغادر السفينة سمح لنفسه بالانقياد وراء اغراء حركة رمزية: ألقى بصرة السفر إلى الماء، ولاحقها ببصره ما بين زوارق الصيادين اللامرئية، إلى ان خرجت من البحيرة وضاعت في المحيط. كان متأكداً انه لن يحتاجها بقية حياته مطلقاً، لانه لن يغادر مدينة فيرمينا دانا إلى الأبد.

كان الخليج حوض ماء راكد عند الفجر. وفوق الضباب الطافي رأى فلورينتينواريثا قبة الكندراتية المذهبة بفعل الانوار الأولى، ورأى بيوت الحمام على السطوح، وفستلأ بها حدد موقع شرفة قصر المركز دي كاسالدويرو، حيث افترض ان امرأة محنته ما زالت تنام مستندة على ذراع الزوج المشيع. وقد مزق هذا الافتراض قلبه، لكنه لم يفعل شيئاً لقهره، بل على العكس تماماً: كان يستمتع بالألم. وحين بدأت الشمس تبعث دفئها، كان مركب البريد يشق طريقه وسط مناهة الزوارق إشراعية الراسية، حيث روائح السوق العام التي لا حصر لها، تختلط بعفونة الاعماق لتخرج بمزيج واحد من النشانة. كانت السفينة القادمة من ريوها تشا قد وصلت لتوها، وجماعة الحمالين الغاطسين في الماء حتى خصورهم يلتفتون المسافرين من جنب السفينة ليحملوهم إلى الشاطئ. وكان فلورينتينواريثا هو أول من قفز من مركب البريد إلى اليابسة، ولم يعد يشعر عندها بتثانة الخليج وانما براحة فيرمينا دانا

الشخصية تفوح في جو المدينة . كل شيء كان يعبق برائحتها .  
لم يعد إلى مكتب التلغراف . وبدا ان همه الوحيد هو كتيبات الحب واجزاء المكتبة الشعبية التي ما زالت أمه تشتريها له ، والتي كان يقرأها ويعيد قراءتها وهو منبطح في ارجوحة النوم الى ان يحفظها في ذاكرته . ولم يسأل عن الكيان مجرد سؤال . واعاد اتصالاته مع اصدقائه المقربين ، وكان يلعب معهم البيليارد أحياناً ويتبادلواياهم الحديث في مقاهي الرصيف تحت قناطر ساحة الكندراية ، لكنه لم يعد للذهاب إلى حفلات الرقص أيام السبت : لم يكن قادراً على تصور حفلات الرقص بدونها .

في صباح يوم عودته من الرحلة التي لم تكتمل ، علم ان فيرمينا دانا ذهبت لقضاء شهر العسل في اوروبا ، فرأى قلبه المنفطر بانها ستبقى لتعيش هناك ، ان لم يكن إلى الأبد ، فلسنوات طويلة . ومنحه هذا اليقين الآمال الأولى بالنسيان . أخذ يفكر بروسالبا التي اصبحت ذكرها تتقد اكثر فأكثر كلما خمدت الذكريات الاخرى . وفي هذه الفترة كان ان ترك شاربته ذا الطرفين المديبين والمتبئين ، والذي لن يحلقة فيها تبقى من حياته ، وتغيرت طريقته في الحياة ، وادخلته فكرة استبدال الحب في دروب غير متوقعة ، أخذت رائحة فيرمينا دانا تصبح أقل حضوراً وزخماً إلى ان بقيت آخر الأمر في رائحة الياسمين الأبيض فقط .

كان بعضي مذهولاً لا يعرف كيف سيتابع حياته ، حين لحأت أرملة ناثاريث إلى بيتهم في احدى لياالي الحرب ، لان قذيفة مدفع أصابت بيتها ، أثناء حصار الجنرال المتمرد ريكاردو غايتان اوييسو . وكانت ترانسيواريثا هي التي التقطت الفرصة بسرعة ، فبعثت الارملة لتنام في حجرة الابن ، بحجة انه لا يوجد مجال في حجرتها ، لكنها في الحقيقة كانت تأمل بان يشفيه حب آخر من الحب الذي ما عاد يتركه يعيش . لم يعد فلورينتينواريثا للممارسة الحب منذ اغتصبته روسالبا في قمرة السفينة ، وبدا له طبيعياً ، في ليلة طواريء ، ان تنام أرملة ناثاريث في السرير وينام هو في ارجوحة النوم . أما هي فكانت قد حسمت الأمر بدلاً منه . وفيها هي جالسة على حافة السرير حيث كان فلورينتينواريثا مستلقياً دون ان يعرف ما عليه عمله ، بدأت تحدشه عن حزنها الذي لا عزاء له على زوجها المتوفى منذ ثلاث سنوات ، واثناء ذلك كانت تنضوعن جسدها وترومي في الهواء ملابس الحداد ، حتى لم يبق عليها ولا خاتم الزواج . خلعت بلوزة الفتاة المزيينة بتطريز مطعم بالخرز ، وألقت بها عبر الغرفة إلى الكرسي في الركن ، وألقت الصديري من فوق كتفها إلى الطرف الآخر من السرير ، وخلعت بسحبة واحدة التنورة السابغة مع التنورة الداخلية ذات الكشكش ، ومشد الساتان ذا الرباط ، وحرابات الحداد الحيرية ، ونثرت كل ذلك على الأرض ، فأضحت العرقة وكأها مفروشة بأخر بقايا الحداد . فعلت ذلك بابتهاج ، وبوقفات محسوبة باتقان ، حتى بدت قذائف مدفعية

القوات المحاصرة، التي كانت تهزركاثر المدنية، وكانها احتفاء بكل حركة من حركاتها. حاول فلوريتينو اريثا مساعدتها على حل مشبك المشد، لكنها سبقته إلى ذلك بحركة بارعة، لأنها تعلمت خلال خمس سنوات من الولاء الزوجي ان تكتفي بنفسها في جميع اجراءات الحب، بما ذلك ديساجاته، دون مساعدة أحد. وأخيراً نزعَت سروالها الداخلي المخرم، حاملة أياه ينزلق من ساقها بحركة سريعة كحركات السباحة، وبقيت في عريها المتقد.

كان عمرها ثمان وعشرين سنة وقد انجبت ثلاث مرات، لكس عريها ما زال يحتفظ بدوار العزباء. ولم يستطع فلوريتينو اريثا ان يتصور أبداً كيف امكن للملابس النوبة ان توارى اندفاع تلك المهرة الجائعة التي عرته وهي مختنقة بحماها، وهو ما لم تستطع عمله مع زوجها حتى لا يظن بها الظنون، وحاولت ان تروي ظمأ صوم حناتها الصارم دفعة واحدة، ببلاهة وبراءة خمس سنوات من الولاء الزوجي. فقبل هذه الليلة، ومنذ ساعة الرحمة التي ولدتها فيها أمها، لم تنم ولو مجرد نوم في سرير واحد مع أي رجل سوى زوجها المتوفى.

لم تتح لتأنيب الضمير بان ينغص عليها. ففيها كرات اللهب تدوي فوق سطوح البيوت، استمرت تلهج حتى الصباح بفصائل زوجها، دون ان تلومه على أية حيانة سوى موته من دونها، وخلصت إلى اليقين بأنه لم يكن يوماً لها كما كان حينئذ، في صندوق حشبي مسمر باثني عشر مسماراً طول كل منها ثلاث بوصات، وتحت ثلاثة امتار من التراب.

قالت :

- انني سعيدة. فقد علمت الآن علم اليقين أين كان بعضي عند خروجه من البيت. لقد نزعَت الحداد في تلك الليلة دفعة واحدة، دون المرور بمرحلة الاسرخاء في البلوزات ذات الازهار الرمادية، وامتلات حياتها باغنيات الحب والملابس المثيرة المزينة برسوم ببعاوات وفراشات ملونة، وبدأت توزع جسدها على كل من يشاء طلبه. وبعد هزيمة قوات الجنرال غايتان اوييسو، اثر حصار دام ثلاثة وسبعين يوماً، أعادت بناء البيت المثقوب بقذيفة مدفع، وجعلت له مصطبة بديعة تطل على البحر فوق حائل للامواج حيث يصطدم عصب الأمواج في الايام العاصفة. وكان هذا هو عرش حبها، كما كانت تدعوه دون تهكم، وحيث كانت تستقبل من يناسب مزاجها من الرجال، حين تشاء وكيفما تشاء، دون ان تتفاضى قرشاً واحداً من أي منهم، لأنها كانت ترى ان الرجال هم الذين يسدون لها المعروف. وفي حالات نادرة قبلت بعض الهدايا، شريطة ألا تكون من الذهب. وكانت تدبر أمورها بمهارة لم يستطع أحد معها اثبات حقيقة سلوكها الشائن بادلة قاطعة. وفي مرة واحدة وصلت إلى حافة الفضيحة العلنية، عندما راجت شائعة تقول ان الاسقف دانتي دي لونا لم يمت خطأ بحادثة أكل طبق الفطر السام، وإنما أكله وهو عارف، لأنها هدته بذبح نفسها ان هو أصر على محاصرتها بنواياه

الدنسة لم يسألها أحد ان كان ذلك صحيحاً، ولم تتحدث هي عنه، ولم يبدل أي شيء من حياتها. وكانت تقول منفجرة بالضحك بانها المرأة الوحيدة الحرة في المقاطعة.

لم تتخلف أرملة ناثاريت يوماً عن مواعيد فلورينتينواريشا العرضية، ولا حتى في أكثر أوقاتها انشغالاً، وكانت تقابله دائماً دون الادعاء بانها تحبه ودون مطالبتة بان يجيها، ولكن على أمل العثور على شيء يشبه الحب، انما دون مشاكل الحب. وفي بعض الأحيان كان هو الذي يذهب إلى بيتها، وعندئذ كانا يفضلان البقاء على المصطبة المطلة على البحر للابتلال بزبد ملح البارود، وتأمل شروق الدنيا كلها في الافق. وقد وضع كل جهده لتعليمها اساليب التهيج التي كان قد رأى آخرين يمارسونها من خلال ثقوب فندق العابرين، وكذلك المعادلات النظرية التي كان يدعو لها لوتاريوتوعوت في ليالي مرحهما. حدثها للموافقة على ان يريا بعضهما اثناء ممارستها الحب، وعلى استبدال وضعية المشعر المعروفة بوضعية الدراجة البحرية، أو الفروج المشوي، أو الملاك المعلق، وكادا ان يوديا بحياتيهما عندما انقطعت بهما حبال تعليق ارجوحة النوم وهما يحاولان ابتكار وضعية جديدة في الارجوحة. ولكنها كانت دروساً عقيمة. فالحقيقة انها كانت طالبة جسورة، لكنها تفتقر إلى ادنى موهبة في الزنى الموجه. لم تفهم أبداً مفاتيح الصماء في السرير. ولم تكن لها لحظة الهام، بل كانت تهيئها الخنسية جلدية خارجية تأتي في غير اوانها: ياله من جماع كتيب. وقد عاش فلورينتينواريشا زمناً طويلاً وهو مخدوع بانه الوحيد، وكانت تشارك في بشه هذا الاعتقاد، إلى ان جعلها سوء الطالع تتكلم وهي نائمة. وشيئاً فشيئاً، أخذ يستجمع وهو يسمعها اثناء نومها، اجزاء تصريح ابحار أحلامها، وتوغل ما بين جزر حياتها السرية المتعددة. وهكذا علم انها لا تسعى إلى الزواج منه، ولكنها تشعر بانها مربوطة إلى حياته برابطة العرفان بالجميل الكبير لانه هو الذي افسدها. وقد قالت ذلك كثيراً:

- انني اعبدك لانك جعلتني قجبة.

ولم تكن تنقصها المبررات لذلك. فقد جردها فلورينتينواريشا من عذرية زواج عادي، هي أشد وبالاً من العذرية الخلقية ومن زهد الترميل. وعلمها انه لا شيء مما يمارس في السرير هولا أخلاقي ما دام يساهم في استمرار الحب. وعلمها شيئاً آخر سيكون منذ ذلك الحين هو مرور وجودها: اقنعها ان الانسان يأتي الى الحياة بعدد محدد من الضروب، وان تلك التي لا تستنفد، لسبب ذاتي أو خارجي، ارادي أو جبري، تضيع إلى الابد. وكانت فضيلتها هي فهم ذلك وتطبيقه بحذافيره. ومع ذلك، فان فلورينتينواريشا، الذي يظن بانه يعرفها أكثر من أي كان، لم يستطع ان يفهم كيف تكون مرغوبة إلى هذا الحد، امرأة ذات أساليب



شديدة الصيبانية، اضافة إلى انها لا تتوقف عن الحديث في السرير عن كآبتها على زوجها الميت. والتفسير الوحيد الذي خطر له، ولم يستطع أحد نقضه، هو ان أرملة ناثرث كانت تعوض برقتها الفائضة ما ينقصها من الفنون الميدانية. أصبحا يلتقيان أقل فيما هي توسع من نطاق ممتلكاتها، ويتفحص هو ممتلكاته عساه يجد مهدئاً لآلامه القديمة في قلوب مبددة اخرى، ثم نسيا بعضهما في نهاية الأمر دون آلام.

كان ذلك هو أول حب سريري لفلوريتينو اريشا. ولكنه بدلاً من أن يقيم معها اتحاداً مستقراً، كما كانت تحلم أمه، استغله كلاهما للانطلاق في الحياة. فقد طور فلوريتينو اريشا أساليب بدت بعيدة عن التصديق، بالنسبة لرجل صموت وضامر مثله، متسربل بملابس كملابس شبح من زمن آخر. ومع ذلك، كانت هناك نقطتان لصالحه. احداهما هي عينه الصائبة في التعرف فوراً على المرأة التي تنظره، حتى ولو كانت وسط حشد من الناس، ولكنه حتى في هذه الحالة كان يغازلها بتحفظ، لانه كان يشعر انه لا شيء يسبب العار والذل اكثر من الصد. والنقطة الثانية هي انهن كن يميزنه فوراً كمتوحد بحاجة إلى الحب، وكمعوز من الشارع بذل كلب مضروب يقدم خدماته دون شروط، وبلا أية مطالب، ودون انتظار شيء آخر منه سوى راحة الصمير في اسداء المعروف اليه. وكان هذان هما سلاحاه الوحيدان، وبهما خاض معارك تاريخية، لكن في سرية مطلقة، وسجلها بصرامة مدون عقود في دفتر مُشفر؛ من النوع الذي يعرفه الكثيرون بعنوان ينم عن كل شيء: هن. وأول سجل في دفتره كان سجل الأرملة ناثرث. وبعد خمسين سنة من ذلك، وعندما تحررت فرميننا داثا من حكمها القدسي، كان لديه خمسة وعشرون دفترًا تضم ستائة وعشرين سجلاً لغراميات مستمرة، عدا المغامرات العابرة التي لا تحصى والتي لا تستحق ولو مجرد ملاحظة احسان صغيرة.

وبعد ستة شهور من الغراميات الخارقة للمألوف مع أرملة ناثرث، اقنع فلوريتينو اريشا نفسه بانه قد اجتاز عذاب فرميننا داثا. ولم يعتقد بذلك فحسب بل انه طرحه عدة مرات مع ترانسيوتو اريشا خلال السنتين اللتين دامتتهما رحلة الزواج، وتابع الايمان به بشعور من التحرر اللامحدود، إلى ان رآها فجأة ودون ايماء سابق من قلبه، في يوم أحد من أيام نجمة المنحوس، وهي خارجة من القداس ممسكة بذراع زوجها ومحاطة بفضول ورياء وسطها الحديد. فالسيدات النبيلات اللواتي كن يحتقرنها أول الأمر وسخرن من كونها دخيلة بلا لقب، رحن يتهاقن لتشعر بانها واحدة منهن، فيما تسكرهن هي بسحرها. لقد تسنمت وضعها كزوجة دنيوية بجدارة جعلت فلوريتينو اريشا يحتاج للحظة من التفكير للتعرف اليها. كانت امرأة اخرى: رصانة الشخصية الكبيرة، الحذاء العالي، القبعة الرقيقة المزينة

بريشة طائر شرقي ملونة كل ما فيها كان مختلفاً وبسيطاً، كما لو كان فيها منذ نشأتها . وجدها اكثر جمالاً وشباباً من أي وقت مضى ، ولكنها أبعد من أن تكون له اكثر من أي وقت مضى ، ولم يدرك سبب ذلك إلى ان رأى انتفاخ بطنها تحت الفستان الحريري الفضفاض : لقد كانت حاملاً في شهرها السادس ، لكن اكثر ما اثار فيه هو أنها تشكلت مع زوجها ثنائياً محترماً ، وانها يتصرفان بالدنيا بسبولة تجعلها يبدوان وكأنهما يطفوان فوق صحور الواقع . لم يشعر فلورينتينو اريشا بالحسد ولا الغضب ، وانما باحتقار شديد لنفسه . أحس بأنه بائس ، وقبيح ، ووضع ، وانه ليس غير جدير بها فقط ، بل وبأية امرأة أخرى فوق وجه الارض .

لقد عادت اذن . عادت دون اي سبب لتندم على الانقلاب الذي احدثته في حياته . ولكن على العكس : كان جزعه يتناقص ، خصوصاً بعد ان اجتاز السنوات الأولى . أما بالنسبة لها فالأمر اكثر من ذلك ، هي التي وصلت إلى ليلة الزفاف بغشاوة براءة ، كانت قد بدأت تفقدها خلال الرحلة في مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا . ففي فايدوبات فهمت اخيراً لماذا يطوف الديك حول الدجاجات ، وشاهدت طقوس الحمير الهيمية ، ورأت ولادة العجول ، وسمعت بنات الخال يتحدثن بطبيعية عن أزواج من العائلة ما زالوا يمارسون الحب ، وعن سبب وكيف توقف آخرون عن ممارسته رغم استمرارهم في العيش معاً . وكان حينئذ ان بدأت ممارسة الحب منفردة ، يراودها احساس غريب بانها تكتشف شيئاً كانت غرائزها تعرفه منذ الأزل ، فعلت ذلك في السرير أولاً ، وهي تكتم انفسها كي لا تفصح نفسها في حجرة النوم التي تنقسمها مع نصف دزينة من بنات الخؤولة ، ثم بعد ذلك بيديها الاثنتين وهي منبطحة على ارضية الحمام دون هم ، بينما شعرها مفلت وهي تدخن سجائرهما الأولى . لقد كانت تفعل ذلك دائماً مع بعض شكوك الضمير التي لم تتجاوزها إلا بعد زواجها ، وكان تفعله بسرية مطلقة ، بينما بنات خؤولتها يتفاخرن فيما بينهن ليس في عدد المرات يومياً فحسب ، بل وبشكل وحجم اعضاءهن أيضاً . ومع ذلك ، ورغم سحر تلك الطقوس الأولى ، فقد استمرت على اعتقادها بان فقدان العذرية هو توضحية دموية .

حتى ان حفلة زفافها ، وهي واحدة من أضخم حفلات اواخر القرن الماضي ، جرت بالنسبة لها على أعتاب الرعب . وقد اثار فيها كرب شهر العسل اكثر بكثير من الفضيحة الاجتماعية لزواجها من وجيه لاثاني له في تلك السنوات . فمنذ الاعلان عن الرفاف في القداس الكبير في الكندراية ، عادت فيرمينا دائماً تتلقى رسائل مغفلة التوقيع ، بعضها يتوعدها بالموت ، لكنها لم تكن لتشعر بها ، حيث كان كل الخوف الذي بداخلها مشغول بعملية الاغتصاب الوشيكية . لقد كانت تلك هي الطريقة الصحيحة - رغم انها لم تفعل ذلك عن وعي - في معاملة الرسائل المغفلة من أبناء طبقة عودتها سحرية التاريخ على احناء رأسها

أمام الوقائع الناجزة. وهكذا بدأ تحول جميع من كانوا ضدها للوقوف إلى جانبها كلما أصبح الزفاف أمراً لا رجعة فيه. وقد لاحظت هي ذلك في التبدل التدريجي لمواكب النساء الزرق المتوددات، اللواتي انزلن التهاب المفاصل والحقد من مقامهن، واللواتي اقتنعت يوماً بعدم جدوى مكائدهن، فظهرن دون سابق انذار في حديقة البشارة، وكأنهن في بيتهن، محملات بوصفات للمطبخ ويهدايا العرافة. كانت ترانسيتواريثا تعرف ذلك العالم، رغم انها عانت منه بنفسها هذه المرة فقط، وكانت تعلم ان زبوناتا سيأتينها في الايام السابقة للاحتفالات الكبرى ليطلبن منها اخراج جوارها المدفونة واعارتهن مجوهراتهن المرهونة، لمدة أربع وعشرين ساعة فقط مقابل دفع فائدة اضافية. ولم يحدث منذ زمن بعيد كما حدث هذه المرة، اذ فرغت الجرار كيميا تخرج السيدات ذوات الألقاب الطويلة من هياكلهن المظلمة ويظهرن مشعات، بمجوهراتهن الخاصة المستعارة، في حفلة زفاف لن يتاح لن رؤية حفلة عظمتها في ما تبقى من القرن، والتي كان مجدها الأخير هو ان عرابها كان الدكتور رافائيل نونيث، رئيس الجمهورية لثلاث مرات، الفيلسوف والشاعر وواضع كلمات النشيد الوطني، كما جاء في بعض المعاجم الحديثة حيثُذ. وصلت فيرمينا دائماً إلى المذبح الكبير في الكندراتية ممسكة بذراع ابنيها، الذي منحه بدلة الاتيكيت مظهراً خاطئاً من الوقار لمدة يوم واحد. وتزوجت إلى الأبد مقابل مذبح الكندراتية الكبير في صلاة تكليل شارك فيها ثلاثة اساقفة في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم جمعة ترنييداد المقدسة المجيد، ودون أي خاطر من شفقة نحو فلوريتتينواريثا، الذي كان يعاني حينها الحمى، وبميت نفسه من أجلها، في مركب لن يحمله إلى النسيان. وقد احتفظت اثناء المراسم الدينية، ثم اثناء الحفلة فيما بعد، بابتسامة بدت وكأنها مثبتة بالاسبيداج، لمحة بلا روح فسرّها بعضهم بانها ابتسامة الفوز الساخرة، ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى وسيلة بائسة لمدارة خوفها كعدراء تزوجت لتوها.

ولحسن الحظ ان بعض المصادفات، اضافة إلى تفهم الزوج، حلت مسألة لياليها الثلاث الاولى دون ألم. لقد كان أمراً صادراً عن العناية الالهية، ان سفينة الكومباني جنرال ترانساتلانتيك ببرنامج رحلاتها المتقلب روضخاً لطقس الكاريبي السيء، أعلنت قبل ثلاث أيام من الرحلة عن تقديم موعد الانطلاق اربعاً وعشرين ساعة، أي انها لن تبحر إلى روشيل في اليوم التالي للزفاف، وانما في ليلة الزفاف نفسها. لم يصدق أحد أن ذلك التغيير ليس مفاجأة. اخرى من مفاجآت هذا العرس السارة، وقد انتهت الحفلة بعد منتصف الليلة على سطح عابرة المحيطات المضاءة، بمرافقة فرقة اوركسترا من فيينا كانت تدرن في تلك الرحلة أحدث فالتات جوهان ستراوس. وهكذا جرى حمل المراهين المبلين بالشمبانيا قسراً إلى اليابسة بمساعدة زوجاتهم المكدرات، حين بدأوا يسألون النذل ان كانت هناك قمرات

غير محجوزة لمواصلة الحفلة حتى باريس . وقد رأى آخر الذين نزلوا لورينودا أن يجلس على الأرض في عرض الطريق، مقابل الخنازير تبدلة الاتيكيت المتسخة، وهو يتحب بصرخات مولولة، كما يبكي العرب موتاهم، مستريحاً فوق بركة ماء آسن وبها هي بركة دموع

لا في الليلة الأولى ذات البحر الهائج، ولا في الليلة التالية ذات الأبحار الهادئة، ولا في أية ليلة أخرى من ليالي «حياتها الزوجية الطويلة جداً جرت أعمال بربرية من تلك التي كانت فيرمينا دائماً تخافها . فالليلة الأولى، ورغم ضخامة السفينة وفخامة القمرات، كانت إعادة رهيبة للرحلة في سفينة ريوهاششا، وكان زوجها طبيباً خدوماً لم ينم لحظة واحدة وأمضى الليل في مواساتها، وهو الشيء الوحيد الذي يستطيع عمله طبيب بارز لعلاج دوار البحر ولكن العاصفة هدأت في اليوم الثالث، بعد الخروج من ميناء غوايرا، وحتى ذلك الحين كانا قد أمضيا معاً وقتاً طويلاً وتحداً كثيراً حتى أصبحا يشعران بأنها صديقان قديان . وفي الليلة الرابعة، عندما استعاد كل منهما عاداته المألوفة، فوجيء الدكتور أورينوبان زوجته الشابة لا تصلي قبل النوم . وكانت صريحة معه : ان نفاق راهبات المدرسة قد أثار فيها عداوة للمصلوات، لكن إيمانها كان راسخاً، وقد تعلمت الحفاظ عليه بصمت . قالت : «أفضل التفاهم مع الرب مباشرة» . وتفهم هو مبرراتها، ومنذ ذلك الحين مارس كل منهما الدين نفسه على طريقته . لقد كانت فترة خطوبتهما قصيرة، لكنها خارجة عن مألوف تلك الحقبة كثيراً، فالدكتور أورينوبان يزورها في بيتها، دون رقابة، مساء كل يوم . ما كانت لتسمح له بأن يمس طرفاً من أطراف أصابعها قبل المباركة الاسقفية، لكنه لم يحاول ذلك أيضاً . وفي الليلة الأولى من هدوء البحر، وفيما هما ملبسهما في السرير، بدأ أولى مداعباته، وقد فعل ذلك بحذر شديد، حتى بدا لها انه من الطبيعي ان ترتدي قميص نومها . مضت لاستبدال ملابسها في الحمام، ولكنها أطفأت انوار القمرة قبل ذلك، وعندما خرجت بقميص نومها دست خرقاً في شقوق الباب، لتعود إلى السرير في ظلام دامس . وفيما هي تفعل ذلك، قالت بمزاج رائق :

- ماذا تريد يا دكتور . انها المرة الأولى التي أنام فيها مع رجل غريب .

أحس بها الدكتور أورينوبان وهي تنزلت إلى جانبه مثل حيوان صغير مضطرب، محاولة البقاء بعيداً عنه قدر المستطاع في سرير بحري حيث من الصعب وجود اثنين معاً دون ان يمس بعضهما . امسك يدها، الباردة والمتشنجة من الرعب، وشبك الأصابع، وبدأ يروي لها بصوت هامس ذكرياته عن رحلات أخرى في البحر . كانت متوترة من جديد، لانها عندما رجعت إلى السرير انتهت إلى انه قد تعرى تماماً اثناء وجودها في الحمام، وهذا أحيأ خوفها

من الخطوة التالية . لكن الخطوة التالية تأخرت عدة ساعات ، فقد تابع الدكتور اوربينو الحديث بتمهل شديد ، فيها هو أخذ بنيل ثقة جسدها ميليمتراً بعد ميليمتر . حدثها عن باريس ، عن الحب في باريس ، عن عشاق باريس الذين يتبادلون القبلات في الشارع ، وفي الامنيوسوس ، وعلى مقاهي الارصفة البديعة المفتوحة على لفحات النار وعلى اوكورديونات الصيف الخافتة ، ويمارسون الحب وقوفاً على ضفاف السين دون أن يزعجهم أحد . وفيها هو يتحدث في العتمة ، داعب انحناء عنقه برؤوس أصابعه ، وداعب زغب ذراعها الحريري ، وبطنها المراوغ ، وعندما أحس أن التوتر قد تراجع قام بمحاولة الأولى لرفع قميص نومها ، لكنها أوقفته بحركة تقليدية من حركاتها . وقالت : « أستطيع عمل ذلك وحدي » . نزعته عنها فعلاً ، ثم بقيت ساكنة ، بحيث كان بإمكان الدكتور اوربينو أن يعتقد بأنها ليست هناك ، لولا بريق جسدها في الظلام .

عاد بعد هنيهة للمساك بيدها ، فأحسها حينئذ دافئة ومتحررة ، لكنها ما تزال رطبة بندى طازج . بقيا لحظة أخرى صامتين وساكنين ، هويتحين الفرصة للخطوة التالية ، وهي تنتظر تلك الخطوة دون أن تدري من أين ستأتيها ، فيها الظلام يتسع مع ازدياد حدة تنفسها . أفلتها فجأة وقام بالقفزة في الفراغ : بلل طرف أصبعه الوسطي بلسانه ولمس لمساً خفيفاً حلمة نهدا الغافل ، فأحسّت بشحنة موت ، كما لو لمس فيها عصباً حياً . وفرحت لكونها في الظلام حتى لا يرى تورد وجنتها الحارق الذي هزها حتى أعماق حجمتها . وقال لها بهدوء : « اهدئي . ولا تنسي انني أعرفها » . أحس بها تتبسم ، وكان صوتها عذباً وجديداً حين قالت في العتمة :  
- أذكر ذلك جيداً ، وحتى الآن لم يبارحني الغيظ .

عرف حينئذ بأنها قد اجتازا رأس الرجاء الصالح ، فعاد يمسك بيدها الكبيرة اللدنة ، وغمرها بقبولات يتيمة ، بدأ بمشط اليد الغليظ ، فالأصابع الطويلة المتبصرة ، والأظافر الشفافة ، ثم خطوط حظها المتشابكة في الكف المتعرق . ولم تعرف كيف وصلت يدها إلى صدره ، واصطدمت بشيء لم تستطع تحديده . فقال لها : « إنها تعويذة » . داعبت شعر صدره ، ثم أمسكت اجمة الشعر كلها بأصابعها الخمس لتنتزعها من جذورها . « بقوة أكبر » ، قال لها . حاولت ، إلى الحد الذي عرفت أنها لا تؤذيه ، ثم كانت يدها هي التي بحثت عن يده النائية في الظلام . لكنه لم يمكنها من شبك أصابعها بأصابعه وأنها أمسكها من معصمها وقاد يدها على جسده بقوة لا مرئية ولكنها متقنة التوجيه ، الى أن أحسنت بلفحة ملتفة من حيوان متقد ، بلا شكل مادي محدد ، لكنه متلهف ومنتصب ، وعلى العكس مما تصوره ، بل وعلى العكس مما كانت هي نفسها ستتصوره ، لم تسحب يدها ، ولم تتركها ساكنة حيث وضعها ، وإنما سلمت نفسها جسداً وروحاً للعذراء المقدسة ، وضغطت اسنانها خشية ان تضحك من

جنونها، وبدأت تتعرف باللمس على عدوها المشبوب، متعرفة على حجمه، وقوة رأسه، وامتداد اجنحته، مرتعبة من تصميمه لكنها مشفقة على عزلته، وممسكة به بفضول متقص شكل لو أن أحداً أقل خبرة من زوجها لظن انها مداعبات. استعان بآخر قواه لمقاومة دوار هذه المباراة القاتلة، إلى ان أفلتته بظرافة طفولية، وكأنها تلقي به إلى الرابطة، وقالت :

- لم أفهم أبداً كيف هو هذا الجهاز.

عندئذ شرح لها كل شيء بجدية وبأسلوبه كاستاذ، فيها هو يقود يدها على المواضع التي يذكرها، وهي تساقده بطاعة تلميذة مثالية. ولمح في لحظة مواتية إلى ان كل ذلك سيكون أسهل لو ان الضوء سار، ولكنها أوقمت ذراعه قائلة : «بيدي أرى أفضل». الحقيقة انها كانت تريد اشعال النور، لكنها تريد عمل ذلك بنفسها دون أن يأمرها أحد، وهذا ما فعلته. عندئذ رآها في وضع جنبي، مغطاة بالشرشف، تحت الضوء المفاجيء لكنه رآها وهي تعود لتمسك بحيوان الفضول دون تكلف، وتقلبه ظهراً وباطناً، وتتفحصه باهتمام أخذ يبدو اهتماماً غير علمي، وقالت مستنتجة : «يا لقباحته، انه أقبح منظرأ مما للنساء» كان متفقاً معها في الرأي، وأشار إلى نقائص اخرى اكثر اهمية من القبح. قال : «انه كمثل الابن الاكبر، يقضي المرء حياته وهو يعمل من أجله مضحياً بكل شيء في سبيله، وعندما تحين ساعة الجد يتصرف كما يحلوه». تابعت تفحصه، والسؤال عما يفيد هذا، وما فائدة ذلك، وعندما رأت انها حصلت على المعلومات الكافية رازته بيديها الاثنتين، لتتأكد من ان وزنه كذلك لا يستحق الذكر، ثم افلتته باعوجاجة ازدراء، وقالت :

- وأرى كذلك ان فيه أشياء كثيرة لا حاجة لها.

توقف حائراً. فالفكرة الاساسية في موضوع تخرجه هي هذه :

استحسان تبسيط الجهاز البشري. اذ كان جسم الانسان يدوله طرازاً قديماً، ذا وظائف كثيرة مكرورة أو لا فائدة منها، كانت لازمة في عصور اخرى للجنس البشري، ولكن ليس لعصرنا. أجل: يمكن ان يكون أبسط وأقل تعرضاً للعطب أيضاً. واختتم قائلاً : «هذا شيء لا يستطيعه إلا الله بالطبع، ولكن لا بأس من اقراره بشكل نظري». ضحكت سعيدة، بطريقة طبيعية جداً، فانتهاز الفرصة لاحتضانها وقلها القبله الأولى من فمها. فردت عليه بقبله مائلة، وتابعت قبلاته الخفيفة على الوجنتين، والأنف، والجفون، فيها يده تنزلق تحت الشرشف، وداعب عانتها المستديرة والسبطة: كعانة يابانية. لم تبعد يده، لكنها احتفظت بيدها في حالة تاهب خوفاً من تقدمه خطوة اخرى.

قالت :

- لن نستمر في درس الطب.

فقال :

- لا . الدرس الآن سيكون في الحب .

عندئذ نزع الشرشف من فوقها، فلم تكتف هي بعدم الاعتراض، بل قذفت الشرشف عن السرير بضربة من قدميها، لأنها لم تعد تحتل الحر. كان جسدها ملتوياً ومراً، وأكثر جدية مما يبدو عليه وهي بملابسها، تنبعث منه رائحة حيوان بري يمكن تمييزها بين جميع نساء الدنيا. وفيها هي عزلاء تحت الضوء، صعدت دفقة دم يغلي إلى وجهها، ولم يخطر لها لاختفاء ذلك سوى التعلق بعنق زوجها، وتقيله بعمق وقوة إلى أن استغدا في القبلة كل الهواء الذي تنفساه .

كان واعياً أنه لا يجبها. لقد تزوج منها لاجبابه بشموخها وجديتها وقوتها، وكذلك لشيء من كبريائه، لكنه وفيما هي تقبله للمرة الأولى تأكد من أنه لن يجد أي عائق لاختراع حب جيد. لم يتحدثا بذلك في هذه الليلة الأولى التي تحدثا فيها بكل شيء حتى الفجر، ولن يتحدثا في ذلك أبداً. ولكن أيا منهما لم يخطيء على المدى البعيد.

عند الفجر، حين ناما، كانت ما تزال عذراء، لكنها لن تبقى كذلك طويلاً. وفعلاً، فبعد أن علمها، في الليلة التالية، رقص فالدسات فيينا تحت سماء الكاربيبي النجمية، كان عليه أن يذهب إلى الحمام بعدها، وعندما رجع إلى القمرة وجدها تنتظره عارية في السرير. وكانت هي حينئذ من اتخذ المبادرة، فاستسلمت له دون خوف، ودون ألم، وبسعادة الاقدام على مغامرة في عرض البحر، دون أن يخلف الطقس الدامي أثرًا سوى ورده الشرف على شرشف السرير. كلاهما فعل ذلك جيداً، بشكل أشبه بمعجزة، وتابعاً عمله جيداً ليلاً ونهاراً وفي كل مرة بشكل أفضل من سابقتها خلال بقية الرحلة، وعندما وصلا إلى لا روشيل كانا متفاهمين كعاشقين قديمين.

بقيا ستة عشر شهراً في أوربا، متخذين من باريس قاعدة لهما، ومنطلقين في رحلات قصيرة إلى البلدان المجاورة. وقد مارسا الحب يومياً خلال هذه الفترة، ومارسها أكثر من مرة خلال أيام الأحاد الشتوية، حيث كانا يتداعبان في الفراش حتى ساعة الغداء. كان رجلاً مندفعاً إضافة إلى أنه حسن التدريب، ولم تكن مخلوقة لتسمح لأحد بالتفوق عليها، وهكذا كان عليهما أن يقبلا باقتسام السلطة في السرير. وبعد ثلاثة شهور من الحب المحموم، أدرك هو أن أحدهما مصاب بالعمق، فخضعا لفحوص طبية صارمة في مستشفى سالبيرير، حيث كان قد أمضى فترة تدريبه العملي كطالب مقيم. كانت فحوصات مضنية ولكن دون جدوى. ومع ذلك، وعندما تخليا عن التفكير بالامر، حدثت المعجزة بلا أية وسيلة علمية. وحين رجعا إلى الوطن في نهاية السنة التالية، كانت فيرمينا حبلً في الشهر السادس، وتبرى

اسها أسعد امرأه على وجه الأرض . والابن الذي رغباً فيه كلاهما، والذي ولد تحت برج الدلو، عُمد على شرف جده الميت بالكوليرا .

كان من المستحيل معرفة ان كانت أوروبا أم الحب هو ما غبرهما، لان الامرين حدثا في وقت واحد . كلاهما كان قد تغير، وبعمق، ليس في علاقتهما ببعضهما فقط، وانما كذلك مع الجميع، وهذا ما ادركه فلورينتينواريشا حين رأهما خارجين من القديس بعد اسبوعين من عودتهما، في يوم أحد نكته ذاك . عادا بمفهوم جديد للحياة، محملين بمستجدات الدنيا : هو بمستجدات الأدب والموسيقى، ومستجدات علمه قبل كل شيء، كما عاد باشتراك في لوفيغارو، كي لا يفقد خيط الواقع، واشترك آخر في ريفودي دو موندس كي لا يفقد خيط الشعر . كما اتفق مع عميله المكتبي في باريس لتزويده بجديد الكتاب الأوسع انتشاراً، كاناتول فرانس وبير لوتي، ومؤلفات مفضليه، كريمي دي غورمونت وبول بورجيه، أما أميل زولا فلا، فهو يرى انه لا يطاق، رغم اقتحامه الجري لمحكمة دريفوس . وقد وعد المكتبي نفسه بان يرسل له بالبريد كل جديد ومغر في كاتالوج ريكورد، وخصوصاً من موسيقى الكاميرا، ليحتفظ باللقب الذي اكتسبه ابوه عن جدارة كأول داعية لموسيقى الكونسيرتو في المدينة .

أما فيرمينا داثا، المعارضة دائماً لصرامة الموضة، فقد أحضرت معها ستة صناديق ملابس لمختلف الفصول، أذ ان الماركات الشهيرة لم تقنعها . كانت قد ذهبت إلى توليرياس، في عز الشتاء، لحضور استعراض مجموعة أزياء وورث، طاغية الأزياء الراقية الذي يفرض ما يشاء، والشيء الوحيد الذي حصلت عليه كان التهاب قصبات طرحه في الفراش خمسة أيام . وبدا لها ليفيرير أقل غطرسة وطمعاً، لكنها اتخذت قرارها الحكيم بالحصول على مايعجبها من محلات التصفيات، رغم ان زوجها كان يقسم لها أغلظ الايوان بانها ملابس موتى . وهكذا أحضرت كميات من الاحذية الايطالية التي بلا ماركة، فضلتها على موديلات فيري الذائعة الصيت والشاذة، وجلبت مظلة من دوبوي، حمراء كثيران جهنم، كانت موضوعاً كتب فيه كثيراً صحفيو مجتمعا المرتعدون . واشترت قبعة واحدة من تصميم مدام ريبو، لكنها ملأت صندوقاً كاملاً بعناقيد الكرز الاصطناعي، وفروع مختلف انواع الزهور التي وجدتها، وكميات من ريش النعام، وريش الطواويس، وذبول ديكة أسبوية، وطيور تدرج، وأفانص وتشكيلة متنوعة من الطيور الغريبة المحنطة ذات الاجنحة المفتوحة، أو الافواه الصارخة، أو العيون المحنطرة : كل هذه الاشياء جعلت القبعات نفسها تبدو وكأنها قبعات اخرى طوال السنوات العشرين الاخيرة . أحضرت مجموعة مرواح يدوية من بلاد العالم المختلفة، كل واحدة منها مخصصة لمناسبة . وأحضرت عطرأ جذاباً انتقته من بين



أصناف كثيرة في محل عطورات بازار تشاريت، قبل ان تخبره رياح الربيع برمادها، لكنها لم تستخدمه سوى مرة واحدة، لانها لم تعد تتعرف على نفسها بهذا العطر المختلف. وأحضرت كذلك علبة مكياج كانت آخر صرعة في سوق الاغراء، وكانت أول امرأة خرجت به إلى الحفلات، حين كان مجرد التجميل في مكان عام يعتبر عملاً منافياً للحشمة.

وحملت معها كذلك ثلاث ذكريات لا تمحى: الافتتاح الذي لم يسبق له مثيل لمسرحية حكايات هوفمان في باريس، والحريق الرهيب الذي أتى على جميع جدوللات البندقة تقريباً مقابل ساحة سان ماركوس، والذي شاهدها بقلب يعتصره الألم من نافذة فندقها، ورؤية اوسكار وايلد الخاطفة اثناء هطول أول الثلوج في كانون الثاني. ولكن بين هذه الذكريات وغيرها الكثير، احتفظ الدكتور خوفينال اوريينو بذكرى رغبة كان يأسف دوماً لانه لم يستطع تقاسمها مع زوجته، وتعود إلى الوقت الذي كان ما يزال فيه طالباً عارياً في باريس. انها ذكرى فيكتور هوغو، الذي كان ينعم عندنا بشهرة مثيرة ليست مرتبطة بشهرة مؤلفاته. ذلك ان احداً قال عنه بانه قال، دون أن يكون هناك من سمعه في الواقع، بان دستورنا ليس لموطن بشر وانما لموطن ملائكة. فأصبحت له منذ ذلك الحين منزلة خاصة، وصار معظم مواطني الكثيرين الذين يسافرون إلى فرنسا يتهاكون لرؤيته. وقد قام ستة طلاب، بينهم الدكتور خوفينال اوريينو، بتنظيم حراسة مقابل بيته في شارع ايليا، وفي المقاهي التي يقال بانه سياستها بالتأكيد، دون ان يأتي أبداً، ثم تقدموا آخر الامر بطلب خطي للمقاء خاص معه، باسم ملائكة دستور ريونفرو. ولم يتلقوا أي رد. وفي احد الأيام، وفيا خوفينال اوريينو مصادفة مقابل حديقة اللوكسمبورغ رآه وهو يخرج من مجلس الشيوخ برفقة امرأة شابة تقوده من ذراعه. كان هزماً جداً، يتحرك بمشقة، لحيته وشعره أقل اشعاعاً مما هما عليه في صوره، ويرتدي معطفاً يبدو وكأنه لشخص أضخم منه جسداً. ولم يشأ افساد الذكرى بتحية وقحة. كانت تكفيه هذه الرؤيا شبه اللاواقعية كزاد للحياة كلها. وعندما عاد إلى باريس متزوجاً، في ظروف تمكنه من رؤيته بشكل شبه رسمي، كان فيكتور هوغو قد مات.

وكمعزاء على ذلك، حمل خوفينال وفيرمينا الذكرى المشتركة لساء يوم ثلجي، اختلط فيه بجماعة كانت تتحدى العاصفة مقابل مكتبة صغيرة في بولفار لوس كابوتشونوس، وكان اوسكار وايلد في الداخل. وحين خرج اخيراً، أنيقاً حقاً، وربما واعياً جداً انه كذلك، أحاطت به المجموعة تطلب منه التوقيع على كتبه. توقف الدكتور اوريينو لرؤيته فقط، لكن زوجته المتدعة أرادت اجتياز البولفار ليقع لها على الشيء الوحيد الذي رآته مناسباً في غياب الكتاب: فقاسها البديع الطويل الأملس، المصنوع من جلد الغزال، بلونه الذي يشبه لون بشرتها الحديثة الزواج، كانت متأكدة ان رجلاً بهذه الرقة سيقدّر عالياً لفئة كهذه. لكن الزوج

عارض بإصرار، وحين حاولت التقديم رغم حججه، لم يعد يشعر بأنه سيكون قادراً على العيش متجاوزاً العار. فقال لها .

- اذا احترت الشارع، فستجديني ميتاً حين ترجعين .

كان سلوكاً طبيعياً فيها . فقبل زواجها بسنة واحدة كانت تتحرك في الدنيا بنفس الطلاقة التي كانت عليها وهي طفلة في بلدة سان خوان دي لاثياغا المميتة ، وكأنها ولدت وهي تعرف الدنيا، وكانت تتمتع بسهولة في معاملة الغرباء تاركة روجها في حيرة من أمره، وبموهبة سحرية في التفاهم بالقشتالية مع أي كان وفي أي مكان . وكانت تقول وهي تصحك ساخرة : «المرء يتعلم اللغات حين يريد ان يبيع ، أما عندما يريد الشراء فالجميع يفهمونه كيفما كان» . من الصعب تصور أحد قادراً على تمثيل حياة باريس اليومية بهذه السرعة وهذه الغبطة ، وعلى تعلم جها في الذكرى رغم امطارها الدائمة . ومع ذلك ، فعندما رجعت إلى الوطن مثقلة بهذه التجارب المجتمعة ، منهكة من السفر وناعسة من الحبل ، كان أول ما سألها اياه في الميناء هو كيف بدت لها عجائب اوربا ، فلخصت ستة عشر شهراً من السعادة في أربع كلمات من فظاظتها الكاريبية :

- انها الصخب قبل أي شيء .

يوم رأى فلورييتينو أريشا فريمينا دائماً عند مدخل الكنيسة، وهي حبلى في الشهر السادس وتمتكنة تماماً من مكانتها الجديدة كأمراة حياة، اتخذ قراره الصارم بالحصول على لقب وثروة ليصبح جديراً بها. لم يتروليفكر حتى بالعائق المائل في كونها متزوجة، لأنه قرر في الوقت ذاته، وكان الأمر بيده، ان الدكتور خوفينال أوربينو سيموت. لم يكن يعرف متى ولا كيف، لكنه طرح الأمر وكأنه حدث محتم، لا يحتاج إلا إلى الانتظار دون تسرع ولا هيجان، وحتى لو بقي إلى نهاية المصور.

بدأ من البداية. أمثل دون سابق احلان في مكتب العم ليون الثاني عشر، رئيس مجلس الادارة والمدير العام لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وأبدى له استعداداه لوضع نفسه تحت تصرفه. كان العم مصفاً منه للطريقة التي تخلق بها عن وظيفة التلغراف المحترمة في لافيا دي ليفا، لكنه انساق مع قناعته بان البشر لا يولدون دوماً يوم تلدهم امهاتهم، وانما تجبرهم الحياة على ولادة انفسهم بأنفسهم ثانية ولمرات عديدة. ثم ان ارملة الاخ كانت قد توفيت في السنة السابقة، مع احقادها المتقدة ولكن دون ان تنجب وريثة. وهكذا منح ابن اخيه التائه عملاً.

كان ذلك قراراً تقليدياً من قرارات العم ليون الثاني عشر لوائيا. فتحت قشرة التاجر المقاسي، كان يجنىء عبقراً مجنوناً، سيان لديه تفجير ينبوع ليمونادة في صحراء غواخيرا، أو اخراق جنازة ترفع الصليب بالدموع باهتية المؤثرة في هذا القبر المظلم، ولم يكن ينقصه براسه لنجمد وشفته السفلى سوى القيشارة واكليل الغار ليصبح نسخة مطابقة لليون الحارق في الميثولوجيا المسيحية. اما ساعات فراغه ما بين ادارته لسفنه العاجزة، التي ما زالت تعوم بمحض خفلة من الهلاك، ومشاكل الملاحة النهرية المتزايدة الخطورة يوماً بعد يوم، فكان يكرسها لاجناء قائمته الفئانية. ولم يكن يحب الغناء إلا في الجنائزات. بصوته الذي يشبه

صوت مجدف في سفينة، والخالى من أي نظام اكاديمي، انها القادر على اداء نغمات شجية . وقد روى له أحدهم ان انريكي كاروسو يستطيع تهشيم مزهرية وتفتيتها إلى شظايا بقوة صوته فقط، فحاول خلال سنوات عديدة ان يقلده بزجاج النافذ . وكان اصدقائه يأتونه بأرق أنواع المزهريات التي يجدونها في رحلاتهم عبر العالم، وينظمون له احتفلات خاصة ليتمكن اخيراً من تحقيق حلمه . لكنه لم يتوصل إلى ذلك أبداً . ومع ذلك، فقد كان في اعياق صوته الراعد بصيصاً من الرقة التي تفتت قلب سامعيه كما تفتت مزهريات كاروسو العظيم الزجاجة، وكان هذا هو سبب مكانته المحترمة في الجنازات . باستثناء جنازة واحدة، خطرت له فيها فكرة غناء *When wake up in Glory*، وهي اغنية جنائزية من لوزيانا، جميلة ومؤثرة، فأسكته القيس الذي لم يفهم ذلك التدخل اللوثري في كنيسه .

وهكذا استطاع، وسط الاويريات والسيرنادات النابولية، ان يتبوأ بعبريته الخلاقة وروح العملية التي لا تلين، امارة الملاحة النهرية في عصره الزاهر . لقد بدأ من لا شيء، مثل شقيقه المتوفين، ووصلوا جميعهم إلى حيث يشاؤون رغم وصمة كونهم أبناء طبيعيين، لم يعترف بهم أبأؤهم أبداً . لقد كانوا زهرة ما كان يدعى حينئذ ارسقراطية منظمة التاجر، التي كان النادي التجاري هو هيكلها المقدس . ومع ذلك، وعندما امتلك الموارد التي تؤهله للعيش كالامبراطور الروماني الذي يشبهه، بقي العم ليون الثاني عشر يعيش في المدينة القديمة، لسهولة ممارسة أعماله، مع زوجته وابنائها الثلاثة، حياة تقشف في بيت صغير، مما ألصق به سمعة البخل ظلماً . وكانت رفاهية الوحيدة اكثر بساطة : بيت على البحر، يبعد مسافة فرسحين عن مكاتب الشركة، لا اثاث فيه سوى ستة كراسي بلا مساند، وخابية ماء، وارجوحة نوم على الشرفة يستلقي عليها أيام الأحاد للتفكير . ولم يصفه أحد خيراً مما وصف هو نفسه حين اتهمه احدهم بانه ثري، اذ قال :

- لست ثرياً . أنا فقير يملك مالاً، وهو شيء مختلف . هذه الطريقة الغريبة في الحياة، التي امتدحها أحدهم يوماً في خطبة صحوجنوني، اتاحت له ان يرى على الفور ما لم يره أحد من قبل ولا من بعد في فلورييتينو اريشا . فمنذ اليوم الذي جاء فيه طالباً منحه وظيفة في مكاتب الشركة، بمظهره الكثيب وسوات عمره السبع والعشرين المبددة، أخضعه لاختبار صارم صرامة نظام عسكري قادر على قهر أشجع الشجعان . لكنه لم يتوصل إلى اخافته، وما لم يشك فيه العم ليون الثاني عشر أبداً هوان شجاعة ابن اخيه هذه ليست وليدة الحاجة لكسب لقمة العيش، ولا وليدة صبر بهيمي ورثه عن ابيه، وإنما هي وليدة طموح غرامي لا يمكن لأية قوة في هذا العالم أو العالم الآخر ان تحطمه .

أسوأ سنوات العمل كانت هي الأولى، حين عينوه كاتباً في الادارة العامة، والتي كانت

تبدو مكتباً مفصلاً على مقاسه . كان لوتاريو توغوت ، استاذ العم ليون الثاني عشر القديم في الموسيقى ، هو الذي نصح هذا الاخير بتعيين ابن اخيه في وظيفة كتابية ، لانه مستهلك للأدب لا يكل ، رغم ان ما يقرأه من الأدب الرديء هو أضعاف ما يقرأه من الأدب الجيد . لم يول العمل ليون الثاني عشر اهتماماً لهذا التحديد عن نوعية الادب الرديئة التي يقرأها ابن اخيه ، لان لوتاريو توغوت نفسه قال عنه دوماً انه أسوأ تلاميذه في الغناء ، ومع ذلك فهو يكمي حتى شواهد القبور . لكن الألماني كان محقاً على أية حال في أقل أمر فكر فيه . ففلورينتينوارثا يكتب أي شيء بعاطفة جياشة ، مما جعل الوثائق الرسمية تبدو أشبه بوثائق حب ، وكانت اذونات الاحرار تخرج معه مقفأة رغم جهده لتفادي ذلك ، وكان يسكب في الرسائل التجارية نفساً غنائياً يقلل من هيبتها . وهكذا جاء العم بنفسه في أحد الايام برزمة من المراسلات التي لم تكن جدية بان يضع توقيعه عليها ، ومنحه الفرصة الاخيرة لانقاذ روحه .  
قال له :

- اذا كنت عاجزاً عن كتابة رسالة تجارية فستتحول إلى جمع القمامة عن رصيف الميناء .  
قبل فلورينتينوارثا التحدي ، وقام بجهود جبارة ليتعلم بساطة النثر التجاري الدنيوية ، مقلداً نماذج من الأرشيف الموثق ومرصعاً رسائله بمقاطع منها كما كان يفعل باشعار الشعراء الرائجين من قبل . حدث هذا في الفترة التي أخذ يقضي فيها ساعات فراغه في زقاق الكتبة العموميين ، مقدماً العون للعشاق الذين لا يحسنون الكتابة ، بكتابة رسائلهم الغرامية المعطرة ، ليفضض عن قلبه كلمات الحب الكثيرة التي لم يعد يستطيع استخدامها في التقارير الجمركية . لكنه بعد ستة شهور ، ورغم جميع محاولات ، لم ينجح في ليّ عنق اوزانه المتبادية .  
- الشيء الوحيد الذي يهني هو الحب .  
فقال له العم :

- من المؤسف انه لا وجود للحب دون الملاحظة النهرية .

نفذ تهديده بنقله لجميع القمامة من رصيف الميناء ، لكنه وعد بترقيته خطوة خطوة على سلم الخدمة إلى ان يجد مكانه المناسب . وهكذا كان . لم يستطع أي عمل ، مهما كان قاسياً أو مذلاً ، هزيمته ؛ ولم يثبط بؤس الاجر من عزيمته ، كما انه لم يفقد أعصابه للحظة واحدة أمام عجرفة مسؤوليه . ولكنه لم يكن ساذجاً أيضاً : فكل من اعترض سبيله قاسى من نتائج تصميم كاسح ، قادر على أي شيء ، وراء مظهر البؤس الذي كان عليه ، وكما يرغب العم

ليون الثاني عشر وخطط بجعله يتعرف على كل سر من أسرار المؤسسة ، فقد مر على جميع المناصب خلال ثلاثين عاماً من المثابرة والعناد في مواجهة كل الاختبارات . وقد ادارها جميعاً بكفاءة تستحق التقدير ، دارساً كل خيط في تلك التيلة السحرية التي لها علاقة ما بصنعة الشعراء ، انما دون التوصل إلى احراز الميدالية الحربية التي طالما تاق اليها ، ألا وهي كتابة رسالة تجارية مقبولة . رسالة واحدة فقط . ودون أن يخطط لذلك ، بل ودون أن يدريه ، راح يثبث بحياته سداد رأي ابيه الذي ردد حتى النفس الاخير انه لا أحد اكثر عملية ، ولا حجارين اكثر اصراراً ولا مدراء أكثر نباهة وخطراً من الشعراء . هذا على الأقل ما أخبره به العم ليون الثاني عشر ، الذي اعتاد انه يحذره عن ابيه اثناء اوقات الفراغ ، وأعطاه عنه فكرة تصوره كحالم اكثر منه رجل أعمال .

روى له ان بيو الخامس لواليا كان يستخدم المكاتب لأمر أكثر لطفاً من شؤون العمل ، وانه رتب أموره ليخرج من البيت في جميع ايام الاحاد ، متذرعاً بأنه سيستقبل أويودع سفينة ما . بل وصل به الأمر إلى وضع مرجل غير ذي نفع ، مع صفارة بخارية في فناء الخانات ، حيث كان أحدهم يقوم باطلاق الصفارة برموز الابحار حتى تسمع الزوجة ان هي كانت مصغية . وبعد حسابات اجراها ، ابدى العم ليون الثاني عشر اقتناعه بان أم فلوريتينو اريشا قد حبلت به فوق طاولة مكتب غير مغلق في مساء يوم أحد لاهب ، فيما زوجة ابيه تسمع من بيتها صفيح وداع يطلقه مركب لم يسافر أبداً . وعندما اكتشفت امره كان الوقت قد فات لجمعله يدفع ثمن سلوكه المشين ، لانه كان قد مات . لقد عاشت سنوات طويلة بعده محطمة بمرارة عقمها ، وطالبة من الله في صلواتها ان ينزل لعنته الابدية على البندوق .

لقد شوشت صورة الأب افكار فلوريتينو اريشا . كانت امه تحذره عنه كرجل بلا ميول تجارية ، وانه انتهى إلى العمل التجاري في الملاحة النهرية لأن شقيقه الاكبر كان معاوناً للربان الألماني جان ب . ايلبرس ، أحد أوائل العاملين في الملاحة النهرية . وانه واخوه كانوا ابناء طبيعيين لأم واحدة ، تعمل طاهية ، وجميعهم يحملون لقبها بعد اسم أحد الباباوات الذي كانت تختاره لأعلى التعيين من سجل القديسين ، باستثناء العم ليون الثاني عشر ، فهو يحمل اسم الملك الذي كان يحكم عند مولده . ومن يدعى فلوريتينو هو جدهم لأهمهم ، وبهذا وصل الاسم إلى ابن ترانستواريشا قافزاً فوق جيل كامل من الاجار العظام .

لقد احتفظ فلوريتينو بدفتر كان ابيه يدون فيه أشعار الحب ، وكانت ترانستواريشا هي ملهمة بعض تلك القصائد ، وكانت اوراق الدفتر مزينة برسوم قلوب جريئة . وقد فوجيء بأمرين : احدهما هو خط أبيه المطابق تماماً لخطه ، رغم انه اختار هذا الاسلوب في الكتابة من أحد مناهج تعليم الخط لانه أعجبه اكثر من سواء . والامر الثاني هو غنوره على عبارة كان

يعتقد انها من بنات افكاره ، ووجد أن أباه قد دونها في دفتره قبل ان يولد هو بكثير : ما يؤلمني في الموت هو ألا أموت حباً .

كان قد رأى كذلك صورتى ابيه الوحيدتين . احدهما ملتقطة في سانتاني ، وهو صغير ، كما كان عمره هو حين رآه لأول مرة ، يرتدي معطفاً سميكاً يبدو فيه وكأنه محشور في جوف دب ، ويستند إلى قاعدة تمثال لا تظهر منه سوى ساق جزمته الطويلة المبتورة . والطفل الذي يقف إلى جانبه هو العم ليون الثاني عشر معتمراً قبعة ريان سفينة . وفي الصورة الثانية كان أبوه مع مجموعة من المحاربين ، من يدري في أي من الحروب الكثيرة ، وكان يحمل أطول بندقية بين أفراد المجموعة وتفوح من شاربه في الصورة رائحة البارود . كان ليبرالياً وماسونياً ، كإبائهما شقيقاه ، ورغم ذلك كان يريد لابنه ان يدخل مدرسة الاكلير وس ، لم يشعر فلورينتينوارشا بالشبه بينه وبين ابيه كما كانوا يدعون ، ولكن استناداً إلى اقوال العمل ليون الثاني عشر ، فانهم كانوا يؤنبون بيوا الخامس أيضاً لاسلوبه الغنائي فيها يكتبه من وثائق . لم يكن يشبهه على أي حال كما هو في صورتيه ، وهو لا يشبهه فيما يحفظه عنه في ذكرياته ، ولا في الصورة التي كانت ترسمها له أمه ، وقد حدّس الحب منها ، ولا في الصورة التي يشوها العم ليون الثاني عشر بقسوته الظرفية . ومع ذلك ، فقد اكتشف فلورينتينوارشا هذا الشبه بعد سنوات طويلة ، فيما هو يسرح شعره أمام المرأة ، وعندها فقط أدرك ان المرء يعرف انه قد بدأ شيخ حين يبدأ بالتشابه مع أبيه .

لا يتذكر بانه رآه في شارع لاس بتاناس . ويظن بانه كان يأتي للنوم هناك في مرحلة ما ، في بداية حبه لترانستينوارشا ، لكنه لم يعد إلى زيارتها بعد ولادته . لقد كانت وثيقة العماد لسنوات طويلة خلّت هي وسيلتنا الوحيدة لتحديد الهوية ، ووثيقة تعميد فلورينتينوارشا ، المشتهة في خورانية سانتوتوريو ، كانت تقول فقط انه ابن طبيعي لابنة طييمية عازية أخرى تدعى ترانستينوارشا . ولم يكن يظهر في الوثيقة اسم الأب ، الذي واظب رغم ذلك على تأمين حاجات ابنه الضرورية سراً حتى اليوم الاخير في حياته . وقد أقفل هذا الوضع الاجتماعي أبواب مدرسة الاكلير وس في وجه فلورينتينوارشا ، ولكنه نجى في الوقت ذاته من الخدمة العسكرية في الحقبة الأكثر دموية من حروبنا الاهلية ، لكونه ابناً وحيداً لعزباء .

كان يجلس كل يوم جمعة ، بعد العودة من المدرسة ، أمام مكاتب شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، متصفحاً كتاباً يضم صور حيوانات يكاد يتمزق تنفلاً لكثرة ما تصفحه . كان الاب يدخل دون ان ينظر اليه ، مرتدياً السترة الكتانية التي كان على ترانستينوارشا ان تقيفها فيها بعد على مقاسه ، وبوجه يشبه وجه سان خوان الانجليكي الذي يوضع فوق المذابح . وعند خروجه ، بعد عدة ساعات ، كان يعطيه نقوداً تغطي حاجاته لاسبوع ، محاذراً ألا يراه أحد

حتى ولا حوذي عربته. ما كان يكلمه، ليس لأن الأب لم يحاول ذلك فقط، بل لأنه كان يرهبه أيضاً. وفي أحد الأيام، وبعد أن انتظر وقتاً أطول عما اعتاد عليه، اعطاه الأب النقود قائلا له:

- خذ ولا تعد هنا بعد اليوم.

كانت تلك هي آخر مرة يراه فيها. لكنه سيعلم بعد حين أن العم ليون الثاني عشر، الذي كان أصغر من أبيه بعشر سنوات، سيواصل حمل النقود إلى ترانستواريثا، كما سيتولى شؤونها بعد موت بيسوالخامس اثر مغص لم يعالج جيداً، دون أن يترك أثراً مدوناً، ودون أن يتاح له الوقت لاتخاذ أية تدابير لصالح ابنه الوحيد: ابن الشارع.

كانت مأساة فلورينتينو اريثا أثناء عمله كاتباً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، تكمن في انه لم يستطع تفادي غشائته لأنه لم يكن قادراً على عدم التفكير بغير مينا دانا، ولم يتعلم ان يكتب أبداً دون التفكير بها. وفيها بعد، حين نقلوه لاداء أعمال أخرى، كانت دواخله تفيض حباً لا يدري ما يفعل به، فراح يهديه إلى العاشقين الذين لا يتقنون الكتابة بكتابة رسائل حب مجانية لهم في زقاق الكتبة العموميين، حيث كان يذهب بعد انتهائه من العمل. كان ينزع سترته بحركاته الوقورة ويعلقها على مسند الكرسي، ثم يضع الأكمام المستعارة كي لا يلوث قميصه، ويحلل ازرار الصدرية ليفكر بشكل أفضل، ويبقى أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل، باعثاً الأمل في الباسنين برسائل حب تبعث على الجنون. وبين حين وآخر كان يجد امرأة فقيرة تعاني مشكلة مع ابنها، أو محارباً قديماً يلح في طلب دفع تعويضاته، أو أحداً سرق منه شيء ويريد الشكوى أمام الحكومة، ولكنه كان عاجزاً عن تلبية رغباتهم مهما بذل من جهد، لأنه لم يكن قادراً على اقناع أحد إلا في رسائل الحب. لم يكن يسأل زبائنه الجدد أي سؤال، إذ كان يكتب برؤية بياض عيونهم ليعرف حالتهم، فيملأ ورقة بعد ورقة بكلمات حب خارقة، وذلك بمعادلة مضمونة النتائج هي الكتابة مفكراً بغير مينا دانا، ولا شيء سواها. ومع انتهاء الشهر الأول أصبح عليه ان يضع نظام حجز مسبق، حتى لا تجعله اشواق العاشقين يفيض متجاوزاً الحدود.

ان أجل ذكرياته عن تلك الحقبة هي ذكرى صبية خجول، تكان تكون طفلة، طلبت منه وهي ترتعش ان يكتب لها رداً على رسالة ملحة تلقتهاتها، وعرف فلورينتينو اريثا بانه كان قد كتبها في مساء اليوم السابق. رد عليها بأسلوب مختلف، بما يتناسب مع انفعالات الصبية وسنها، وبخط يبدو كذلك وكأنه خطها، اذ كان يحسن اصطناع خطوط لكل مناسبة حسب طبيعة كل شخص. كتبها متصوراً ما كانت سترد به عليه في مينا دانا لو كانت تحبه كثيراً كما تحب تلك المخلوقة المرتعدة عاشقها. وبعد يومين، طبعاً، كان عليه ان يكتب كذلك رد



الحبيب بالخط والاسلوب ونوع الحب الذي خصه به في الرسالة الأولى ، وهكذا وجد نفسه متورطاً في مراسلة معمومة مع نفسه . وقبل انقضاء شهر ، حاء كل على انفراد لشكراه لما كان قد اقترحه في رسالة الشاب ووافق عليه باخلاص في رد الفتاة : انها سيتزوجان .

وحين انجبا ولدهما الاول فقط ، واثاء حديث عرضي ، انتبها إلى ان رسائلهما قد كتبها الكاتب العمومي نفسه ، فذهبا لأول مرة معاً إلى الزقاق لتسميته عراباً لابنتها . ولقد تحمس فلورينتينوارثا لتجلي اجلامه العملي ، فأفرغ وقتاً حين لم يكن لديه متسع من الوقت ليؤلف كتاب سكرتير العاشقين وهو أشمل وأكثر شاعرية من الكتب المماثلة التي كانت تباع بعشرين سنتافو حتى ذلك الحين في الازقة ، والتي كان نصف أهل المدينة يحفظونها عن ظهر قلب . لقد تخيل ورث الحلات التي قد يجد نفسه فيها ، هو وفيرميا دانا ، وكتب لكل حالة عدة نماذج تغطي جميع الاحتمالات التي بدت له ممكنة واجتمع لديه في نهاية المطاف حوالي ألف رسالة في ثلاثة اجزاء مجلدة كتجليد معجم كوفاروياس ، انها لم يغامر أي ناشر في المدينة بطباعتها ، فانتهت إلى احد اماكن المهملات في البيت ، مع أوراق اخرى من الماضي ، لان ترانستيو ارثا رفضت باصرار استخراج خوابيها المظومة وتبديد مدحرات حياتها في حماقة نشر . وبعد عدة سنوات ، حين أصبح لدى فلورينتينوارثا الموارد اللازمة لنشر الكتاب ، تكلف مثقة للاقتناع بان رسائل الحب أصبحت موضوعة قديمة .

فيما هو يخطوخطواته الاولى في شركة الكاريبي للملاحة النهرية ويكتب رسائل حب مجانية في زقاق الكتبة العموميين ، كان اصدقاء صبا فلورينتينوارثا يقومون بانهم يحسرون شيئا فشيئا وبلا عودة . وهكذا كان . فبعد عودته من الرحلة النهرية كان ما يزال يلتقي ببعضهم على أمل التخفيف من ذكرى فيرمينا دانا ، فلعب معهم البليارد ، وذهب الى حفلات رقصه الاخيرة ، واهتم بان يكون محط اعجاب الفتيات ، وفعل كل ما بدا له مناسباً ليعود كما كان . وفيما بعد ، عندما اعتمدته العم ليون الثاني عشر موظفاً ، صار يلعب اللديمينو في النادي التجاري مع زملائه في العمل ، وبدأ هؤلاء يعترفون به كواحد منهم حين لم يعد يجدتهم الا عن شركة الملاحة ، والتي ما عاد يذكر اسمها كاملا ، بل يكتفي للإشارة اليها بالحروف الاولى : ش . ك . م . ن . وغير حتى طريقته في الاكل . فبعد ان كان لا مباليا ومضطربا على المائدة ، أصبح منتظماً ومتقشفا حتى اخر أيامه : فنجان قهوة كبير كمطور . وقطعة سمك مسلوقة مع الارز الابيض للغداء ، وفنجان قهوة بالحليب مع قطعة جبن قبل النوم . وصار يشرب قهوة مرة في كل وقت ، وفي أي مكان وتحت اية ظروف ، بكميات تصل الى ثلاثين فنجانا في اليوم : كانت قهوة أشبه بالبترول الحام يفضل تحضيرها بنفسه ، ويضعها دائما في ترمس بمتناول يده . لقد أصبح شخصا آخر ، رغم قراره الثابت وجهده المضني لمتابعة حياته كما كان قبل عشرة

## الحب القاتلة .

الحقيقة انه لن يعود ابدا كما كان . فاستعادة فيرمينا دائما كان هدف حياته الوحيد ، وكان متأكدا من انه سيصل اليه عاجلا ام آجلا ، حتى انه اقتنع ترانسيثواريا بمتابعة اعداد البيت ليكون مناسباً لاستقبالها في اية لحظة تحدث فيها المعجزة . وعلى العكس من ردة فعلها حيال نشر سكرتير العاشقين ، مضت ترانسيثواريا بعيدا جدا في هذا الامر : اشترت البيت نقدا ، وبدأت عملية اصلاح شاملة . أقاما صالة استقبال حيث كانت حجرة النوم ، أقاما في الطابق العلوي مخدعا للزوجين وأخرا للأولاد الذين سينجبونها ، كلاهما فسيح وحسن الاضاء ، ويمكن مشغل السيجار القديم أقاما حديقة فسيحة فيها جميع انواع الزهور ، كرس لها فلوريتو اريثا شخصا فترة بطالته الصباحية . والشيء الوحيد الذي بقي على حاله كامتنان للماضي ، هو دكان الخردوات . اما القسم الخلفي من الدكان ، حيث كان ينام فلوريتو اريثا ، فتركاه كما كان دوما ، بأرجوحة النوم المعلقة وطاولة الكتابة الصغيرة المغطاة بكتب مترجمة بفوضى ، بينما انتقل هو الى الحجرة المقررة كمخدع زوجي في الطابق العلوي . وكانت هذه الغرفة هي أوسع حجرات البيت وأكثرها بروفة ، لها شرفة داخلية من الممتع البقاء فيها ليلا لاستنشاق نسيم البحر ورائحة الورد ، لكنها كانت كذلك الحجرة التي تستجيب أكثر من سواها لرغبة فلوريتو اريثا الصارمة . كانت جدرانها ملساء وبخاوية ، مطلية بالكلس ، وليس فيها من الاثاث سوى سرير سجن ضيق ، وكوميدينو عليه شمعة مثبتة فوق فتحة قنينة ، وخزانة ملابس قديمة وإبريق لنسل الايدي مع صحنه وطشت لسكب ماء الغسل .

استمر العمل في البيت حوالي ثلاث سنوات ، وقد توافق مع مرحلة استقرار مؤقت مرت بها المدينة ، نتيجة ازدهار الملاحة النهرية والتجارة العابرة ، وهي نفس العوامل التي كانت سبب عظمتها أثناء الحكم الاستعماري وحولتها خلال أكثر من قرنين الى بوابة اميركا . ولكن هذه المرحلة كانت كذلك في الفترة التي بدا فيها على ترانسيثواريا أول أعراض مرضها الذي لا شفاء منه . أصبحت زبونات الداليات يأتيها الى دكان الخردوات وهن أكثر همرا في كل مرة ، وأكثر شحوبا وأكثر انحدارا ، ولم تكن تتعرف عليهن بعد معاملة معهن استمرت نصف حياة ، أو انها كانت تخطط شؤون بعضهن بشؤون اخريات . وكان هذا شيئا خطيرا في تجارة كتجارها ، لا مكان فيها لأوراق موقعة ووثائق كاحتياط لحماية الشرف ، شرفها وشرف الآخرين ، وكانت كلمة الشرف تعطى وتقبل كضمانة كافية . بدت أول الامر وكأنها أخذت بالصمم ، ولكن سرعان ما تبين ان ذاكرتها هي التي تتسرب من الثقوب ، وهكذا صفت تجارة الرهونات ، وأصلحت البيت بكنز الخواهي المخبأة واثته ، ثم بقي لديها بعد ذلك كثير من المجوهرات القديمة المشهورة في المدينة ، والتي لم تتوفر لأصحابها الموارد اللازمة لاستردادها .

عندئذ أصبح على فلوريتينو اريثا ان يتحمل ذاته مسؤولية التزامات عديدة، لكن حماسه لم يضعف لزيادة أعماله كصيد خفي. فبعد تجربته غير المنتظمة مع ارملة ناثاريت، التي شقت له طريق غراميات الازقة، تابع اصطياد عصافير الليل اليتيمات لعدة سنوات، بحثا عن مهدي من الام فيرمينا دانا. لكنه لم يعد قادراً فيها بعد على معرفة ان كانت عادته في الزنى دون آمال هي ضرورة للضمير أم مجرد ادمان للجسد. صار تردده على فندق العابرين أقل، ليس لان اهتماماته كانت في جهة أخرى وحسب، بل لانه لم يكن يرغب بان يروه في مسيرة مختلفة جدا عن الصورة المألوفة التي عرفوها بها. ومع ذلك، فقد لجأ في ثلاث مناسبات مستعجلة الى الوسيلة السهلة لفترة لم يعيشها: كان يجعل صديقاته المتخوفات من انكشاف امرهن يتكفرن بزني الرجال، ويدخل معهن الى الفندق بخيلاء سكارى متأخرين في السهر. لكنه لم يعدم من يلاحظ انه في مناسبتين على الاقل لم يكن يذهب مع صديقه المزيف الى الحانة وانما الى الحجرة، فتعرضت بذلك سمعته التي كانت قد تهشمت الى الضربة القاضية. الى ان توقف اخيرا عن الذهاب الى هناك. وفي المرات القليلة التي ذهب فيها، لم يفعل ذلك للحاق ما فات، واما على العكس تماما: كان يبحث عن ملجأ ليستعيد انفاسه بعد الافراط.

وكان ذلك ضروريا. فهو يغادر المكتب في الخامسة مساء، ويمضي عندئذ متقلبا كباشق جوال. كان يكتفي في البدء بما يمهده به الليل. فيصطاد خادومات في الحدائق، وزنجيات في السوق، ومتأنقات في الشواطئ، وامريكيات شاليات في سفن نيوارليانز. فيأخذهن الى ملطم الامواج حيث نصف اهل المدينة يفعلون الشيء نفسه منذ غروب الشمس، يأخذهن حيث يستطيع، وحيانا الى حيث لا يستطيع، اذ لم تكن قليلة المرات التي اضطر فيها الى حشر نفسه بسرعة في مدخل مظلم لاحد البيوت وعمل ما يستطيعه كيما اتفق وراء البوابة. كان برج الفنار ملجأ محظوظا يذكره بحنين بعد ان حلت جميع اموره وهو على اعتاب الشيخوخة، لانه كان مكانا جيدا للسعادة، وخصوصا في الليل، حيث كان يرى ان شيئا من غرامياته يصل الى المبحرين في السفن مع كل لفة من وميض الفنار. وقد تابع الذهاب الى هناك، اكثر من ذهابه الى اي مكان اخر، فيها صديقه عامل الفنار يستقبله سعيداً، بوجه أحمر كان أفضل دليل على الكتمان بالنسبة للعصفورات المرتعدات. كان هناك بيت في أسفل الفنار، حيث تزجر الامواج وهي تتحطم على الصخور، وحيث البحر اكثر زحاما لان فيه شيئا من الاخفاق. لكن فلوريتينو اريثا كان يفضل برج النور بعد ساعات الليل الاولى، لانه يرى المدينة كلها واضواء زوارق الصيادين في البحر، وكذلك في المستنقعات النائية. ومن هذه الحقة اتت نظرياته الاقرب الى التبسيط حول العلاقة بين التكوين الجسدي

للنساء وكفاءتهن للحب . لم يكن ليشق بالصنف الحسي من النساء . اولئك اللواتي يبدون قادات على التهام تمساح في . ويكون عادة الاكثر سلبية في الفراش ، نموذج المفضل كان النقيض : تلك الضفادع الضامرة التي لا يتكلف أحد عنه النظر اليهن ثانية في الشارع ، اللواتي يبدون وكأنهن لا شيء بعد نزاع ملابسهن ، ويشرن الشفقة بطفقة عظامهن عند الصدمة الاولى ، ولكنهن رغم ذلك قادات على جعل اعنى المتغنين بفحولتهم لقمة سائغة لصندوق القمامة . وكان قد سجل رؤوس أفلام عن ملاحظاته المبكرة هذه بنية تأليف ملحقة عملي لكتاب سكرتير العاشقين ، لكن المشروع لقي مصير سابقه بعد ان قلبته اوسيتشا سانتاندير ظهرا وباطنا بحنكتها التي كحنكة كلب عجوز . . . أوقفته على رأسه ، رفعتة وانزلته ، واعادت ولادته كمخلوق جديد ، وجعلته يمزق مهارته النظرية ارباباً وعلامة الشيء الوحيد الذي عليه ان يتعلمه عن الحب ، هو ان أحداً لا يستطيع تعليم الآخرين الحياة .

كانت اوسيتشا سانتاندير قد تزوجت زوجا عاديا دام عشرين سنة ، وبقي لها من ذلك الزواج ثلاثة ابناء تزوجوا بدورهم وانجبوا ابناء ، بحيث انها كانت تغامر بانها الجدة صاحبة أفضل فراش في المدينة . ولم يتضح أبداً ان كانت هي التي هجرت زوجها ، أم انه هو الذي هجرها ، أم انها هجرا بعضهما في الوقت ذاته حين ذهب هو ليعيش مع عشيقته الدائمة ، وشعرت هي بأنها تحررت لتستقبل في وضوح النهار ، ومن الباب الرئيسي ، روسندودي لا روسا ، ربان السفينة انهريه ، الذي كانت قد استقبلته ليلا مرات كثيرة من الباب الخلفي ، وكان هو نفسه ، ودون ان يفكر مرتين ، من أخذ فلورينتينو اريشا اليها .

دعاه للغذاء عندها . وحمل معه دجاجة خريبيتي قوي وأفخر نوعية من المواد لاعداد وجبة ملحمية لا يمكن تحضيرها الا بدجاج بيتي ، ولحم طري العظام ، وخنزير معلوف على المزيلة ويقول وخضروات قري ، النهر . ومع ذلك ، لم يبد فلورينتينو اريشا منذ البدء اهتماما بلذائذ المطبخ ، ولا بكرم سيدة البيت ، كاهتمامه بجمال البيت . لقد اعجبه البيت بحد ذاته ، بانارته وبيروته ، بناؤه الاربع المطة على البحر ، واطلالته من الخلف على مشهد كامل للمدينة القديمة . اعجبته كمية ورونق الاشياء التي كانت تمنح الصالة مظهراً مشوشا وصارما في الوقت نفسه ، والتي كانت ، تضم جميع انواع المهارات الحرفية التي يجلبها القبطان روسندودي لا روسا في كل رحلة من رحلاته ، حتى لم يبق مكان لمزيد . وعلى الشرفة المطة على البحر ، فوق منصة خاصة ، كانت تقف ببغاء مالايسيه يغطيها ريش ناصع ، يياضه لا يُصدق ، وتطرق بسكينة تأملية تبيت كثيرا على التأمل : انها أجمل حيوان رآه فلورينتينو اريشا على الاطلاق .

تحمس القبطان روسيندودي لا روسا لحماسة الضيف، فروى له بالتفصيل قصة كل شيء من الاشياء . وفيما هو يفعل ، كان يشرب الخمر بجرعات قصيرة انها دون فاصل بين جرعة واخرى . كان يبدو وكأنه مبني من الاسمنت المسلح : ضخمة ، كثيف الشعر في كل انحاء جسده باستثناء رأسه ، له شارب كفرشاة نفاش ، وصوت رحوي لا يمكن الا ان يكون كذلك ، وصاحب نخوة ممتعة ، ولكن ليس هناك من جسد قادر على احتفال طريقته في الشرب . وقبل الجلوس الى المائدة كان قد انهى نصف الدجاجة ، وهوى على وجهه فوق الكؤوس والزجاجات بجلبة انهدام بطيئة . وكان على اوسيتيا سانتانديران تطلب مساعدة فلوريتينو اريثا لسحب الجسد الخامد كجسد حوت مرتطم بالبر ونقله الى السرير ، ونزع ملابسه وهو نائم . بعد ذلك ، وفي ومضة الهام شكرها كلاهما لاقتراان برجيهما ، تعريا معا في الحجرة المجاورة دون اتفاق فيما بينهما ، بل ودون ايماء بذلك ، ودون اعداد له . وتابع التعري بعدها كلما سئحت لها الفرصة خلال اكثر من سبع سنوات ، اثناء غياب القبطان في رحلاته . لم تكن ثمة مخاطرة بان يفاجئهم ، اذ كان يتمتع بعادة بحار طيب ، فهو يطلق صافرة سفينته مخبرا بقدومه ، حتى ولو وصل فجراً ، كان يطلق ثلاث صافرات حادة وطويلة لزوجته واولاده التسعة ، ثم صافرتين متقطعيتين وكثيبتين لعشيقته .

كان لاوسيتيا سانتاندير حوالي خمسين سنة من العمر ، وكان ذلك باديا عليها ، ولكنها كانت تتمتع بغريزة خاصة جدا في الحب ، ليس بوسع النظريات العملية او العلمية ان تشوشها . وكان فلوريتينو اريثا يعرف من دليل رحلات السفن متى يستطيع زيارتها ، وكان يذهب اليها دوماً دون اعلان مسبق ساعة يشاء ، سواء في النهار او الليل ، ولم يحدث مرة واحدة ان لم تكن في انتظاره . كانت تفتح له الباب كما ربتها امها حتى السابعة من عمرها : عارية تماماً ، لكنها تضع على رأسها عصابة نايلون . لم تكن تسمح له بالتقدم خطوة واحدة قبل ان تنزع عنه ملابسه ، لانها تعتقد ان وجود رجل بملابسه في البيت هو نذير شؤم . وكان هذا سبباً لنزاع دائم مع القبطان روسيندودي لا روسا ، لانه كان يؤمن بخرافة ان التدخين عارياً هو امر وخيم العقاب ، كما انه يفضل أحياناً تأجيل الحب على ان يطفىء سيجاره الكوبي الاصيل . أما فلوريتينو اريثا ، فكان محبا جدا لمفاتيح التعري ، فكانت تخلص عنه ملابسه بلذة فور اخلاقتها الباب ، دون ان تتيح له الفرصة لتحتيتها ، ولا لنزع ثيابه ونظارته ، مقبلة اياه ومتلقية القبل المبعثرة ، وحالة ازواره من أسفل الى اعلى ، بادءاً بأزرار فتحة السروال ، واحدا بعد كل قبلة ، ثم ابزيم الحزام ، واخيراً ازرار الصديرية والقميص ، الى ان تتركه كسمكة حية مشقوقة البطن . ثم تجلسه في الصالة وتنزع حذائه ، وتشد بطناله من عند الفخذ لتنزعه دفعة واحدة مع السروال الداخلي الطويل وتنزله الى الكاحلين ، واخيراً تفك اربطة واقية

الساق المطاطية وتنزع جوربيه، عندئذ يتوقف فلوريتينواريثا عن تقبيلها وعن السماح لها بتقبيله، ليفعل الشيء الوحيد الذي يقوم به في تلك الطقوس الدقيقة: فك الساعة ذات السلسلة من عروة الصدرية ونزع النظارة ووضعها معا في حذائه ليتأكد من انه لن ينساها. لقد ثابر دوماً على اتخاذ هذا الاحتياط، دائماً دون نسيان، كلما تعرى في بيت غريب.

ما ان ينتهي من عمل ذلك حتى تهاجمه دون ان تتيح له الوقت لأي شيء، وتلقي به ولو على الكنبه التي انتهت من تعريته عليها. وفي أحيان قليلة على السرير. كانت تحشره تحتها، وتسيطر عليه كله لها كلها، محبوسة في ذاتها، مقدرة الابعاد بعينها المغمضتين في ظلمتها الداخلية المطبقة، متقدمة من هنا، متراجعة، ضابطة اتجاهها اللامرئي، محاولة عبر سبيل آخر أكثر زخماً، طريقة أخرى للمشي دون غرق في مستنقع اللزوجة الذي يطفون من بطنها، سائلة ومجبية بنفسها بأزيز ذبابة في رطانتها الخلقية أين هو في الظلام هذا الشيء الذي تعرفه هي وحدها وتريدها وحدها فقط، الى ان تخردون انتظار أحد، ويهوي وحدها في هويتها بانفجار نصر شامل يجعل العالم كله يرتعش. ويبقى فلوريتينواريثا منهاكاً، ناقصاً، طافياً في بركة عرقها، يسيطر عليه انطباع بأنه ليس سوى أداة للذة. كان يقول لها «انك تعامليني كما لو كنت واحداً زائداً» فطلت ضحكة انثى حرة وتقول: «بل كانك واحد أقل». ويبقى على قناعة بأنها تستولي على كل شيء بشراهة وبخل، فتقلب الكبرياء مزاجه ويخرج من البيت مقرراً عدم الرجوع. لكنه ما يلبث ان يستيقظ ناسياً، مع صحوة الوحدة الرهيبه وسط الليل، وتتكشف له ذكرى حب اوسينثا سانتاندير الشارد على حقيقتها: مصيدة سعادة يحملها ويحن إليها في الوقت ذاته، انها يستحيل عليه الفرار منها.

وفي يوم أحد، بعد سنتين من تعارفهما، كان أول ما فعلته عند وصوله، بدلا من تعريته، ان نزع نظارتيه لتقبله بشكل أفضل، وهكذا علم فلوريتينواريثا انها بدأت تحبه. ورغم شعوره لأول مرة بأنه على أحسن حال منذ دخوله ذلك البيت الذي صار يحبه كبيت، فإنه لم يبق فيه من قبل أكثر من ساعتين متواصلتين، ولم يبق للنوم فيه أبداً، بينما بقي مرة واحدة لتناول الطعام، لأنها كانت قد وجهت اليه دعوة رسمية. والحقيقة انه لم يكن يذهب هناك الا لما كان يذهب من اجله، حاملاً معه دوماً هديته الوحيدة التي هي وردة مفردة، ثم يمتحن الى ان تحين الفرصة التالية المعلومة لديه. أما في يوم الاحد الذي نزع فيه نظارتيه، وبسبب هذه الحركة من جهة، ولأنها استسلم للنوم بعد حب مريح من جهة أخرى، أمضيا المساء كله عارين في سرير القبطان الفسيح. وبعد الاستيقاظ من القيلولة، كان فلوريتينواريثا ما يزال يحتفظ في ذاكراته بصرخات البيغاوات، التي كان صريفها النحاسي يتناقض مع جمال الحيوان. لكن الصمت كان صافياً في قيط الساعة الرابعة، ومن نافذة غرفة النوم كان يظهر

جانب من المدينة القديمة مع شمس الاصيل التي تلهب ظهرها، وقبابها المذهبة، ويحمرها الملتهب حتى جامايكا. مدت اوسيتشيا سانتاندير يدها المغامرة باحثة باللمس عن الحيوان الرائد، لكن فلورينثيو اريثا ازاحها قائلاً : «الآن لا . . أحس شيئاً غريباً، وكان هناك من يرانا »

عادت تهبج البغاء بضحكاتها اللعوب. وقالت : «هذه حجة لا تنطلي حتى على امرأة يونس». ولم تكن لتنطلي عليها كذلك، لكنها قبلت بها كحجة جيدة، وأحبا بعضهما بصمت لوقت طويل دون ان يعيدا ممارسة الحب. وفي الساعة الخامسة، حين كانت الشمس ما تزال مرتفعة، قفزت هي من السرير، عارية تماماً وبعضابة الناليون على رأسها، ومضت تبحث عن شيء يشربانه في المطبخ. لكنها لم تكن قد خطت خطوة واحدة خارج حجرة النوم عندما أطلقت صرخة مرعبة.

ما كانت قادرة على التصديق. كانت المصابيح المعلقة هي الشيء الوحيد المتبقي في البيت. أما ما عداها، الاثاث المحفور، والسجاد الهندي، والتماثيل والتحف وتزهات الزجاج والمعادن الثمينة التي لاجصرها، وكل ما كان يجعل من بيتها أحد أطفب البيوت واكثرها زينة في المدينة، كل شيء، حتى البغاء المقدسة، كله قد تبخر. لقد حملوه من الشرفة المطلة على البحر دون ازعاج الحب. لم يبق سوى الصالون المقفر بنوافذه الاربع المفتوحة، وكتابة بفرشاة نقاش على الجدار المقابل تقول : هذا ما يحدث لمن يتشغلون بالشّد. ولم يستطع القبطان روسيندودي لاروسا ان يفهم أبدا سبب امتناع اوسيتشيا سانتاندير التبليغ عن السرقة، أو عدم محاولتها الاتصال بتجار المسروقات، وعدم سباحها بالعودة للحديث عن نكبتها.

تابع فلورينثيو اريثا زيارتها في البيت المنهوب، الذي اقتصر اثاثه على ثلاث كراس جلدية بلا مسند نسيها للصوص في المطبخ، وحجرة النوم حيث كانا. لكن زيارته أصبحت أقل من السابق، ليس بسبب كآبة البيت، كما ظنت له ذلك، وانما بسبب حافلة البغال الجديدة التي انشئت في مطلع القرن الجديد، وكانت بالنسبة له عشا مفعماً وأصيلاً للعصفورات الطليقات. كان يركب الحافلة أربع مرات في اليوم، مرتين للذهاب الى المكتب ومرتين للعودة الى البيت. وفيها هويقرأ حقاً في بعض الاحيان، اويظاظر بالقراءة في معظم الاحيان، يتمكن من اقامة أول الاتصالات من أجل موعد لاحق. وحين وضع العم ليون الثاني عشر تحت تصرفه فيها بعد، عربة تجرها بغلتان بنيتان، ذهبتا السروج، كبغلتي الرئيس رافائيل نونيث، أصبح يحن الى ايام الحافلة، كأكثر الايام ازدهاراً في سيرته كصقر متصيد.

ولقد كان محققاً : فليس من عدو للغراميات السرية أسوأ من عربة خاصة تنتظر أمام الباب .  
لدرجة انه كان يترك العربة مخبأة في بيته ويمضي مشياً على الأقدام في جولاته المتغطرة ،  
حتى لا يترك ولو مجرد اثار العجلات على التراب . ولهذا ، كثيراً ما كان يذكر بحنين الحافلة  
القديمة ذات البغال الضامرة ، المتتوفة الوبر ، حيث كان يكفيه القاء نظرة سريعة بداخلها  
ليعرف أين هو الحب . ومع ذلك ، فانه لم يستطع ، وسط كل هذه الذكريات المثيرة ، ان  
ينسى ذكرى عصفورة مهجورة لم يعرف اسمها ، ولم يكذب يمضي معها سوى نصف ليلة  
مجنونة ، كانت كافية لتملأ فوضى الكرنفال البريئة بالمرارة فيما تبقى من حياته .

كانت قد لفتت انتباهه في الحافلة لمضيها وسط صخب الاحتفال العام بلامبالاة . لا بد  
انها كانت دون العشرين من العمر ، ولم يكن يبدو عليها الحساس للكرنفال ، اللهم الا اذا  
كانت متنكرة بهيئة اللامبالاة : كان شعرها فاتحاً ، طويلاً وناعماً ، مفلتا على سجيته فوق  
كتفها ، وكانت تلبس عباءة من قماش عادي بلا أية زينة . ولم تكن تعبأ أبداً بصخب الموسيقى  
في الشوارع ، ولا بحفلات الرز ، ولا بوابل عطر انيلين الذي يرشونه على الركاب لدى مرور  
الحافلة ، التي كانت بغالها بيضاء مطلية بالنشاء وعلى رؤوسها قبعات من الزهور هي زيتنها  
خلال ايام الجنون الثلاثة تلك . انتهاز فلوريتينواريثا حالة الفوضى السائدة ودعاها لتناول  
البوظة ، لانه لم يكن يعتقد بانها ستستجيب لشيء اخر . فنظرت اليه دون ان تُباغت وقالت :  
«أوافق بكل سرور ، لكنني أحذرك من انني مجنونة» . ضحك هذا الحاطر ، ورافقه لمشاهدة  
استعراض العربات المزينة من شرفة محل البوظة . بعد ذلك وضع طرطوراً مستأجراً ، واندسا  
معا وسط حلقة الرقص في ساحة الجمارك ، واستمتعا معاً وكأنهما عروسين ولداً لثومها ، اذ ان  
لامبالاتها وصلت الى اقصاها النقيض مع صخب الليل . كانت ترقص كمحترفة ، وكانت  
واسعة المخيلة وجريئة للاحتفال ، وذات سحر ماحق . وكانت تضحك ضحكة مجلجلة في  
حى الكرنفال وتقول له :

- انت لا تعرف الورطة التي اوقعت بها نفسك معي . أنا مجنونة من مشفى المجاذيب .  
لقد كانت تلك الليلة بالنسبة لفلوريتينواريثا بمثابة عودة الى مبالغات المراهقة  
الساذجة ، حين لم يكن قد ابتلى بالحب بعد . لكنه كان يدرك بحسه المعبذب ، اكثر من ادراكه  
بفعل التجربة ، ان سعادة هذه السهولة لا يمكن لها ان تدوم طويلاً . وهكذا فانه اقترح على  
الصبيبة ، كما هي العادة دائماً بعد توزيع الجوائز على أفضل المتنكرين ، ان يذهبا لمشاهدة  
الفجر من الفنار . وافقت شاكراً ، على ان يكون ذلك بعد الانتهاء من توزيع الجوائز .  
لقد بقي لفلوريتينواريثا الايمان بان ذلك التأخير قد انقذ حياته . فعلاً ، كانت الفتاة قد  
اشارت عليه بان يتطلقا الى الفنار ، حين هجم حارسان وممرضة من مشفى الراعية الالهية



للأمراض العقلية وألقوا بانفسهم عليها . كانوا يبحثون عنها منذ هروبها ، في الثالثة بعد الظهر ، ليس هم وحدهم ، وإنما القوة العامة بأسرها . كانت قد قطعت رأس أحد الحراس وجرحت اثنين آخرين بجراح بليغة بمنجل انتزعته من الجنائي ، لأنها أرادت الخروج للرقص في الكرنفال . ولكن لم يخطر ببال أحد انها ترقص في الشارع ، وإنما ظنوا بانها مخبئة في أحد البيوت الكثيرة التي فتشوا كل شيء فيها بما في ذلك الصهاريج .

لم يكن من السهل حملها . فقد دافعت عن نفسها بمقصد كانت تحبته في صدرتها ، وقد احتاجوا لستة رجال لالباسها قميص الثبيت ، فيما الحشد المجتمع في ساحة الجمارك يصفق ويصفير بمرح ، معتقدا ان عملية الاعتقال الدامية هي واحدة من مشاهد الكرنفال التهريرية الكثيرة . تأثر فلورينتينو اريثا جداً ، وأخذ يتردد منذ أربعة الرماذ على شارع الرابعة الالهية حاملا لها علبة شوكولاته انكليزية . وكان يراقب السجينات اللواتي يطلقن عليه جميع انواع الشتائم والمغازلات من خلال النوافذ ، فيثيرهن بعلبة الشوكولاته ، عل الحظ بحالفه وتعل هي أيضا من بين القضبان المعدنية . لكنه لم يرها أبدا . وبعد عدة شهور ، وفيما هويئزل من حافلة البغال ، طلبت طفلة كانت تسير مع أبيها قطعة شوكولاته من العلبة التي يحملها بيده . أنبها ابوها وطلب منها ان تعتذر لفلورينتينو اريثا . لكن هذا أهدى العلبة كلها للطفلة مفكراً بان تلك اللفظة قد تنجيها من المارة ، وهذا من روع الأب بان ربت على كتفه قائلاً :

- كنت قد احضرتها لحب ذهب مع الشيطان .

وكتعويض من القدر ، تعرف فلورينتينو اريثا في حافلة البغال أيضا على ليونا كاسياني ، التي كانت امرأة حياته الحقيقية ، رغم انها ، هو وهي ، لم يعلما ذلك أبدا ، ولم يبارسا الحب مطلقا . كان قد أحس بها قبل ان يراها اثناء عودته الى البيت في حافلة الساعة الخامسة : كانت نظرة مادية قد لامسته وكأنها أصبح . رفع بصره ورآها في الطرف المقابل ، محددة تماماً بين الركاب الآخرين . ولم ترفع نظرها عنه . بل على العكس : بقيت تنظر اليه بوقاحة لم تتمكن من الظن بشيء آخر سوى ما ظنه : زنجية ، شابة جميلة ، لكنها عاهرة دون شك . أزاحها من حياته ، لأنه ما كان يتصور شيئا ابشع من دفع ثمن الحب : وهذا ما لم يفعله أبداً .

نزل فلورينتينو اريثا في ساحة العربات ، وهي المحطة الاخيرة للحافلة ، وانسل بأقصى سرعة عبر متاهة المتاجر لان أمه تنتظره في الساعة السادسة ، وعندما خرج من الجانب الاخر للحشد سمع وقع كعب نسائي مرح على بلاط الرصيف ، فعاد ينظر ليتأكد مما كان يعرفه : انها هي . كانت ترتدي ملابس كملاص العبيد التي في الصور ، مع تنورة ذات كشاكش واسعة ترفعها بحركة راقصة لثمر فوق برك الماء المتجمعة في الشوارع ، وفتحة عنق تكشف عن كتفها ، وعقد ملون يلتف حول عنقها عدة لفات وعبامة بيضاء . انه يعرف هذا النوع من

النساء في فندق العابرين . وكثيراً ما يحدث لاحداهن أن تبقى بلا فطور حتى السادسة مساءً ، ولا يجدن حينئذ من وسيلة للحصول على الطعام الا باستخدام الجنس كخنجر قاطع الطريق ، فيضعنه على عنق أول من يلتقيه في الشارع : عضوك أوحياك . وبحثا عن دليل نهائي ، بدل فلوريتينواريثا اتجاهه ، ودخل في زقاق الكابنديليخوالمقفر ، فلحقت به مقربة منه اكثر فأكثر . عندئذ توقف ، والتفت اليها ، وسد عليها الطريق فوق الرصيف مستندا على المظلة بيديه الاثنتين . ووقفت هي مقابلة .

قال لها :

- انك مخطئة يا جيلي . فأنا لست كذلك .

- بل أنت كذلك . وهو باد في وجهك .

وتذكر فلوريتينواريثا عبارة كان قد سمعها وهو طفل صغير من طبيب العائلة ، عرابه ، معلقا على امساكه المزمّن : «العالم مقسوم الى من يتغوطون جيدا ومن يتغوطون بشكل سيء» . وعلى هذا المبدأ أقام الطبيب نظرية متكاملة حول الخصائص الانسانية التي يعتبرها اكثر دقة من التنجيم . ومع تجارب السنين ، طرح فلوريتينواريثا النظرية بطريقة اخرى : «العالم مقسوم بين الذين يشدون والذين لا يشدون» . وكان يرتاب هؤلاء الاخيرين ، لانهم يعتبرون خروجهم عن السكة أمرا خارقا ، فيتجحون بالحب وكأنهم هم الذين اخترعوه لتوهم . أما الذين يمارسونه بكثرة ، فانهم يعيشون له فقط . ويشعرون بانهم على أحسن حال ، حتى انهم يبدون كأحداث مغلقة ، فهم يعلمون ان حياتهم تعتمد على التكتّم . لا يتكلمون أبدا عن مآثرهم ، ولا ينشون بأحد ، وينظاهرون بالسهوح حتى يوصمون بالعجز وبالضعف الجنسي ، وبانهم مخشون رعاديد ، كما هو حال فلوريتينواريثا . لكنهم يساهمون في تعميم هذا الخطأ ، لانه يؤمن لهم الحماية . انهم محفل مغلق ، يتعارف اعضاؤه على بعضهم في العالم بأسره ، دون الحاجة الى لغة مشتركة . ومن هنا لم يفاجيء رد الفتاة فلوريتينواريثا : انها واحدة من جماعته ، وبالتالي فهي تعرف بانه يعرف انها تعرف .

كان هذا هو خطأ حياته الذي سيتذكره بوعيه كل ساعة في كل يوم ، وحتى آخر يوم . ما كانت تريد طلبه منه ليس الحب ، وليس الحب المدفوع الاجر كذلك بالطبع ، وانما كانت تريد عملا ، أي عمل كان ، وكيفسا كان وبأي اجر كان ، في شركة الكاريبي للملاحة النهرية . أحس فلوريتينواريثا بخجل عارم لتصرفه معها لدفعه لمرافقتها الى مدير التوظيف الذي منحها عملا من الدرجة الدنيا في القسم العام ، تولته بكل جدية وتواضع وانكباب خلال ثلاث سنوات .

كانت مكاتب ش . ك . م . ن . تقوم منذ تأسيسها مقابل الميناء النهري الذي لا يشبه

يشيء ميناء عابرات المحيطات في الجانب الآخر من الخليج، ولا مرسى السوق عند شاطئه. لاس اينساس. وكانت تلك المكاتب عبارة عن مبنى خشبي سقفه من التوتياء المضلع، وله شرفة طويلة متصلة تستند على دعائم خشبية من الجهة الامامية، وعدة نوافذ ذات شبك معدنية من الجهات الاربع، تبدو منها السفن في الميناء وكانها لوحات معلقة على الجدار. عندما بناه الألمان الأوائل، ظلوا توتياء السقف باللون الأحمر والجدران الخشبية باللون الأبيض البراق، بحيث كان في المبنى ذاته شيء من السفن النهرية ثم دهنوه بكامله فيما بعد باللون الأزرق، وفي الزمن الذي دخل فيه فلورينتينوارثا للمعمل في الشركة كان المبنى قرميديا معفرا بلالون معد، وعلى السقف الصديء كانت توجد رقع من صفائح توتياء جديدة فوق الصفائح الأصلية. ووراء المبنى، في فناء مرصوف ببلاط متآكل ومسيج بشبكة أسلاك كشباك اقنان الدجاج، كانت توجد حائشان كبيرتان حديثا البناء، وفي نهاية الفناء ثمة انبوب تصريف مغلق، قدرومتن، حيث تتعفن فضلات نصف قرن من الملاحة النهرية : حطام سفن تاريخية، بدءا من السفن البدائية ذات المدخنة الوحيدة، التي دشنها سيمون بوليفار، وحتى بعض السفن الحديثة المزودة بمراوح كهربائية في القمرات. وكان معظم تلك السفن مفككا لاستخدام اجزاء منها في سفن اخرى، ولكن عددا لا بأس به منها كانت في حالة تبدو معها انها لا تحتاج الا لطلائها بوجه من الدهان واطلاقها للابحار، دون إخافة العظائيات او تقطيع الاياك ذات الازهار الكبيرة الصفراء التي تجعلها اكثر تشويقا.

في الطابق الأعلى من البناء كان يقوم القسم الاداري، وذلك في مكاتب صغيرة لكنها مريحة وحسنة التجهيز، كقمرات السفن، اذ انها لم تُصمم على يد مهندسين مدنيين وانما مهندسين بحريين. وفي نهاية الممر، كان العمليون الثاني عشر، كأبي موظف آخر، يصرف الاعمال في مكتب كالمكاتب الاخرى كلها، مع فارق وحيد هو انه كان يجده فوق منصته صباح كل يوم مزهريه زجاجية فيها أي نوع من الزهور ذات الرائحة الذكية. وفي الطابق السفلي كانت شعبة المسافرين، مع صالة انتظار ذات مقاعد خشنة وطاوله لاصدار بطاقات السفر وتسيير الامتعة. واخيرا كان هناك القسم العام، وبمجرد تسميته توحى بفموض اختصاصه، حيث تنتهي المشاكل التي تبقى دون حل في بقية أقسام الشركة، لتموت فيه أسوأ ميتة. هناك كانت ليونا كاسياني، منسية وراء طاولة مدرسية صغيرة بين رزم من الاوراق التي لا حل لها، يوم ذهب الدم ليون الثاني عشر بنفسه ليرى أبة شياطين مستختره ليجعل القسم العام نافعا في شيء. وبعد ثلاث ساعات من الاسئلة، والاقتراحات النظرية والاستقصاءات المحددة مع جميع الموظفين في اجتماع موسع، رجع الى مكتبه معذبا ليس ييقين انه لم يجد أي حل لكل هذه المشاكل، بل على العكس تماما : ثمة مشاكل جديدة

ومتنوعة لا حل لها .

وفي اليوم التالي، حين دخل فلورينتينواريثا الى مكتبه، وجد مذكرة من ليونا كاسياني، مع رجاء بان يدرس المذكرة وان يعرضها على عمه فيها بعد، إن بدت له مناسبة . كانت الوحيدة التي لم تنطق كلمة واحدة خلال جلسة التفتيش في مساء اليوم السابق . فقد حافظت بوعي على مكانتها كموظفة بالشفقة، وذكرت في المذكرة بانها لم تفعل ذلك تهاونا واهمالا وانما احتراما لمسؤولي القسم . وكان حلها على جانب مثير من البساطة . كان العم ليون الثاني عشر قد اقترح اعادة تنظيم جذرية، لكن ليونا كاسياني كانت تفكر في اتجاه معاكس، انطلاقا من البديهية البسيطة بان القسم العام لا وجود له عمليا : انه مزبلة المشاكل المعلقة وعدمية الجديوي التي ترفعها الاقسام الاخرى عن كواهلها . وبالتالي فان الحل في الغاء القسم العام، واعادة المشاكل ليتم حلها في اقسامها الاصلية .

لم تكن لدى العم ليون الثاني عشر ادنى فكرة عمن هي ليونا كاسياني، ولم يذكر انه رأى احداً يمكن ان يكونها في اجتماع مساء اليوم السابق، لكنه عندما قرأ المذكرة استدعاها الى مكتبه وتحادث معها على انفراد لمدة ساعتين . تحدثا قليلا في كل موضوع، انسجاما مع منهجه في التعرف على الناس . كانت المذكرة بسيطة وعادية، وقد اعطى الحل النتائج المرجوة فعلا . لكن العم ليون الثاني عشر لم يهتم بهذا : كان مهتما بها . وكان اكثر ما لفت انتباهه ان دراستها الوحيدة بعد المدرسة الابتدائية كانت في مدرسة صناعة القبعات . كما انها كانت تتعلم الانكليزية في بيتها مستخدمة لذلك منهجاً سريعاً دون معلم، وانما تتلقى منذ حوالي ثلاثة شهور دروساً ليلية لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، وهي مهنة مستجدة ذات مستقبل باهر، كما كان يقال فيها مضى عن التلغراف، وكما قيل من قبل عن الآلات البخارية .

ما ان خرجت من المقابلة حتى كان العم ليون الثاني عشر قد بدأ بمصاداتها كما سيناديها دائماً : مثيلتي بالاسم ليونا . كان قد قرر الغاء القسم موضع الخلاف بحجة قلم وتوزيع المشاكل ليجري حلها من قبل مسببها انفسهم، مثلما اقترحت ليونا كاسياني، كما ابتدع لها منصباً بلا اسم وبلا مهام محددة، وهو عملياً منصب معاونته الخاصة . وفي مساء هذا اليوم، بعد دفن القسم العام دون تكريم، سأل العم ليون الثاني عشر فلورينتينواريثا من أين اتى بليون كاسياني، فأجابه هو بالحقيقة .

فقال له العم ليون :

- عد اذن إلى الحافلة واتني بمن هن مثلها . فبائنتين أو ثلاث من هذا النوع سنقوم مركبك .

فهم فلورينتينواريثا الأمر كمزحة تقليدية من مَزَح العم ليون الثاني عشر، ولكنه وجد

نفسه في اليوم التالي بدون العربة التي اعطيت له قبل ستة شهور، والتي انتزعها من الآن ليتابع البحث عن المواهب المخبأة في الحافلات . أما ليونا كاسياني فان ترددها الأولي ما لبث ان اختفى، واخرجت من اعماقها كل ما كانت تخفيه بدهاء شديد في السنوات الأولى الثلاث . وبعد ثلاث سنوات أخرى كانت قد أحاطت بكل شؤون المؤسسة، وفي السنوات الأربع التالية وصلت إلى ابواب الامانة العامة، لكنها رفضت الدخول لان درجة واحدة كانت تفصلها عن فلورينتينواريشا . لقد كانت حتى ذلك الحين تحت امرته، وكانت تريد البقاء كذلك، رغم ان الحقيقة لم تكن كذلك: فلورينتينواريشا نفسه لم يكن واعياً إلى انه هو من كان تحت امرتها . فهو لم يفعل شيئاً سوى تنفيذ اقتراحاتها في الادارة العامة لمساعدته في الصعود أمام مكائد اعدائه الخفيين .

كانت ليونا كاسياني تتمتع بنواهب شيطانية في الوصول إلى الاسرار، فهي تعرف دوماً كيف تكون حيث يجب عليها ان تكون وفي الوقت المناسب . كانت ديناميكية، صامتة، وذات عذوبة حكيمة، ولكنها عند الضرورة، وبكل آلام روحها، تغلت الاعنة لطبعها الفولاذي . رغم انها لم تكن تستخدم هذا الطبع لصالحها . اذ كان هدفها الوحيد هو كنس سلم الترقيات بأي ثمن، وبالدم ان لم تكن ثمة وسيلة أخرى، ليصعد عليه فلورينتينواريشا ويصل إلى حيث أراد الصعود دون ان يحسب مسبقاً قواه الذاتية . كانت قادرة بكل تأكيد على عمل ذلك تلبية لميلها الجامح إلى السلطة، لكنها فعلت ذلك في الحقيقة وهي واعية ان ما تفعله ليس إلا مجرد امتنان . لقد كان قرارها حاسماً، حتى ان فلورينتينواريشا اختلطت عليه تكتيكاتها، وحاول في لحظة شؤم ان يغلق الطريق امامها معتقداً انها تحاول سد السبيل في وجهه . فوضعت ليونا كاسياني في موضعه الصحيح قائلة له :

- لا تخطيء . أنا مستعدة للتخلي عن كلي هذا عندما تشاء، ولكن فكر بالامر جيداً .

وفلورينتينواريشا، الذي كان قد فكر فعلاً، أعاد التفكير حينئذ على أحسن وجه استطاعه، وسلمها أسلحته . الحقيقة انه وسط تلك الحرب القدرة في مؤسسة تعاني أزمة دائمة، ووسط كوارثه كصقر صيد لا يهدأ، وحلم فيرمينادانا الذي أصبح أكثر بعداً عن التحقيق، لم يتوصل فلورينتينواريشا العصي على التأثير الى لحظة سلام داخلي أمام مرأى تلك الزنجية الباسلة، الملوثة بالبراز والحب في حمى الصراع . حتى انه كان يتألم سراً في أحيان كثيرة لانها لم تكن في الواقع كما ظنها مساء اليوم الذي تعرف فيه عليها، لانه كان سيمسح مؤخرته بمبادئه حينئذ ويبارس الحب معها حتى ولو دفع في سبيل ذلك تبر الذهب اللامع . لكن ليونا كاسياني بقيت كما كانت مساء ذلك اليوم في الحافلة، بملابسها التي كملابس عبدة مشعشة هاربة، وعيائهما المجنونة، وأقراطها واساورها العظمية، وبمجموعة عقودها وخواتمها

ذات الفصوص المزيفة في كل اصبع من اصابعها: لبوة شارع. والتبدل الوحيد الذي اضافته عليها السنون كان لصالحها: كانت تبهر في نضوج رائع، وصارت مفاتيها كامرأة اكثر اثاره، وجسدها الافريقي المتقد اخذ يصبح اشد زحماً مع نضجها. لكن فلورينتينو اريثا لم يعد ينتبه اليها مدة عشر سنوات، دافعاً بذلك كفارة خطاه الأول، ولقد ساعدته هي في كل شيء، سوى هذا.

وفي احدى الليالي التي بقي يعمل فيها حتى ساعة متأخرة، كما كان يفعل بكثرة بعد وفاة أمه، رأى فلورينتينو اريثا وهو يخرج ان هناك نوراً مضاء في مكتب ليونا كاسياني. فتح الباب دون ان يقرعه، ووجدها أمامه: وحيدة وراء الطاولة، غارقة في التفكير وجدية، بنظارة جديدة تمنحها مظهراً أكاديمياً. وانتبه فلورينتينو اريثا بلفحة سعادة إلى انها وحيدان في المبنى، كانت ارضفة الميناء مقفرة، والمدينة هاجعة، والليل السرمدي فوق البحر المظلم، والجوار الكئيب لسفينة يحتاج وصولها لاكثر من ساعة. استند فلورينتينو اريثا على مظلة بكليتا يديه، تماماً كما فعل في زقاق الكانديليخوليسد عليها الطريق، إلا انه اليوم فعل ذلك كي لا تلاحظ ارتعاش ركبتيه، وقال لها:

- أخبريني يا لبوة روجي: متى سنخرج من هذا؟

رفعت نظارتها عن عينيها دون ان تفاجأ، بسيطرة مطلقة، وأبهرت بابتسامتها الشمسية. ولم تكن قد خاطبته برفع الكلفة أبداً من قبل، وقالت:

- آه يا فلورينتينو اريثا، عشر سنوات وأنا جالسة هنا أنتظر ان تسألني هذا السؤال.

لقد جاء متأخراً: كانت الفرصة معها وهي في حافلة البغال، وكانت تجلس معها دوماً على الكرسي نفسه الذي تجلس عليه، أما الآن فقد مضت إلى الابد. والحقيقة انها بعد كل المكائد الخفية التي قامت بها من أجله، وبعد كل البذات التي احتملتها من أجله، كانت قد سبقته في الحياة، فصارت تبدو اكبر بكثير من السنوات العشرين التي تكبره بها. كانت تحبه كثيراً، لذلك فضلت الاستمرار بحبه بدلاً من ان تخدعه، حتى ولو جعلته يدرك ذلك بأسلوب قاسي.

قالت له:

- لا. سأشعر بانني أنام مع الابن الذي لم أنجبه أبداً.

بقي فلورينتينو اريثا وفي حلقة شوكه لانه لم يكن صاحب الكلمة الاخيرة. ففكر بان المرأة حين تقول لا، فانها تنتظر الاحاح قبل اتخاذ قرارها النهائي، لكن الأمر معها كان مختلفاً: لا يستطيع ان يغامر بالخطأ ثانية. انسحب عن طيب خاطر، بل وبعوض الرشاقة التي لم تكن سهلة عليه. ومنذ تلك الليلة، تبددت دون مرارة أية طلال قد تكون بينها، وفهم فلورينتينو

اريتا اخبراً انه يستطيع ان يكون صديقاً لامرأة دون ان يضاجعها

كانت ليونا كاسياني هي الكائن البشري الوحيد الذي حاول فلوريتينو اريثا ان يكشف لها سر فيرمينا دانا. فالاشخاص القلائل الذين يعرفون السربداو بنسيانه لاسباب القاهرة فشلاثة منهم حملوه معهم إلى القبر دون شك: أمه، وكانت قد محته من ذاكرتها قبل موتها بكثير. وغالاً بلاتيديا، التي ماتت بشيخوخة متقدمة وهي في خدمة من كانت كابنة لها. وطيبة الذكر اسكولاستيكا دانا، التي حملت له في كتاب الصاوات أول رسالة حب تلقاها في حياته، والتي لا يمكن لها ان تكون على قيد الحياة بعد كل هذه السنين. ولوريشودانا، الذي لم يكن يعرف حينئذ ان كان ميتاً أم حياً، ويمكن ان يكون قد كشف السر للاخت فرانكا دي لا لوث محاولاً الحيلولة بذلك دون طرده ابنته من المدرسة، ولكن احتمال اشاعته الأمر ضئيل جداً. يبقى هناك أحد عشر عامل تلغراف من مقاطعة هيلديبراندا سانتشيث النائية، الذين تداولوا فيما بينهم برقيات تحمل اسميهما الكاملين وعناوينها الدقيقة، واخيراً هيلديبراندا سانتشيث وبطانتها من بنات الخزولة الجاححات.

ما كان يجمله فلوريتينو اريثا هو ما اذا كان عليه ضم الدكتور خوفينال اوربينو إلى القائمة. فهيلديبراندا سانتشيث كانت قد كشفت له السر أثناء إحدى زيارتها الكثيرة في السنوات الأولى. لكنها فعلت ذلك بشكل عرضي جداً وفي لحظة غير مناسبة، بحيث ان الخبر لم يدخل من احدى اذني الدكتور اوربينو ليخرج من الاذن الاخرى كما ظنت هي، وانما لم يدخل إلى أي من الاذنين أبداً. الواقعة هي ان هيلديبراندا ذكرت اسم فلوريتينو اريثا كواحد من الشعراء المغموين المؤهلين حسب رأيها للفوز بجائزة مهرجان الزهور. وقد تذكره الدكتور اوربينو بصعوبة بالغة، وقالت له دون حاجة للقول، ولكن دون ادنى نية للاساءة، بانه الشاب الوحيد الذي ارتبطت به فيرمينا دانا بعلاقة قبل زواجها. قالت ذلك وهي مقتنعة تماماً من انه قول بريء وعابر، اكثر مما هو مثير. ورد عليها الدكتور اوربينو دون ان ينظر اليها: ولم اكن أعلم ان هذا الشخص شاعر. وعما من ذاكرته في الحال، مثلاً يمحوراموراً أخرى، لان مهنته قد عودته استخداماً اخلاقياً للسيان.

ولاحظ فلوريتينو اريثا ان جميع المطلعين على السر، باستثناء أمه، كانوا ينتمون إلى عالم فيرمينا دانا. أما من جهته فلم يكن أحد سواه، وحيداً تحت وطأة حمل كثير ما احتاج إلى من يقاسمه اياه، لكنه لم يجد من هو جدير بكل هذه الثقة. وكانت ليونا كاسياني هي الاحتمال الوحيد، وكان يحتاج إلى الاسلوب والمناسبة فقط. كان يفكر بالأمر في ذلك المساء الصيفي القاطن، حين صعد الدكتور خوفينال اوربينو درج ش. ك. م. ن. المائل، باستراحة على كل

درجة لتجاوز قيظ الساعة الثالثة، وظهر لاهثاً في مكتب فلورينتينواريثا وميللاً بالعرق حتى ينطاله، وقال بالنفس الاخير: «أرى ان اعصاراً سيدهمنا». كان فلورينتينواريثا قد رآه هناك عدة مرات، باحثاً عن العم ليون الثاني عشر، لكنه لم يشعر أبداً بوضوح كما شعر ذلك اليوم بان لتلك الزيارة وهذا المظهر الغريب علاقة ما بحياته.

كان ذلك في الحقبة التي تجاوز فيها الدكتور خوفينال اورينيو كذلك عثرات المهنة، وأخذ يمضي متنقلاً من باب لباب كمتسول، حاملاً قبعته بيده، لجمع التبرعات لدعم مشاريعه في تشجيع الفنون. وقد كان العم ليون الثاني عشر دوماً هو أحد متبرعيه المواظبين والاسخياء، والذي كان قد بدأ في تلك اللحظة بالذات قبلولته اليومية التي تستغرق عشر دقائق، يغفوها وهو جالس على كرسي المكتب ذي النوابط. طلب فلورينتينواريثا من الدكتور خوفينال اورينيو التفضل بالانتظار في مكتبه، المجاور لمكتب العم ليون الثاني عشر، والذي كان يُستخدم إلى حد ما كصاله انتظار.

كانا قد التقيا في مناسبات عديدة، لكنهما لم يتقابلا وجهاً لوجه كما هما اليوم، وعانى فلورينتينواريثا مرة أخرى من احساسه بالوضاعة. لقد كانت عشر دقائق ابدية، نهض خلالها ثلاث مرات آملاً أن يكون العم قد استيقظ قبل موعده. وتناول ترمساً كاملاً من القهوة المرة، لم يقبل الدكتور اورينيو فنجاناً واحداً منه. اذ قال: «القهوة سم». وتابع وصل موضوع بآخردون ان يهتم ان كان يستمع اليه. لم يكن فلورينتينواريثا قادراً على احتمال وجاهته الطبيعية، وانسياب كلماته ودقتها، ورائحة نفسه العميق المشع بالكافور، وسحره الشخصي، واسلوبه السيط والمرتب الذي يجعل أثفه العبارات تبدو حوهرية لمجرد انه هو من ينطق بها، وفجأة، غير الطبيب موضوع الحديث على نحو مباغت.

- أنتحب الموسيقى ؟

أخذه على حين غرة. فالحقيقة ان فلورينتينواريثا يذهب لحضور كل كونسيرت أو عرض اوبرا يقام في المدينة، لكنه لم يكن يشعر بأنه قادر على ادارة حوار نقدي ومطلع. كان ميلاً إلى الموسيقى الدارجة، وخصوصاً الفالسات العاطفية، التي لا يمكن تجاهل شبهها بالموسيقى التي كان يعزفها في مراهقته، أو بأشعاره السرية. وكان يكفيه سماعها مرة واحدة بشكل عابر، حتى يعجز الرب نفسه عن انتزاع خيط اللحن من رأسه لعدة ليال. ولكن هذا كله لا يشكل رداً جدياً على سؤال بهذه الجدية يطرحه متخصص.

قال:

- يعجبني غارديل.

تفهم الدكتور اورينيو الأمر بقوله: «أرى ذلك». انه منتشر كموضة. «وانطلق يعدد مشروعاته



الجديدة والمتنوعة، والتي عليه تحقيقها كالعادة بلا اعانة رسمية. ولفت نظره إلى مستوى الاستعراضات الهابط المهبط للعزيمة، التي يجري احضارها الآن، وروعة استعراضات القرن الماضي. وهكذا كان: فمنذ سنة وهويبيع سندات من اجل دعوة ثلاثي كورتوت- كاسالس- ثيباور إلى مسرح الكوميدي، وليس هناك في الحكومة من يعرف من هم هؤلاء، بينما نفذت في ذلك الشهر بالذات بطاقات فرقة المآسي البوليسية رامون كارلت، وفرقة دون مانوللودي لابريسا للأوبريت الشعبي، وفرقة لوس سانتانيلاس الايهائية- الخيالية التي تحوّر النصوص بشكل غريب، والتي يدلل أعضاؤها ملابسهم على المنتص في لحظة خاطفة، وفرقة دانس دي التانين، التي يعلن عنها بانها جماعة الرقص السابقة في فرقة فوليس بيرغر، بل وتنفذ كذلك بطاقات استعراضات اوسوس الفظيعة، هذا الباسكي المعتوه الذي يصارع الثيران بجسده. ومع ذلك، فلا مجال للشكوى، لأن الاوربيين انفسهم يقدمون من جديد أسوأ مثل باشعالهم نار حرب همجية، بينما بدأنا نحن نعيش بسلام بعد تسعة حروب اهلية خلال نصف قرن، بالامكان، بعد حسابات جيدة: اعتبارها حرباً واحدة: الحرب ذاتها دائماً. وأكثر ما لفت انتباه فلوريتينواريثا في تلك الخطبة الساحرة، هو امكانية بعث مهرجان الزهور من جديد، والذي كان اكثر مبادرات الدكتورخوفينال اوربينوشهرة وديمومة. وكان عليه ان يعرض لسانه كي لا يقول له بانه كان مشاركاً مثابراً في تلك المسابقة السنوية التي أصبحت تثير اهتمام شعراء بارزين، ليس في بقية انحاء البلاد وحسب، وانما كذلك في بلدان الكاريبي الاخرى.

ما كادت المحادثة تبدأ، حتى برد بخار الهواء الساخن فجأة، وشفقت عاصفة رياح متقاطعة الابواب والنوافذ، بقوة، واهتزت المبنى وأنت ركانه وكأنه زورق في مهب الريح. لم يسد على الدكتورخوفينال اوربينوأنه أحس بها يجري. اذ اشار بشكل عرضي إلى أعاصير حزيران المجنونة، ثم انتقل فجأة، وبلا مناسبة، للحديث عن زوجته. لم يكن يعتبرها مساعدة نشيطة في مبادراته فقط، بل وروح تلك المبادرات ذاتها. قال: «لست شيئاً يذكر دونها». استمع اليه فلوريتينواريثا بلا تأثر، موافقاً على كل ما يقوله بحركة خفيفة من رأسه، دون ان يتجرأ على قول اي شيء خوفاً من ان يخنونه الصوت. ومع ذلك، فان عبارتين او ثلاث عبارات اخرى كانت كافية لجعله يدرك ان الدكتورخوفينال اوربينو، وسط كل هذه الالتزامات المرهقة، كان يجد فائضاً من الوقت لعبادة زوجته كما يعبدها هو، وقد اذهلته هذه الحقيقة. لكنه لم يستطع اتيان رد الفعل الذي شاءه، لأن قلبه عاجله حينئذ بخاطر باهر من تلك الخواطر التي تراود القلوب فقط: كشف له انه وذلك الرجل الذي اعتبره دوماً عدوه الشخصي، ضحيتا المصير نفسه، وانها يتقاسمان محنة عاطفة مشتركة. بهيمتان مربوطتان

معاً إلى النير نفسه . وللمرة الأولى خلال السنوات السبع والعشرين اللانهائية التي امضاها منتظراً، لم يستطع فلوريتينو اريثا مقاومة وخز الألم لاحساسه بانه لابد من موت ذلك الرجل الموقر لينعم هو بالسعادة .

مر الاغصان سريعاً، لكن عواصفه خربت خلال خمس عشر دقيقة أحياء المستنقعات، وسببت دماراً في نصف احياء المدينة . ولم ينتظر الدكتور خوفينال اوربينو، السعيد ثانية بكرم العم ليون الثاني عشر، إلى ان يتوقف المطر نهائياً، وحمل معه ساهياً مظلة فلوريتينو اريثا الخاصة التي اعاره اياها للوصول إلى العربية . لكن هذا الاخير لم يهتم . بل على العكس: أحس بالسعادة وهو يفكر بما ستفكر فيه فيرمينا دانا عندما تعرف من هو صاحب المظلة . كان ما يزال مضطرباً بانفعالات المواجهة حين مرت ليونا كاسياني من مكتبه، فرأى انها الفرصة الوحيدة المناسبة لكشف السر لها دون مزيد من المواجهة ، والافضاء به كما يشق دماً بنقص عليه حياته : الآن أو أبداً . بدأ بسؤالها عن رأيها بالدكتور خوفينال اوربينو . فاجابته دون ان تفكر بالامر تقريراً : «انه رجل يساهم بأعمال كثيرة، وربما هي كثيرة جداً، لكنني أظن أن أحداً لا يعرف ما الذي يفكر به» . ثم تروت قليلاً، وهي تقضم ممحاة قلم الرصاص بأسنانها الحادة والكبيرة، أسنان زنجية كبيرة، ثم هزت كتفها لتصفى مسألة لا تمها بشيء، وقالت :  
- ربما هذا هو سبب قيامه بكل تلك الاعمال : حتى لا يضطر للتفكير .

فقال :

- ما يؤمني هو أنه يجب أن يموت .

قالت :

- جميع الناس سيموتون .

قال :

- أجل، انما هذا أكثر من جميع الناس .

لم تفهم شيئاً . وعادت تهز كتفها دون ان تتكلم، وانصرفت . حيثذ عرف فلوريتينو اريثا انه في ليلة مستقبالية غير محددة، وفي سرير سعيد مع فيرمينا دانا، سيروي لها انه لم يكشف سر حبيها حتى للانسانة التي اكتسبت حق الاطلاع عليه، لا . . لن يكشفه أبداً، حتى ولا لليونا كاسياني . ليس لانه لا يريد فتح الصندوق الذي خبأ فيه سره بحرص خلال نصف حياة، وانما لانه ادرك حيثذ فقط بانه قد أضاع المفتاح .

لم يكن هذا مع ذلك، هو اكثراً ما أثر فيه يومذاك . لقد أعاد له اللقاء حين أيام شبابه، وذكرى حية من مهرجان الزهور، الذي كانت اصداؤه تدوي في كل خامس عشر من نيسان مألثة أجواء الانجيل . ولقد كان دائماً واحداً من أبطال المهرجان، انما كعادته في كل شيء

دوماً، كان بطلاً سريعاً. شارك مرات عديدة منذ مسابقة الافتتاح الأولى، قبل اربع وعشرين سنة خلت، ولم ينل أبداً أية جائزة، بل ولا التنويه الاخير. لكنه لم يكن بيالي، لانه لا يشارك طمعاً بالجائز، وانما لانه يجد في المسابقة جاذبية خاصة: ففيرمينا دائماً تولت مسؤولية فتح المملفات المختومة بالشمع واعلان النتائج في الدورة الأولى، وأقر منذ ذلك الحين ان تتولى القيام بهذا الدور في السنوات التالية.

وفيما هو مخبئ في عتمة المقاعد في الصالة، وفي عروة سترته زهرة كاميليا ندية تنبض بقوة الشوق، رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا دائماً وهي تفتح المملفات الثلاثة المختومة بالشمع الاحمر من فوق منصة المسرح لوطي القديم، ليلة المسابقة الأولى. تساءل ما الذي سيصيب قلبها حين تكتشف انه هو الفائز بالسحلبة<sup>(١)</sup> الذهبية. كان متأكداً انها ستتعرف على خطه، وانه ستداعى إلى مخيلتها في تلك اللحظة امسيات التطريز تحت اشجار اللوز في الحديقة الصغيرة. ورائحة الياسمين الذابل في الرسائل، وفالس الربة المتوجة، الذي يعرفه كلاهما، في الصباحات ذات الرياح. لكن ذلك لم يحدث. بل ان ما حدث كان أسوأ من اي تصور: فالسحلبة الذهبية، جائزة الشعر الوطنية المنشودة، خصصت لمهاجر صيني. والفضيحة العامة التي اشارها ذلك القرار العجيب وضع جدية المسابقة موضع الشك. لكن الخطيئة كانت عادلة، وكان لاجماع لجنة التحكيم ما يبرره في جودة القصيدة وتفوقها.

لم يصدق أحد ان يكون ناظمها هو الصيني الفائز. كان قد وصل إلى المدينة في اواخر القرن الماضي هرباً من آفة الحمى الصفراء التي عاثت خراباً بينا اثناء مد السكة الحديد ما بين المحيطين، إلى جانب صينيين آخرين استقروا هنا حتى موتهم، وكانوا يعيشون بالصينية، ويتناسلون بالصينية، ويشبهون بعضهم بعضاً حتى لم يكن هناك من هو قادر على تمييزهم. لم يتجاوزوا أول الأمر العشرة أشخاص، وكان برفقة بعضهم زوجاتهم وأولادهم وكلابهم التي يأكلونها، ولكن ما ان انقضت عدة سنوات حتى فاضت أربعة أزقة في أحياء الميناء بصينيين جدد كانوا يدخلون البلاد دون ان يتركوا أثراً في سجلات الجمارك. وقد تحول بعض الشباب منهم إلى شيوخ موقرين بسرعة كبيرة جداً لم يدرك أحد معها كيف اتيج لهم الوقت ليشيخوا. وقد قسمتهم البدية الشعبية إلى صنفين: الصينيون الاشرار والصينيون الاخيار. الاشرار هم اصحاب حانات الميناء الصغيرة الكثية. حيث يسكن للمرء أن يأكل كملك أو أن يموت فجأة على الطاولة أمام طبق فتران محضر مع عباد الشمس، وكانت الشكوك تحوم حول تلك الحانات بانها ليست سوى ستار يخفي وراءه تجارة رقيق ابيض

(١) السحلبة: زهرة نبتة السحلبة. وهي نبتة تربية ازهارها ذات لون ارجواني.

وعيرها. أما الصينيون الأخيار فهم صينيون محلات كيّ الملابس، ورثة هذا العلم المقدس، الذي يعيدون القمصان أنصع مما كانت عليه وهي جديدة، جاعلين ياقاتهما ومعاصمها تبدو وكأنها خبز قربان طازج. وكان أحد هؤلاء الصينيين الطيبين هو الذي هزم في مهرجان الزهور اثنين وسبعين منافساً معروفاً.

لم يفهم أحد من الحضور الاسم حين قرأته فيرمينا داثا مبهورة ليس لأنه كان اسماً غريباً وحسب، بل لأن أحداً ما كان يعلم علم اليقين كيف هي اساء الصينيين أيضاً. لكنهم لم يفكروا بالأمر طويلاً، اذ برز الصيني الفائز من آخر الصالة بتلك الابتسامة السماوية التي يتسمها الصينيون حين يصلون إلى بيوتهم في وقت مبكر. لا بد انه جاء وهو متأكد من الفوز، فارطدى لاستلام الجائزة قميص الحرير الاصفر الذي يلبسونه في طقوس الربيع. تلقى السحلبة الذهبية من عيار اربعة وعشرين قيراطاً، وقبلها بسعادة وسط استهزاء المستنكرين الصاخب. لم يتأثر. وانظر في منتصف المنصة. ثابت الجنان كرسول عناية الهية أقل دراماتيكية من التي نؤمن بها، وانتهز أول لحظة صمت ليقرأ القصيدة. فلم يفهمها أحد. لكن حين توقفت تيار السخرية الجديد، أعادت فيرمينا داثا قراءتها دون تأثر، بصوتها الأبع اللامح، فسيطر الذهول على الجميع منذ البيت الأول. لقد كانت سوناتة من أنقى سلالات السوناتات البرناسية، متقنة، ومخرقة بنفحة الهام تشي بمشاركة يد بارعة في نظمها. التفسير الوحيد المقبول هو ان أحد الشعراء الكبار قد خطط لتلك المزحة ليسخر من مهرجان الزهور، وان الصيني قد شارك فيها مقررأ كتمان السر حتى الموت. صحيفة دياريو ديل كوميرثيو، جريدتنا العريقة، حاولت ترقيع شرفنا الحضاري بمقال ضليع وأقرب إلى عسر الهضم حول عراقة تأثير الصينيين بمنطقة الكاريبي، وحققهم بالاشتراك عن جدارة في مهرجان الزهور. ولم يشك كاتب المقال في ان واضع السوناتة هو من يدعي ذلك فعلاً، ويرر الأمر دون لف ولا دوران بدءاً من العنوان: الصينيون كلهم شعراء. مدبر والمؤامرة، ان كان لها من مدبرين، تعفتوا في قبورهم مع السر. وكذلك مات الصيني الفائز بعد عمر شرقي دون ان يعترف، وقد دُفن مع السحلبة الذهبية في التابوت، وكذلك مع غصه انه لم يستطع ان يحقق في حياته الشيء الوحيد الذي كان يتوق اليه، ألا وهو اعتماده كشاعر. وبمناسبة موته ذكرت الصحافة حادث مهرجان الربيع المنسي، وأعيد توزيع السوناتة على ألحان كمان محدثة وبغناء فتيات منتفخات بنبات قرن الرخاء الذهبي، وانتهز الارباب القيمين على الشعر المناسبة ليضعوا الامور في نصابها: كانت السوناتة تبدو للجيل الجديد على درجة من السوء بحيث لم يعد أحد يشك في ان كاتبها هو الصيني الميت فعلاً.

لقد ارتبطت تلك الفضيحة في ذاكرة فلوريتينو أريثا بذكرى متأنقة مبهولة كانت تجلس إلى جانبه : كان قد تأملها عند بدء الاحتفال . لكنه ما لبث ان نسيها في رعب الانتظار . لقد لفتت انتباهه لياضها اللؤلؤي ، وشذى البدينة السعيدة الذي يفوح منها ، ولصدرها الضخم الندي المتوج بزهرة مانوليا اصطناعية . كانت ترتدي فستاناً مكسراً من المخمل الاسود ، شديد السواد كعينيهما الدسمتين ، وكان شعرها أشد اسوداداً ، تثبت على العنق بمشط زينة كالذي تستخدمه العجريات . كانت تضع اقراطاً متدلية ، وعقداً من النوع ذاته وخواتم مشابهة في عدة أصابع ، جميعها ذات طبعة براقة ، وخالاً مرسوماً بالقلم على وجتها اليمنى . وفي ضجة التصفيق النهائي ، نظرت إلى فلوريتينو أريثا بكأبة صريحة وقالت له :  
- صدقني اني أسفة من أعماق روحي .

ذهل فلوريتينو أريثا ، ليس للتعزية التي كان يستحقها فعلاً ، وانما لاندهاشه بان هناك من يعرف سره . وأوضحت له : « ادركت ذلك للطريقة التي كانت تنبض بها الزهرة فوق صدرك اثناء فتح المخلقات » . أرتة زهرة المانوليا الاصطناعية التي كانت تحملها بيدها ، وفتحت له قلبها قائلة :

- لهذا السبب نزعتم زهرتي .

كانت على وشك البكاء للهزيمة ، لكن فلوريتينو أريثا أبدل مزاجها بغريزته كصياد ليل حين قال لها :

- هلمي بنا إلى مكان نبكي فيه معاً ،

أصطحبها إلى بيتها . وفيها هما أمام الباب ، ونظراً لأن الوقت كان منتصف الليل تقريباً ولا وجود لاحد في الشارع ، فقد أقنعها بان تدعوه لتناول كأس من البراندي ورؤية البومات قصاصات وصور أحداث اكثر من عشرة أعوام من الحياة العامة ، أخبرته انها تملكها . انها خدعة قديمة جداً ، ولكنها كانت لا ارادية هذه المرة لانها هي التي تحدثت عن البوماتها فياها قادمان من المسرح الوطني . دخلا . وأول ما لاحظته فلوريتينو أريثا هو ان باب غرفة النوم الوحيدة كان مفتوحاً ، وان سريرها كان فسيحاً وفخماً ، عليه غطاء من البروكار وله مسند علوي من البرونز المزخرف . لقد بلبله هذا المشهد . ولا بد انها انتهت لذلك ، اذ تقدمت عبر الصالة وأغلقت باب حجرة النوم . ثم دعتة للجلوس على متكأ من اكرتون المزين برسوم أزهار حيث كان ينام هر ، ووضعت على طاولة صغيرة امامه مجموعة البوماتها . بدأ فلوريتينو أريثا بتصفحها دون اسراع ، مفكراً بخطواته التالية اكثر من تفكيره بما يراه ، وفجأة رفع بصره فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع . فنصحها بان تبكي متى شاءت ، دون خجل ، فلا شيء يخفف الآلام كالبكاء ، لكنه اشار عليها بان تحمل الصديري لتبكي براحة . وسارع

لمساعدتها، لأن الصديري كان مثبتاً بقوة على الظهر بواسطة رباط متقاطع. ولكنه قبل ان ينتهي من حلّ الرباط، اذا بالصديري يفلت وحده بالضغط الداخلي، وتنفسث الائداء الفلكية براحتها.

فلورينتينواريثا الذي لم يفقد أبداً رهبة المرة الأولى، حتى في المناسبات الأكثر سهولة، غامر بمداعبة سطحية على العنق برؤوس أصابعه، فتلوت بأهة طفلة مدللة دون ان تتوقف عن البكاء. عندئذ قبلها في الموقع ذاته، بنعومة، وكأنه يقبلها بأصابعه، ولم يستطع عمل ذلك ثانية لأنها التفتت اليه بكامل جسدها العظيم، الشره والدافيء، وتدحرجا معاً على الأرض. استيقظ القط النائم على المتكأ مطلقاً مواء حاداً، وقفز فوقهما. بحثا عن بعضهما باللمس كمبتدئين متهورين ووجدا نفسيهما كيفما اتفق، منقلين فوق الألبومات المنتزعة اغلفتها، بملايسها، غارقين في العرق، وأكثر انشغالاً بتفادي خرمشات القط الغاضبة من اهتمامها بكارثة الحب التي يقترفاها. ولكنها منذ تلك الليلة، بجراحهما التي ما زالت تنزف، تابعا ممارسة الحب لعدة سنوات.

عندما انتبه إلى انه بدأ يجيها، كانت قد أصبحت في أوج الاربعينات، وكان يكاد ان يكمل الثلاثين. اسمها سارا نوريجا، وقد نعمت بربع ساعة من الشهرة في شبابه، حين فازت في مسابقة بديوان شعر عن حب الفقراء، لم يجد طريقه إلى النشر أبداً. كانت معلمة لمادة التمدن والتربية المدنية في المدارس الرسمية، وتعيش على راتبها في بيت مستأجر في رفاق لوس نوفيوس المضطرب، في حي خيشتياني القديم. لقد عرفت عدداً من العشاق الطارئين، دون ان تراود ايأ منهم آمال الزواج منها، لانه كان يصعب على رجل من وسطها وفي زمنها الاقتران بامرأة ضاحكها. كما انها لم تعد تغذي هذا الأمل في نفسها بعد ان هجرها خطيبها الرسمي الأول، الذي أحبته بالعاطفة شبه المجنونة التي كانت قادرة عليها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وقد هرب من التزامه قبل اسبوع من الموعد المحدد للزفاف، وتركها ضائعة كهروس مخدوعة، أو كعزباء مستعملة، كما كان يقال في ذلك الحين. ورغم قسوة تلك التجربة وسرعة انتهائها، فانها لم تنسب لها أية مراة، بل رسخت لديها قناعة طاغية بان الحياة بالزواج اودونه، بدون رب أو قانون، لا تستحق ان تعاش ان لم تكن بوجود رجل في الفراش. وأكثر ما كان يعجب فلورينتينواريثا فيها هو انها كانت تمص مصاصة طفل رضيع وهي تمارس الحب لكي تصل إلى ذروة المجد. وقد اقتنيا مجموعة من مختلف الاحجام والاشكال والألوان التي وجداهما في السوق، وكانت سارا نوريجا تعلقها على مسند السرير لتجدها وهي مغمضة العينين في لحظات الحاجة الماسة لها.

ورغم انها كانت حرة مثله، وربما انها ما كانت لتعارض كشف علاقتها للملأ، إلا ان فلورينتينو اريثا طرح العلاقة كمغامرة سرية. كان ينسل من باب الخدمة، في وقت متأخر من الليل دوماً، ويهرب على رؤوس أصابعه قبيل الفجر بقليل. وكان يعرف مثلها تعرف هي انه في بيت مشترك يعيش فيه عدد كبير من السكان كذاك البيت، لا بد للجيران في النهاية من أن يكونوا أكثر اطلاعاً مما يتظاهرون. ولكن فلورينتينو اريثا كان هكذا، حتى ولو كان الأمر مجرد معادلة نظرية، وسيبقى كذلك خلال بقية حياته. لم يقترف أي خطأ أبداً، سواء معها أو مع أي واحدة أخرى، ولم يرتكب أبداً أي خروج على هذا المبدأ. لم يكن يبالغ. وفي مناسبة واحدة فقط ترك أثراً مشبوهاً أو دليلاً مكتوباً، كاد يكلفه حياته. والحقيقة انه تصرف دائماً كما لو كان الزوج الأبدي لغير مينا دائماً، زوج غير مخلص ولكنه متمسك بزوجه، يناضل دون هواده ليتحرر من عبوديتها، ولكن دون ان يسبب لها غم الخيانة الزوجية.

لم يكن ممكناً لهذه السرية المحكمة ان توفق دونها خطأ. فحتى ترانستيتواريثا توفيت وهي مقتنعة ان ابنها الذي حبلت به بالحب وترعرع للحب كان محصناً ضد أي شكل من اشكال الحب بسبب محنته الأولى في شبابه، ومع ذلك، فان اناساً كثيرين أقل اريحية ممن هم قرييون منه، ويعرفون طبيعته السرية وميله إلى الملابس الزاهدة والمستحضرات الغربية، كانوا يشاركون في الشكوك بانه ليس محصناً ضد الحب وانها ضد المرأة فقط. وكان فلورينتينو اريثا يعرف ذلك ولكنه لم يفعل شيئاً لتكذيبه. كما ان الامر لم يكن يقلق سارا نوريجا، وغيرها من النساء الكثيرات اللواتي احبهن، بل وأولئك اللواتي كن يتمتعن ويستمتعن معه دون ان يحبهن، ويقبلن به كما هو في الواقع: رجل عابر.

صار يذهب إلى بيتها في أي وقت، وخصوصاً في صباحات أيام الأحاد، التي كانت أهدأ الأوقات. فكانت تترك ما تقوم به، مهما كان، وتكرس نفسها بكامل جسدها محاولة اسعاده في السرير التاريخي الفسيح الذي كانت متأهبة له دوماً، والذي لم تكن تسمح بممارسة الحب عليه بطقوس شكلية. ولم يكن فلورينتينو اريثا ليفهم كيف يمكن لعزباء بلا ماض استخدام جسدها الدلفيني العذب بكل هذه الخفة وهذا الحنان كما لو انها تتحرك تحت الماء. وكانت تدافع عن نفسها بالقول ان الحب، قبل كل شيء، هو موهبة طبيعية. ونقول: «اما ان يولد الانسان وهو يصرفه أو انه لن يعرفه أبداً». كان فلورينتينو اريثا يتلوى بغيرة تفكيره بانها ربما تكون أكثر استملاً مما تتظاهره، وكان عليه ان يتلعن غيرته كلها، لانه كان يقول لها ما قاله للاخريات جميعهن، بانها عشيقته الوحيدة. ومن الأشياء الكثيرة التي لم يكن يحبها، كان صبره على وجود القط الهائج في السريس، والذي كانت سارا نوريجا تقلم مخالبه حتى لا

يمزقها بخرمشته اثناء ممارستها الحب .

ومع ذلك، وكفرحها في السرير حد الانهاك، كانت تحب تكريس تعب الحب لعبادة الشعور. ولم تكن تتمتع بذاكرة مذهلة في حفظ اشعار عصرها العاطفية وحسب، تلك التي يساع جديدها في كتيبات يستنافين في الأزقة، بل انها كانت تعلق بمسامير على الجدران قصائدها المفضلة، لتقرأها بأعلى صوت في أي وقت. وكانت قد نظمت في مقاطع احد عشرية مزدوجة نصوص دروس التمدن والتربية المدنية، على طريقة المنظومات المستخدمة في تعليم الاملاء حينئذ، ولكنها لم تحصل على الموافقة الرسمية بأقرارها. لقد كان اندفاعها الخطابي يحملها أحياناً إلى مواصلة الفاء الشعر بأعلى صوتها اثناء ممارستها الحب، مما يضطر فلورينتينو اريثا لدس مصاصة في فمها، مثلما يفعلون بالأطفال لوقفهم عن البكاء .

كان فلورينتينو اريثا بتساءل وهما في أوج علاقتهما، أي الحالتين اللتين يتخذان هي الحب . . هل هي في ما يفعلانه في السرير المضطرب أم تأملهما في أمسيات الأحاد الهادئة فتطمئنه سارا نوريغا بحجة بسيطة هي ان كل ما يفعلانه عارين هو الحب . وكانت تقول : «حب الروح من الخصر فما فوق وحب الجسد من الخصر فما تحت» . وقد بدا لها هذا التصنيف مناسباً لقصيدة حول الحب المسموم، كتبها بأربعة أيد، وتقدمت بها إلى مهرجان الزهور الخامس، مؤقتة ان أحداً لم يشارك حتى ذلك الحين بقصيدة على هذا النحو من الاصاله . لكنها خسرت من جديد

كانت ثائرة عندما اصطحبها فلورينتينو اريثا إلى بيتها . ولم تستطع تفسير سبب ثورتها . كانت مقتنعة ان ثمة مؤامرة تدبرها فيرمينا دانا ضدها، لتحول دون فوز قصيدتها بالجائزة . لم يولها فلورينتينو اريثا اذناً صاغية . لقد كان مكتئب المزاج منذ تسليم الجوائز، فهو لم يرف فيرمينا دانا منذ زمن بعيد، وقد أحس تلك الليلة بانها قد تغيرت تغيراً عميقاً : فللمرة الأولى تظهر جلبة لأول وهلة حالتها كام . لم يكن هذا بالأمر الجديد عليه، فقد كان يعلم ان ابنها بدأ الذهاب إلى المدرسة . ولكن عمرها الامومي لم يكن قد بدا له رغم ذلك بمثل هذا الوضوح الذي رآه في تلك الليلة، سواء في محيط خصرها أو في مشيتها اللاهثة إلى حد ما، أوفي عشرات صوتها حين قرأت قائمة الجوائز.

وفي محاولة لتثبيت ذكرياته عاد يتصفح ألبومات مهرجانات الزهور فيها سارا نوريغا تعد شيئاً للأكلي . رأى صوراً مأخوذة من مجلات، وبطاقات مصفرة من تلك التي تباع كتذكارات في الأزقة، وبدا له ذلك كمراجعة وهمية لخداع حياته بالذات . فقد كان يرتكر حتى ذلك الحين على وهم ان الدنيا هي التي تتغير، فالعادات تتغير وكذلك الموضة . . كل شيء يتغير إلا هي . لكنه رأى في تلك الليلة، للمرة الأولى، وبشكل جلي كيف كانت حياة فيرمينا دانا



تمضي، وكيف كانت حياته هومضي، بينما لا يفعل شيئاً سوى الانتظار. لم يكن قد تحدث عنها لأحد أبداً، لأنه يعرف انه عاجز عن نطق اسمها دون ان يظهر الشحوب على شفثيه. أما في هذه الليلة، وفيما هو يتصفح الالبومات كما يفعل في معظم سهرات الاحد المملة، حققت سارا نوريغا صدفة، اصابة من تلك التي تحمد الدم حين قالت :  
- انها لعاهرة.

قالت ذلك لدى مرورها، ناظرة إلى صورة تظهر فيها فيرمينا داثا متكررة كفهدة سوداء في حفلة رقص تنكرية، ولم يكن عليها ان تذكر اسماً ليعرف فلوريتينو اريثا عمن تتحدث. سارع إلى الدفاع بحذر، خائفاً من الانزلاق إلى كشف يزعزع حياته. نبه إلى انه لم يعرف فيرمينا داثا إلا عن بعد، وان معرفته بها لم تتجاوز التحيات الرسمية وانه لا يمتلك أية أخبار عن حياتها الخاصة، لكنه ابدى قناعته بانها امرأة محترمة، خرجت من لا شيء. وارتفعت بمواهبها الذاتية.

فقاطعت سارا نوريغا :

- بفضل زواج مصلحة من رجل لا تحبه. انها أخط وسيلة للدعارة.  
كانت أم فلوريتينو اريثا قد قالت له ذلك يوماً بفظاظة أقل، انها بالصراحة نفسها لتواسيه في محنته. ولم يجد وهو مضطرب حتى النخاع رداً مناسباً على قسوة سارا نوريغا، فحاول الهرب من الموضوع. لكن سارا نوريغا لم تسمح بذلك قبل ان تفرج عن نفسها ضد فيرمينا داثا. وبضربة حدة لم تكن قادرة على تفسيرها، أبدت قناعتها بانها هي من دبر المؤامرة لحجب الجائزة عنها. لم يكن ثمة سبب لتصديق ذلك: فهما لا تعرفان بعضهما، ولم تلتقيا أبداً، وليس لفيرميناداثا أية علاقة بقرارات المسابقة، هذا اذا كان لها أي اطلاع على اسرارها. وقالت سارا نوريغا بشكل قاطع : «اننا معشر النساء عرافات». ووضعت حداً للنقاش.

منذ هذه اللحظة، رآها فلوريتينو اريثا بعينين اخريين. فالسنوات كانت تمضي بالنسبة لها كذلك. وكانت طبيعتها الخصبية تذوي دون أمجاد، وصارحها يتأطل في النحيب، وبدأت المرات القديمة تظهر على اجفانها. انها زهرة الأمس. ثم انها، في فورة غضب الهزيمة، أهملت حساب كزوس البراندي التي تمجدها. لم تكن في ليلها. وفيهاها يأكلان رز جوز الهند الذي اعادت تسخينه، حاولت ان تحدد مدى مساهمة كل منهما في كتابة القصيدة الخاسرة، لتعرف كم ورقة من أوراق السحلبة الذهبية سيكون نصيب كل واحد منها لوامها فازا. ولم تكن المرة الأولى التي ينشغلان فيها بمناقشات بيزنطية، لكنه انتهز الفرصة ليتنفس من الجرح الذي انفتح لتوه، واشتبكا في نزاع بائس أحيا احقادهما المتركمة خلال خمس

سنوات من الحب المنقسم.

وقبل عشر دقائق من الساعة الثانية عشرة، صعدت سارا نوريغا على كرسي لتبدأ ساعة البندول المعلقة، وضبطتها على الثانية عشرة تماماً دون ان تنظر اليه، ربما كانت رغبة ان تقول بذلك دون ان تقوله بان وقت انصرافه قد حان. أحس فلورينتينو اريثا حينئذ بضرورة بتر تلك العلاقة الخالية من الحب من جذورها، ويبحث عن الفرصة ليكون هو صاحب المبادرة، كما اعتاد ان يفعل دوماً. كان يدعو الله بان تسمح له سارا نوريغا بالبقاء للنوم في سريرها ليقول لها ان لا، وان كل شيء قد انتهى بينها، وطلب منها ان تجلس إلى جانبه حين انتهت من ضبط الساعة. لكنها فضلت البقاء بعيدة عنه، على كرسي من كراسي الزيارات. عندئذ مد لها فلورينتينو اريثا اصبعه السبابة مبللة بالبراندي لتمسحها، كما كانت تحب ان تفعل قبل الحب في ازمان اخرى. فتجنبتها قائلة:

- ليس الآن. انني انتظر شخصاً.

مد صدته فيرمينا داثا، تعلم فلورينتينو اريثا كيف يحتفظ لنفسه دوماً بالقرار الاخير. كان بإمكانه الاستمرار بمحاصرة سارا نوريغا لو ان الظروف كانت أقل مراً، متأكداً من انه سينتهي إلى قضاء الليل متقلباً معها على السرير، لانه يعرف ان امرأة ضاجعت رجلاً لمرّة واحدة، ستابع مضاجعته كلما شاء، طالما عرف كيف يلينها في كل مرة. لقد احتمل كل شيء بفضل هذه القناعة، ومر على كل شيء دون مبالاة، بما في ذلك أقذر أنواع الحب، حتى لا يتيح الفرصة لأي امرأة ولدتها امرأة اتخاذ قرار القطيعة النهائي. لكنه أحس في تلك الليلة بانه ذليل جداً، فجرع البراندي دفعة واحدة، فاعلاً كل ما يجعل الغضب يبدو عليه، ومضى دون ان يودعها. ولم يريا بعضهما بعدها.

كانت العلاقة بسارا نوريغا احدى أطول علاقات فلورينتينو اريثا وأكثرها استقراراً، رغم انها لم تكن العلاقة الوحيدة التي نسجها خلال تلك السنوات الخمس. وعندما احس بانه يشعر بالراحة معها، وخصوصاً في الفراش، ودون ان يتوصل إلى احلالها مع فيرمينا داثا، استفحلت ليلاليه كصيد متوحد، وكان يتدبر أمره لتوزيع وقته وقواه إلى حيث يمكنه الوصول. ومع ذلك، استطاعت سارا نوريغا تحقيق معجزة تهدئته مع مرور الوقت. واستطاع العيش على الأقل دون رؤية فيرمينا داثا، على العكس مما كان عليه من قبل، حين كان يتوقف عن عمله الذي يؤديه في أي وقت كان ليخرج بحثاً عنها في اتجاهات غير صحيحة تملئها عليه افكاره، وفي شوارع لا تخطر على بال، واماكن وهمية يستحيل وجودها فيها، هائماً على غير هدى وفي صدره شوق لن يهدأ ما لم يرها ولو للحظة واحدة. لقد اثار قطع علاقته بسارا نوريغا اشواقه الكامنة، وأحس مجدداً بالاحساسيس التي كانت تنتابه في امسيات

الحديقة الصغيرة اثناء قراءته اللانهائية، ولكنه كان احساساً مقللاً بالرغبة في استعجال موت الدكتور خوفينال اوربينو.

كان يعرف منذ زمن انه مرصود لاسعاد أرملته، وانها مرصودة لاسعاده، ولم يكن هذا ليقلقه. بل على العكس : كان مستعداً للأمر. ولكثرة ما عرف منهن في غزواته كصيد متوحّد، أصبح فلورينتينو ارشا يعرف ان الدنيا مليئة بأرامل سعيدات. لقد رآهن يفقدن صوابهن أسي أمام جثة الزوج، ويتوسلن دفنهن بالحياة في التابوت ذاته كي لا يواجهن نائبات المستقبل من دونه، ولكن كن كلما أخذن بالانسجام مع واقعهن الجديد كن ينبعثن من الرماد بحوية مخمّوسة. يبدآن الحياة كاشباح طفيليات في البيوت الكبيرة المقفرة ويصبحن نجيات خدامتهن، عاشقات وسائدهن، ليس لديهن ما يفعلنه بعد سنوات طويلة من الأسر المجدّب. يضيعن فائض الوقت في تثبيت الازرار التي لم يكن لديهن متسع من الوقت لتثبيتها على ثياب الميت، ويكوّنن ثم يعدن كي قمصانه ذات المعاصم والياقات الباراقنية لتكون جاهزة دوماً. ويتابعن وضع الصابون له في الحمام، ووضع وجوه الوسائد التي تحمل الحرف الأول من اسمه على السرير، وطبقه وادوات طعامه في مكانه على المائدة، فلربما عاد من الموت دون اشعار مسبق، كما كانت عادته في الحياة. ولكنهن في طقوس العزلة تلك، يعين شيئاً فشيئاً بأنهن أصبحن سيدات مصيرهن، بعد تخليهن ليس عن لقب اسرتهن فقط، بل وعن هويتهن ذاتها، كل ذلك مقابل أمان لم يكن أكثر من حلم آخر من أحلامهن وهن عرائس. هن وحدهن كن يعرفن كم كان ثقل الرجل الذي احبين بجنون، والذي ربما احبهن، اذ كان عليهن ان يتابعن تربيته حتى النفس الأخير. كان عليهن ارضاعه، وتبديل حفاظاته الملوثة، وتسليته بخدع الامهات لتهديته مخاوفه عند خروجه صباحاً لمواجهة وجه الواقع. ولكنهن ما ان يرينه يخرج من البيت لابتلاع العالم بإغواء منهن، حتى بداخلهن الخوف من ألا يعود الرجل أبداً. هكذا كانت حياتهن. أما الحب، ان كان له من وجود فهو شيء آخر... حياة أخرى.

في بطالة الوحدة الشافية، تكتشف الأرامل أيضاً ان الطريقة الشريفة في الحياة هي المرتبطة بالجسد، بالأكل حين يجوع فقط والحب دون نفاق، والنوم دون حاجة إلى تصنع النوم للانفلتات من الحب الرسمي، وسيادتهن أخيراً على سرير كامل هن وحدهن لا يشاركن أحد نصف الدثار ولا نصف الهواء الذي يتنفسن ولا نصف ليلهن، وقدرتهن على النوم إلى ان يرتوي الجسد من الحلم بأحلامهن وحدهن واستيقاظه حين يحلوه. لقد كان فلورينتينو ارشا يلتقي بهن في صباحاته كصيد متخفي وهن خارجات من قداس الخامسة صباحاً، مكفئات بالأسود وبوم القدر على اكتافهن. وما ان يرينه في ضوء الفجر حتى يجتأ

الشارع وينتقلن إلى الرصيف الآخر بخطوات ضيقة ومتقطعة، كخطوات عصفور، لان مجرد مرورهن قريباً من رجل قد يلوث شرفهن . ولكنه كان موقناً رغم ذلك من أن أي امرأة حزينة تحمّل في داخلها، أكثر من أي امرأة أخرى، بذرة السعادة.

أرامل كثيرات في حياته، ابتداء من امرأة ناثرايت، اتحن له ان يرى كيف يمكن للمتزوجات ان يكن سعيدات بعد وفاة أزواجهن وما كان بالنسبة له مجرد حلم تحول بفضلهن الى احتمال يمكن لمسه باليد . ولم يجد اسباباً تحول دون ان تكون فيرمينا دائماً أرملة ماثلة ، دريتها الحياة على القبول به كما هو، دون اوهام الشعور بالذنب نحو الزوج الميت، حاسمة امرها على اكتشاف السعادة الاخرى معه لتتعم بالسعادة مرتين، بحب جسدي يومي يتحول في كل لحظة إلى معجزة حياة، وحب آخر لها ونحدها، محصن ضد أية عدوى بمناعة الموت . . ربما انه ما كان ليتحمس لوارتاب مجرد ارتياب بان فيرمينا دائماً بعيدة عن تلك الحسابات الخاملة، حين كان يلوح بالكاد افق عالم بكل شيء فيه مهياً مسبقاً باستثناء الخذلان . وقد كان لشراء المرء في ذلك الزمن منافع كثيرة، وكذلك مضار كثيرة بالطبع، ولكن نصف الناس كانوا يتشوقون للشراء ويرون فيه الوسيلة الأكثر احتمالاً للخلود . وكانت فيرمينا دائماً قد صدت فلورينتينو أريشا في مضمة نضوج دفعت ثمنها فوراً في نوبة حسرة، لكنها لم تشك للحظة في صواب قرارها. لم تكن قادرة للوهلة الاولى على تفسير الاسباب الخفية التي منحتها تلك البصيرة، ولكنها بعد سنوات طويلة جداً، وهي على اعتاب الشيخوخة، اكتشفت تلك الاسباب فجأة ودون ان تدري كيف، وذلك اثناء حديث عرضي عن فلورينتينو أريشا. جميع المشتركين في الحديث كانوا يعرفون أنه ولي العهد في شركة الكاريبي للملاحة النهرية في حقبة ازدهارها، وجميعهم كانوا متأكدين من انهم قد رأوه مرات عديدة، بل ودخلوا معه في صفقة ما، لكن ايأ منهم لم يستطع تحديد ملاحظه في ذاكرته عندئذ انكشفت لفرمينا دائماً الاسباب الكامنة في اللاوعي والتي منعتها من حبه . وقالت : « يبدو وكأنه ليس شخصاً وانما طيفاً » . وهكذا كان : طيف شخص لم يره أحد من قبل . ولكن فيما هي تصد حصار الدكتور خوفينال اوريينو، الرجل القيقص، كانت تشعر بانها تتعذب بشبح الذنب، وهو الاحساس الوحيد الذي كانت تعجز عن احتماله . فحين تشعر به، يسيطر عليها نوع من الذعر لا تستطيع التحكم به إلا عندما تجد من يطمئن ضميرها . فتمنذ طفولتها المبكرة، عندما كانت تكسر صحناً في المطبخ، أو عندما يقع أحد، أو حين تعصر أحد أصابعها بباب، كانت تلتفت مذعورة نحو أقرب شخص كبير، وتسارع إلى اتهامه : « انت السبب » . مع انها ما كانت تهتم في الحقيقة بمن هو المذنب ولا بالافتناع براءتها . . كان يكفيها اقرار الامر هكذا . كان شبح عقدة الذنب واضحاً وقد أدرك الدكتور اوريينو في الوقت المناسب مدى تهديده

لجو الانسجام في بيته، فكان كلما لمح يَسَارِعَ القول لزوجته: «لا تقلقي يا حبي، أنا السبب». اذ لم يكن يخفيه شيء كخوفه من قرارات زوجته المفاجئة والحاسمة، وكان مقتنعاً أن منشأ كل ذلك في احساسها بالذنب. ومع ذلك، فإن قلقها لصدها فلورينتينوارثا لم يُجَلَّ بعناية مواساة. والت فبرينا دائماً فتح الشرفة في الصباح لعدة شهور، وكانت تحن دوماً للشبح المتوحد الذي كان يترصدها في الحديقة الصغيرة المقفرة، وترقب الشجرة التي كان يجلس تحتها، والمقعد المختفي حيث كان يجلس ليقرا مفكراً بها، ومتألماً من اجلها، ثم تغلق النافذة من جديد، وتتهد: «يا للرحل البائس». ولقد قاست من خيبة الأمل لأنه لم يكن عنيداً ومثابراً كما ظنت، حين كان الوقت قد فات لترقيع الماضي، ولم تتوان عن الشعور بالجزع المتأخر يوماً لرسالة لم تصلها أبداً. ولكنها حين اضطرت لمواجهة قرار الزواج من خوفينال اوربينو وقعت في ازمة رهيبه، اذ ادركت انها لا تملك مبررات ملائمة لقبوله بعد ان رفضت فلورينتينوارثا دون مبررات ملائمة. والواقع انها ما كانت تحبه اكثر مما أُحِبَّتْ الآخر، اضافة إلى ان معرفتها به كانت أقل بكثير، ولم تكن تحب في رسائله تلك الحمى التي وجدتها في رسائل الآخر، كما انه لم يقدم لها ما يكفي من الأدلة المؤثرة على قراره. فالحقيقة ان خوفينال اوربينو لم يطرح مطالبه يوماً بتعابير الحب، ومن النثير للفضول ان مؤمناً كاثوليكياً مثله لم يكن يعرض عليها سوى مكاسب دينوية: الأمن، النظام، السعادة، وهي أرقام ما ان تجمع إلى بعضها حتى تتحول مباشرة إلى شيء كالحب: الحب تقريباً. ولكنها ليست الحب، وقد كانت هذه الشكوك تضاعف من قلقها، لانها لم تكن مقتنعة كذلك بان الحب هو ما تحتاجه بالخاص للحياة.

وعلى كل حال، فإن العامل الاساسي ضد الدكتور خوفينال أوربينو كان في شبهه الاكثر من مريب مع الرجل المثالي الذي كان يأمل فيه لورينثودا كزوج لابنته. كان مستحيلاً عليها ألا تراه كشخصية خارجة من اسطورة ابوية، مع انه لم يكن كذلك في الواقع. لكن فبرينا دائماً كانت مقتنعة بانه كذلك منذ رآته يدخل بيتها للمرة الثانية في زيارة طبية لم يدع اليها. ثم جاءت احاديثها مع ابنة خالها هيلديراندا لتزيد من بلبتها. فسيب احساس هذه الاخيرة بانها ضحية، كانت تحب نفسها في فلورينتينوارثا، متناسية ان لورينثودا انما بحث بطلبها لتهارس تأثيرها لصالح الدكتور اوربينو. والله وحده يعلم الجهد الذي بذلته فبرينا دائماً لتمنع نفسها من مرافقة ابنة خالها حين ذهبت لتتعارف على فلورينتينوارثا في مكتب التلفزيون. فقد كانت ترغب أيضاً برؤيته ثانية لمواجهة بشكوكها، التحدث اليه على انفراد، ومعرفة بعمق للتأكد من ان قرارها المتهور لن يورطها في اتخاذ قرار آخر أشد خطورة، يكون استسلاماً في حرمة الشخصية ضد ابوها. ولكنها فعلت ذلك في اللحظة الحرجة من حياتها، دون ان

تأخذ بعين الاعتبار جمال المتقدم اليها الذكوري ، ولا ثروته الخرافية ، ولا مجده المبكر ، ولا أي ميزة أخرى من ميزاته الواقعية ، وإنما فعلت ذلك وهي ذاهلة . يساورها الخوف من ان تغفل الفرصة من يدها ، ومن اقترابها من اكمال احدى وعشرين سنة ، وهو السن المتعارف عليه ، الذي عليها بعده الاستسلام للقدر . كانت لحظة كافية لاقدامها على اتخاذ القرار المبين في قوايين الرب والبشر : حتى الموت . عندئذ زالت جميع الشكوك ، وفعلت دون ندم ما أملاه عليها العقل ورأته لائقاً : مرت بأسفنجة دون دموع فوق ذكرى فلورنتينواريثا ، ومسحته تماماً ، مفسحة المحال لينفتح في المكان الذي كان يحتله من ذاكرتها مرجاً من شقائق النعمان . والشيء الوحيد الذي سمحت لنفسها به كان اطلاق تهيدة أعمق من المعتاد ، التهيدة الاخيرة : «يا للرحل الناس !» .

لكن اكثر شكوكها اخافة بدأت فور عودتها من رحلة الزفاف . فما ان فتحت الصناديق ، وحلت الحزم والطرود وأفرعت محتويات الاحد عشر صندوقاً التي أحضرها معها لتتسلم موقعها كربة بيت وسيدة قصر المكريدي كاسالدويرو القديم ، حتى تنهت بانهار قاتل إلى انها سجيبة في بيت خاطيء ، والأسوأ من ذلك انا كانت تعيش مع الرجل الذي لم يكن رجلاً . لقد احتاجت ست سنوات للخروج ، كانت أسوأ سني حياتها ، قضتها في يأس من مرارة دونيا بلانكا ، حاتها ، وتحلف اخي زوجها العقلي ، اللتين ان لم تذهبا للتعفن وهما في الحياة بزنزانة في دير فلأنهما كانتا تحملان تلك الزنزانة بداخلهما .

الدكتور اوربينو المستسلم لدفع ضريبة اصله النبيل ، صمّ اذنيه عن رجائها ، موقناً ان حكمة الله وقدره الزوجة اللانهائية على التأقلم كفيلاً بوضع الأمور في نصابها . كان حزينا لانهار أمه ، بعد ان كان حبا للحياة في زمن أحريث الرغبة بالحياة حتى في اعنى الكفرة . هذا صحيح : فتلك المرأة الجميلة ، الذكية ، ذات الحساسية الانسانية التي لا مثيل لها في وسطها ، كانت خلال مايقرب من اربعين سنة روح وجسد فردوسها الاجتماعي ، الى ان اذاقها الترميل المرارة حتى استحال التعرف عليها ، وجعلها مترهلة وساخطة ، ومعادية للدنيا . والتفسير الوحيد لتخليها عن مكانتها الاجتماعية كان في غضبها على زوجها الذي ضحى بحياته وهوواع في سبيل كومة من الزنوج ، كما كانت تقول ، في حين ان التضحية الوحيدة العادلة هي نجاة من الموت في سبيلها . ولقد استمر زواج فيرمينا دانا السعيد على أية حال ما دامته رحلة الزفاف ، والشخص الوحيد القادر على مساعدتها في منع الانهيار النهائي يشله الخوف أمام تسلط الأم . وعليه ، وليس على شقيقتي زوجها المعترهتين وحاتها نصف المحبولة ، كانت فيرمينا دانا تلقي مسؤولية وقوعها في مصيدة الموت تلك . وبدأت تشك بعد فوات الأوان بان الرجل الذي تزوجت منه يخفي وراء جبروته المهني وسحره

الدينوري شخصاً ضعيفاً بلا خلاص . . شيطاناً بائساً يتغطرس بوزن القابه الاجتماعي .  
لجأت حينئذ الى الابن حديث الولادة . كانت قد أحست عند خروجه من جسدها براحة  
التحرر من شيء ليس منها ، وعانت الهول من نفسها حين رأت انها لاتشعر بأدنى عاطفة تجاه  
عجل البطن ذاك الذي عرضته عليها القابلة وهو عارتماماً ، وملوث بالدهن والدم ، وحبل  
الخلاص ملفت حول عنقه . لكنها تعلمت في عزلة القصر التعرف عليه ، فتعارفا ، واكتشفت  
بفرح شديد ان حب الأولاد ليس نابعاً من كونهم أبناء ، وانما منشأه صداقة التريبة .  
وأصبحت لا تطيق شيئاً ولا أحداً سواه في بيت محتتها . كان الحزن يقل عليها ، وكذلك  
الحديقة المائمية ، وترهل الزمن في الحجرات الفسيحة التي لا نوافذ لها . أحست الجثث في  
الليالي المتطاولة بصراخ المجنونات في مشفى الامراض العقلية المجاور . وكانت تُحجّلها عادة  
اعداد مائدة الولائم كل يوم ، بشراشف مطرزة ، وأدوات طعام فضية وشمعانات مائمية ،  
لخمسة أشباح يتعشون فنجان قهوة بالحليب وشطائر الدقيق بالجبين . مقتت صلوات  
الظهير ، والتكلف على المائدة ، والانتقادات المتوالية لطريقتها بامساك أدوات الطعام ،  
ومشيتها بهذه الخطوات المستخفة كخطوات امرأة من الشارع ، ولارتدائها ملابس كملايس  
السيرك ، بل ولاسلوبها القروي في معاملة زوجها وارضاع طفلها دون تغطية ثديها بدثار  
الرضاعة . وعندما وجهت الدعوات الأولى لتناول الشاي في الساعة الخامسة مساء ، مع  
بسكويت امبراطوري وحلوى زهور ، تماشياً مع عادة محدثة في انكلترا ، عارضت دونيا بلانكا  
لانه لا يمكن تناول المشروبات الطبية المستخدمة للمتروك عند الحمى في بيتها بدلاً من  
الشوكولاته مع الجبن وأقراص خبز اليكة . ولم تغفل منها حتى الاحلام . ففي صباح أحد  
الأيام روت فيرمينا داثا انها رأت في الحلم رجلاً مجهولاً يمضي عارياً ويرش حفئات من الرماد  
في صالات القصر ، فقاطعتها دونيا بلانكا بجفاء :

- لا يمكن لامرأة محتشة ان تحلم هذا النوع من الاحلام .

والى احساسها بانها تعيش في بيت غريب أخيفت نكبتان كبريان . احدهما طيق  
الباذنجان اليومي بجميع اشكاله ، والذي كانت دونيا بلانكا ترفض استبداله احتراماً للزوج  
الميت ، بينما ترفض فيرمينا داثا أكله بأي حال . كانت تمقت الباذنجان منذ طفولتها ، وقبل ان  
تتذوقه ، لانه بدا لها دوماً بلون السم . ولكن لا بد لها من القبول على كل حال بان شيئاً من  
اعتقادها قد تبدل ، وكان في صالح حياتها . فقد قالت وهي في الخامسة من عمرها ما كانت  
تقوله دوماً على المائدة ، فأجبرها أبوها على أكل طنجرة كاملة كانت معدة لسته أشخاص .  
ظنت انها ستموت ، بسبب قيء الباذنجان المهروس أولاً ، ثم بسبب فنجان زيت الخروع  
الذي اجبروها على تناوله لمعالجتها من العقاب . وقد بقي الباذنجان وزيت الخروع مختلطان

في ذاكرتها على انها مُسهل، سواء بطعمها أو برعب السم، واثناء وجبات الغذاء الفظيعة في قصر المركيز دي كاسالديرو كانت تضطر لصرف نظرها حتى لا تستعيد ذكرى الغثيان الجليدي لزيت الخروع.

وكانت النكبة الثانية هي القيثارة. ففي أحد الأيام قالت دونيا بلانكا وهي تعني تماماً ما تقوله: «لا أو من بوجود نساء محترمت لا يتقن العزف على البيانو». كانت تصدر بذلك أمراً مما دفع ابنها لمجادلتها. فأفضل سنوات حياته امضاها سجيناً في دروس البيانو، رغم انه حد ذلك في رشده. لكنه لم يكن قادراً على تصور زوجته ذات الخمسة والعشرين عاماً والطبع الحاد، خاضعة إلى العقوبة ذاتها. فكان ما ناله من الألم هو موافقتها على استبدال البيانو بالقيثارة، بذريعة صيانية تقول انها الاداة الموسيقية التي يستخدمها الملائكة. وهكذا جلبوا من فيينا القيثارة الرائعة، التي بدت وكأنها من الذهب، وكانت أنغامها تصدح وكأنها كذلك فعلاً، والتي صارت فيما بعد أحد أبرز مقتنيات متحف المدينة، إلى ان التهمت النيران مع كل ما كان فيه. خضعت فيرمينا دائماً إلى عقوبة الرفاهية هذه محاولة وقف الانهيار بتضحية اخيرة. بدأت الدروس مع معلم معلمين أحضره خصيصاً من مدينة مومبوس، فبات فجأة بعد خمسة عشر يوماً من مجيئه، وتابعت الدروس لعدة سنوات مع موسيقي الدير، الذي كانت روحه الجنائزية تشبه موسيقاه القيثارية.

لقد فوجئت هي نفسها لانصياعها. فمع انها ماكانت تقبل ذلك في قرارة نفسها، ولا في مجادلاتها الصماء مع زوجها خلال الساعات التي كانا يكرسانها للحب من قبل، الا انها تورطت بأسرع مما كانت تظن في شبكة تقاليد عالمها الجديد ومكائده. كانت تردد أول الأمر عبارة طقسية لتؤكد حرية رأيها: «إلى الجحيم أيتها المروحة فهذا وقت النسيم». ولكنها ما لبثت ان تحمست لامتيازاتها التي احسنت كسبها، وخافت من الخزي والسخرية، فأبدت استعدادها لاحتمال كل شيء، حتى المذلة، على أمل ان يعطف الله اخيراً على دونيا بلانكا، التي لم تكن تمل دعوته في صلواتها بان يبعث اليها الموت.

كان الدكتور اوربينوبر وضعفه بذرائع واهية، حتى دون ان يتساءل ان لم يكن يعارض بذلك تعاليم كنيسة. فهو لا يوافق على ان منشأ الخلافات مع زوجته هو جوال البيت المفكك، وانما في طبيعة الزواج بحد ذاته. انه ادعاء سخيف لا وجود له إلا في بركات الله اللانهاية، يتناقض مع اي سبب علمي في ان شخصين لا يكادان يعرفان بعضهما، ولا تربطهما أية صلة قربي، مختلفي الطبائع والثقافة، بل ومختلفي الجنس أيضاً وحدا نفسيهما ملزمين فجأة بالعيش معاً، والنوم في السرير نفسه والمشاركة في مصيرين ربما كانا مقررير في اتجاهين مختلفين. كان يقول: «مشكلة الزواج هي انه ينتهي كل ليلة بعد ممارسة الحب، ولا بد من



العودة إلى بنائه كل صباح قبل تناول الفطور». أما زواجهما، كما يقول، القائم بين طبقتين متناحرتين، في مدينة ما زالت تحلم بعودة الحكام الاستعماريين، فالملاط الوحيد القادر على حفظ تماسكه هوشياً صعب ومتقلب كالحب، أن كان له من وجود، وفي حالتها لم يكن له وجود عند زواجهما، ولم يفعل القدر شيئاً سوى جعلهما يواجهان الواقع حين كانا على وشك اختراع الحب.

هكذا كانت حياتها في مرحلة القيشارة. لقد ثرّجت المصدفات السعيدة حين كانت تدخل عليه وهو يستحم، ورغم المجادلات، والباذنجان السام، ورغم الشقيقتين المعترتين والأم التي انجبتها، كان لديه ما يكفي من الحب ليطلب منها أن تليق. فتبدأ عمل ذلك مستعينة بفتات لحب الذي بقي لديها من أوروبا، ثم يتبع كلاهما للذكريات أن تحدهما، متحدتين دون أن يشاءا، وراغبين دون أن يقولا، وينتهيان إلى الموت جاً على الأرض، ملوثين بالرغوة المعطرة، فيما هما يسمعان الخادومات تتحدثن عنهما في حجرة الغسيل: «إذا كانا لا ينجبان أولاداً فلأنهما لا يشدان». وبين الفينة والأخرى. ولدى عودتهما من إحدى الحفلات المحلية، كان الشوق القابع وراء الباب يطرحهما بضربة من غلبه، فيحدث حينئذ انفجار رائع يعود كل شيء أثناءه إلى ما كان عليه من قبل، ويعودان خلال خمس دقائق ليكونا العاشقين المتيمين كما كانا في شهر العسل.

وباستثناء هذه الفرض النادرة، فإن أحدهما كان يشعر بالارهاق أكثر من الآخر عند موعد النوم. وكانت هي تتأخر في الحمام لتلف سجائرها بأوراق معطرة، وتدخن وحدها، ممارسة من جديد غرامياتها الموسمية كما كانت تفعل وهي فتية وحرة في بيتها، حين كانت سيدة وحيدة على جسدها. ثم أنها صارت تعاني من آلام رأس دائمة، وتتشعر بالحر الخافق دوماً، أو تتصنع النوم، أو تدعي أنها في العادة الشهرية ثانية، العادة الشهرية، ودائماً العادة الشهرية. لدرجة أن الدكتور أوربينو تمحراً على القول في أحد دروسه، لمجرد التفريح عن نفسه من الاختناق لا يعترف به أن العادة الشهرية بعد عشر سنوات من الزواج، تأتي النساء حتى ثلاث مرات في الأسبوع.

نكبات تضاف إلى نكبات، وعلى فيرمينا دائماً أن تواجه في أسوأ سني حياتها ما كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً دون مفر: حقيقة تجارة أبيها السحرية والتي لم تعرفها أبداً. لقد حدد حاكم الولاية موعداً في مكتبته للدكتور خوفينال أوربينو ليطلعه على سوء سلوكهما، وقد اختصر تلك المساوئ في جملة واحدة: «لا يوجد قانون الهي أبشري يوضح كيف يمكن لهذا الرجل أن يتقدم». لقد قام ببعض أخطر عملياته مستظلاً بسلطة صهره. وكان يصعب التفكير بأن هذا الأخير وزوجته ليسا مطلعين على نشاطاته. ولمعرفة الدكتور أوربينو بأن

السمعة الوحيدة: القدرة على حماية حماه هي سمعته بالذات، لأنها الوحيدة التي ما زالت واقفة على قدمين، فقد وضع كل ثقل سلطته، وتمكن من لفة الفضيحة بكلمة شرف منه . وهكذا كان علي لورينودا ان يغادر البلاد على أول سفينة وألا يعود أبداً . عاد إلى موطنه الاصلي كما لو كان في رحلة من تلك الرحلات التي يقوم بها المرء بين الحين والآخر لخداع حنينه ، وفي أعين هذا الظاهر كان يوجد شيء من الحقيقة : فمئذ زمن وهو يصعد إلى السفن القادمة من وطنه ليناو كاس ماء من خزانات التمرين المملوءة من ينابيع مسقط رأسه . لقد مضى دون حاجة لي ذارعه، مصرحاً ببراءته، ومحاولاً اقناع صهره بأنه وقع ضحية مؤامرة سياسية . مضى وهو يكي على الطفلة ، كما كان يسمى فيرمينا دائماً منذ تزوجت، ويكي فراق حفيده والأرض التي عرف فوقها الشراء والحرية ، والتي استطاع ان يحقق فوقها مائة تحويل ابنته إلى سيدة مجتمع راقية معتمداً على صفقات غامضة . مضى هراً ومرضاً، لكنه عاش بعد ذلك زمناً أطول مما تمناه أي من ضحاياه . ولم تستطع فيرمينا دائماً قهر تنهدة الراحة حين وصلها خبر مرته، ولم تحد عليه منعاً لاثارة التساؤلات ، لكنها بكت طوال شهور عديدة بغضب أصم دون ان تدري السبب حين كانت تحبس نفسها للتدخين في الحمام ، وكان انها تبكيه .

أسخف ما في وضعهما ان السعادة لم تبد عليهما يوماً في الاماكن العامة كما كانت تبدو في سنوات المحنة تلك . لقد كانت في الواقع سنوات انتصاراتها الكبرى على عداوات وسطها الخفية ، الوسط الذي ما كان ليتنازل بقبولها كما هما : مختلفين ومجدين ، ومخالفين بالتالي للثقاليات القائمة . ومع ذلك . فقد كان هذا هو الجزء السهل بالنسبة لفيرمينا دائماً . فحياة المجتمع ، التي كانت تخيفها كثيراً قبل ان تعرفها ، لم تكن أكثر من مجموعة من التحالفات المتوارثة ، والطقوس التافهة المبذلة ، والكلمات الجاهزة ، التي يسلي بها بعض أهل المجتمع بعضهم الآخر كي لا يغتالوا بعضهم . ان السمة السائدة في فردوس التافهة هذا هي الخوف من المجهول . وقد حددت فيرمينا دائماً ذلك بطريقة أكثر بساطة : « مشكلة الحياة العامة هي في تعلم السيطرة على الرعب ، ومشكلة الحياة الزوجية هي في تعلم السيطرة على الضجرة » . اكتشفت ذلك فجأة بوضوح منذ دخلت وهي فجر اذبال فستان الزفاف اللانهاية إلى النادي الاجتماعي ، العابق بروائح كل تلك الزهور المتنوعة ، وبريق الفالسات ، وصخب الرجال المتعرقين والنساء المرتعشات اللواتي رمقنها دون ان يدرين حتى ذلك الحين كيف سيواجهن ذلك التهديد المبهر الذي قد فهم به العالم الخارجي . كانت قد اتت احدى وعشرين سنة من عمرها دون ان تخرج من بيتها إلا إلى المدرسة ، لكن جولة واحدة من نظرها كانت كافية لتدرك ان خصومها ليسوا منكمشين حقداً وإنما هم مشلولون خوفاً . وبدلاً من أن تبعث فيهم

مزيداً من الرعب، مثلما تعاني، أحسنت اليهم بمساعدتهم على التعرف إليها. ولم يختلف أحد من الحضور عما ارادت له ان يكون، تماماً كما يحدث لها مع المدن، التي لا تبدو لها أفضل أو أسوأ من سواها، وإنما كما رسمتها هي في قلبها. قباريس، ورغم مطرها الازلي، وبائعيها البخلاء، ورغم هذر حوزييهها الموسمي، تستذكرها دوماً كأجل مدينة في العالم، لالانها كذلك أوليست كذلك في الواقع، وإنما لانها ارتبطت بحنينها إلى أسعد سنوات حياتها. أما الدكتور اوريينو، فقد واجه المجتمع بأسلحة كتلك التي شهدت ضده، والمارق الوحيد انه استخدمها بذكاء أشد، ويسوقار محسوب. لم يكن يحدث شيء دون وجدهما: الزهات التمدنية، مهرجانات الزهور، الاحداث الفنية، اليانصيبات الخيرية، الاحتفالات الوطنية، الرحلة الأولى بالمطاد. لقد كان لهما دور في كل شيء، وغالباً ما كان دورهما هو الاساس والمقدمة. ما كان لأحد ان يتصور في سنوات محنتها، انه يمكن ان يكون هناك من هو أشد سعادة منها أو من ينعم بزواج اكثر انسجاماً من زواجهما.

البيت الذي هجره الأب، منح فيرمينا داثا ملجأ خاصاً بديلاً للاختناق في القصر العائلي. فكانت ما ان تقلت من الانظار العامة حتى تمضي خفية إلى حديقة البشارة، لتستقبل هناك صديقاتها الجددات وبعض صديقاتها القدييات من أيام المدرسة أو دروس الرسم: بديل بريء للخيانة. كانت تعيش هناك ساعات هادئة كأه عزباء، مستحضرة ذكريات الطفولة الكثيرة التي ما زالت في ذاكرتها. أعادت شراء الغرban العطرة، والتقطت قطعاً من الشارع ووضعتها تحت عناية غالا بلايديا، التي صارت عجوزاً واصابها الروماتيزم بما يشبه الكساح، لكنها بقيت تحتفظ بالحماس لبعث الحياة في البيت من جديد. أعادت فتح حجرة الخياطة حيث رآها فلوريتينو اريشا لأول مرة، وحيث طلب منها الدكتور خوفيتال اوريينو ان تخرج لسانها محاولاً بذلك التعرف على قلبها، وحولتها إلى هيكل مقدس للذكريات الماضي. وحين مضت لتغلق نافذة الشرفة في مساء يوم شتوي، قبل ان تحطم العاصفة الزجاج رأت فلوريتينو اريشا على مقعده تحت اشجار لوز الحديقة، ببدة ابيه المقيفة على مقاسه والكتاب المفتوح في حضنه، لكنها لم تره كما كانت تراه كثيراً في تلك الايام، وإنما رآته بسنه التي تحفظها في ذاكرتها. وخشيت ان تكون تلك الرؤيا نذيراً بموته، وتألّت لذلك. وتجرت على القول لنفسها بانها ربما كانت اسعد حالاً لو أنها تزوجته. لو كانت وحيدة معه في ذلك البيت الذي رجمته من اجله بكثير من الحب كما رجم بيته من اجلها، لكن مجرد الافتراض ازعجها، لانه أتاح لها ان ترى درك العناسة الذي وصلت اليه. فاستجمعت عندئذ آخر قواها واجبرت زوجها على مناقشتها دون مراوغة؛ أجبرته على مواجهتها، على مشاجرتها، على البكاء معها قهراً لفقدانها الفردوس، إلى ان سمعا صياح آخر الديكة، ونفذ الضوء من بين تحاريم

القصر، واشتعلت الشمس، ووقف الزوج المتورم لكثرة ما تكلم، والمنهك من الناس، بقلبه المتصلب لكثرة ما بكى، شدّ رباط حذائه، وشدّ حزامه، وشد كل ما تبقى له من الرجولة، وقال لها نعم يا حبي، وقال انها سيمضيان للبحث عن الحب الذي فقدها في اوروبا: غداً بالذات وإلى الأبد. كان قراراً حاسماً لدرجة انه اتفق مع بنك دي تيسورو، وكيل اعماله العالمي، على التصفية الفورية للاثر العائلي الواسع، المبعثر منذ تكوينه في جميع انواع الاعمال التجارية، والاستثمارات والاوراق المقدسة والبطيئة، والذي لم يكن يعلم عنه علم اليقين إلا انه لا يصل إلى المقادير المبالغ بها التي تدعيها الاساطير: ما يكفي لتصفيته وعدم التفكير فيه. وطلب من البنك تحويل المبلغ، مهما كان، إلى ذهب مختوم وايداعه في البنوك التي يتعامل معها في الخارج، حتى لا يبقى له ولزوجته في هذا الوطن القاسي شبر من الأرض يموتان فيه.

كان فلوريتينو اريشا ما يزال حياً، على عكس ما ظنت. وكان يقف على رصيف الميناء حيث ترسو عابرة المحيطات الذاهبة إلى فرنسا حين وصلت مع زوجها وابنها في عربة الجوادين الذهبين، وآهما ينزلان مثلها وآهما يفعلان ذلك مرات ومرات في الاحتفالات العامة: كانا على أحسن حال. وكان معهما ابنيها، الذي رُبّي بطريقة تشي بها سيصيره في المستقبل. . مثلما صار تماماً. حيا خرفينال اوريينو فلوريتينو اريشا تحية مرحبة بقبعته: «انا ماضون لغزو بلاد الفلانده». حيثه، فير،ينا دانا بانحناءة من رأسها، فرغ فلوريتينو اريشا قبعته وحياها بحني رأسه انحناءة خفيفة، ودققت فيه دون ان تظهر عليها امارات الشفقة لصلبته المبكر. انه هو، تماماً كما تراه: طيف شخص لم تعرفه أبداً.

لم يكن فلوريتينو اريشا على أحسن حال كذلك. فالعمل المتزايد يوماً بعد يوم، ونخمته كصيد متوحد، وخمود همته بفعل السنين، كانت تثقل عليه. ثم اضيفت إلى ذلك كله أزمة ترانستواريشا الأخيرة، التي اصبحت ذكراً دون ذكريات: صفحة بيضاء تقريباً. حتى انها كانت تلتفت اليه احياناً، فتراه يقف على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه، فتسأله متفاجئة: «ابن من أنت؟». وكان يجيبها دائماً: «ابن من الحقيقة»، لكنها كانت تقاطعه في الحال متسائلة: - قل لي يا بني: وأنا من اكون؟

كانت قد وصلت الى حد من السمنة جعلها عاجزة عن الحركة، فصارت تمضي النهار في دكان الخردوات الذي لم يعد فيه شيء للبيع، وهي تتزين منذ استيقاظها مع أول الدبكة حتى فجر اليوم التالي، لأن ساعات نومها أصبحت قليلة جداً. كانت تضع على رأسها اكاليل زهور، وتصبغ شفيتها. يرتش البودرة على وجهها وذراعها، ثم تسأل من يكون معها كيف يراها. وكان جميع الحيران يعرفون انها تنتظر الاجابة نفسها دوماً: «انك الصرصاره

مارتينث». هذه الهوية، المتحلة من شخصية قصة للأطفال، هي الوحيدة التي كانت تريحها. فتتابع الهز على الكرسي الهزاز، والتهوية بياقة من الريش الودي الطويل، الى ان تعود لتبدأ من جديد : اكليل الزهور الورقية، المسك على الجفون، الاحمر القاني على الشفاه، وطبقة البياض على الوجه. والسؤال ثانية لمن هو قريب منها : «كيف تراني؟». وعندما تحولت الى ملكة السخرية بين الجوار، عمد فلوريتينواريثا في احدى الليالي الى تفكيك منضدة دكان الخردوات القديمة وخزائنها، وأغلق الباب المطل على الشارع، وأعد المكان على الشكل الذي سمعها تصف فيه مخدع الصرصار مارتينث، ومنذ ذلك الحين لم تعد تسأل من هي .

وبناء على نصيحة من العم ليون الثاني عشر، بحث لها عن امرأة مسنة تتولى شؤونها، لكن المرأة المسكينة كانت تسير وهي شبه نائمة، حتى ان المرء يشعر احيانا بانها نسيت كذلك من تكون . وهكذا كان فلوريتينواريثا يبقى في البيت منذ خروجه من المكتب الى ان يتمكن من تنويم امه . لم يعد يلعب الدومينو في النادي التجاري ، وتوقف لوقت طويل عن لقاء القلة من صديقاته القدييات اللواتي كان يتردد عليهن، ذلك ان تبدا عميقاً نراً على قلبه بعد لقائه المربع مع اوليمبيا زوليتا .

كان لقاء صاعقا . فبعد ان أوصل فلوريتينواريثا العم ليون الثاني عشر الى بيته ، اثناء عاصفة من عواصف تشرين الاول التي لا تترك للمرء لحظة راحة ، رأى وهو في العربة فتاة ضئيلة ورشيقة ، ترتدي فستانا مزينا بالكشاكش يبدو اشبه بفستان زفاف . رآها تركض مرتبكة من جانب الى اخر، لأن الريح انتزعت منها مظلتها وطار بها الى البحر . فحملها في عربته وانحرف عن طريقة ليوصلها الى بيتها ، الذي كان اشبه بصومعة مقابل البحر الفسيح ، وكان فناء البيت مليا بأعشاش حمام تظهر من الشارع . وروت له في الطريق بانها تزوجت منذ أقل من سنة من تاجر خزفيات كان فلوريتينواريثا قد رآه كثيرا في سفن شركته ، حين كان يفرغ من السفن صناديق تحتوي جميع انواع الخزفيات لبيعها في السوق ، ووبرفته عالم من الحياثم في قفص خيزراني من تلك الاقفاص التي تستخدمها الامهات لحمل اطفالهن حديثي الولادة في السفن النهرية . كان يبدو على اوليمبيا زوليتا انها تنتمي الى فصيلة الزنابير ، ليس بسبب وركيها المرتفعين وصدرها الضامر وحسب، وانما لكل ما فيها : شعرها اللتي كاسلاك النحاس، وكلف الشمس في وجهها، وعيناها المستديرتان والمتقدتان والبعيدتان عن بعضهما اكثر مما يجب . ثم انها لا تتحدث عندما تشعر بالألفة الا لتقول امورا ذكية وممتعة . لقد بدت لفلوريتينواريثا ظريفة اكثر من كونها جذابة ، ونسبها حالما أوصلها الى بيتها، حيث كانت تعيش مع زوجها، ووالد هذا الزوج واعضاء اخرين من العائلة .

وبعد مرور عدة أيام، رأى الزوج في الميناء وهو يشحن سفينة بالبضائع بدلا من انزالها منها كعادته، وعندما أبحر المركب، سمع فلوريتينو أريثا صوت الشيطان وأصحا في أذنيه. وفي مساء ذلك اليوم، بعد أن أوصل العمليون الثاني عشر، مر كما لو كان مروره مصادفة، مقابل بيت أوليمبيا زوليتا، ورأها فوق السياج تقدم الطعام للحمام الهائجة. فصاح بها من العربية قائلا: «ما ثمن الحمامة؟». تعرفت عليه وأجابته بصوت مرح: «ليست الحمامة للبيع». فسألها: «ماذا عليّ أن أفعل لأحصل على واحدة؟» ودون أن تتوقف عن نثر الطعام للحمام، ردت عليه: «عليك أن توصل صاحبة الحمام بالعربية حين تمجدها ضائعة تحت المطر». وهكذا عاد فلوريتينو أريثا إلى بيته تلك الليلة حاملا هدية شكر من أوليمبيا زوليتا: حمامة زاجل في قائمتها خاتم معدني.

في مساء اليوم التالي، وفي ساعة تقديم الطعام للحمام تماما، رأت راعية الحمام الجميلة الحمامة المهداة عائدة إلى عشاها، ففكرت بأنها قد افلتت. ولكنها حين أمسكتها لتفحصها رأت أنها تحمل قصاصة ورقية مطوية في الخاتم: تصريح حب. كانت تلك هي المرة الأولى التي يترك فيها فلوريتينو أريثا أثرا مكتوبا، لكنها لن تكون الأخيرة، رغم أنه كان من الفطنة في هذه المناسبة بحيث لم يضع توقيعه على الورقة. واثناء عودته إلى منزله في مساء اليوم التالي، الأربعاء سلمه طفل من الشارع الحمامة نفسها في قفص، مع رسالة بأن سيدة الحمام تبعت لك هذا وتقول لك أن تتفضل بالحفاظ عليها جيدا في القفص المغقل، لأنها ستفعل منك ثانية إن لم تفعل، ولن نعيدها إليك بعد هذه المرة. ما كان يعرف كيف يفهم الرسالة: فاما أن الحمامة قد أضاعت رسالته في الطريق، وأما أن راعية الحمام قررت التظاهر بالحماقة، أو أنها أرسلت الحمامة ليعيدها إليها ثانية. ولكن الطبيعي في هذه الحالة الأخيرة أن تبعت الحمامة مع رد منها.

وفي صباح يوم السبت، وبعد تفكير مطول، بعث فلوريتينو أريثا الحمامة من جديد مع رسالة أخرى دون توقيع. ولم يكن عليه أن ينتظر هذه المرة حتى اليوم التالي. ففي المساء، اتاه الصبي نفسه حاملا الحمامة في قفص آخر، ورسالة شفوية بأنها تعيد إليه ثانية الحمامة التي عادت لتفعل منه، وأنها قد أعادتها أمس الأول بدافع حسن الترتيب وتعيدها هذه المرة أشفافا، ولكنها تقول الحقيقة الآن بأنها لن تعيدها إذا ما افلتت منه. هت ترانسيتو أريثا بالحمامة حتى وقت متأخر، فأخرجتها من القفص، وهذلت لها وهي تحملها بين ذراعيها، محاولة تنويمها بأغنيات أطفال، وفجأة لاحظت أن في خاتمها وريقة كتب عليها سطر واحد: لا أقبل رسائل مغفلة. قرأه فلوريتينو أريثا بقلب فاقد للوعي، وكأنه في ذروة مغامرته الأولى، ولم يكذب يغفرو في تلك الليلة، إلا ليعاني فقدان الصبر في أحلامه. وفي صباح اليوم

التالي، وقبل ذهابه الى المكتب، اطلق الحمامة ثانية بعد ان حملها رسالة حب وفع عليها اسمه بحروف واضحة تماما، ووضع لها في الخاتم ايضا احدث ورده متفتحة في حديقته، واكثرها حيوية وشذى.

لم يكن الامر سهلا معها. فبعد ثلاثة شهور من الحصار، واصلت راعية الحمام الرد بالاجابة ذاتها «لست من هؤلاء». ولكنها لم ترفض ابدا تلقي الرسائل أو المجيء الى المواعيد التي كان يرتبها فلورينتينواريا بحيث تبدو لقاءات مصادفة. لقد كان معتاداً على التخفي: انه العاشق الذي لا يظهر وجهه ابداً، وهو اكبر طماع في الحب والاشد بخلا فيه في الحين ذاته. . من لا يمنح شيئاً ويريد كل شيء، من لا يتيح لاحد ادنى اثر في قلبه، هذا الصياد المزوي خرج من غيبته والقي بنفسه الى عرض الطريق في نوبة احتدام رسائل موقعة، وهدايا غزل، وطواف مستهتر حول بيت راعية الحمام، بل انه جال حول البيت في مناسبتين لم يكن الزوج فيها مسافراً كما لم يكن في السوق. انها المرة الاولى، منذ زمن حبه الاول، التي احس فيها بان نصلاً يخترقه.

بعد ستة شهور على لقاءهما الاول، التقيا اخيراً في قمرة سفينة كان يجري اصلاحها وطلاؤها في الميناء النهرى. كان مساء رائعاً. وكانت اوليمبيا زوليتا تتمتع بحب طويل، حب راعية حمام طائشة، وتهوى البقاء عارية لعدة ساعات، في راحة مستريحة هي بالنسبة لها حب كالحب. كانت القمرة منزوعة الطلاء، وقد أعيد طلاء نصفها تقريبا، وكانت رائحة الترتين ملائمة للاحتفاظ بها كذكرى من مساء لطيف. وفجأة، وبالحاج وحى فريد، نزع فلورينتينواريا غطاء علبه دهان أحمر كانت قريبة من السرير، وغمس اصبعه السبابة فيها، ورسم على عانة راعية الحمام الجميلة سهماً دامياً مصبواً نحو الجنوب، ثم كتب على بطنها عبارة: هذه الياحمة لي. وفي تلك الليلة بالذات، تعرت اوليمبيا زوليتا امام زوجها دون ان تتذكر الاعلان المكتوب على بطنها، ولم ينطق الزوج بأية كلمة، بل ان ايقاع انفاسه لم يتبدل. . لا شيء، لكنه مضى الى الحمام وتناول موس الحلاقة فيما كانت ترتدي قميص نومها، وذببحها بضربة واحدة.

لم يعلم فلورينتينواريا بالحدث الا بعد عدة أيام، حين ألقي القبض على الزوج الهارب وروى للصحف أسباب الجريمة وكيفية تنفيذها. وقد انشغل خلال سنوات بالتفكير في رسائله الموقعة، وراح يحسب سنوات سجن القاتل الذي كان يعرفه جيداً لتجارته التي ينقلها في السفن، لكنه لم يكن يخشى ضربة موس حلقة في العنق، ولا الفضيحة العامة، بقدر ما كان يخشى حظه العاثر اذا ما علمت فيرمينا داثا بخيانته. وفي أحد ايام سنوات الانتظار، تأخرت المرأة القائمة على رعاية ترانستواريا في السوق بسبب مطر غزير في غير اوانه، وحين

رجعت الى البيت وجعلتها ميتة . كانت تجلس على الكرسي الهزاز، مزينة ومزهرة كعادتها ، وكانت عيناها متقدتين وعلى شفيتها ابتسامة خبث شديد بحيث لم تنتبه حارستها الى انها ميتة الا بعد ساعتين . وكانت قبل موتها بقليل قد وزعت على اطفال الحي ثروتها من الذهب والمجوهرات المدفونة تحت السرير، قائلة لهم انهم يستطيعون اكلها كقطع الحلوى ، ولم يكن يمكننا استعادة بعض القطع الثمينة . دفنها فلورينتينواريا في مزرعة لامانودي ديوس القديمة ، التي مازالت تعرف باسم مقبرة الكوليرا ، وزرع على قبرها شجيرة ورد .

ومنذ زيارته الاولى للمقبرة . اكتشف فلورينتينواريا ان اوليمبيا زوليتا كانت مدفونة قريبا من امه ، في قبر بلا شاهدة ، لكن اسمها وتاريخ موتها كانا مكتوبين بالاصبع على اسمت القبر الطري ، وفكر مذهباً بان تلك الكتابة هي سخرية دموية من الزوج . وعندما ازهرت شجيرة الورد، كان يضع وردة على قبرها ، ان لم يكن هناك من يراه ، ثم انه زرع لها فيها بعد جفنة قطعها من شجيرة امه . كانت شجيرتنا الورد تنموان بسرعة هائلة ، مما جعل فلورينتنو اريشا يضطر الى حمل مقص التشذيب وغيره من ادوات الحديقة للحفاظ على الشجرتين ضمن حدود معقولة . لكن بمهما كان اكر من قواه . وبعد عدة سنوات كانت الشجرتان قد امتدنا كحرج ما بين القبور، فصارت مقبرة الوفاء الطيبة تعرف منذ ذلك الحين باسم مقبرة السورود، الى ان جاء عمدة أقل واقعية من الحكمة الشعبية ، فانزعج شجيرات الورد في احدى الليالي، وعلق لوحة جمهورية فوق قنطرة المدخل : المظرة الكونية .

لقد حكم موت الام على فلورينتينواريا بالعودة الى ديدنه السابق : المكتب، واللقاءات المتناوبة مع عشيقاته المزمعات، ولعب الدومينو في النادي التجاري، وقراءة كتب الحب نفسها، وزيارة المقبرة في أيام الاحاد . انه صدا الروتين، الذي كثيرا ما كان محط قذف ومبعث خوف، لكنه حماه من الاحساس بتقدمه في السن . ومع ذلك، ففي يوم أحد من أيام كانون الثاني، حين كانت شجيرات الورد قد انتصرت على مقص التشذيب، رأى سننونة على اسلاك النور التي نصبت حديثاً، فأدرك فجأة كم من الوقت مضى على موت امه، وكم مضى على مقتل اوليمبيا زوليتا، وكم مضى ايضا على ذلك المساء الآخر من شهر كانون الاول العيمد حين بعثت فير مينا دائرا رسالة تقول فيها أجل، انها ستحبه الى الابد . كان يتصرف حتى ذلك الحين وكأن الزمن لا يتقدم بالنسبة له وانما بالنسبة للآخرين فقط . ففي الاسبوع الماضي تقريبا التقى في الشارع بزوجين من اولئك الكثيرين الذين تزوجوا بفصل رسائله السرية، ولم يستطع ان يتعرف على الابن الاكبر الذي كان هو نفسه عرابه . وقد تخلص من الحرج بالعبارة التقليدية : «ياالله! ها قد أصبح رجلاً» . وحتى حين أصبح جسده يبعث اليه بأول اشارات الانذار، استمر على هذا الحال، لانه احتفظ دوماً بعافية



كالصخر في مواجهة الامراض وقد اعتادت ترانسيتواريثا القول : «المرض الوحيد الذي اصاب ابني هو الكوليرا». خالطة الكوليرا بالحلب طبعاً، وذلك قبل ان تختلط ذاكرتها بمزمن طويل. ولكنها كانت مخطئة على اي حال، لان ابنها اصيب سراً بست حالات من السيلان الابيض، رغم ان الطبيب كان يقول بانها ليست ست حالات، وانما حالة واحدة وحيدة تعود للظهور بعد كل معركة خاسرة. كما اصيب بخراج، وبأربع حالات من عرف الديك وست اصابات بالبشور، ولكن لم يكن ليخطر بباله أوببال أي رجل آخر اعتبار هذه الاصابات امراضاً وانما مجرد تذكارات حرب.

ما كاد يتم الأربعين من العمر حتى اضطر للمهرع الى الطبيب شاكيا من آلام غير محددة في عدة مواضع من جسده. وبعد عدة فحوص، قال له الطبيب : «انها امور السن». لقد كان يعود الى البيت دوماً دون ان يتساءل إن كان لكل هذه الامور علاقة به. فنقطة الارتكاز الوحيدة في ماضيه هي غرامياته البائدة مع فيرمينا دانا، ولم يكن يدخل في حسابات حياته الا ما له علاقة بها. وهكذا وجد نفسه يوم رؤيته طيور السنونو على اسلاك النور يسترجع ماضيه منذ أقدم ذكرياته، استرجع ذكرى غرامياته العارضة، والعثرات الكثيرة التي كان عليه اجتيازها للوصول الى موقع رئاسي، وكذلك الحوادث الكثيرة التي اثارها قراره الملحمي بان تكون فيرمينا دانا له، وهوها رغم كل شيء وفوق كل شيء، وعندها فقط اكتشف ان الحياة تفلت منه. فهزت احشائه قشعريرة افقدته صوابه، واضطر لافلات ادوات الخديقة والاستناد الى جدار المقبرة كي لا تطرحه ارضا أول ضربة من مخالب الشيخوخة، وقال مرتعداً :  
- رباه! كل هذا حدث منذ ثلاثين سنة!

أجل ثلاثون سنة مرت كذلك على فيرمينا دانا دون شك، لكنها كانت بالنسبة لها أسعد سنوات حياتها وأكثرها حيوية. كانت أيام الرعب في قصر كاسالدوير وقد اهملت في مزبلة الذاكرة. واصبحت تعيش في بيتها الجديد في حي لامانغا، سيدة كاملة السيادة على مصيرها، مع زوج عادت تفضله على جمع رجال العالم لواتيح لها الاختيار من جديد، ومع ابن سيتابع ارث العائلة في مدرسة الطب، وابنة تشبهها تماماً عندما كانت هي في مثل سنها، حتى ان احساسها بانها تتكرر من خلالها كان يسبب لها الاضطراب. لقد عادت ثلاث مرات الى اوروبا بعد الرحلة التعيسة حين قررت الا تعود أبداً كي تتخلص من العيش في رعب دائم.

لابد ان الله استجاب اخيراً الى صلوات أحد ما: فبعد سنتين من الاقامة في باريس، وحين بدأت فيرمينا دانا بالبحث مع خوفينال اوربينو عما تبقى لهما من الحب بين الانقراض، وصلتها برقية من برويات منتصف الليل أيقظتها بخبر ان دونيا بلانكا دي اوربينو تعاني مرضاً

خطيراً، ثم تلتها برقية ثانية تحمل خبر موتها. رجعا في الحال. ونزلت فيرمينا داثا من السفينة بثوب حداد فضفاض لم يخف اتساعه حالتها : كانت حبلى ثانية بالفعل ، وقد كان هذا الخبر منطلقاً لاغنية شعبية تحمل من الحث اكثر مما تحمله من السوء، وقد شاع منها طوال تلك السنة مقطع يقول : ما الذي فعله الجميلة في باريس، ما تكاد تذهب حتى تعود للولادة. وورغم ابتذال الكلمات، واصل الدكتور خوفينال اوربينو ترديدها لسنوات طويلة في حفلات النادي الاجتماعي كدليل على طيب سريرته.

قصر المركيز دي كاسالدويرو الفخم، الذي لم يعثر مطلقاً على خبر مؤكّد حول وجوده ومآثره، بيع أولاً لدار الخزينة البلدية بسعر مناسب، ثم أعيد بيعه بثروة باهظة فيما بعد للحكومة المركزية، عندما جاء باحث هولندي لاجراء تنقيبات هناك ليثبت وجود الضريح الحقيقي لكريستوف كولومبس: الضريح الرابع. وقد ذهبت شقيقتا الدكتور اوربينو للعيش في دير لاس سالياناس، في عزلة بلا نذور، وأقامت فيرمينا داثا في بيت ابائها القديم ريثما ينتهي العمل ببناء البيت في لامانغا. ودخلت اليه بخطى واثقة، دخلت لتأمر وتتهي، ومعها دخل الاثاث الانكليزي الذي احضرته منذ رحلة الزفاف والمكملات التي بعثت بطلبها بعد رحلة المصالحة، وبدأت تملأ البيت منذ يومها الاول فيه بكل انواع الحيوانات الغريبة التي كانت تضي بنفسها لتشتريها من سفن الاتيل. دخلت الى البيت الجديد مع زوجها المستعاد، مع ابنها اليافع، ومع ابنتها التي ولدت بعد اربعة شهور من عودتها وعمداها باسم اوفيليا. وادرك الدكتور اوربينو من جهته، انه يستحيل عليه استعادة زوجته تماماً كما كانت له اثناء رحلة الزفاف، لان الحب الذي اراده منها منحه للطفلين، ولكنه تعلم العيش سعيداً ببقايا الحب. ثم وصلها الانسجام المرغوب من حيث لم ينتظره اثناء مآذبة عشاء قدم فيها صنف للذيذ لم تتمكن فيرمينا داثا من تحديد كنهه. فتناولت طقاً لا بأس به، لكن الطعام أعجبها فعادت تسكب طبقاً آخر، وتحسرت لان التكلف الاجتماعي لا يسمح لها بسكب طبق ثالث. وعندما علمت بانها انها تناولت بشبهة لا شك فيها طبقين من بوريه الباذنجان المطحون، أصبح الباذنجان يقدم في بيت لامانغا بكل اشكاله وبكميات كتلك التي كان يقدم بها في قصر كاسالدويرو، وكان الجميع يأكلونه بشبهة، حتى ان الدكتور خوفينال اوربينو صار يمزح في لحظات فراخ الشيخوخة بالقول انه يرغب بانجاب ابنة ليطلق عليها الاسم المحبوب في البيت : باذنجانة اوربينو.

كانت فيرمينا داثا تعرف حينئذ ان الحياة الخاصة متقلبة وملبئة بالمفاجآت، على عكس الحياة العامة. ولم يكن من السهل عليها وضع فوارق حقيقية ما بين الأطفال والبالغين،

ولكنها كانت تفضل الاطفال في نهاية المطاف، لان معاييرهم اكثر صواباً. وما كادت تحتاز منعطف النضوج، متخلصة اخيراً من كل انواع السراب، حتى بدأت ترى خيبة الأمل في انها لم تكن أبداً كما حلمت ان تكون وهي شابة، في حديقة البشارة، وانما اصبحت شيئاً آخر لم تجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسها: خادمة مرفهة. لقد توصلت لتصبح سيدة الحياة الاجتماعية المحبوبة، ومحط الاعجاب فيها، لتكون في الوقت ذاته السيدة مرهوبة الجانب. ولكن شيئاً لم يكن يلح عليها بقسوة ولم يكن أقل تعاداً من ادارة شؤون المنزل. لقد أحست دوماً بانها تعيش حياة مكروسة لزوجها: سيدة مطلقة في مملكة السعادة الفسيحة المشادة من اجله، ومن اجله فقط. كانت تعلم انه يجبها فوق كل شيء، يجبها اكثر مما يجب أياً كان في الدنيا، انها يجبها من أجل نفسه فقط: في خدمته المقدسة.

واذا كان هناك ما يعذبها فهو الحكم المؤبد المفروض عليها بتحضير الطعام اليومي. اذ لم يكن الامر يتوقف عند اعداد الطعام في الموعد المحدد، بل لا بد ان يكون كذلك متقناً، وان يحتوي على ما يريد الزوج اكله دون ان تسأله عما يريد. وإذا ما سأته يوماً، فان سؤالها سيكون طقساً آخر يضاف إلى طقوس الروتين البيتي التي لا طائل منها، لانه سيرد عليها دون ان يرفع نظره عن الجريدة: «أي شيء». والحقيقة انه كان يقول ذلك، بطريقته اللطيفة، لانه ما كان يستطيع ان يتصور نفسه كزوج أقل استبدادية. لكنه حين يجلس إلى المائدة لا يقبل أي شيء، بل ما يريد بالضبط، وبلا ادنى نقصان: فاللحم ليس له مذاق اللحم، والسماك ليس له مذاق السمك، وليس للخنزير طعم الجرب، ولا للفروج مذاق الريش. ثم انه لا بد من وجود الهليون في اي موسم كان، حتى يتاح له الابتهاج لرائحة بوله الشذية. ما كانت تلومه، بل تلقي باللوم على الحياة. لكنه كان صانعاً لا يرحم من صناع الحياة. كانت تكفيه عشرة شك ليزيح الطبق على المائدة قائلاً: «هذا طعام صنع بلا حب». وكان يصل في هذا المنحى إلى حالات خيالية من الالهام، ففي احد الأيام، تذوق قليلاً من شراب البابونج، ثم أعاد ما شربه بعبارة واحدة: «هذا الشيء له طعم نافذة». وقد فوجئت هي كما فوجئت الخادومات، لأنهن لم يتعرفن يوماً على أحد شرب نافذة مغلقة. ولكنهن حين تذوقن الشراب ليفهمن.. فهمن: كان له مذاق نافذة.

لقد كان زوجاً دقيقاً: فهو لم يلتقط أي شيء عن الارض يوماً، كما لم يكن يطفئ النور أو يغلق الباب أبداً. وحين يجد أحد الازرار ناقصاً، في عتبة الفجر، كانت تسمعه يقول: «لا بد للمرء من زوجتين، واحدة ليحبها، وواحدة لتخطئ له الازرار». وفي كل يوم، عند تناوله أول رشفة من القهوة وأول ملعقة من الحساء الساخن، كان يطلق عواء مؤثراً ما عاد يفرع أحداً، ثم ينطلق بالقول فوراً: «إذا هجرت هذا البيت يوماً فاعلموا اني فعلت ذلك

لاني مللت البقاء فيه بفم محروق دوماً . وكان يقول بانهم لا يطبخون غذاء شهياً ومتنوعاً إلا حين يتناول مليناً لتنظيف معدته ويكون عاجزاً عن أكل الطعام ، وكان موقناً ان هذا التدبير هو مؤامرة غادرة من زوجته ، حتى انه لم يعد ينظف معدته بدواء مُسهل إلا اذا تناولت مُسهلاً معه .

ولضجرتها من سوء تقديره ، طلبت منه هدية فريدة في عيد ميلادها : ان يقوم باداء الاعمال البيتية ليوم واحد . فوافق فرحاً ، وتولى ادارة البيت فعلاً منذ الفجر . قدم فطوراً رائعاً ، لكنه نسي انها لا تحب البيض المقلي ولا تتناول القهوة بالحليب . ثم أعطى التعليقات لاعداد غذاء عيد ميلاد لثمانية مدعوين واوز بترتيب البيت ، ورغم اجتهاده لتسيير الشؤون المنزلية خيراً منها ، فقد اضطر للاستسلام دون حجل قبل منتصف النهار . اذ ادرك منذ اللحظة الاولى انه لا يملك ادنى فكرة عن مكان وجود أي شيء وخصوصاً في المطبخ وقد تركته الخادومات يقلب كل شيء ليجث عما يريد ، اذ شاركن كذلك في اللعب . وحتى الساعة العاشرة لم يتلقين الاوامر لاعداد الغذاء ، لان تنظيف البيت لم يكن قد انتهى ، كما لم يكن قد تم ترتيب غرف النوم بعد ، وبقي الحمام دون تنظيف ، ونسي وضع الورق الصحي في مكانه ، وكذلك استبدال شراشف الاسرة ، كما نسي ان يبعث الحوذني لاحضار الأولاد ، وخلط بين مهمات الخادومات ، فأمر الطاهية بترتيب الاسرة وبعث عاملات خدمة المائدة لطهي الطعام . وفي الساعة الحادية عشرة ، حين كان المدعوون على وشك الوصول ، كان البيت ما يزال غارقاً في الفوضى ، مما دفع فيرمينا دانا إلى تولي القيادة وهي منفجرة بالضحك ، ولكنها لم تفعل ذلك بزهو الانتصار الذي رغبته ، بل بشفقة تهز اعماقها لعدم جدوى زوجها في الشؤون البيتية . وتنفس هو من الحرج بحجته الدائمة : «لم يكن الأمر شيئاً على الاقل إلى الدرجة التي تستصلين اليها لو انك حاولت معالجة المرضى» . لكن الدرس مضى بلا فائدة لكليهما . فمع تقدم السنين وصلاً ، عبر سبيلين مختلفين ، الى النتيجة الحكيمة بانه ليس ممكناً لهما العيش معاً بطريقة اخرى ، وليس ممكناً لهما ان يجبا بعضهما بشكل آخر : اذ ليس في هذه الدنيا ما هو أصعب من الحب .

في خضم حياتها الجديدة ، رأت فيرمينا دانا فلوريتينواريثا في مناسبات عامة عديدة ، وكانت تراه اكثر كلما ترقى في عمله ، لكنها تعلمت ان تراه بشكل طبيعي جداً ، حتى انها نسيت مصافحته اكثر من مرة نتيجة سهوها عنه . وكثيراً ما كانت تسمع أحاديث عنه لان موضوع صعوده الحذر والواثق في مناصب ش . ك . م . ن كان موضوعاً شائعاً في عالم الأعمال . وكانت ترى إلى تحسن مكانته ، وإلى الثناء على خجله كاحجية نائية ، وكان مظهره يتحسن مع زيادة طفيفة في وزنه ، كما ان بطاء السن كان يناسبه ، ثم انه عرف كيف يحل بوقار مشكلة

الصلع المدمرة . والاشياء الوحيدة التي بقيت فيه متحدة الزمن والموضة هي ملابسه القائمة ، والسترات التي كانت موضة زمن مضى ، والقبعة الوحيدة ، وربطة عنق الشاعر المصنوعة من شرائط كان يأخذها من دكان أمه ، والمظلة المشؤومة . وقد اعتادت فريمينا دائماً على رؤيته بطريقة مختلفة ، إلى ان لم تعد تربط بينه وبين المراهق الهزيل الذي كان يجلس متهدأ من اجلها تحت الاوراق الصفراء المتطايرة في حديقة البشارة . ولكنها لم تره أبداً بلامبالاه ، وكانت تفرح دوماً للاخبار الطيبة التي تسمعها عنه ، لأنها كانت تهدى شيئاً فشيئاً من شعورها بالذنب .

ومع ذلك ، وحين ظنت انها قد محته تماماً من ذاكرتها ، عاد للظهور من حيث لم تكن تنتظره متحولاً إلى شبح لاشواقها . كانت قد هبت عليها أولى نسائم الشيوخنة حين بدأت تشعر ان شيئاً لا سبيل إلى اصلاحه قد حدث في حياتها كلما سمعت قصف الرعد قبل المطر . انه الجرح الذي لا يندمل لذلك الرعد المتوحد والصخري الدقيق في موعده ، الذي كان ينفجر كل يوم من ايام تشرين الأول في الساعة الثالثة مساء في جبال فييانوفا ، والذي كانت ذكراه تتجدد مع مرور السنين . فبينما كانت الذكريات الجديدة تختلط في ذاكرتها بعد ايام من حدوثها ، كانت ذكريات الرحلة القديمة إلى مقاطعة ابنة الحال هيلديبراندا تصبح معاصرة حتى لتبدو وكأنها حدثت بالأمس ، وذلك بقدره الحين المضللة . صارت تتذكر مانواري ، البلدة الجبلية ، بشارعها الوحيد المستقيم والأخضر ، وعصافيرها بشير الفال الطيب ، وبيت المخاوف حيث كانت تستيقظ وقميصها مضمخ بدموع بيترا موراليس الغزيرة ، التي ماتت حباً قبل ذلك بسنوات طويلة على السرير نفسه حيث تنام . صارت تتذكر طعم جوافة ذلك الزمن التي تبدل مذاقها منذ ذلك الحين ، والتي كان حفيف نذيرها الزخم يختلط بحفيف المطر ، كما اخذت تتذكر امسيات سان خوان دي تيسير الزبرجدية ، حين كانت تخرج لتتمشى مع كوكبة بنات خؤولتها الصاخبات وهي تضغط اسنانها حتى لا يقفز قلبها من فمها كلما اقتربت من مركز التلغراف . باعت بيت أبيها بأى ثمن لأنها ما عادت تحتمل آلام المراهقة ، ولا مرأى الحديقة المقفرة من الشرفة ، ولا أريج الياسمين في الليالي الحارة ، ولا هول صورتها نزي سيدة قديمة في مساء ذلك اليوم من شهر شباط ، وهو نفس اليوم الذي حسمت فيه مصيرها . واينما قلبت ذاكرتها في ذلك الزمن كانت تصطدم بذكرى فلوريتينو اريثا . ومع ذلك ، فقد كانت تمتلك من الصفاء دوماً ما يجعلها تدرك بانها ليست ذكريات حب أو ندم ، وانما احساس مكدر يترك لها بقايا دموع . ودون ان تدري ، كانت مهددة بالوقوع في مصيدة الشفقة التي أضاعت عدداً كبيراً من ضحايا فلوريتينو اريثا الغافلات .

تشبثت بزوجها . وجاء ذلك في الفترة التي بدأ يحتاج اليها اكثر من أي وقت آخر ، اذ كان

يكبرها بعشر سنوات، وينطلق وحده متعثراً في ضباب الشيخوخة، إضافة لكونه رجلاً وأشد ضعفاً. وانتهيا إلى معرفة بعضهما حتى أصبحا قبل مرور ثلاثين سنة على زواجهما وكأنهما كائن واحد مشطور إلى نصفين، وصار القلق يساورهما لكثرة ما أصبح كل منهما يعرف ما يدور بخلد الآخر، وللحدث المضحك بأن يسبق أحدهما إلى النطق بما كان سيقوله الآخر. لقد صرّفا معاً خلافات سوء التفاهم اليومية، والاحقاد الأنية، والقذارات المتبادلة، وبروق مجد السعادة الزوجية الخرافية. كان ذلك هو الزمن الذي أحبا فيه بعضهما على أحسن وجه، دون تسرع ولا مبالغة، وقد وعيا انتصاراتهما الباهرة على الخصوم وباركاها. وكان على الحياة ان تمدهما بمزيد من البراهين الفانية، ولكنها لم تعد ذات نفع لهما: فقد كانا على الضفة الأخرى.

أعد برنامج حافل بالنشاطات العامة بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الجديد، وأجدر هذه النشاطات بالذكر هي الرحلة الأولى بالمنطاد، ثمرة مبادرة من مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو التي لا تنضب. اجتمع معظم اهل المدينة عند شاطئ الارمينال لبدء دهشتهم من ارتفاع بالون الحرير الهائل، الملون باللون العلم الوطني في الجو، ليحمل أول بريد جوي إلى سان خوان دي لاثيناغا، على بعد حوالي ثلاثين فرسخاً بخط مستقيم إلى الشمال الشرقي. كان الدكتور خوفينال اوربينو وزوجته، اللذان عرفا متعة الطيران من قبل في معرض باريس الكوني، هما أول من صعد إلى حجرة المنطاد المصنوعة من الخيزران، ثم صعد معها مهندس الرحلة الطائرة وستة مدعوبين آخرين كانوا يحملون رسالة من الحكومة المحلية إلى السلطات البلدية في سان خوان دي لاثيناغا، يسجلون فيها للتاريخ ان تلك الرسالة هي أول بريد ينتقل عبر الاجواء. أحد صحفيي الدياريو دي كوميرثيو سأل الدكتور خوفينال اوربينو ما هي آخر كلماته اذا ما قضى نحبه في المغامرة، فلم يتر وهذا للتفكير بالجواب الذي سبب له شتائم كثيرة، اذ قال:

- اظن بان العالم بأسره سيشهد تغير القرن التاسع عشر، باستثنائنا نحن.

وفيما المنطاد يرتفع، أحس فلوريتينو اريثا الضائع بين الحشود الساذجة التي تنشده النشيد الوطني، بانه يشترك بالرأي مع تعليق سمعه من أحدهم وسط الضجة بان تلك المغامرة ليست مناسبة لامرأة وخصوصاً امرأة في سن فيرمينا دانا. ولكنها لم تكن بالمغامرة الخطيرة على اي حال. وأنها لم تكن على الأقل خطرة بقدر ما هي مؤثرة. لقد وصل المنطاد دون تيارات هوائية معاكسة إلى مستقره، بعد رحلة هادئة في سماء زرقاء إلى حد غير معقول. طاروا طيراناً طيباً على ارتفاع قليل، تدفعهم ريح هادئة ومواتية، فوق ذرى الجبال المكلفة بالثلج أولاً، ثم فوق مستنقع ثيناغا غراندي الفسيح.

ومن السماء رأوا أطلال مدينة كارتاخينا دي اندياس القديمة والبطولية كما يراها الله، مهجورة من ساكنيها الذين هربوا، خوفاً من الكوليرا، بعد ان قاوموا جميع صنوف الحصار من جانب الانكليز وكل عسف القراصنة خلال ثلاثة قرون. رأوا الاسوار الكاملة، واشجار الشوارع الملتفة، والتحصينات التي قوضتها رهبانيات الثالث، وقصور المرمر والمذابح الذهبية مع حكامها الاستعماريين المتعنفين بالوباء في دروعهم السابعة.

طاروا فوق بيوت تروخاس دي كاتاكا الاثرية القائمة وسط الماء، والمطلية باللون مجنونة، والمرفقة بحظائر لثرية عظائيات الأكل، حيث تتدلى نباتات بالسامينا واستر وميليا في الجنائن المائية. كان مشات الاطفال يلقون بانفسهم من النوافذ، ومن سطوح البيوت ومن الزوارق التي يقودونها بمهارة مذهلة ويغوصون كاسماك الشابل لاستخراج حزم الملابس وقناني دواء السعال وطعام الصدقات الذي تلقي به المرأة الجميلة ذات قبعة الريش من حجرة المنطاد. طاروا فوق اوقيانوس ظلال مزارع الموز التي كان صمتها يرتفع اليهم كبخار مميت، فتذكرت فيرمينا داثا نفسها وهي في الثالثة من العمر، أوربها في الرابعة، تتمشى في الاجمة الكثيبة مسكة بيد امها التي كانت ما تزال حينئذ مجرد طفلة أيضاً وسط نساء اخريات يرتدين المسلمين، مثلها، ويحملن مظلات بيضاء ويضعن قبعات شفافة. قال مهندس المنطاد الذي كان يراقب العالم بمنظار مكبر: «يبدو انهم موتى». وأعطى المنظار للدكتور اوربينو، فرأى هذا الاخير العربات التي تجرها الجواميس بين الشجيرات، وخطوط السكة الحديد، واقنية الري المتجمدة، وحيشا توجه بنظره كان يرى أجساداً بشرية مبعثرة. وقال أحدهم بانه علم ان الكوليرا كانت فتك بقري منطقة ثيناغا غراندي. فقال الدكتور اوربينو الذي لم يتوقف عن النظر بالمنظار اثناء كلامه:

- لا بد انه صنف خاص جداً من الكوليرا اذن. لان هناك رصاصة رحمة في عنق كل واحد من الموتى.

ثم طاروا بعد ذلك بقليل فوق بحر من الزبد وحطوا دون اي حادث يذكر على شاطئ متقد، كانت ارضه المتشققة والمغطاة بملح البارود محرقة وكانها نار متأججة. وكانت السلطات تقف هناك دون أية حماية من الشمس سوى المظلات العادية، وكان هناك تلامذة المدارس الابتدائية يلوحون بأعلام صغيرة على ايقاع النشيد الوطني، وملكات الجمال يحملن زهوراً احرقها القبط ويضعن تيجاناً من الورق المذهب، وسُدج بلدة غايرا المزدهرة، التي كانت في ذلك الحين أحسن قرى الشاطئ الكاريبي حالاً. الشي الوحيد الذي كانت تريده فيرمينا داثا هوروية مسقط رأسها ثانية، لتقارن ما تراه مع أقدم ذكرياتها، لكنهم لم يسمحوا لأحد بالتجول خوفاً من فتك الوباء. سلم الدكتور خوفينال اوربينو الرسالة التاريخية، التي فُقدت



فيسا بعد ولم يعد يُعرف شيء عنها، وقد شارف جميع أعضاء البعثة على الاختناق في قبض الخطابات الحساسة. إلى أن حملوهم أخيراً على صهوات البغال حتى مرسى بويلوبيوخو، حيث تلقي المستنقعات بالبحر، لأن المهندس لم يتمكن من جعل المنطاد يطير ثانية. كانت فيرمينا دائماً متأكدة من أنها قدمرت من هناك مع أمها، وهي طفلة، في عربة يجرها زوج من الجاموس. وقد روت ذلك عدة مرات لابيها عندما كبرت، لكنه مات وهو يصير على أنه يستحيل عليها أن تذكر ذلك، وكان يقول لها:

- انني اذكر هذه الرحلة جيداً، وقد كانت هكذا فعلاً، لكنها حدثت قبل مولدك بخمس سنوات على الأقل.

عاد أعضاء بعثة المنطاد بعد ثلاثة أيام إلى ميناء المنشأ، وقد انهكتهم ليلة عاصفة، واستقبلوا استقبال الأبطال. وتعرف فلوريتينو أريثا، الضائع بين الحشود طبعاً، على آثار البخار فوق محيا فيرمينا دائماً. ومع ذلك، عاد لرؤيتها مساء ذلك اليوم في استعراض الدراجات، الذي اقيم تحت رعاية زوجها أيضاً، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للتعيب. كانت تقود دراجة فريدة تبدو أشبه بجهاز من أجهزة السيرك بعجلتها الامامية العالية، والتي جلست فوقها، بينما كانت العجلة الخلفية صغيرة جداً ولا تكاد تكفي لاسنادها. وكانت ترتدي سروالاً فضفاضاً ذا حواش ملونة أثار استنكار السيدات المسنات، وأفقد الرجال الوقورين صوابهم، لكن أحداً لم يستطع ابداء لامبالاة بمهارتها.

هذه الصور، وغيرها كثير، كانت صوراً سريعة الزوال لسنوات طويلة، تظهر بفتة لفلوريتينو أريثا حين يحلو ذلك للمصادفة، ثم ما تلبث أن تختفي بالطريقة نفسها تاركة في قلبه نورج لوعة. لكنها كانت تخلف أثراً في حياته، إذ أنه لم يتعرف على قسوة الزمن من خلال مظهره هوبالذات بقدر ما تعرف عليه من التبدلات التي يلاحظها على فيرمينا دائماً كلما رآها. دخل في أحد الأيام إلى مطعم دون سانتشو، وهو مطعم فاخر من العهد الاستعماري، واحتل ركناً منزوياً، كما هي عادته كلما مضى لتناول وجبة عصر خفيفة كوجبة عصفور. وفجأة رأى فيرمينا دائماً في المرأة الضخمة، جالسة إلى الطاولة مع زوجها ورجلين آخرين مع زوجتيهما، بزاوية تتيح له رؤية صورتها المعكوسة في المرآة بكل رونقها. كانت عزلاء، تقود الحديث بظرافة وضحكة تنفجران كأنفجار الألعاب النارية، وكان جالها أشد ألقاً تحت الثريا الضخمة ذات القطع الكريستالية: لقد عادت «أليس» لاختراق المرأة.

تأملها فلوريتينو أريثا ماشاء له التأمل بأنفاس مبهورة، رآها تاكل، ورآها تتذوق قليلاً من النبيذ، ورآها تمازح دون سانتشو، الرابع في سلالته، وعاش معها لحظة من حياتها وهو على طاولته المنعزلة، وتمشى لاكثر من ساعة في أرضها الحرام دون أن يكون مرئياً. ثم تناول اربعة

فناجين اخرى من القهوة لبقى وقتاً أطول، إلى ان رأها تخرج مختلطة بالمجموعة التي معها. لقد مروا قريباً جداً منه، لدرجة انه تمكن من تمييز رائحتها وسط وابل العطور الاخرى المتبعثة من هم معها.

ومنذ تلك الليلة، وعلى امتداد سنة تقريباً، قام بمحاصرة صاحب المحل حصاراً عنيداً، عارضاً عليه كل ما يشاء، من مال أو خدمات، أو تلبية أكثر ما اشتهاه في حياته، مقابل ان يبيعه المرأة. ولم يكن الأمر سهلاً فالشيخ دون سانتشوكان يؤمن بالخرافة القائلة ان ذلك الاطوار الثمين الذي صنعه نجار ابنوس من فينا هوتوام اطوار آخر كانت تملكه ماري انطوانيت، وقد اختفى دون ان يبقى له اثر: تحفتان فريدتان. وحين وافق أخيراً، علق فلورينتينواريشا المرأة في صالة بيته، ليس لجمال الاطوار ودقة صناعته، وانما لاجل القسم الداخلي الذي احتلته الصورة المحبوبة لساعتين.

وكثيراً ما كان يري فير مينادانا، ممسكة بذراع زوجها، في انسجام تام، متحركين كليهما في جو خاص بهما، بانسياب مذهل لا يتشوش إلا حين يصفاه. وفعلماً كان الدكتور خوفينال اورينوشد على يده بحرارة، بل وكان يسمح لنفسه بان يربت على كتفه في بعض المناسبات. أما هي، فكانت تعامله بمقتضى نظام الشكليات الغامض، ولم تُبد يوماً ادنى حركة تتيح له ان يشك بانها تذكره مذ كانت عازبة. كانا يعيشان في عالمين متباعدين، وفيما كان يقوم بكل جهد مناج لتقريب المسافة، فانها لم تكن تقوم بأية خطوة إلا في الاتجاه المعاكس. لقد مضى زمن طويل قبل ان يجروا على التفكير بان تلك اللامبالاة ليست سوى درع لاختفاء الخوف. لقد خطر له ذلك فجأة، عند تعميد السفينة النهرية الأولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية، وكانت تلك أيضاً هي المناسبة الأولى التي مثل فيها فلورينتينواريشا العم ليون الثاني عشر باعتباره نائباً أول، لرئيس ش.ك.م.ن. وقد اضفت هذه المصادفة على الحفل مهابة خاصة، فلم يتخلف عن الحضور أحد من هم أية قيمة في حياة المدينة.

كان فلورينتينواريش مشغولاً بمدعويه في الصالة الرئيسية بالسفينة، التي ما زالت تنبعث منها روائح الدهان الحديث والقار المذاب، عندما انفجرت موجة من التصفيق على الرصيف وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً حماسياً. وكان عليه ان يقهر الارتعاشة القديمة كقدمه تقريباً حين رأى امرأة احلامه الفاتنة ممسكة بذراع زوجها، بنضوجها الرائع، وهي تمر كملكة من عصر آخر وسط خرش الشرف المتزين بزى المراسم، تحت وابل من الشرائط الورقية الملونة وأوراق الازهار الطبيعية التي تذف من النوافذ. وكانا يردان على التصفيق بتحية من يديهما، لكنها

كانت فاتنة حتى لتبدو وكأنها وحيدة وسط الحشد. كان كل ما ترتديه له لون ذهبي ملكي، ابتداء من الحذاء ذي الكعب العالي وإذبال الثعالب على عنقها، وحتى القبعة التي لها شكل الجرس.

انتظرهما فلورينتينوارشا على الجسر، إلى جانب السلطات الإقليمية. وسط قصف الموسيقى والألعاب النارية وجارات السفينة القوية الثلاثة التي بللت رصيف الميناء بالبخار. صافح خوفينال أورينيو صف المستقبلين بتلك الابتسامة الطبيعية التي هي من خصائصه والتي تجعل كل واحد يظن أنه يصافحه بحرارة خاصة. صافح أولاً قبطان السفينة ببدة المراسم، ثم الأسقف. وبعد هذه الحماكم وزوجته والعمدة وزوجته، ثم قائد المنطقة العسكري، وهو انديزي حديث القدوم إلى المدينة. وبعد السلطات كان يقف فلورينتينوارشا، مرتدياً بدلة قاتمة، ولا يكاد يظهرين كل هؤلاء الأعيان. وبعد ان صافحت فرمينادافا قائد المنطقة العسكري، بدا أنها ترددت أمام يد فلورينتينوارشا الممدودة فسألها العسكري المتأهب لتقديمه لها إن كانت لا تعرفه، فلم تقل لا ولم تقل نعم، بل مدت يدها إلى فلورينتينوارشا بابتسامة صالون. كان ذلك قد حدث في مناسبتين سابقتين، وسيحدث في مناسبات أخرى، وقد تمثله فلورينتينوارشا دوماً كتصرف نابع من طبيعة فرمينادافا. ولكنه تسأل في مساء ذلك اليوم، بمقدرته اللامحدودة على الحلم، أن لم تكن هذه اللامبالاة القاسية ليست إلا حيلة لاختفاء عذاب الحب.

وقد اضطرت أشواقه لمجرد ورود هذه الفكرة بباله. فعاد للطوباف حول بيت فرمينادافا بنفس القلق الذي كان يشعر به قبل سنوات طويلة أثناء طوافه في حديقة البشارة، لكنه لم يكن ينوي أن يجعلها تراه، وإنما كانت نيته الوحيدة أن يراها ليعلم أنها ما زالت حية في الدنيا. ولم يعد ممكناً للزمن أن يمضي حينئذ دون اكتشافات. كان حي لمانغا يقوم في جزيرة شبه مقفرة، تفصلها عن المدينة التاريخية قناة ماء خضراء، مغطاة بأحراج من أشجار الأكاكو التي كانت ملاذاً للعشاق في أيام الأحاد إبان العهد الاستعماري. ومنذ سنوات قليلة هدموا الجسر الحجري القديم الذي بناه الأسبان، وأقاموا جسراً جديداً أع مصابيح انارة، لتتمكن الحافلات التي تجرها البغال من المرور. لقد كان على ساكني لامانغا أول الأمر احتفال عذاب ما كان في الحسبان، ألا وهو النوم قريباً من أول محطة لتوليد الكهرباء في المدينة، والتي كان هديرها أشبه بهزة أرضية متواصلة. ولم يستطع حتى الدكتور خوفينال أورينيو بكل نفوذه جعلهم ينقلون المحطة إلى حيث لا تزعج أحداً، إلى أن توسطت لصالحه العناية الإلهية التي تحالفه دوماً. ففي إحدى الليالي انفجر مرجل محطة التوليد في دوي بخاري هائل، وطار فوق البيوت الجديدة، محتاراً جزءاً كبيراً من المدينة في الجو وهوى ليحطم الرواق الرئيسي في دير

سان خوليان الهوسيتن الاريسو القديم . كان المبنى القديم قد هُجر في اوائل ذلك العام ، لكن الرجل تسبب في مقتل أربعة سجناء كانوا قد فروا في أول الليل من السجن المحلي واختبأوا في الدير المهجور .

تلك الضاحية الهادئة ، ذات التقاليد الغرامية الجميلة ، لم تعد مع ذلك بالمكان المناسب للغراميات غير المواتية مذ أصبحت حياً راقياً . كانت متربة في الصيف ، وموحلة في الشتاء ، ومقفرة طوال العام ، فيما البيوت القليلة المخفية وسط حدائق وارفة ، ذات مصاطب الموزايك بدلاً من الشرفات القديمة ، تبدو وكأنها شيدت لاجداد حماس العشاق المتخفين . وكان ان شاعت في ذلك الحين ، لحسن الحظ ، عادة التنزه مساء بالعربات القديمة المستأجرة والتي تم تعديلها ليجرها حصان واحد فقط ، وكانت الجولة بالعربة تنتهي عادة في ربوة مشرفة يظهر منها شفق تشرين المفتت أفضل مما يظهر عليه من برج الفناء ، وتظهر للعين كذلك أسماك القرش الرشيق وهي ترصد شاطئ المجمع الاكليريكي ، وعابرة المحيطات التي تمر كل خميس ، ضخمة وبضياء ، يكاد المرء يلمسها بيده وهي تحتاز قنال الميناء . وقد اعتاد فلورينتينو اريثا استئجار عربة للتنزه بعد يوم العمل الشاق في المكتب ، لكنه لم يكن يطوي غطاء العربة كما هي العادة في شهور الحر ، وانما كان يبقى مختبئاً في الصمت ، غير مرئي في الظل ، ووحيداً دائماً ، وكان يوجه الحوزي في اتجاهات غير متوقعة حتى لاثير افكاره السيئة . الحقيقة أن الشيء الوحيد الذي كان يهيم من النزهة هو البيت ذو المرمر الوردى شبه المخفي بين شجيرات الموز وأشجار المانغا الملتهفة ، والذي كان تقليداً تعبيراً لبيوت مزارعي القطن الحاملة في لوزيانا . كان ابنا فيرمينا دائماً يرجعان إلى البيت قبل الساعة الخامسة بقليل ، وكان فلورينتينو اريثا يراها عائدتين في عربة العائلة ، ثم يرى خروج الدكتور خوفينال اوربينو بعد ذلك لزياراته الطبية المعتادة ، ولكنه لم يحظ خلال ما يقارب السنة من الطواف ، برؤية أي علامة تدل على وجود من كان يتشوق لرؤيتها .

وفي مساء يوم أصرفه على النزهة المتوحدة رغم هطول أول أمطار حزينان المدمرة ، انزلق الحصان في السوخل وسقط على وجهه . وانتبه فلورينتينو اريثا مرتعباً إلى انه كان مقابل بيت فيرمينا دائماً تماماً ، فتوسل إلى الحوزي صائحاً ، دون ان يفكر بان تفجعه قد يشي به :  
- ليس هنا ، ارجوك . في أي مكان إلا هنا .

حاول الحوزي الذي أعماه التسرع ، ان يجبر الجواد على النهوض دون ان يفكه ، فانكسر محور العربة . خرج فلورينتينو اريثا كيفما استطاع ، واحتمل مشاعر الخجل تحت وابل المطر إلى ان عرض عليه متنزهون اخرون حمله معهم الى بيته . واثناء انتظاره ، وأنه خادمة من خدم آل اوربينو بملابسه المبللة والمغطاة بالسوخل حتى الركبتين ، فحملت اليه مظلة ليأتي

ويحتفي على مصطبة البيت . لم يكن فلورينتينوارشا قد حلم بمصادفة كهذه في أقصى هذياناته شططاً، ولكنه كان يفضل الموت في ذلك المساء على السماح لفيرمينا دائماً برؤيته وهو على تلك الحالة .

اثناء سكناه في المدينة القديمة ، كان الدكتور خوفينال اوريينو يذهب مع افراد عائلته مشياً على الاقدام من بيته إلى الكتدرائية، لحضور قداس الساعة الثامنة، وكان ذاك عملاً دينوياً أكثر منه دينياً . وفيما بعد، حين انتقلوا إلى البيت الجديد، تابعوا الذهاب إلى الكتدرائية في العربة عدة سنوات، وكانوا يتأخرون أحياناً لتبادل الحديث مع بعض الاصدقاء تحت أشجار النخيل في الحديقة . أما حين شيد معبد المجمع الاكليريكي في لامانغا، مع شاطئه خصوصي ومقبرة خاصة، ما عادوا يذهبون إلى الكتدرائية إلا في بعض المناسبات الحليّة وانتظر فلورينتينوارشا، الذي كان يجهل أمر هذه التبدلات، لعدة آحاد على رصيف مقهى الباروكية، مراقباً خروج الناس من القداسات الثلاثة . ثم انه أدرك خطأه وذهب إلى الكنيسة الجديدة، التي كان الذهاب إليها شائعاً حتى سنوات قليلة، وهناك وجد الدكتور خوفينال اوريينو مع ابنه، في الثامنة بالضبط، خلال أيام الآحاد الاربعة من شهر آب، لكن فيرمينا دائماً لم تكن معهم . وفي أحد أيام الآحاد هذه زار المقبرة المجاورة، حيث كان ساكنو حي لامانغا ينشون اضرحتهم الفخمة، وقفز قلبه حين رأى في ظل أشجار النيبا الضخمة أفخم ضريح بين كل تلك الأضرحة . كان ناجزاً ومزيناً بزخارف زجاجية قوطية، وملائكة من المرمر، وله شواهد مذهبة تحمل اسماء جميع افراد العائلة مكتوبة بحروف مذهبة، وبينهم بالطبع اسم دونيا فيرمينا دائماً دي اوريينودي لأكايي، وليلها ضريح الزوج، وعلى كلا القبرين كتابة مشتركة : معاً كذلك في سلام الرب .

لم تحضر فيرمينا دائماً خلال بقية العام أباً من النشاطات التمدنية أو الاجتماعية، حتى ولا احتفالات عيد الميلاد، حيث كانت وزوجها عادة من ضيوف الشرف . لكن الاحساس بغيبابها بلغ ذروته في حفل افتتاح موسم الاوبرا . وفي الاستراحة بين الفصلين، داجاً فلورينتينوارشا جماعة لا بد انها كانت تتحدث عنها دون ذكر اسمها . كانوا يقولون ان هناك من رآها تصعد عند منتصف احدى ليالي حزيران الفائت إلى عابرة المحيط كونارد، المتجهة إلى بناسا، وانها كانت تغطي وجهها بخمار أسود كي لا تظهر آثار المرض المخجل الذي كان يستنفدها . وسأل أحدهم أي مرض رهيب هذا الذي يجرؤ على امرأة متجربة مثلها والاجابة التي تلقاها كانت مشبعة بمرارة سوداء :

.. ان امرأة بارزة كهذه لا يمكن لها ان تصاب إلا بالتدردن .



أكثر بدانه وفضافة كلها هوى في الرمال المتحركة لشيخوخة مقبلة . لكنه ما عاد يبادل الحديث منذ فطور زمر اليانسون المشؤوم في القرن الماضي ، مع ان فلورينتينو أريثا كان متأكد من ان لورينثودا ما زال يذكره بحقد شديد كحقد هوعليه ، حتى بعد ان حقق لابنته الزواج المحظوظ الذي كان مبرر حياته الوحيد . لكنه كان مصمماً على الوصول إلى معلومات صحيحة عن صحة فيرمينا داثا ، فعاد إلى مقهى الباروكية ليحصل عليها من أبيها ، في الفترة التي جرت فيها هناك المباراة التاريخية ، حين واجه جيرميا دي سانت - امور وحده اثنين واربعين خصماً . وكان ان علم هناك نبأ موت لورينثودا ، وقد ابتهج لذلك من كل قلبه ، رغم معرفته بان ثمن تلك الهجة قد يكون استمراره في الحياة دون معرفة الحقيقة . واخيراً اعتبر رواية مستشفى اليائسين من الشفاء صحيحة ، دون عزاء آخر سوى مثل شعبي سائر : امرأة مريضة . . امرأة خالدة . وفي أيام يأسه ، كان يقنع بفكرة ان خبر موت فيرمينا داثا ، في حال وقوعه ، سيصله على أي حال دون ان يبحث عنه .

لكن الخبر لن يصله أبداً . ففيرمينا داثا كانت حية ومعافاة ، في المزرعة التي تعيش فيها منسية ابنة خالها هيلديبراندا سانتشيث ، على بعد نصف فرسخ من قرية فلوريس دي ماريا . لقد ذهبت بلا فضيحة ، وباتفاق مع زوجها ، بعد ان تورط كلاهما كمرهقين في الازمة الجدية الوحيدة التي عرفها خلال خمس وعشرين سنة من زواجهما المستقر لقد فاجأتهما الازمة وهما في راحة النضوج ، حين بدأ يشعران انهما بمأى عن أية مكيده يحكيها الخصوم مع ابنيهما الكبيرين وحسن التربة ، والمستقبل المفتوح امامهما ليتعلما كيف يشيخان دون مرارات . لقد كانت ازمة غير منتظرة لكليهما ، ولم يشاء فضها بالصراخ والدموع والوسطاء . كما هي العادة الطبيعية في الكاريبي . وانما بحكمة الأمم الاوربية ، وبما انهما لم يتمكنوا من عمل هذا ولا ذاك ، فقد انتهيا إلى التخطيط في حالة صبيانية لاتنتهي إلى أي مكان . وأخيراً ، قررت الذهاب ، حتى دون أن تعرف لماذا هي ذاهبة ، يقودها الى ذلك الغضب وحده ، ولم يكن هو بقادر على اقناعها بالعدول عن رأيها ، يمنعه من ذلك شعوره بالذنب .

لقد صعدت فيرمينا داثا فعلاً إلى سفينة عند منتصف الليل وسط تكتم شديد وبوجه مغطى بطرحة الحداد ، لكنها لم تصعد إلى عابرة المحيطات كونارد الذهابة إلى بناما ، وانما في سفينة عادية ماضية إلى سان خوان دي لاثيناغا ، المدينة التي ولدت وعاشت فيها الى ان بلغت سن الرشد ، وكان حينها اليها يصبح أشد وطأة مع تقدم السنين . ورغم مشيئة الزوج وعادات العصر ، فانها لم تأخذ معها من يرافقها سوى ابنة في العمد عمرها خمس عشرة سنة كانت تعيش بين خدم البيت ، لكنهم أعلموا بسررها قباطة السفن وسلطات الموانئ التي

استمر فيها . وحين اتخذت قرارها الذي لا عودة فيه ، اخبرت ابنها بانها ذاهبة لتخفف عن نفسها لمدة ثلاثة شهور حيث تعيش الحالة هيلديراندا ، لكنها كانت قد قررت البقاء هناك . كان الدكتور خوفينال اورينيو يعرف جيداً صلابه طبعتها ، وكان مغموماً للدرجة انه تقبل سفرها بذل وكأنه عقاب من الرب لخطورة آثامه . لكنه لم يضع من نظره انوار السفينة حين كان كلاهما نادماً لضعفه .

ورغم احتفاظها بمراسلة رسمية حول وضع الابنين وبعض شؤون البيت الاخرى ، فقد انقضت سنتان تقريباً دون ان يجد أي منها طريقاً للعودة ليست ملغومة بالكبرياء . ذهب الابنان الى فلوريس دي ماريا لقضاء عطلتها المدرسية في السنة الثانية ، وفعلت فيرمينا دائماً المستحيل لتبدوراضية عن حياتها الجديدة . وكان هذا على الأقل هو ما استنتجه خوفينال اورينيو من رسائل ابنه . ثم ان اسقف ريوها تشا الذي كان يقوم حينئذ بجولة رعوية في تلك الانحاء ، محتطاً تحت مظلة ثقبه الشمس متن يغلته الشهيرة البيضاء ذات السرج الموشى بالذهب . وجاء في اثره حجاج من اقاليم نائية ، وعازفو اكورديون ، وبائعوا اطعمة وتماثيل متجولون ، وامتلات المزرعة لثلاثة ايام بمشلولين ومرضى يائسين من الشفاء ، لم يأتوا في الحقيقة من اجل مواعظ الاسقف المتضلعة ولا مغفرته الكلية ، وانما سعياً وراء منة البغلة ، التي كان يشاع انها تحقق معجزات دون علم سيدها . كان الاسقف على علاقة وطيدة بال اورينودي لا كامي مذ كان خورياً ، وفي ظهيرة أحد الأيام هرب من مهرجانه ليتناول الغداء في عربة هيلديراندا . وبعد الغداء ، الذي لم يتكلم خلاله إلا بامور دنيوية ، قاد فيرمينا دائماً جانباً واراد ان يسمع اعترافها . ولكنها رفضت بلطف ، انها بحسب ، متذرة بانها ليس لديها ما تندم عليه . ومع ان غرضها لم يكن كذلك ، في وعيها على الأقل ، إلا انها فكرت بان ردها سيصل الى حيث يجب وصوله .

لقد اعتاد الدكتور خوفينال اورينيو القول ، ليس بلا شيء من المباحة ، بان تينك السنتين الميريرتين من حياته لم تكونا نتيجة ذنبه وانما بسبب عادة زوجته المزدولة بشم الملابس التي يخلعها أفراد العائلة ، والتي تخلعها هي نفسها ، لتعرف من الرائحة ما اذا كان يجب ارسالها للغسيل ، حتى وان بدت نظيفة للوهلة الأولى . كانت تفعل ذلك منذ طفولتها ، ولم تكن ترى فيه ما يلفت الانتباه ، إلى ان انتبه زوجها للأمر في ليلة الزفاف بالذات . كما انتبه إلى انها تدخن ثلاث مرات على الأقل يومياً وهي حابسة نفسها في الحمام ، لكن هذا لم يقلقه ، لان نساء طبقته اعتدن حبس انفسهن في مجموعات للتدخين والحديث عن الرجال ، بل ولشرب الخمر القوية الرخيصة أيضاً إلى ان ينطرحن ارضاً في سكرة كسكرات البنائين . لكن عاداتها في شم كل ما تعجده امامها من ملابس ، لم تكن تبدوله غير لاثقة حسب ، وانما ذات خطر على



الصحة أيضاً. فكانت تأخذ الأمر بالمزاح، كما تتناول كل ما لا تريد مناقشته، وتقول ان الله لم يضع لها في وجهها ذلك الانف المدقق لمجرد الزينة. وفي صباح أحد الايام، اثناء خروجها إلى السوق، قلبت الخادامات الحلي بحثاً عن الابن ذي السنوات الثلاث الذي لم يجدن له أثراً في أي مكان في البيت. وجاءت هي وسط الذعر، فقامت بجولتين او ثلاث جولات كذلك التي تقوم بها كلاب الاثر البوليسية، ووجدت الابن نائماً في احدى خزان الملبس، حيث لم يخطر ببال أحد ان يكون قد اختبأ. وعندما سألتها زوجها المندش كيف وجدته رددت قائلة: - من رائحة برازه.

والحقيقة ان حاسة الشم لم تكن تفيدنا في غسل الملابس أو في العثور على أطفال ضائعين فقط: لقد كانت حاسة التوجه لديها في جميع مستويات الحياة، وخصوصاً في الحياة الاجتماعية. وقد لاحظ الدكتور خوفينال اوريينو ذلك خلال حياته الزوجية كلها، وخصوصاً في بدايتها، حين كانت دائمة العبوس في جو مهيم ضدها منذ ثلاثئة سنة، ومع ذلك فانها كانت تسبح بين شعاب مرجانية حادة دون ان تصطدم بأحد، وبسيطرة على العالم لا يمكن لها إلا ان تكون غريزة خارقة للطبيعة. هذه القدرة الرهيبة، التي قد يكون منشأها حكمة ترجع للملايين السنين أو قلب صواني، جاءت بساعة محنتها في يوم أحد مشؤوم قبل الذهاب للمقداس، حين كانت فيرميناداشا تشم الملابس التي استخدمها زوجها مساء اليوم السابق بشكل روتيني محض فأحسّت بقلق ان رجلاً آخر هو الذي أمضى الليل في فراشها.

شمّت السترة أولاً ثم الصدرية فيما هي تنزع الساعة ذات السلسلة الذهبية من العروة وتخرج قلم الرصاص ومحفظة الاوراق النقدية وقطع النقود المعدنية القليلة من الجيوب، وكانت تضع كل ذلك على خوان الزينة، ثم شمّت القميص المجعد وهي تحلّ ياقة ربطة العنق وزري المعصم الياقوتين وزر الياقة الذهبي، ثم شمّت البنطال وهي تخرج من جيوبه حمالة المفاتيح ذات الاحد عشر مفتاحاً وقلامة ريشة الكتابة ذات المقبض الصدفي، وشمّت اخيراً السروال الداخلي والجوربين والمنديل المطرزة عليه الحروف الأولى من اسمه. ولم يكن هناك من ظل لأدنى شك: ففي كل قطعة من ثيابه كانت تجد رائحة لم تكن فيها خلال سنوات حياتها المشتركة الطويلة، رائحة يستحيل تحديدها، لانها ليست رائحة زهور ولا رائحة مستحضرات اصطناعية، وانما رائحة خاصة بالطبيعة البشرية. لم تقل شيئاً، كما لم تعد تجد تلك الرائحة كل يوم، لكنها ما عادت تشم ملابس زوجها بفضل التعرف ما اذا كانت بحاجة للغسيل، وانما بجزع لا يطاق كان يكوي احشاءها.

لم تعرف فيرمينا داتنا أين تحدد موقع رائحة الملابس في روتين زوجها. لا يمكن ان يكون ذلك ما بين الدرس الصباحي والغذاء، لانها افترضت انه لا يمكن لامرأة سليمة العقل

ممارسة حب متعجل في مثل تلك الساعة، حين يكون على المرأة كنس البيت، وترتيب الأسرة، والتسويق، واعداد الغذاء، وربما تكون قلقة من ان يأتيها أحد الأطفال وقد أعدوه من المدرسة قبل الموعد لاصابته بضربة حجر، فيجدها عازية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي حجرة غير مرتبة، كما يجد، وتلك قاصمة الظهر، ان طيباً فوقها. وكانت تعلم، من تجربتها، ان الدكتور خوفينال اوريبنولا يبارس الحب إلا ليلاً، بل انه يفضل ان يكون الظلام دامساً، وربما قبيل الفطور احياناً، على زقزقة أول العصافير. أما بعد هذه الساعة، فان نزاع الملابس كما كان يقول، ولبسها من جديد أشق على النفس من متعة حب كحب الديك. أي ان تلوث الثياب لا يمكن له ان يحدث إلا في احدي زياراته الطبية، أو في وقت تختلس من لياليه في لعب الشطرنج أو في السينما. وقد كان التحقق من هذا الاحتمال الآخر صعباً، لان فيرمينا دائماً، على العكس من معظم صديقاتها، كانت تعتز بكبريائها بحيث لا تسمح لنفسها بالتجسس على زوجها، أو بان تطلب إلى أحد عمل ذلك بدلاً منها. ان توقيت زيارة المرضى الذي يبدو الاكثر ملاءمة لاقتراف الخيانة، هو في الوقت ذاته اسهل فترة يمكن رصدها، لان الدكتور خوفينال اوريبنو يسجل بالتفصيل وضع كل مريض من مرضه، بما في ذلك حالة حسابات الاعتاب، منذ ان يزوره أول مرة والى ان يودعه من هذا العالم بصليب اخير وعبرة من اجل راحة روحه.

بعد ثلاثة اسابيع، لم تجد فيرمينا دائماً للرائحة اثرأ في الملابس لعدة ايام، ثم عادت تجدها فجأة ودون سابق انذار، ثم انها وجدتتها فيما بعد أوضح مما كانت عليه سابقاً ولأيام متتالية، رغم ان أحد تلك الايام كان يوم أحد احتفالي لم تفارقه خلاله لحظة واحدة. وفي احدي الامسيات، وجدت نفسها في مكتب زوجها، على خلاف عاداتها بل وعلى خلاف رغبتها وكأنها ليست هي التي تقوم بشيء لم تقدم عليه أبداً، وانما امرأة اخرى سواها، محللة بعدسة مكبرة ملاحظات زوجها المتشابكة عن زياراته لمرضاه خلال الشهور الاخيرة. كانت المرة الاولى التي تدخل فيها هذا المكتب المشبع برطوبة الكريوزوت، والمفعم بالكتب المجلدة بجلود حيوانات مجهولة، وصور مدرسية مضطربة، وشهادات شرف، واسطرلابات وخناجر زائفة جمعها خلال سنوات. انه الهيكل السري الذي كان دوماً جزءاً من حياة زوجها الخاصة، وهي لا تدخله لانه لا علاقة له بالحب اما المرات القليلة التي دخلت هناك فكانت وهي معه، ومن أجل قضايا مستعجلة دوماً. لم تكن تشعر بان لها الحق في الدخول وحدها، وخصوصاً اذا كانت تريد اجراء تحريات لا تبدو لها محترمة. انها هاهي هناك. انها تريد العثور على الحقيقة، وتبحث عنها بقلق لا يمكن مقارنته بخوفها الرهيب من العثور عليها، مدفوعة

بعاصفة متسلطة واكثر عتواً من كبريائها الخلقى ، اكثر عتواً من كرامتها : انه تعذيب ساحر للنفس .

لم تستطع الوصول إلى شيء واضح ، لان مرضى زوجها ، باستثناء الاصدقاء المشتركين بينهم ، كانوا كذلك جزءاً من احتكارات زوجها الخاصة . انهم أناس بلا هوية ، لا يعرفون بوجوههم وانما بآلامهم ، لا يعرفون بلون أعينهم أو مراوغة قلوبهم وانما بحجم كبدهم ، وقلع لسانهم ، وكشافة بولهم ، وهذيانهم في ليالي الحمى . اناس يؤمنون بزوجها ، يؤمنون بانهم يعيشون به بينما هم في الحقيقة يعيشون له ، وينتهون إلى اختزالهم في عبارة يكتبها بخطه ويده على طرف التقرير الطبي : اهدأ ، فالرب ينتظرك عند الباب . . غادرت فيرمينا دانا المكتب بعد ساعتين لم تصل خلالها إلى شيء . شاعرة بانها قد خضعت لغواية فاحشة .

وبدأت تكتشف ، مدفوعة بأوهامها ، التبدلات التي طرأت على زوجها . أصبحت تراه مراوغة قليل الشهية على المائدة وفي الفراش ، ميلاً الى السخوط والردود المتهمكة . ولم يعد الرجل الهادىء الذي كانه من قبل اثناء وجوده في البيت ، وانما صار اشبه بأسد محبوس . ولأول مرة منذ زواجها ، أخذت تراقب تأخره ، وترصد اوقاته بالدقيقة ، وتكذب عليه لتحصل منه على الحقائق ، ولكنها كانت تشعر بعد ذلك بجرح قاتل لتناقضها . وفي احدى الليالي استيقظت مذعورة لاحساسها بان زوجها يتأملها في العتمة بعينين مشحونتين بالحق . لقد عانت قشعريرة مماثلة وهي في زهرة شبابها ، حين كانت ترى فلوريتينو اريثا يتأملها عند طرف السرير ، والفارق الوحيد هو ان مظهره لم يكن حينئذ مظهر حقذ وانما حب . ثم انها لم تكن واهمة هذه المرة : كان زوجها مستيقظاً في الثانية بعد منتصف الليل ، وقد اعتدل في السرير ليتأملها وهي نائمة ، ولكنها حين سألته لماذا يفعل ذلك ، انكر الأمر . وأعاد وضع رأسه على الوسادة قائلاً :

- لا بد انك كنت تحلمين .

بعد هذه الليلة ، وبفعل احداث مشابهة وقعت في تلك الفترة التي لم تعد فيرمينا دانا تعلم فيها علم اليقين أين ينتهي الواقع وأين تبدأ الأحلام ، توصلت إلى اكتشاف باهر بانها آخذة بالجنون . ثم انتهت اخيراً إلى ان زوجها لم يتناول القربان الرباني يوم خميس التجسيد ، ولا في اي أحد من أحاد الاسابيع الأخيرة ، كما انه لم يجد وقتاً للخلوة الروحية في ذلك العام . وعندما سألته عن سبب هذه التبدلات الغريبة في صحته الروحية ، تلقت رداً مبهاً . وكان هذا هو المفتاح الحاسم للحل ، لانه لم يكن يتخلف عن تناول القربان المقدس في يوم بهذه الاهمية منذ مناولته الأولى وهو في الثامنة من العمر . وهكذا ادركت ان زوجها لم يسقط في الخطيئة المهلكة وحسب ، وانما هو مصر على الرلوغ فيها ، لانه يرفض اللجوء إلى مساعدة

كاهن الاعتراف . لم تتصور يوماً أنها قد تعاني الى هذا الحد من شيء يبدو مناقضاً للحب تماماً، ولكنها كانت في خضم هذه المعاناة، ورأت ان الوسيلة الوحيدة لتخليص نفسها هي في دس النار الى جحر الحيات التي سممت دخيلتها. وهكذا فعلت. فقد جلست في مساء أحد الأيام لترفو اعقاب الجوارب على الشرفة، فيما كان زوجها ينهي قراءته اليومية بعد القيلولة. وفجأة، قطعت عملها، ورفعت نظارتها إلى جبهتها، واستجوبته دون اية قسوة :

- دكتور.

كان غارقاً في قراءة L'LEDES PINGOUINES ، الرواية التي قرأها الجميع في تلك الأيام، واجابها دون ان يخرج من حو الرواية : Oui . فالتحت :

- انظر إلى وجهي .

فعل ذلك، ناظراً إليها دون ان يراها من خلال غلالة نظارة القراءة، ولكنه لم يتزع النظارة كي لا يحترق بجمرة نظرتها. وسألها :

- ما الأمر ؟

فقالت :

- أنت تعرفه خيراً مني .

ولم تقل شيئاً آخر. بل انزلت نظارتها من جديد وتابعت رفو الجوارب . حيثذ علم الدكتور خوفينسال اوريبنو ان ساعات الجنزع الطويلة قد انتهت . وعلى العكس من تصوره لتلك اللحظة، فانها لم تكن هزة تزلزل القلب، وانما مجرد ضربة سلام . انها الطمأنينة العاجلة لما كان سيحدث أجلاً أم عاجلاً : لقد دخل شيخ الانسة باربرا لينتش الى البيت اخيراً .

كان الدكتور خوفينسال اوريبنو قد تعرف عليها قبل أربعة أشهر، بينما كانت تنتظر دورها في العيادات الخارجية بمشفى الرحمة، وانتبه على الفور بان شيئاً لا سبيل لاصلاحه قد حاق بقدره . كانت خلاسية طويلة القامة، انيقة، ذات عظام طويلة، لبشرتها لون العسل الاسود وقوامه اللدن ذاته، وكانت ترتدي في ذلك الصباح فستاناً أحمر مزيناً بدوائر بيضاء وتضع قبعة من نفس النوع ذات حافة عريضة تفرد ظلها حتى رموش عينيها . وكانت تبدو وكأنها من جنس اكثر تحديداً من سائر ابناء البشر . لم يكن الدكتور خوفينسال اوريبنو يعالج المرضى في العيادات الخارجية، ولكنه اعتاد، كلما مر من هناك وكان لديه متسع من الوقت، الدخول ليذكر تلاميذه الكبار بان لا دواء أفضل من التشخيص الجيد . وهكذا تدبر أمره ليكون حاضراً عند فحص الخلاسية العائرة . محاذراً ألا يلحظ تلامذته اية حركة لا تبدو عرضية، ودون ان ينظر اليها تقريباً، ولكنه دون في ذاكرته جيداً المعلومات التي قدمتها عن نفسها . وفي هذا المساء بالذات، بعد زيارة اخر مريضاه، جعل العربية تمر من العنوان الذي أفضت به في

العيادة، وكانت هناك فعلاً، تستمتع على الشرفة برطوبة اذار.

كان البيت واحداً من بيوت الانتيل التقليدية، مطلياً كله باللون الاصفر بما في ذلك سقف التوتياء، وله نوافذ مخرمة وفيه اصص قرنفل وسرخس معلقة على البوابة الخارجية، وكان البيت يقوم فوق ركائز خشبية في مستنقع لا مالاكريانثا. وفي قفص معلق بافريز السطح، كان يغرد عصفور توريبال. وعلى الرصيف المقابل للبيت كانت توجد مدرسة ابتدائية، وكان الاطفال يخرجون منها بفوضى اجبرت الحوذي على شد الاعنة بقوة ليحول دون اجفاهم للحصان. لقد كانت تلك ضربة حظ، اذ تمكنت الانسة باربارا لينتش من التعرف على الدكتور. فचितه بحركة معارف قدماء، ودعته ليتناول فنجان قهوة ريشا تنتهي الفوضى، فتناول به بكل سرور، على خلاف عادته، مستمعاً اليها تتحدث عن نفسها، وهو الشيء الوحيد الذي اصبح يهيم منذ ذلك الصباح والشيء الوحيد الذي يستحوذ على اهتمامه، دون لحظة سلام، خلال الاشهر التالية. لقد قال له احد اصدقائه بحضور زوجته في احدى المناسبات، وهو حديث العهد بالزواج، بانه سيواجه عاجلاً أو آجلاً عاطفة تبعث على الجنون، يمكنها ان تعرض استقرار حياته الزوجية للخطر، لكنه، هو الذي كان يظن بانه يعرف نفسه جيداً، ويعرف متانة جذوره الاخلاقية، ضحك من هذه النبوءة. حسناً اذن: ها هي الآن.

الانسة باربارا لينتش، دكتورة في علم اللاهوت، هي الابنة الوحيدة للمحترم جونثان ب. لينتش، الراعي البروتستانتي، الزنجي النحيف، الذي ينطلق على بغلته إلى قرى المستنقع الهندية، مبشراً بتعاليم أحد الآلهة الكثرين الذين يكتبهم الدكتور خوفينال اورينو بادئاً اسمهم بحرف صغير ليميزهم عن إلهه. كانت تتحدث بقتالية جيدة، مع عشرة ضئيلة في النحويضا عاف تكرارها من ظرافتها. كانت ستم الثامنة والعشرين من العمر في شهر كانون الثاني، وقد طلقت قبل ذلك بقليل من راعٍ آخر هو أحد أتباع أبيها، وكانت قد تزوجت منه زواجاً سيئاً دام سنتين، ولم تعد لديها رغبة في الزواج مجدداً. قالت: «ولا أحب احداً سوى عصفوري التوريبال». لكن الدكتور خوفينال اورينو كان جدياً بما يكفي ليفكر بانها انما تقول ذلك متعمدة. بل انه سأل نفسه وهو مضطرب الافكار ما اذا كانت كل هذه التسهيلات مجتمعة ليست سوى فخ من الرب لجعله يدفع الثمن باهظاً فيها بعد، ولكنه أبعد هذا السؤال في الحال من ذهنه على انه حالة لاهوتية سببها وضعه المضطرب.

وعندما ودعها، تطرق بشكل عرضي إلى استشارتها الطبية صباحاً، مدركاً انه ليس أحب للمريض من الحديث عن آلامه، وقد كانت هي في منتهى الروعة يحديتها عن آلامها، حتى

انه وعدها بالعودة في اليوم التالي، الساعة الرابعة تماماً، لفحصها فحصاً دقيقاً. احست بالفزع: كانت تعلم ان طبيساً من هذا النوع بعيد جداً عن امكانياتها، لكنه طمأنها: «اننا نحاول في هذه المهنة جعل الأغنياء يدفعون عن الفقراء». ثم سجل الملاحظة في دفتر جيبه: الأنسة باريارا لنتش، مستنقع لاملالا كريانثا، السبت، ٤ مساء. بعد ذلك بشهور، قرأت فيرمينا دانا تلك الملاحظة التي أضيفت اليها تفاصيل التشخيص والعلاج وتطور المرض. وقد لفت الاسم اهتمامها، وخطر لها فجأة بانها واحدة من هؤلاء الفنانات المضنلات في سفن نيو اورليانز للفواكه، لكن العنوان جعلها تفكر بان الاحتمال الاقرب الى الصواب هو انها جامايكية، وزنجية بالطبع، فصرفت النظر عنها دون معاناة لعدم انسجامها مع ذوق زوجها. ذهب الدكتور خوفينال اورينو الى مواعده يوم السبت متقدماً عشر دقائق، حين لم تكن الانسة لنتش قد انتهت من ارتداء ملابسها لاستقباله. ولم يشعر بتوتر كالذي شعره امامها منذ ايام باريس، حين كان عليه التقدم لامتحان شفوي. كانت الانسة لنتش جمالاً لا محدوداً وهي مستلقية على السرير، بقميص نوم حريري رقيق. كل ما فيها كان عطياً وزخماً: فخذها اللذان كفضلي عروس البحر، وبشرتها المحروقة على نار خفيفة، ونهداها الداهلان، ولتتها الشفافة ذات الاسنان الدقيقة، وجسدها كله الذي ينضح ببخار العافية، وهي الرائحة البشرية التي وجدت فيرمينا دانا في ملابس زوجها. كانت قد ذهبت الى العيادة الخارجية لمعاناتها من شيء تدعوه بظرافة شديدة مغصاً ملتوياً، وظن الدكتور اورينو بانها اعراض قلة شرب السوائل. وقد لامس على أي حال اعضاءها بغرض ابعاد ما يكون عن الاهتمام الطبي، وراح ينسى اثناء ذلك معارفه العلمية ويكتشف مذهولاً ان تلك المخلوقة العجيبة كانت جميلة من الداخل كجمالها من الخارج، وعندئذ ترك متعة اللمس تقوده، ليس على انه الطبيب الأكثر شهرة في ساحل الكاريبي، وانما كرجل بائس على باب الله يعذبه هيجان الغرائز. كان قد حدث له شيء مشابه لهذا مرة واحدة في حياته المهنية الطويلة، وقد كان ذلك هويوم عاره الكبير، لان المريضة الحانقة ازاحت يده، واعتدلت على السرير قائلة له: «ان ماتريده يمكن ان يحدث، ولكن ليس هكذا». أما الأنسة لنتش، فقد سلمت نفسها ليديه، وحين لم يعد لديها ادنى شك في ان الطبيب ما عاد يفكر بعلمه، قالت:

- كنت اظن ان هذا غير مسموح في الاخلاق الطبية.

كان مبللاً بالمرق وكأنه خارج بملابسه من بركة ماء، فمسح يديه ووجهه بمنشفة، وقال:

- الاخلاق الطبية تتصورنا معشر الاطباء من خشب.

مدت له يداً شاكرة وقالت:

- كوفي كنت اظن لا يعني انه لا يمكنك فعل ذلك . تصورا الذي سيحدث لزنجية مسكينة مثلي حين يهتم بي رجل بالغ الالهمية .

فقال :

- لم أتوقف عن التفكير بك لحظة واحدة .

كان اعترافاً مرتعشاً إلى حد جعله جديراً بالشفقة . ولكنها وضعته بمنجى من كل شر بقهقهة أضاعت حجرة النوم . وقالت :

- أعرف ذلك مذكراتك في المستشفى يا دكتور . صحيح اني زنجية ، ولكنني لست غبية . لم يكن الامر سهلاً . فالانسة ليتتش تريد شرفها نظيفاً ، وتريد الامان والحب ، وترى انها جديرة بذلك . لقد اتاحت للدكتور خوفينال اوربينو فرصة اغوائها ، انها دون السماح له بالدخول إلى الحجرة اثناء وجودها وحيدة في البيت . وأبعد ما وصلت اليه هو السماح له بتكرار طقوس اللمس والفحص بالتنصت مع كل ما يرافق ذلك من خروقات اخلاقية يشاؤ لها ، ولكن دون ان تنزع ثيابها . أما هو ، فلم يستطع افلات الطعام بعد ان ابتلعه ، وثابر على حصاره اليومي . كان استمرار علاقته بالانسة ليتتش شبه مستحيل لاسباب مرتبطة بنظامه العملي ، ولكنه كان أضعف من ان يكبح نفسه في الوقت المناسب ، كضعفه في الماضي قدماً فيما بعد . لقد كانت له حدوده

لم تكن حياة المحترم ليتتش بالحياة المنتظمة ، فهو ينطلق في أي وقت على متن بغلته المحملة في أحد جانبيها بكتب مقدسة ونشرات دعائية انجيلية ، وفي الجانب الآخر بالزاد ومواد التموين ، ويرجع حين لا تخطر عودته ببال أحد . كما كان هناك عائق آخر يمثل بالمدرسة المقابلة ، فالاطفال فيها يغنون دروسهم وهم ينظرون إلى الشارع من النافذة ، وأفضل ما يرونه هو البيت القائم على الرصيف المقابل ، بابوابه ونوافذه المشرعة على مصراعها منذ الساعة السادسة صباحاً ، ويرون الانسة ليتتش وهي تعلق القفص بافريز السطح ليتعلم طائر التوريبال موسيقى الدروس المغناة ، ويرونها بعمامتها الملونة وهي تغني أيضاً بصوتها الكاربيبي النقي اثناء قيامها بأعمال البيت ، ويرونها بعد ذلك جالسة على الشرفة لتغني وحدها بالانكليزية مزامير المساء .

كان عليه ان يمتثل وقتاً لا يكون الاطفال موجودين فيه ، ولم يكن امامه سوى احتمالين : اما اثناء استراحة الغداء ، ما بين الثانية عشرة والثانية ، وهو الوقت الذي يذهب فيه الدكتور لتناول الغداء ايضاً ، واما في المساء ، حين ينصرف الاطفال إلى بيوتهم . وقد كان هذا الاحتمال الاخير هو الافضل دائماً ، ولكن الدكتور يكون حينئذ قد انهى زيارته ولا يبقى امامه

سوى دقائق قليلة للوصول الى البيت وتناول الطعام مع أسرته . أما المشكلة الثالثة ، وهي الاخطار بالنسبة له ، فكانت تتمثل في وضعه بالذات . اذ لم يكن بإمكانه الذهاب دون العربية ، وهي عربية معروفة جيداً ويجب ان تنتظره دوماً أمام الباب . كان بإمكانه الاتفاق مع الخوذي ، كما يفعل جميع اصدقائه في النادي الاجتماعي تقريباً ، ولكن هذا الأمر كان غريباً عن عاداته . حتى ان حوذي العائلة نفسه ، وبعد ان أصبحت زيارته للأنسة لينتش مكشوفة بها فيه الكفاية ، تجرأ على سؤاله اذا لم يكن من الأفضل ان يرجع بحثاً عنه فيما بعد كي لا تبقى العربية متوقفة امام الباب لوقت طويل . لكن الدكتور اوربينو قاطعه بردة فعل غريبة على طبيعته قائلاً :

- هذه هي المرة الأولى التي اسمعك فيها تقول شيئاً يجب عليك ألا تقوله مذكرك . ولكن لا بأس : سأعتبر انك لم تقل شيئاً .

لم يكن ثمة مفر : ففي مدينة كهذه لا يمكن اخفاء أمر مرض ما دامت عربية الطبيب عند الباب . لقد كان الطبيب يسأله أحياناً بالذهاب الى بيت المريض شيئاً على الاقدام حين تسمح المسافة بذلك ، أو الذهاب في عربية اجرة ، ليحول دون تخمينات خبيثة أو مبكرة . ومع ذلك ، فان هذه الحيل لم تكن ذات نفع كبير ، فالادوية التي يصفها الطبيب لتشتري من الصيدليات تتيح كشف الحقيقة ، مما كان يدفع الدكتور اوربينو الى وصف ادوية مزيفة الى جانب الادوية الصحيحة ، ليحفظ حقوق المرضى في الموت بسلام مع أسرار امراضهم . ورغم قدرته كذلك على ان يرربوسائل شريفة مختلفة ، وقوف عربته امام دار الأنسة لينتش ، إلا انه لن يتمكن فعل ذلك لزمناً طويلاً ، بل لوقت اقصر بكثير من الزمن الذي كان يرغب فيه : مدى الحياة .

صارت دنياه جحيماً . فما ان ارتوى الجنون الأول حتى ادرك كلاهما المخاطر المحيطة بهما ، ولم يكن الدكتور خوفينال اوربينو قد حسم أمره يوماً وأعد نفسه لمواجهة الفضيحة . لقد كان يحدها بكل شيء أثناء هدياته المحموم ، ولكنه بعد الانتهاء ، يؤجل كل شيء الى ما بعد . ردت بالمقابل كلما ازداد شوقه للقاءها يزداد كذلك خوفه من فقدانها ، وهكذا أصبحت لقاءاتها سريعة وصعبة . لم يكن يفكر بشيء آخر . كان ينتظر المساء بجزع لا يطاق ، وينسى مواعيده الاخرى ، ينسى كل شيء سواها ، ولكن ما ان تبدأ العربية بالاقتراب من مستنقع لا مالا كريانثا حتى يأخذ بالابتهال الى الله ليبعث له عائقاً في اللحظة الاخيرة يجعله يواصل طريقه دون الدخول اليها . كان يعاني حالة من الكآبة تجعله يتبجح حين يرى أحياناً . وهو على انصاية ، رأس المحترم لينتش الملفوف بالقطن جالساً يقرأ على الشرفة ، والابنة في الصلاة تنقن أصول الدين لأطفال الحي من خلال الاناجيل المغناة . فيمضي حينئذ سعيداً الى بيته



كي لا يستمر في تحدي القدر. ولكنه لا يلبث ان يشعر بقلق مجنون يتمنى خلاله ان يتحول اليوم كله وجميع الايام لتصبح جميعها الخامسة مساء فقط .

اصبحت تلك الغراميات مستحيلة حين أخذ ظهور العربة يكثر أمام الباب ، ولم يعد ذلك الحب بعد مرور ثلاثة شهور سوى عمل مضحك . فقد كانت الانسة ليتها تدخل حجرة النوم دون أن يتاح لها الوقت لقول أي شيء ، بمجرد رؤيتها العاشق الوهان يدخل . وكانت تتخذ الاحتياطات المسبقة في الايام التي تنتظر قدومه فيها بارتدائها فستانا جامايكيا بديعا مزينا بزهور ملونة ، ولكن دون أية ملابس داخلية ، ودون أي شيء ، معتقدة أن السهولة ستساعده في التغلب على الخوف . لكنه كان يهدر كل ما تفعله لاسعاده . فيلحقها الى حجرة النوم لهاشا ومللا بالعرق ، ثم يبدأ بالتخلص مما يحمله ملقيا بكل شيء على الارض : العكاز ، وحقيبة الطبيب ، والقبعة البنمية ، ليارس حبا مرتبكاً بسرور لم يجد عند كاحليه وسنرة مزرة ليكون ازعاجها أقل ، وسلسلة ذهبية مثبتة في صدرته ، وهو متعل حذاءه ، وكل شيء ، مهتما بالذهاب بأسرع ما يمكن اكثر من اهتمامه باستكمال المتعة . وتبقى هي صائمة ، ما ان تهم بدخول نفق عزلته ، حتى يبدأ بأحكام ازرار سرواله من جديد وهو منك ، كما لو انه مارس الحب المطلق على الخط الفاصل بين الحياة والموت ، بينما هو لم يفعل في الحقيقة اكثر مما يتطلبه فعل الحب من جهد جسدي . ولكنه يبقى ضمن حدود قانونه : انه الوقت اللازم بالضبط لاعطاء حقنة في العضل لحالة علاج روتينية . ويعود بعدئذ الى البيت خجلا من ضعفه ، راغبا في الموت ، ولا عا فقدائه الشجاعة اللازمة للطلب من فيرمينا دائما ان تنزع له سرواله وتجلسه على الجمر لتحرق قفاه .

لم يكن يتعشى ، وكان يصلي دون ايمان ، ويتصنع مواصلة قراءة ما بعد القيلولة وهو في الفراش فيما زوجته تلف في البيت وتدور مرتبة الدنيا قبل ان تنام . وما ان يداعبه النعاس فوق الكتاب حتى يأخذ بالغرق شيئا فشيئا في غابة الانسة ليتها التي لا مفر منها ، يغرق في راحتها التي كرائحة غابة راقدة فوق فراشها الذي كفراش الموت ، ولا يستطيع التفكير عندئذ بشيء سوى الساعة الخامسة الا خمس دقائق من مساء اليوم التالي ، وبها تنتظره في السرير دون أي شيء سوى جبلها للذن القاتم تحت الفستان الجامايكي المجنون : انها الدائرة الجهنمية .

كان قد بدأ يمي ثقل جسده منذ بضع سنوات . وكان يعرف الاعراض . لقد قرأها في كتب الطب ، ولمسها في الحياة الواقعية بمعانيتها في مرضى هرمين بلا سوابق مرضية خطيرة ، يبدؤون فجأة بوصف أعراض دقيقة يبدو وكأنهم يستخرجونها من كتب الطب ، رغم انها لا تعد كونها اوهاما . لقد نصحه استاذ طب الاطفال في جامعة سالتييرير يوماً بدراسة طب

الاطفال لانه أنبل اختصاص، فالاطفال لا يمرضون الا حين يكونون مرضى حقاً، ولا يستطيعون التواصل مع الطبيب بالكلمات الاصطلاحية وانما بالاعراض المحددة للأمراض الحقيقية. أما البالغين، اعتباراً من سن معين، فاما ان لديهم أعراضاً بلا أمراض، واما ان لديهم ما هو أسوأ من ذلك: امراضاً خطيرة وأعراض أمراض أخرى ليست ذات شأن. وكان هو يشغلهم بالمسكنات. هتيجا الوقت للزمن، كي يتعلموا عدم الشعور بتوقعات الكبر بعد معاشتهم لها في مزبلة الشخوخة. وما لم يفكر به الدكتور خوفينال اوريينو أبداً هو ان طبيباً في مثل سنه، يظن بأنه رأى كل شيء وخبره، لن يستطيع تجاوز قلق شعوره بأنه مريض حين لا يكون كذلك. أو يقع له ما هو أسوأ بان يظن انه ليس مريضاً، متعللاً باوهام طبية محضة، في حين ربما يكون مريضاً فعلاً. لقد قال في احد دروسه يوماً وهو في الاربعين، نصف مازح ونصف جاد: «الشيء الوحيد الذي احتاجه في الحياة هو أحد يفهمني». ولكنه حين وجد نفسه ضائعاً في متاهة الانسة لينتس لم يفكر بالامر مازحاً.

جميع الاعراض الحقيقية والوهمية لمرضه المسنين اجتمعت في جسده. فكان يحس شكل كبده بوضوح، ويستطيع تحديد حجمه دون ان يلمسه. كان يشعر بزجرة القط النائم في كلبتيه، ويشعر بريق مرارته الساطع، ويحس خريز الدم في شرايينه. وكان يستيقظ صباحاً في بعض الاحيان كسمكة لا تجد الهواء للتنفس. ويشعر بوجود ماء في قلبه، ويحس به يفقد ايقاعه للحظة، أو يشعر به، بين حين وآخر، يتأخر في نبضة من نبضاته، كما في المشية العسكرية أيام المدرسة، ثم يشعر بأنه يستعيد قواه لان الله كبير. ولكنه بدلاً من ان يلجأ الى علاج السلوى الذي كان يطبقه على المرضى، فانه سمح للخوف ان يغميه. حقاً ان الشيء الوحيد الذي يحتاجه في الحياة، وهو في الثامنة والخمسين من العمر أيضاً، هو أحد يفهمه. وهكذا لجأ الى فيرمينا دائماً، اكثر من تحبه ويحبها في هذا العالم، ومن سيريح ضميره أمامها.

حدث هذا بعد ان قاطعته في قراءته المسائية لتطلب منه ان ينظر الى وجهها، فجاءته الاشارة الاولى بان حلقة الجهنمية قد كُشفت. لم يفهم كيف حدث ذلك، اذ كان مستحيلاً عليه ان يتصور بان فيرمينا دائماً اكتشفت الحقيقة بمجرد الشم. لكن هذه المدينة لم تكن على اي حال، ومنذ زمن بعيد، بالمدينة المناسبة لكتبات الاسرار. فبعد وقت قصير من وصول اجهزة الهاتف الاولى، انهارت عدة زيجات كانت تبدور اسخنة، تحت نائم الاتصالات الهاتفية المجهولة، ودفع الرعب عائلات كثيرة الى الغاء اشتراكها أو رفض الاشتراك بالهاتف لسنوات طويلة. كان الدكتور خوفينال اوريينو يعرف ان زوجته تعثر بنفسها كثيراً بحيث لا تسمح حتى بمحاولة وشاية مجهولة بالهاتف، ولم يكن قادراً على تصور ان أحداً يتجرأ على اخبارها معلناً عن اسمه. لكنه بالمقابل كان يخشى الوسيلة القديمة: ورقة تدسها يد مجهولة

من تحت الباب يمكنها ان تكون فعالة ، ليس لانها تضمن ازدواجية المجهولية للمرسل والمرسل اليه ، وانما لان اصلها العريق يتيح ربطها بعلاقة ميتا فيزيقية ما مع تدابير العناية الالهية .

لم تكن الغيرة تعرف الى البيت سبيلا : فخلال اكثر من ثلاثين سنة من السلام الزوجي ، كان الدكتور اورينو يفاخر في الاماكن العامة ، وكان صادقا حتى ذلك الحين ، بانه مثل الثقب السويدي ، لا يشتعل الا بعلبته . لكنه كان يجهل كيف يمكن ان يكون رد فعل زوجته بكبرياتها واعتزازها الشديد بنفسها وبطبعها الخاد ، أمام خيانة ثابتة . وهكذا فانه حين تطلع في وجهها كما طلبت منه ، لم يخطر له شيء سوى ان يخفض بصره من جديد ليغرق في القلق ، وظل يتظاهر بالانغماس في ترجات نهر جزيرة ألکا العذب ، ريثما يخطر له ما يفعله . ولم تقل فيرمينا دائما من جهتها شيئا آخر . وعندما انتهت من رفو الجوارب ، ألقت بالادوات دون انتظام في علبة الخياطة ، وأعطت التعليمات في المطبخ لاعداد العشاء ، ومضت الى حجرة النوم .

حينئذ اتخذ قراره الحاسم ولم يذهب في الساعة الخامسة الى منزل الانسة ليتتش . اما وعود الحب الابدي ، والحلم بيت سري لما وحدها حيث يستطيع زيارتها دون مفاجآت ، والسعادة على مهل حتى الموت ، وكل ما وعداه به اثناء ومضات الحب ألقي الى الابد . وأخر ما تلقته منه الانسة ليتتش كان اكليل من الزمرد سلمها اياه الخوذي دون أي تعليق ، دون أي رسالة ، دون أية ملاحظة مكتوبة ، في علبة ملفوفة بورق صيدلية ، حتى يظنه الخوذي نفسه دواء مستعجلا . ولم يعد لرؤيتها ولو مصادفة خلال ما تبقى من حياته ، والله وحده يعلم كم من الالام كلفه هذا القرار البطولي ، وكم من الدموع المريرة سكب وهو محبوس في المرحاض ليتجاوز كارتسه الحميمة . فبدلا من ان يذهب اليها في الساعة الخامسة ، قام بتقديم توبته النصوح أمام كاهن الاعتراف ، وشارك يوم الاحد التالي في تناول القربان الرباني بقلب مفتت ، انها روح مطمئنة .

يوم قطع علاقته بها ، وفيما هوينزع ملابسه لينام ، كرر على مسامع فيرمينا دائما تراتيل ارقه الصباحي المريرة ، والوخزات المباشرة ، والرغبة بالبكاء عند الظهيرة ، والاعراض المقتضبة للحب الخفي التي كان يروها لها حينئذ كما لو كانت اعراض الشيخوخة البائسة . كان عليه ان يحكي ذلك لاحد كي لا يموت . كي لا يروي الحقيقة ، ثم ان تلك المفاتحت يمكنون قلبه كانت أولا واخيرا أحد طقوس الحب البيتي . استمعت اليه باهتمام ، انها دون النظر اليه ، ودون ان تقول شيئا ، بينما هي تتناول منه الملابس التي يخلعها . كانت تشم كل قطعة منها دون

أية إساءة تشي بغضبها، ثم تطويعها كيفما اتفق، وتلقي بها الى سلة الثياب المتسخة الخيزرانية. لم تجد الرائحة، ولكن الامرسيان: غدا سيكون يوم آخر. وقبل ان تمجول للصلاة أمام المذبح الصغير في حجرة النوم، اختتم هوروايته المكرورة عن يؤسه بتنهد حزينة وصريحة أيضاً: «أظن انني سأموت». ولم ترمش رمشة واحدة حين ردت عليه قائلة:- سيكون هذا أفضل. لاننا سنستريح كلانا.

قبل سنوات، وخلال ازمة مرض خطير، كان قد تحدث عن احتمال موته، وكانت هي قد ردت بالجواب القاسي نفسه. وقد عزا الدكتور اوريينو ذلك يومها الى قسوة النساء، هذه التي تتابع الارض بفضلها الدوران حول الشمس، لانه كأن يجهل حينئذ بانها تقيم دوماً حاجزا من الغضب لتخفي خوفها، ولتخفي يومئذ اكثر مخاوفها رهبة، الا وهو الخوف من البقاء بدونها.

لكنها تمت له الموت في تلك الليلة بكل حدة قلبها، وقد أفزعها هذا اليقين. بعد ذلك سمعها تبكي في الظلام، بوهن شديد، عاضة الوسادة كي لا يسمعوها. فبهزه ذلك، لانه كان يعلم انها لا تبكي بسهولة من أي ألم جسدي او روحي. وانها تبكي بتأثير حق عظيم فقط، ويكون بكاءها أشد اذا ما كان هذا الحق ناشئا، بطريقة ما، عن خوفها من الشعور بالذنب. لم يتجرأ على مواساتها، مدركا ان ذلك سيكون اشبه بمواساة نمره مطعونة بحربة. ولم يملك الجرأة ليقول لها ان اسباب بكائها قد زالت هذا المساء، وانها انتزعت من جذورها الى الابد، حتى من ذاكرته.

هزمه الارهاق لدقائق. وعندما استيقظ وجد انها قد اضاءت النور الخفيف الذي الى جانبها وانها مازالت مفتوحة العينين، انها دون بكاء. لقد حدث لها شيء حاسم فيما هونائم: فالرواسب التي تراكمت في قاع عمرها خلال سنوات طويلة قد هاجت بعذاب الغيرة، وخرجت طافية الى السطح، وأهرمتها في لحظة واحدة. فتجرأ على القول لها انها تحاول النوم وهو مذهبول لتجاعيدها الفجائية، ولشفتيها الداويتين، ولرماد شعرها. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية. فكلمته دون ان تنظر اليه، ولكن دون اي أثر للسخط في صوتها، بل بصوت أقرب الى الوداعة، قائلة له:

- لي الحق بان أعرف من هي.

عندئذ روى لها كل شيء، شاعراً بأنه يرفع عن كاهله ثقل العالم، لانه كان مقتنعا بانها تعرف كل شيء ولا ينقصها سوى التأكد من التفاصيل. لكن الامر لم يكن كذلك طبعاً، وفيما هو يتكلم عادت هي تبكي، ليس باجهاشات خجولة كما في البدء، وانما بدموع منطلقة ومالحة تجري على وجهها، وتلتهب على قميص نومها وتحرق حياتها، لانه لم يفعل ما كانت

تتظرو منه وروحها معلقة بخيط، اذ كانت تنتظر منه ان ينكر كل شيء حتى الموت، وان يغضب من الافتراء، وان يلعن ناس هذا المجتمع ابن العاهرة الذين لا يتورعون عن دوس شرف الآخرين، وان يقف ثابت الجأش حتى امام الادلة الدامغة على خيانتة: كرجل. بعد ذلك، وحين روى لها بانه كان عند كاهن الاعتراف هذا المساء، خشي ان يعميها الغضب. فمنذ أيام المدرسة وهي مقتنعة بان أهل الكنيسة لا يتمتعون بأية فضيلة ملهمة من الرب. وكان هذا خلافاً جوهرياً في الانسجام البيئي، تمكنا من حله دون صدامات. انها كونه زوجها قد سمح لكاهن الاعتراف بالتدخل الى هذا الحد في شأن خاص ليس ملكاً له وحده فقط، بل وملكها ايضاً، كان شيئاً يتجاوز كل الحدود.

قالت:

- ان هذا كاستشارة حاوي ثعابين من حواة الازقة.

كان ذلك هو النهاية بالنسبة لها. كانت متأكدة من ان شرفها أصبح على كل لسان قبل ان ينتهي زوجها من الاعتراف، وشعور المهانة الذي اثاره ذلك كان أثقل وطأة من عار وغضب وظلم الخيانة. والاسوأ من كل ذلك، باللعنة. مع زنجية. فصصح قائلاً: «خلاصة». ولكن أي تحديد كان فاقصاً عن اللزوم حينئذ: لقد انتهى الأمر.

قالت:

- انها اللعنة نفسها. والآن فقط بدأت افهم: لقد كانت رائحة زنجية.

حدث هذا يوم الاثنين. وفي السابعة من مساء يوم الجمعة، ابحرت فرميادانا في السفينة الصغيرة النظامية الذاهبة الى سان خوان دي لايناغا، دون ان تأخذ معها سوى صندوق واحد، وبرفقة ابنة العماد، وكانت تغطي وجهها بطرحة لتحول دون الاسئلة لها ولزوجها كذلك. لم يذهب الدكتور خوفينال اوربينو الى الميناء، باتفاقهما معاً، بعد مناقشة مضنية دامت ثلاثة أيام، قررا على اثرها ان تذهب الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث، في بلدة فلوريس دي ماريا، لتفكر جيداً قبل اقدامها على اتخاذ قرار نهائي. وقد فهم الابن ان الامر، دون ان يعرف الاسباب، على انه رحلة جري تأجيلها مرات ومرات، وكانا هما نفسيهما يرغبان فيها منذ زمن بعيد. وقد رتب الدكتور خوفينال اوربينو الامور بحيث لا يتاح لأحد من أبناء عائلته المغادر الوصول الى تخمينات خبيثة، وفعل ذلك باتقان حتى ان اخفاق فلورينتينو اريشا بالعشور على اي أثر لاختفاء فرميادانا لم يكن لضعف وسائله في التقصي وانسا لعدم وجود اية اثار فعلا. ولم يكن يراود الزوج أي شك في انها ستعود بعد ان يفارقها الغضب. أما هي، فذهبت واثقة ان الغضب لن يفارقها ابد الدهر. لكنها سرعان ما ستدرك ان هذا القرار الحاسم لم يكن ثمرة الحقد بقدر ماهو وليد الحنين.

فبعد رحلة شهر العسل عادت عدة مرات الى اوروربا، رغم قسوة الايام العشرة التي تمضيها في البحر، ولقد كانت رحلاتها تستغرق دوما وقتا كافيا للاحساس بالسعادة. كانت تعرف العالم، وتعلمت العيش والتفكير بطريقة اخرى، لكنها لم ترجع أبدا الى سان خوان دي لايناغا بعد رحلة المنطاد الفاشلة. كان في العودة الى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا شيئا من استعادة الماضي بالنسبة لها، حتى ولو حدثت هذه الاستعادة متأخرة. ولم تفكر بذلك تحت تأثير نكبتها الزوجية: بل قبل ذلك بكثير. وهكذا فان مجرد فكرة تنقيتها عن ذكريات صباها كان يعزيبها في تعاستها.

عندما نزلت الى البر مع ابنتها في العباد في سان خوان دي لايناغا، لجأت الى مافي طبعها من احتياطات هائلة، وتعرفت على المدينة رغم كل التحذيرات. وقد دعاها القائد المدني والعسكري للموقع، الذي ذهب اليه بتوصية للاهتمام بها، دعاها الى جولة في العربة الرسمية ريشا يخرج القطار الذاهب الى سان بيدرو اليخاندريو، حيث ارادت الذهاب للتأكد مما قيل لها من أن السريير الذي مات عليه بطل التحرير<sup>(١)</sup> كان صغيرا جدا كسريير طفل. وكان ان عادت فيرمينا دائما حينئذ لرؤية قريتها الكبيرة في سكون الثانية مساء. عادت لرؤية الشوارع التي تبدو اشبه بشطآن صغيرة للبرك المغطاة بالطحالب، وعادت لرؤية بيوت البرتغاليين بشعارات النبلاء المحفورة على الرواق المقنطر وعلى مشربيات النوافذ البرونزية، حيث تتردد دون رحمة في صالاتها الظليلة تمارين البيانو المكرورة والحزينة، التي كانت تعلمها امهاا حديثا الزواج لبنات البيوت الثرية الصغيرات. رأت الساحة الخاوية من اية شجرة في جمر الحجارة المتقدمة، وصف العربات ذات الاغطية الجنائزية وخيولها النائمة وقوفا، وقطار سان بيدرو اليخاندريو الاصفر، ورأت عند زاوية الكنيسة الكبرى اكبر بيت بين جميع البيوت واكثرها جمالا برواقه الحجري المقنطر الذي تغطيه نباتات خضراء، وبوابته الصخمة كبوابه دير، ونافذة غرفة النوم التي ستولد فيها ألفارو بعد سنوات طويلة، حين لن تعود لها ذاكرة لتتذكر ذلك. فكرت بالعمة اسكولاستيكا، التي ما زالت تبحث عنها دون أمل في السماء والارض. وفيما هي تفكر بها وجدت نفسها تفكر بفيلوريتينيوارثا، بشيابه كأديب وبكتاب اشعاره تحت اشجار اللوز في الحديقة، كما يحدث لها أحيانا حين تتذكر سنوات المدرسة الكريمة. وبعد تجوال طويل لم تفلح في التعرف على بيتها العائلي القديم، فحزت كما:ت تفترض وجوده لم يكن يوجد سوى حظيرة خنازير، وعند المنعطف كان يمتد شارع بيوت الدعارة، حيث مومسات من ارجاء الدنيا ينمن قيلولتهن أمام الابواب، فلربما مر

(١) المقصود ببطل التحرير (El Libertador) هو محرر أميركا الجنوبية سيمون بوليفار.

البريد حاملا لمن شيئاً . . . لم تكن البلدة هي بلدتها .  
منذ بداية الجولة في المدينة ، غطت فيرمينا دانا نصف وجهها بالطرحة ، ليس خوفاً من التعرف إليها حيث لا أحد يستطيع التعرف عليها ، وإنما لرأى الموتى الذين ينتفخون تحت الشمس في كل مكان ، بدءاً من محطة القطار وحتى المقبرة . وقال لها القائد المدني والعسكري للموقع : « انهما الكوليرا » . كانت تعلم ذلك ، لأنها رأت الحثارات البيضاء على فم الجثث المكتوية ، لكنها لاحظت انه لا اثر لرصاصة الرحمة في عنق اي جثة من الجثث ، كما كان الامر في زمن المنطاد .

فقال لها الضابط :

- وهو كذلك . فالرب يحسن من اساليبه ايضا .

كانت المسافة التي تفصل سان خوان دي لاثيناغا عن بلدة سان بيدرو اليخاندريو القديمة هي تسعة فراسخ فقط ، لكن القطار الاصفر كان يستغرق في اجتيازها يوماً كاملاً ، لان صداقات كانت تربط سائق القطار بالمسافرين الدائمين الذين يرجونه التوقف لبعض الوقت كي يجرسوا أرجلهم بالشبي في مرابع الغولف التابعة لشركة الموز ، أو ليستحم بعض الرجال منهم ، وهم عراة ، في الانهار الصافية والمثلجة التي تنحدر من الجبال ، أو انهم يزولون من القطار حين يشعرون بالجوع ليحلبوا الابقار الطليقة في المراعي . وعندما وصلت فيرمينا دانا مروعة ، لم يتح لها الوقت للتمعن بأشجار التمر الهندي الهومرية حيث كان بطل التحرير يعلق شبكة نومه التي احتضن عليها ، وللتأكد من ان السرير الذي مات عليه لم يكن صغيراً بالنسبة لرجل ، كما قالوا لها فقط ، بل انه صغير حتى على مولود خديج . ولكن زائراً آخر يبدو انه يعرف كل شيء ، قال ان السرير ليس الا أثراً زائفاً ، والحقيقة هي ان أبا الوطن قد ترك يحموت وهو ملقى على الأرض . كانت فيرمينا دانا مغمومة لما رآته وسمعتته مذ خرجت من بيتها ، لدرجة انها لم تعد تشعر بالسعادة التي حنت إليها دوماً ، وإنما اخذت تتجنب المرور من القرى التي كانت تحن إليها وهكذا حنت تلك القرى وحت نفسها من خيبة الامل . كانت تسمع العزف على الاوكوردونات من الطريق حيث كانت تهرب من خيبة الامل ، وتسمع الصرخات المنبعثة من حلبة صراع الديكة ، وطلقات الرصاص التي قد تكون رصاصات حرب أو احتفال ، وحين لا تجد مفراً من المرور في احدى القرى ، كانت تغطي وجهها بالطرحة لتستمتع بتذكرها كما كانت من قبل .

في احدى الليالي ، وبعد تجنب طويل للهاضي ، وصلت الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا ، وحين رأته تنتظر أمام الباب كادت تسقط مغمياً عليها : كانت وكأنها ترى نفسها في مرآة الحقيقة . لقد رأته بدينة وهرة ، محاطة بأبناء غير مروضين لم تنجهم من

الرجل الذي مازالت تحبه دون أمل ، وانما من ضابط نعم بتقاعد جيد تزوجت منه غيظا لفشلها واحبها بجنون . ولكنها في اعساق جسدها المدمر كانت ماتزال على حالها . وقد تخلصت فيرمينا دائما من هذا الانطباع بعد ايام قليلة في الريف وبتأثير الذكريات الطبية . لكنها لم تغادر المزرعة الا للذهاب الى القديس في ايام الاحاد برفقة احفاد صديقاتها القديسات الجموحات ، الحاذقين في ركوب الخيول الكريمة ، وبرفقة بناتهن الجميلات الايفات ، اللواتي يشبهن امهاتهن حين كن في سنهن ، واللواتي يمضين وقولا في العربات التي تحرها الجواميس ، ويغنين معا ، حتى وصولهن الى كنيسة البعثة التبشيرية في قاع الوادي . ولم تمر لـ بقرية فلوريس دي ماريا ، التي لم تزرها في رحلتها السابقة لانها لم تظن بانها ستعجبها ، ولكنها فتنت بها حين عرفتها . وكانت مصيبتها ، او مصيبة البلدة ، انها لم تستطع ان تذكرها فيما بعد كما رأتها في الواقع ، وانما كما كانت تتخيلها قبل ان تعرفها .

قرر الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لاحضارها بعد تلقيه تقرير اسقف ريوهاتشا . فالنتيجة التي استخلصها هي ان زوجته لم تتأخر لانها لا تريد الرجوع وانما لانها لا تجد وسيلة لتجاوز كبريائها . وهكذا مضى الى هناك دون اعلامها ، بعد تبادل عدة رسائل مع هيلديبراندا ، استخلص منها بوضوح ان حنين زوجته قد انقلب ؛ فهي لا تفكر الان الا ببيتها . كانت فيرمينا دائما في المطبخ تعد باذنجاناً محشواً في الساعة الحادية عشرة صباحا ، حين سمعت صرخات عمال المزرعة ، وصهيل الخيول ، ولعلعة الرصاص في الهواء ، ثم الخطوات الواثقة في مدخل البيت ، وصوت الرجل :

- ان يصل المرء في الوقت المناسب خير من توجيه الدعوة اليه .

ظنت انها ستتموت من السعادة . ودون ان يتاح لها الوقت للتفكير بالامر ، غسلت دبا كيفما اتفق وهي تمهم : «حمداً لك يارب ، حمداً لك ، لكم انت طيب» ، مفكرة بانها تستحم بعد من الباذنجان اللعين الذي طلبت منها هيلديبراندا اعداده دون ان تخبرها من القادم للغداء ، ومفكرة بانها قد اصبحت عجوزاً قبيحة ، وان وجهها قد سلخته الشمس ، سيجعل يدنم لمحيته حين يجدها بهذا الحال ، اللعنة . لكنها نشفت يديها بالمريلة كيفما اتفق . واستعانت بكل الكبرياء الذي اخرجتها به امها الى الدنيا لتضبط قلبها المترافص طرباً . ومضت للقاء الرجل بمشيتها العزالية العذبة ، وبراأسها المرفوع ، ونظرتها البراقة ، وانفها الحربي ، شاكسة للقدر الطمأنينة العظيمة بالعودة الى البيت ، رغم ان الامر لن يكون بالسهولة التي تصورها هوحتها ، اذ عادت معه وهي سعيدة حقاً ، ولكنها مصممة كذلك على جعله يدفع بصمت ثمن الالام المريرة التي حطمت حياتها .

بعد حوالي سنتين من اختفاء فيرمينا دائما ، حدثت واحدة من تلك المصادفات المستحيلة



التي كانت ستعبرها ترانستينواريثا سخرية من سخریات الرب . لم يكن فلوريتينواريثا قد سبح لنفسه بالانهار باختراع السينما . لكن ليونا كاسياني حملته دود مقاومة الى حفل الافتتاح الضخم لفيلم كابيريا ، الذي كانت شعبيته ترتكز على الحوار الذي كتبه الشاعر غابرييل دانونزيو . كان فناء سينما دون غاليليو داكوتي المكشوف ، حيث المتعة تتجاوز في بعض الليالي روعة النجوم الى روعة الغراميات الصامته على الشاشة ، قد غص بالحضور البارزين . كانت ليونا كاسياني تتابع أحداث القصة بروح معلقة بخيط . أما فلوريتينواريثا فكان رأسه يتمايل من النعاس بتأثير زخم الدراما . ومن خلفه ، خرج صوت امرأة بدت وكأنها تحزر ما يفكر به :

- رياه ، ان هذا أطول من ألم !

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته ، وكظمت نفسها ربما بسبب رنين صوتها في الظلام ، اذ لم تكن قد شاعت هنا بعد عادة مرافقة الافلام الصامته بموسيقى البيانو ، ولم يكن يسمع في عتمة الصالة سوى ازيز آلة العرض الذي يشبه صوت المطر . لم يكن فلوريتينواريثا يذكر الرب الا في أصعب المواقف ، لكنه شكره من اعماق روحه هذه المرة . لانه كان سيتعرف فورا على ذلك الصوت المعدني البرخيم . حتى ولو كان على عمق عشرين ذراعاً تحت التراب ، مذ حفه في روعة مساء سمعه يقول له وسط نثارة من الاوراق الصفراء في حديقة متوحدة : « انصرف الان ، ولا ترجع الى ان اطلب اليك » . كان يعلم انها تجلس في المقعد الذي وراء مقعده ، الى جانب زوجها دون ريب . وكان يحس بتنفسها للدسم والمحسوب جيداً ، وكان يستنشق بحب الهواء المنقى بعافية نفسها الطيب . لم يشعر بانها منحورة بعث الموت ، كما كان يتصورها في ساعات يأسه خلال الشهور الاخيرة ، وانما تذكرها مجدداً بعمرها المشع والسعيد ، ببطنها المكورة ببذرة ابنها الاول تحت عباءة مينيرفا . تصورها كما لو كان يراها دون أن يلتفت الى السوراء ، غير عابىء بالكوارث التاريخية التي كانت تفيض بها الشاشة . كان يتلذذ بأريج عطر اللوز الذي يصله من جسدها ، ويتشوق لمعرفة أفكارها عن كيف تحب نساء السينما لتكون آلام حبهن أقل من آلام الحب في الحياة . وقيل نهاية الفيلم بقليل ، ادرك فجأة بومضة بهجة ، انه لم يكن ابداً قريباً بهذا القدر وطوال مثل هذا الوقت ممن احبها حبا جما .

انتظران ينهض الاخرون عند اشعال الانوار . ثم وقف على مهل ، والتفت متشاعلاً بتثيت ازرار الصدرية التي تفلت دائماً خلال عروض السينما ، فتقابل الاربعة وجهها لوجه بحيث توجب عليهم تبادل التحية ، رغم ان احدا منهم ما كان يرغب بذلك . صافع الدكتور خوفينال اوربينوليونا كاسياني أولاً ، وكان يعرفها جيداً ، ثم شد على يد فلوريتينواريثا بتهذه

المعتاد. وابتسمت لهما فيرمينا دائما ابتسامة مهذبة، ولا شيء سوى انها مهذبة، ولكنها كانت على كل حال ابتسامة شخص رأهما كثيرا، ويعرف من هما، وبالتالي لاحاجة لتقديمهما. وردت عليها ليونا كاسياني بلطفها كحلاسية. أما فلورينتينوارثا فلم يدر ما يفعل، لأن رؤيتها أذهلته.

لقد كانت امرأة أخرى. لم تكن في وجهها أية علامة من علامات المرض الفظيع الشائع، ولا من أي مرض آخر، وكان جسدها مايزال يحتفظ بوزنه ورقته التي كان عليها في أفضل ازمائه، ولكن لاشك بأن الستين الاخيريتين قد مرتا عليها بثقل عشر سنوات عجاف. كان الشعر القصير مناسباً لها بتلك القصة المائلة على خديها، ولكنه فقد ذلك اللون العسلي السابق وصار بلون الألمنيوم. وفقدت العينان الرحمتان الجميلتان نصف حياتهما من الضياء وراء نظارة الجدة. رأها فلورينتينوارثا وهي تتبعد ممسكة بذراع زوجها وسط الحشد الذي يغادر السينما، وفوجيء بانها اتية الى مكان عام بطرحة بائسة وخف من النوع البتي. ولكن أكثر ما هيج مشاعره هو ان زوجها اضطر لأن يشدها من ذراعها ليشير لها الى طريق الخروج، وقد اخطأت رغم ذلك في تقدير الارتفاعات وكادت تسقط عند درج البوابة.

كان فلورينتينوارثا شديد الحساسية لعشرات الشيخوخة هذه. ففي شبابه كان يقطع قراءاته للاشعار في الحداثق ليراقب ازواج المسنين الذين يساعد احدهما الآخر على عبور الشارع، وكانت تلك دروسا في الحياة قد تضيء امامه قوانين شيخوخته بالذات. لقد كان الرجال، وهم في مثل سن الدكتورخوفينال اوريينوني ليلة السينما تلك، يتفتحون بنوع من الشباب الخريفي، فيبدون أكثر وقاراً مع أول الشعرات الشائبة، ويصبحون فانتين وجذابين، خصوصاً في عيون النساء الشابات، بينما تضطر زوجاتهم الذوايات الى التثبث باذرعهم كي لا يتعثرن بظلالهن ذاتها. ولكن هؤلاء الأزواج مايلبثون ان يتزلقوا فجأة، بعد بضع سنوات، الى هوة شيخوخة مزولة جسداً وروحاً، وحينئذ يصبح على زوجاتهم المستقرات اسنادهم من اذرعهم كالعميان الباحثين عن صدقة، والهمس في اذانهم، كي لا يجرحن كبرياءهم، بان ينتهبوا جيداً لان عدد الدرجات التي سينزلون ثلاث وليس اثنتين، وان هنالك بركة ماء في وسط الشارع، وان تلك الصرة الملقاة على قارعة الطريق هي جثة شحاذ ميت، ويساعدونهم بمشقة على عبور الشارع وكأنه المخاضة الوحيدة في نهر الحياة الاخير. لقد رأى فلورينتينوارثا نفسه مرأت ومرات في هذه المرأة، حتى انه لم يشعر يوماً بالخوف من الموت كخوفه من اردل العمر حين سيحتاج لامرأة تقوده من ذراعه. اذ كان يعلم انه في ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم فقط، عليه ان يتخلى عن الامل بغيرمينا دائماً.

لقد اطار ذلك اللقاء النوم من عينيه. وبدلاً من ان يحمل ليونا كاسياني بالعربة، فقد رافقها

مشيا على الاقدام عبر المدينة القديمة ، حيث كانت خطواته تقرع بلاط الرصيف كخوافر حصان . وكانت تنطلق بين حين واخر بقايا أصوات هاربة من الشرفات المفتوحة ، او مناجيات من مخادع النوم ، اونحيب حب تضخمه المسامع الخيالية واريح الياسمين الدافئ في الازقة الهاجعة . وكان على فلورينتينو اريثا ان يستجمع ثانية كل قواه ليمنع نفسه من ان يكشف لليونا كاسياني عن حبه المقهور لفيرمينو داثا . كانا يسيران معاً ، بخطواتهما المحسوبة ، غارقين في الحب بلا تسرع ، كخطيبين قديمين ، هي تفكر بروعة كابيريا ، وهو يفكر بمحتته الشخصية . وفي ساحة الجسارك كان هناك رجل يغني ، وكان صوته يتردد في الجوباصداء متسلسلة : حين كنت أعبر امواج البحر العظيمة . وفي شارع لوس سانتوس دي بيدرا ، حين كان عليه ان يودعها امام بيتها ، طلب فلورينتينو اريثا من ليونا كاسياني ان تدعوه لتناول كاس من البراندي . كانت تلك هي المرة الثانية التي يطلب منها ذلك في ظروف متشابهة . في المرة الاولى ، قبل عشر سنوات ، قالت له : « اذا ما صعدت الى بيتي في مثل هذه الساعة فعليك البقاء فيه الى الابد » . ولم يصعد يومها . أما الان فكان مستعدا للصعود في جميع الاحوال ، حتى لو اضطر الى نقض عهده فيها بعد . لكن ليونا كاسياني دعتة للصعود دون أي التزام . وهكذا وجد نفسه في محراب حب مات قبل ان يولد . كان ابواها قد توفيا ، وجمع اخوها الوحيد ثروة طائلة في كوراثا ، وبقيت هي وحدها لتعيش في بيت العائلة . قبل سنوات ، وحين لم يكن قد فقد الامل بجعلها عشيقه له ، اعتاد فلورينتينو اريثا زيارتها أيام الاحاد برضى ابويها ، وكان يزورها في الليل أحيانا ويبقى حتى ساعة متأخرة ، وقد قدم مساهمات كثيرة في عمليات اصلاح البيت حتى صار يعتبره كبيت . ولكنه شعر في تلك الليلة ، بعد السينما ، بان صالة الاستقبال قد ظهرت من ذكرياته . كانت اماكن الاثاث قد تبدلت ، وعلقت على الجدران صور جديدة ، ففكر بان كل هذه التغيرات القاسية انها اجريت عمداً لتأكيد يقينه بانه لم يكن له من وجود أبدا . كما ان القبط لم يتعرف عليه . فقال وقد انزعجه نذير النسيان : « معاد يذكرك » . ولكنها ردت عليه وهي توليه ظهرها فيها كانت عملاً كاسي البراندي ، بانه اذا كان قلقا لهذا فبامكانه النوم مطمئناً ، لان القبط لاتنذكر أحدا . وبيناهما متكئان على الاريكة ، متلاصقان ، تحدثا عن نفسيهما ، عما كانا قبل ان يتعارفا في مساء يوم من يذكر كم مضى عليه في حافلة تقوده البغال . وكانت حياتهما تمضي في مكتبين متجاورين ، ولم يتحدثا أبداً من قبل في شيء خلاف العمل اليومي . وفيهما يتحدثان ، وضع فلورينتينو اريثا يده على فخذه وأخذ يداعبها برقة جريفة في الغواية ، وتركته يفعل ذلك ، ولكن دون ان ترد عليه ولو بمجرد ارتعاشة مجاملة . وحين حاول المضي أبعد من ذلك ، امسكت يده المستكشفة وقبلت راحته قائلة :

- كن مهذباً. فقد ادركت منذ زمن بعيد بانك لست الرجل الذي أبحث عنه.  
ففي صباحها، بطحها على حين غرة فوق ملطم الأمواج رجل قوي وبارع، لم تروجه  
أبداً، وعراها عزمقاً ثيابها، ومارس معها حباً عابراً ومجنوناً. وفيها هي لمقاة فوق الاحجار،  
وحسدها كله مليء بالجروح، تمتن لويبقى ذلك الرجل فوقها الى الابد، ليموت حباً بين  
ذواعيها. لم تروجه، ولم تسمع صوته، لكنها كانت متأكدة من التعرف عليه بين آلاف  
الرجال لشكله وحجمه وطريقته في ممارسة الحب. واعتادت منذ ذلك الحين القول لكل من  
يريد سماعها: «اذا ما عرفت شيئاً في أحد الأيام عن رجل ضخم وقوي اغتصب زنجية بائسة  
من الشارع فوق صخور سد الغرقى، في يوم كان الخامس عشر من تشرين الأول، حوالي  
الحادية عشرة والنصف ليلاً، فقل له أين يستطيع ان يجديني». كانت تقول ذلك بمحض  
العادة، وقد كررته كثيراً لدرجة انها فقدت كل أمل. وكان فلورينتينوارثا قد استمع منها  
مرات ومرات لهذه القصة كما لو انه يسمع صفارات وداع تطلقها سفينة في الليل. وحين  
اعلنت الساعة الثالثة صباحاً، كان كل منها قد شرب ثلاث كؤوس من البراندي، وكان هو  
يعلم بانه ليس الرجل الذي تبحث عنه حقاً، وسرّ لمعرفته ذلك. وقال لها وهو يستعد  
للانصراف:

- براغويا ليونا، لقد اجهزنا على هذا النمر.  
ولم يكن هذا هو الأمر الوحيد الذي قضي تلك الليلة. فاكذوبة سراق المسلولين الخبيثة  
عكرت أحلامه، لانها أوحته له بأن فيرمينا دانا هي من البشر، ويمكن ان تفنى، ويمكن  
بالتالي أن تموت قبل زوجها. ولكنه حين رآها تتعثر عند الخروج من السينة، تقدم خطوة  
اخرى نحو الهاوية عندما انكشف له بأنه قد يكون هو وليس هي من يموت أولاً. وكانت تلك  
من اكثر النبوءات هولاً، لانها تستند الى الواقع. لقد انقضت سنوات الانتظار الصابر،  
والآمال السعيدة، ولم يلح في الافق سوى خضم الامراض المتخيلة الذي لا يسبر له قرار،  
والتبول قطرة قطرة في صباحات الأرق، والموت اليومي في الظهيرة. وفكر بأن كل لحظة من  
لحظات اليوم، تلك التي كانت حليفة له في الماضي وشريكة محلفة، بدأت تتآمر ضده. لقد  
ذهب منذ سنوات قليلة الى موعد غرامي جريء وقلبه مثقل بالخوف من المصادفة، فوجد  
الباب غير مقفل والمفصلات مزينة لتوها كي يستطيع الدخول دون اثاره اية ضجة، لكنه  
احجم في اللحظة الاخيرة مخافة ان يسبب لامرأة غريبة وخدومة الضرر الذي لا سبيل  
لاصلاحه بموته في سريرها. وهكذا كان معقولا التفكير بأن المرأة التي احبها اكثر من كل ما  
احبه على وجه الأرض، والتي انتظرها دون تذر من قرن الى آخر، لن يتاح لها الوقت  
لاستاده من ذواعه وعبور شارع مليء بحثوات التراب القمرية وجائن البرقوق التي بعثرتها

الريح، لمساعدته في الوصول سليماً معافى الى الرصيف الآخر للموت .  
الحقيقة ان فلورنتينو اريثا، قد دخل وفق معايير عصره حدود الشيخوخة، كان عمره ستاً وخمسين سنة، بالتسام والكيال، وكان يظن بانه عاش أفضل حياة، لان سنوات حياته كانت سنوات حب . ولكن لم يواجه اي رجل من رجال عصره سخرية الظهور بمظهر الشباب وهو في سنه، بينما كان هو كذلك، أو كان يعتقد بأنه كذلك؛ كما لم يكن أي من اولئك الرجال ليتجراً على الاعتراف دون خجل بأنه ما زال يبكي خفية من أجل صدّ لقيه في القرن الماضي . لقد كان عصراً سيئاً للظهور بمظهر الشباب؛ فهناك طريقة معينة في اللباس لكل سن، لكن طريقة سن الشيخوخة في اللبس تبدأ بعد المراهقة بقليل، وتستمر حتى القبر . ولقد كانت هذه المرحلة عبارة عن مرحلة وقار اجتماعي أكثر منها مرحلة حياتية . فالشباب فيها يلبسون مثل اجدادهم، ويصبحون أكثر وقاراً بالنظارات المبكرة، كما كان حمل العكاز امراً مقبولاً منذ سن الثلاثين . أما بالنسبة للنساء فلم تكن في حياتهن سوى مرحلتين : سن الزواج، وهو لا يتعدى الثانية والعشرين من العمر؛ وسن العزوبة الابدية . . الذي يضم الكاسدات . أما ما سوى ذلك من متزوجات وأمهات وأرامل وجدات، فكن صنفاً مختلفاً من البشر، لا تحسب حياتهن بما يعشنه من سنوات، وإنما بالزمن المتبقي أمامهن للموت .  
لقد واجه فلورينتينا اريثا غدر الشيخوخة بجسارة شرسة، حتى وهو يعرف قدره الغريب بالظهور بمظهر الشيخوخة منذ طفولته . وقد كان ذلك المظهر وليد الحاجة في أول الأمر، إذ كانت ترانستيتو اريثا تفتق له وتعيد خياطة ملابس أبيه التي يثرّ التحلص منها والقاءها الى القمامة . وهكذا كان يذهب الى المدرسة الابتدائية بسترّة تصل الى الارض عند جلوسه، وقبعة وزارية تغطس في رأسه حتى أذنيه، رغم تضيق اطرافها بحشوات من القطن . وبما انه كان يستخدم نظارات لقصر النظر كذلك منذ الخامسة من عمره، وكان له شعر هندي كشعر امه، مزبثر وقاس كشعر جواد، فلم تكن لمظهره اية سمات واضحة . ولحسن الحظ ان المعايير المدرسية كانت أقل انتقائية مما كانت عليه من قبل، وذلك بعد فوضى الحكومات الكثيرة بسبب الحروب الاهلية المفروضة والمتلاحقة . فكانت المدارس العامة تزخر بخلط من الاصول والظروف الاجتماعية المتباينة . كان يأتي الى الدروس صبية تفوح منهم روائح بارود المتاريس، بملابس وشارات ضباط متمردين نالوها بالرصاص في معارك مشكوك فيها، وبأسلحتهم النظامية البادية تماماً على خصورهم . وكانوا يصطدمون فيما بينهم بالرصاص لاي خلاف في الاستراحة، ويهددون المعلمين ان هم اساءوا وتقديرهم في الامتحانات، بل ان أحدهم، وهو تلميذ في الصف الثالث بمدرسة لاساليه وكولونيل ميليشيا متقاعد، قتل الاخ خوان اريميئا، رئيس الطائفة، بالرصاص لانه قال في درس أصول الدين ان الرب هو

## عضو عامل في الحزب المحافظ .

من جهة اخرى، كان أبناء العائلات الكبيرة المنكوبة يأتون الى المدرسة بملابس امراء قداماء، بينما يسير بعض الفقراء المدقعين حفاة. وبين كل هذه المقارقات الغريبة التي طالت جميع المستويات. كان فلورنتينواريثا من اشد الحالات غرابة، ولكن ليس الى الحد الذي يلفت اليه الانتباه كثيراً. وكان أقسى ما سمعه هو ان أحدهم صرخ به في الشارع يوماً: «الفقير القبيح تنقضي حياته في التمنيات». وعلى أي حال فان ذلك الزبي الذي فرضته الحاجة، كان منذ ذلك الحين، وسيبقى طوال حياته، الاكثر ملاءمة لطبيعته الغامضة ومزاجه الكئيب. وحين وصل الى أول منصب مهم في ش.ك.م.ن.، بعث يطلب تفصيل ثياب جديدة على مقاسه من طراز ملابس ابيه، الذي ما زال يذكره كشيخ توفي عن عمر موقر كعمر المسيح: ثلاث وثلاثون سنة. لقد كان فلورنتينواريثا يبدو اذن اكبر من سنه الحقيقي بكثير. لدرجة ان النمامة بريجيذا زولينا، إحدى عشيقاته العابرات والتي كانت تقدم له الحقائق دون ان تمر بها في الماء، قالت له منذ اليوم الأول بأنه يعجبها اكثر حين يخلع ملابسه، لانه يصغر عشرين سنة وهو عارٍ. ولم يستطع رغم ذلك التوصل الى التوافق أبداً، أولاً لان ذوقه الشخصي لا يمكنه من ان يتزيا بطريقة اخرى، وثانياً لان أحدًا من أهل ذلك العصر ما كان يعرف كيف له ان يتزيا بزى شاب في العشرين دون ان يُخرج مجدداً من خزانته سراويله القصيرة وقبعة الاولاد. ومن جهة اخرى، لم يكن ممكناً له هو بالذات الهروب من معرفة شيخوخة عصره. وهكذا فقد كاد ان يكون طبيعياً حين رأى فيرمينا دانا تتعثر لدى خروجها من السينما، وامكن لبارقة الذعر ان تبعث القشعريرة فيه لاحساسه بأن الموت العاهر سيتنصر عليه بالتأكيد في حرب حبه الضروس.

كانت المعركة التي خاضها عاجزاً حتى ذلك الحين وخسرها دون أعجاد، هي معركته ضد الصلح. فعند رأى الشعرات الأولى تعلق بالمشط، ادرك انه محكوم بحجيم لا يمكن لمن لم يعيشه تصور عذاباته. قاوم خلال سنوات. لم يدع وصفة أو علاجاً للصلح إلا وجربه، ولا خرافة إلا وآمن بها، ولا تضحية إلا واحتملها ليدافع عن كل بوصة من شعر رأسه في مواجهة الداء النهم. حفظ عن ظهر قلب تعليمات رزنامة بريستول الزراعية، لانه سمع أحدهم يقول ان نمو الشعر مرتبط ارتباطاً مباشراً بدورات المواسم الزراعية. وهجر حلاقه الخاصة الذي كان يقص شعره عنده منذ الازل، لانه كان ذا صلعة مهيبة، واستبدله بحلاق غريب جاء المدينة حديثاً وكان لا يقص الشعر إلا حين يبدأ القمر بالاكتمال. وأخذ الحلاق الجديد يثبت ان يده مخصصة حقاً حين كُشف أمره كمغتصب تلميذات غريبات تلاحقه شرطة عدة بلدان انتيلية، وقيد مكبلاً بالسلاسل.

كان فلورنتينو اريثا قد قص حتى ذلك الحين جميع الاعلانات الموجهة للصلعان في صحف بلدان حوض الكاريبي ، حيث كانوا ينشرون في تلك الاعلانات صورتين متجاورتين للرجل نفسه ، الأولى وهو منتفوخ مثل شمامة ، والثانية بشعر أعز من لبداء أسد : قبل وبعد استخدام الدواء المضمون . وبعد مرور ست سنوات ، كان قد جرب مئة واثنين وسبعين دواء ، اضافة الى وسائل اخرى مكملة كانت ترد في الوصفة المرفقة بقناتي الدواء . لكن الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو نوع من الاكزيما في رأسه ، قرحة حارقة وممتنة ، يطلق عليها اولياء المارتينيكي الصالحين اسم القرع الشبالي ، لان اشعاعاً فسفورياً ينبعث منها في الظلام . وبعد ذلك لجأ الى جميع اصناف الاعشاب التي يروجها الهنود في السوق العام ، وجميع الادوية السحرية والاكاسير الشرقية التي تباع في زقاق الكتبة العموميين ، وحين ادرك انه ليس سوى ضحية عمليات غش ، كانت قرعة كقرعة القديسين قد غزت منتصف رأسه . وفي السنة صفر ، عندما كانت حرب الألف يوم الأهلية تستنزف البلاد ، مرفى المدينة ايطالي يصنع بيروكات من الشعر الطبيعي على المقاس . كانت الواحدة منها تكلف ثروة ، ولا يتحمل الصانع أية مسؤولية بعد ثلاث شهور من الاستعمال . ولكن عدداً ضئيلاً فقط من الصلعان الموسرين لم يرضخوا للاغراء . وكان فلورنتينو اريثا أحد الأوائل . جرب بيروكة مشابهة تماماً لشعره الاصلي ، حتى انه خشي من وقوف الشعر مع تبدلات مزاجه . لم لم يستطع استيعاب فكرة حمل شعر انسان ميت على رأسه . وكان عزاءه الوحيد ان شراة الصلغ لم تنزع له التعرف على لون شعراته الشائبات . وفي يوم من الايام عامه أحد سكارى الميناء النهري السعداء بعاطفة متدفقة اكثر من المعتاد وهو خارج من المكتب ، فافلتت الباروكة امام سخرية عمال الشحن ، وطبع السكران قبلة مدوية على رأسه وهو يصرخ :

- صلعة ربانية !

في تلك الليلة بالذات ، وكان قد بلغ الثامنة والاربعين من العمر ، حلق الشعيرات القليلة المتبقية على الصدغين والرقبة ، واستسلم تماماً لمصيره كأصلع مطلق . بل انه لم يعد يظلي صباح كل يوم قبل الحمام ذقنه وحدها بالرغوة ، وانما كذلك اجزاء من رأسه حيث يجد ان بعض الشعر أخذ بالظهور ، فيجعلها بموس الخلاقة مثل آلية طفل رضيع . لم يكن ينزع القبعة حينئذ حتى ولو في المكتب ، اذ كانت الصلعة تثير فيه شعوراً بالعري يبدو له غير وقور . ولكنه حين اعتاد عليها تماماً ، نسب اليها فضائل ذكورية كان قد سمع بها ، وكان يزدريها من قبل على انها مجرد اوهام من الصلعان . ثم انتقل فيما بعد الى العادة الجديدة باستخدام شعر المفرق الأيمن الطويل لتغطية الصلعة ، ولم يتخل عنها ابداً . ولكنه استمر في استخدام القبعة وهو على هذا الحال ، بالطريقة الجنائزية ذاتها ، حتى بعد ان شاعت قبعة تارتاريتا ، وهو

الاسم المحلي لقبعة كانتويه .

أما فقدانه اسنانه فلم يكن نتيجة بلوى طبيعية ، وإنما نتيجة عمل غير متقن قام به طبيب أسنان متحول رأى انه لا بد من نزع الاسنان اثر التهاب عادي . كان الرعب من آلة ثقب الاسنان قد منع فلورنتينوارثا من زيارة طبيب الاسنان رغم آلام اضراره المستمرة ، إلى ان فقد القدرة على الاحتمال . وقد فرغت امه حين سمعت أنينه في الغرفة المجاورة طوال الليل ، اذ مدت لها كتابهااته في زمن آخر شبه مطموس في ضباب ذاكرتها ، ولكنها حين طلبت منه ان يفتح فمه لترى أين هو ألم الحب ، اكتشفت ان ما يضره هي الخراجات والدماامل الصغيرة . ارسله العم ليون الثاني عشر الى الدكتور فرانسيس ادوناي ، وهو مارد زنجي يلبس سروالا خاصاً بركوب الحيل ، وينقل في السفن النهرية حاملاً عيادته السنية كلها في اكياس ، فيبدو أشبه بمدبوج متجول للرعب في قرى النهر . وبعد نظرة واحدة الى فم فلورنتينوارثا ، قرر انه لا بد من نزع اسنانه كلها ، بما في ذلك الاسنان والاضراس السليمة ، لانقاذه الى الابد من عن اخرى . وعلى العكس من الصلعة ، لم يسبب له هذا الاعلاج الجساري اي نوع من القلق ، باستثناء خوفه الطبيعي من المجزرة دون مخدر . كما لم تزعجه فكرة الاسنان الاصطناعية ، أولاً لان احدى ذكريات طفولته التي يحن اليها هي ذكرى ساحر رأه في مهرجان وكان ينزع فكيه ويضعهما على طاولة ليتكلما بمفردهما ، وثانياً لانه سيضع حداً لآلام الاضراس التي عذبتة منذ طفولته ، وهي آلام تكاد تشبه بقسوتها آلام الحب . لم ير في الأمر صربة غادرة من ضربات الشيخوخة ، كما رأى في الصلعة ، اذ كان مقتنعاً ، رغم طعم المطاط المكسرت ، بان مظهره سيكون اجمل بابتسامة قوية . وهكذا سلم نفسه دون مقاومة لكباشه الدكتور ادوناي المضمخة بالدم ، واحتمل آلام العلاج بصبر قصير حمير العنالة .

اهتم العم ليون الثاني عشر بتفاصيل العملية كما لو كانت تُجرى له بالذات . فقد كان يولي الاسنان الاصطناعية اهتماماً خاصاً اثر احدى رحلاته الاولى في نهر مجدلينا ، وبسبب هوسه بالغناء الجميل . ففي احدى الليالي القمرية ، وقريباً من ميناء غامارا ، راى من مساح اراض الماني بانه قادر على ايقاظ مخلوقات الغابة بغناؤه رومنس نابولي من فوق شرفة القبطان . وكاد ان يكسب الرهسان . اذ انطلق في عتمة النهر خفقات اجنحة طيور ممالك الحزين في مستنقعات ، وصرب ذبول التماسيح ، وانفاس اسماك الشابل وهي تحاول القفز الى اليابسة ، ولكنه حين وصل القفلة الختامية ، وحين خشي المجتمععون من تمزق شرايين المغني لقوة صوته ، افلت طقم الاسنان الاصطناعية من فمه مع النفس الاخير ، وغرق في الماء .

وقد اضطرت السفينة للانتظار ثلاثة ايام في ميناء تينيريفي ، ريثما صنعوا له مجموعة اسنان طواريء جديدة . وقد كانت هذه الاسنان الحديدية متقنة . ولكنه في رحلة العودة ، واثناء



محاويلته ان يشرح للقبطان كيف أضع طقم اسنانه السابق ، استنشق العم ليون الثاني عشر ملء رئتيه هواء الغابة الملتهب ، وصدح بأعلى لحن يستطيعه ، واحتفظ به حتى النفس الاخير محاولا افزع التماسيح الجائمة تحت الشمس متاملة مرور السفينة دون ان يطرف لها رمش ، فغرق طقم الاسنان الجديد في مجرى النهر أيضاً . ومنذ ذلك الحين وضع نسخاً من الاسنان الاصطناعية في كل مكان ، وفي عدة أماكن بالبيت ، وفي درج مكتبه ، كما وضع طقم في كل سفينة من سفن الشركة الثلاث . واطاف الى ذلك ، صار يحمل معه كلباً ذهب لثناول الطعام خارج المنزل ، طقم اضافة يضعه في علبة لاقراص السعال في جيبه ، وذلك لان اسنانه الاصطناعية كُسرت يوماً وهو يحاول أكل قطعة من شحم الخنزير المقدد في غداء ريفي . وخشية ان يقع ابن اخيه ضحية مفاجآت من هذا النوع ، أمر العم ليون الثاني عشر الدكتور ادوناي بأن يصنع له مجموعتين من الاسنان : احدهما من مواد عادية ، للاستخدام اليومي في المكتب ، واخرى لايام الاحاد والاعياد ، مزودة بلمعة ذهبية في ضرس الابتسامة ، مما منحها لمسة اضافية حقاً . واخيراً ، رجع فلورينتينوارثا ، في يوم أحد يضح بنواقيس العيد ، الى شارع هوية جديدة ، وجعلته ابتسامته الصائبة يشعر بان شخصاً آخر قد احتل مكانه في الدنيا .

حدث هذا في الحقبة التي ماتت فيها امه وبقي فلورينتينوارثا وحده في البيت الذي كان ركناً مناسباً لغرامياته ، اذ ان شارع يكتنم الاسرار رغم ان النوافذ الكثيرة التي تفتح الاسم توحى بوجود عيون تتلصص من وراء الستائر . ولكن كل ما في هذا البيت انها صنع لاسعاد فيرمينا دائماً ، وسيكون لها وحدها . وهكذا فضل فلورينتينوارثا تبديد فرص كثيرة خلال اكثر سنواته إثارة ، على ان يدنس بيته بغراميات اخرى . ولحسن الحظ ان كل درجة كان يرتقيها في مناصب ش . ك . م . ن . ، كانت تعني امتيازات جديدة ، ومكاسب سرية على وجه الخصوص ، واكثر هذه الامتيازات فائدة بالنسبة اليه كانت امكانية استخدامه المكاتب خلال الليل ، وفي ايام الاحاد والعطل ، بالاتفاق مع البوابين . وفي إحدى المرات ، حين كان نائباً أول للرئيس ، فُتح باب مكتبه بقتة بينما كان يمارس حياً مستعجلاً مع إحدى الفتيات اللواتي يعملن ايام الاحاد ، وكان جالساً على الكرسي فيها هي رابضة في حضنه ، وبعد فتح الباب ، أطل العم ليون الثاني عشر برأسه ، كما لو انه أخطأ في المكتب ، ووقف يتأمل من فوق نظارته ابن اخيه المرتبك . ثم قال العم دون اي قدر من الدهشة : « كراخو ! انها لعنة ابيك نفسها » . وقبل ان يغلق الباب ثانية ، قال ونظرة تائه في الفراغ :

- وأنت أيتها الانسة ، تابعي بلا خوف . أقسم لك بشرفي اني لم أر وجهك .

لم يعد للحديث في هذا الأمر . ولكن العمل كان مستحيلاً في مكتب فلورينتينوارثا خلال

الاسبوع التالي . فقد دخل الكهربائيون يوم الاثنين بجبلية لتركيب مروحة ذات رياش في السقف الاملس ، واتى صانعو الاقفال دون انذار مسبق ، واثاروا ضجة حرب وهويشتون مزلاجاً في الباب لغلاقه من الداخل . واخذ النجارون مقاسات دون ان يقولوا لماذا ، وجاء المنجدون ببناءج من قماش الكريتون ليروا ان كانت تناسب مع لون الجدران ، وكان عليهم في الاسبوع التالي ان يستخدموا النافذة ، لأن الابواب لم تتسع لادخال اريكة مزدوجة مزينة برسوم ازهار . اشتغلوا في ساعات لا تحظر على بال ، بوقاحة لا تبدو انها مصادفة ، وكانوا يرددون على كل من يعترض بالقول : «انها اوامر الادارة العامة» . لم يعلم فلورينتينوارثا ابداً ان كان هذا التدخل لطفاً من العم ، الساهر على غرامياته الضالة ، ام انه اسلوب خاص به للفت انتباهه إلى سوء سلوكه في استخدام صلاحياته . ولم يتبين حقيقة ان العم ليون الثاني عشر كان يشجعه ، فقد وصلت إلى مسامعه كذلك انباء تقول ان لابن اخيه عادات مختلفة عن عادات معظم الرجال ، وقد اقلقه ذلك لانه رأى فيه عائقاً امام تعيينه خليفة له .

لقد عاش ليون الثاني عشر لوائشا ، على عكس اخيه ، حياة زوجية مستقرة ، استمرت ستين سنة ، وكان يفاخر دوماً بانه لا يشتغل أيام الأحاد . وقد انجب أربعة ابناء وابنة واحدة ، وكان يريد اعد ادهم جميعاً ليرثوا عنه امبراطوريته ، ولكن الحياة أعدت له واحدة من هذه المصادفات التي كانت شائعة في روايات عصره ، والتي لم يكن هناك من يؤمن بوجودها في الحياة الواقعية : لقد مات الابناء الاربعة ، واحداً بعد الآخر ، وبعد وصولهم إلى مناصب المسؤولية . أما الابنة ، التي لا تتمتع بأية ميول نهريّة ، ففضلت الموت وهي تتأمل مراكب هدرسون من نافذة على ارتفاع خمسين متراً . فوجد هناك بعد كل هذه الميئات من يؤمن بأسطورة ان فلورينتينوارثا ، بمظهره المشؤوم ومطلته التي كمظلة مصاصي الدماء ، قد فعل شيئاً لتحدث كل هذه المصادفات معاً .

وعندما تقاعد العم عن العمل مكرهاً ، بأمر طبي ، ضحى فلورينتينوارثا راضياً ببعض غرامياته في أيام الأحاد ليرافق العم إلى ملجأه الريفي في سيارة من السيارات الأولى التي شوهدت في المدينة ، والتي كانت ذراع ادارة محركها قوية الارتداد للدرجة انها انتزعت ذراع سائقها الأول . كانا يتحادثان لساعات طويلة فيها العجوز مستقل في ارجوحة نومه المطرز عليها اسمه بخبوط حريرية ، بعيداً عن كل شيء ، في مزرعة عبيد قديمة كانت تظهر من مصاطبها المشرفة مساء قمم سلسلة الجبال المكلفة بالثلج . كان يصعب على فلورينتينوارثا وعمه الخوض في حديث آخر سوى الملاحة النهرية ، وبقي هذا هو موضوع تلك المسامرات الطويلة ، حيث كان الموت دوماً ضيفاً لا مريئياً . لقد كانت احدى مشاغل العم ليون الثاني عشر هي الخيلولة دون انتقال الملاحة النهرية إلى ايدي رجال اعمال من اقاليم الداخل الذين

يرتبطون بالاحتكارات الاوربية. وكان يقول: «لقد كان هذا العمل دوماً هو عمل الماتاكونغيين. اما اذا تولاه الداخلون فسيهدونه ثانية الى الألمان». وكان قلقه ناجماً عن قناعة سياسية يجب تكرارها بمناسبة وبلا مناسبة:

- أكاد أكمل مئة سنة، وقد رأيت كل شيء يتغير، بما في ذلك مواقع الكواكب في الكون، ولكنني لم أرحى الآن شيئاً يتغير في هذه البلاد. فهنا توجد دساتير جديدة، وقوانين جديدة، وحروب جديدة كل ثلاثة شهور، لكننا ما زلنا نعيش في العهد الاستعماري.

وكان يرد دائماً على أخويه الماسونيين اللذين يعزوان كل الشرور إلى فشل الاتحادية: «لقد كانت حرب الألف يوم خاسرة قبل اندلاعها بعشرين سنة. منذ حرب ١٧٦٠. وكان فلوريتينواريشا، الذي تتجاوز لامبالاته السياسية حدود المطلق، يستمع الى هذا الكلام الطويل المكرور كمن يستمع إلى صوت البحر. ولكنه كان بالمقابل نقيضاً صارماً فيما يتعلق بسياسة الشركة. اذ كان يرى، على العكس من عمه، بان تخلف الملاحة النهرية، التي تبدو دائماً على شفير الكارثة، لا يمكن معالجته إلا بالتخلي التلقائي عن احتكار الملاحة النهرية الذي منحه الكونغرس الوطني لشركة الكاريبي لمدة تسعة وتسعين عاماً ويوم واحد. وكان العم يعترض: «هذه الافكار تحشوها في رأسك سُميتي ليونا المولعة بالفوضوية». وكان هذا هو نصف الحقيقة فقط، اذ كانت مبررات فلوريتينواريشا تستند إلى تجربة الربان الألماني جون ب. البيرس، الذي أفسد بطموحه الشخصي المفرط نبوغه النبيل. أما العم ليون فكان يرى ان فشل البيرس لم يكن بسبب امتيازاته. وانما نتيجة التعهدات اللواقعية التي التزم بها في حينه، فكان كمن يلقي على كاهله مسؤولية الجغرافية الوطنية بأسرها: فقد تحمل مسؤولية الحفاظ على الملاحة النهرية، وبناء المنشآت المرفأية، والطرق البرية المؤدية إلى الموانئ، ووسائل النقل. أضف إلى ذلك - كان يقول - ان معارضة الرئيس سيمون بوليفار الشديدة لم تكن بالعائق الذي يبعث على الضحك.

كان معظم المساهمين في الشركة يرون في ذلك الخلاف كواحد من الخلافات الزوجية، حيث كلا الجانبين على حق. فعناد الشيخ يبدو لهم طبعياً، ليس لان الدنيخوخة جعلته أقل وهماً بما كان عليه دوماً، كما اعتاد القول عن نفسه بسهولة كبيرة وانما لان التخلي عن الاحتكار برأيه هو اللقاء إلى القسامة بمكاسب النصر الذي تحقق في معركة تاريخية حاضها واخواه منفردين في الازمنة البطولية، ضد خصوم جبارين من العالم بأسره. ولهذا لم يعارضه أحد حين ربط حقوقه بطريقة لا تتيح لأحد المس بها قبل غيابه القانوني. ولكن حين سلم فلوريتينواريشا اسلحته في مسامرات التأمل في المزرعة، ابدى العم ليون الثاني عشر موافقته في التخلي عن الامتياز المثوي، بشرط مشرف وحيد هو ألا يتم التنازل قبل وفاته.

كان هذا هو عمله الاخير . ولم يعد بعده للحديث في شؤون العمل ، بل انه لم يعد يسمح لهم بأن يستشيروه فيه . ولم يفقد تجميدة واحدة من تجماعيد رأسه الامبراطوري ، ولا ذرة واحدة من وضوحه ، لكنه فعل كل ما امكنه حتى لا يبدو عليه شيء يثير الشفقة . كانت ايامه تمضي وهو يتأمل التلوج الدائمة من شرفة ، محركاً كرسيه الفيني الهزاز ببطء ، إلى جانب طاولة صغيرة مخصص الخادومات على وجود ابريق قهوة مرة ساخنة عليها دوماً وبمجموعتين من اسنانه الاصطناعية التي ما عاد يستخدمها إلا لاستقبال الزيارات . كان يلتقي عدداً محدوداً من الاصدقاء ، ولا يتحدث معه إلا عن ماضٍ سحيق جداً وسابق للملاحة النهرية . ولكن بقي له مع ذلك موضوع جديد للحديث : رغبته بزواج فلورينتينوارثا . وقد عبر عن ذلك عدة مرات ، وبالعريقة ذاتها دوماً .

كان يقول له :

- لو انني كنت أصغر بخمسين سنة لتزوجت من سيميني ليونا . فانا لا استطيع تصور زوجة أفضل منها .

كان فلورينتينوارثا يرتعش لخوفه من ان يضيع كل ما عمله خلال سنوات طويلة بهذا الشرط الطاريء في اللحظة الاخيرة . لكنه كان يفضل الاستقالة ، والتخلي عن كل شيء ، والموت ، قبل ان يخلف وعده لغيرمينا داثا . ولحسن الحظ ان العم ليون الثاني عشر لم يصرفي طلبه . وحين اتم الثانية والتسعين من العمر ، اعترف بابن اخيه وريثاً وحيداً وتقاعد من الشركة .

بعد ذلك بستة شهور ، وباجماع المساهمين ، عُيِّن فلورينتينوارثا رئيساً لمجلس الادارة ومديراً عاماً للشركة . ويوم تولى مهام منصبه ، بعد تناول الشمبانيا ، طلب العجوز ليون المتقاعد السباح له بالحديث وهو جالس على الكرسي الهزاز ، وارتمل خطبة قصيرة بدت اشبه بمرثية . قال ان حياته بدأت وانتهت بحديثين صادرين عن العناية الالهية . الحدث الأول هو ان بطل التحرير حمله بين ذراعيه ، في بلدة تورباكو ، اثناء رحلته المشؤومة التي قادته إلى الموت . والحدث الثاني كان عثوره ، رغم كل العوائق التي فرضها القدر ، على خليفة جدير بالشركة . واخيراً ، في محاولة لنزع المأساة من المأساة ، اختتم حديثه قائلاً :

- المارة الوحيدة التي احملها من هذه الحياة هي انني غنيت في جنازات كثيرة ، باستثناء جنازتي .

ولا اختتام الاحتفال ، وكيف لا ، غنى منفرداً اغنية وداعاً للحياة ، من اوبريت توسكا . غناها بلحن كنائسي ، كما يجب ان يغنيها ، وبصوت ما يزال ثابتاً . لقد تأثر فلورينتينوارثا ، لكنه لم يُظهر ذلك في ارتعاشة صوته حينلقى كلمة شكر . مثلها فعل وفكر بكل ما فعله

وفكر به في الحياة . لقد وصل إلى القمة دون هدف سوى قراره الشرس بالبقاء حياً وفي حالة صحية جيدة لحظة توليه منصبه في ظل فيرمينا دانا .

ولكن لم تكن ذكراها وحدها هي التي رافقته تلك الليلة في الحفلة التي دعت إليها ليوينا كسياني . بل رافقته كذلك ذكرى جميع من عرفهن . سواء من يرقدن في المقابر ، مفكرات به من خلال الزهور التي زرعها فوقهن ، أو أولئك اللواتي ما زلن يسندن رؤوسهن على الوسادة ذاتها التي نام عليها أزواجهن بفرون مدهبة تحت ضوء القمر . وباستثناء واحدة منهن ، كان يرغب بأن يكون معهن جميعاً في وقت واحد ، وهو ما كان يخشاه دائماً . ففي أصعب سوات حياته ، وأقسى لحظاته ، احتفظ بعلاقة ما ، وإن كانت واهية ، مع عشيقاته اللواتي لاحصر لهن : لقد تابع دائماً خيط حياتهن .

تذكر في تلك الليلة روسالبا ، أقدمهن جميعاً ، التي فضت عذريته وما زالت ذكراها تعذبه كما عذبت في اليوم الأول . كان يكتفي بأغياض عينية ليراهن بستان المسلمين والقبعة ذات شرائط الحرير الطويلة وهي تمزق قص الطفل عند حافة السفينة . وكان قد أعد عدة كل شيء ، ودون مرات عديدة في سنوات حياته الطويلة للانطلاق في البحث عنها دون أن يعرف أين ، ودون أن يعرف ما هو لقبها ، ودون أن يعرف أن كانت هي حقاً من يبحث عنها ، ولكنه كان متأكداً من أنه سيجدها في أي مكان ما بين ازهار السليحيات . وفي كل مرة ، بفعل عائق حقيقي بطراً في اللحظة الأخيرة ، أو بفعل خلل خارج عن إرادته ، كانت الرحلة تتأجل رهو على وشك أن يرفع جسر السفينة : وقد كانت للأسباب دوماً علاقة ما بفيرمينا دانا .

تذكر أرملة ناثارت ، الوحيدة التي دنس معها بيت أمه في شارع لاس فينتاناس ، رغم أنه لم يكن هو ، وإنها ترانسيتواريشا ، من سمح لها بالدخول . ولقد كرس لها تفهماً أكثر من أي واحدة سواها ، لأنها الوحيدة التي كانت تشع حناناً يكفي لأحلالها محل فيرمينا دانا ، رغم بلادتها في الفراش . لكن ميوها كقطعة متشردة ، وغير مروضة ، تفوقت على قوة حناها وحكمت عليهما بالخيانة . ومع ذلك ، فقد أصبحا عاشقين متقطعين خلال ما يقرب من ثلاثين سنة بفضل شعاره الفروسي : خائشان ، ولكن غير مخادعين . وكانت هي الوحيدة كذلك التي كشف فلورينتينو عن وجهه الحقيقي من أحلامها : فحين وصله خبر موتها ، وعلم أنها ستدفن في مدافن الاحسان ، تكفل بدفنها على نفقته ، وكان الوحيد الذي حضر جنازتها .

تذكر أراميل أخريات محبوبات . بروديتيا بيترا ، أقدم اللواتي ما زلن على قيد الحياة ، والمعروفة للجميع باسم أرملة السرب ، لأنها ترمات مرتين . وتذكر بوردينيا الآخر ، أرملة أربسانو المتريسة ، وهي ، التي كانت تطعم أزارار ملايكه ليضطر المبقعاء في بيتهما ثم تعيد

اصلاحها . وخوسيفا ، ارملة زونيغا ، المجنونة بحبه ، والتي كادت تقص عضوه بالمقص وهو نائم ، كي لا يكون لأحد سواها .

تذكر انخيلس الفارو ، التي غابت سريعاً وكانت احببها اليه ، اذ جاءت لمدة ستة اشهر لتعليم موسيقى الآلات الوترية في مدرسة الموسيقى ، وكانت تقضي معه الليالي المقمرة على سطح بيتها ، كما قذفت بها امها الى الدنيا ، عازقة أجمل المقطوعات الموسيقية على البيولوتشييلو<sup>(١)</sup> ، الذي يتحول صوته إلى صوت انسان بين فخذها الذهبيين . ومنذ الليلة المقمرة الأولى ، تفتت قلباها ارباً بحب مبتدئ شرسين . لكن انخيلس الفارو مضت مثلها جاءت ، بعضوها الغض وألتهها الموسيقية ، في سفينة ترفع راية النسيان ، والشيء الوحيد الذي بقي منها في ليالي السطح المقمرة هوتلوحية وداعها بمندبل أبيض بدا وكأنه حمامة متوحدة وحزينة في الافق ، كما في أشعار مهرجان الزهور . لقد تعلم فلوريتينو اريثا معها ما كان قد عاناه كثيراً دون ان يدرك كنهه : وهوانه بوسع المرء ان يعشق عدة اشخاص في الوقت نفسه ، ويتألم الألم ذاته لهم جميعاً ، دون خيانة أي منهم . وفيها هويقف وحيداً وسط الجموع في الميناء ، قال غاضباً : « ان في القلب حجرات اكثر مما في فندق للعاهرات » . كان مبتلاً بدموع آلام اليراع . ولكن ما ان اختفت السفينة عند خط الافق ، حتى عادت ذكرى فيرمينا داثا لتشغل السراح كله .

تذكر اندريه بارون ، التي مرر أمام بيتها الاسبوع الماضي ، ونبهه الضوء البرتقالي المنبعث من نافذة الحمام إلى انه لا يستطيع الدخول : لقد سبقه أحدهم . أحدهم . . رجل أو امرأة ، لان اندريه بارون لم تكن لتتوقف عند ترهات من هذا النوع في فوضى الحب . وبين جميع من هن في قائمته ، كانت هي الوحيدة التي تعيش من جسدها ، ولكنها كانت تتحكم به حسب رغبتها ، دون وكيل أعمال . في سنواتها الطيبة مارست المهنة القديمة كمومس سرية ، مما جعلها حديرة باسم سيدتنا قديسة الجميع . لقد فنتت حكماً وامراء بحر . ورأت بعض نبلاء السلاح والادب عن لم يكونوا مشهورين كما كانوا يظنون انفسهم ، يكون على كتفها ، وكذلك بعض من كانوا مشهورين حقاً . كما كان صحيحاً ان الرئيس رافائيل ريس ، وبعد نصف الساعة المستعجلة التي امضاها في زيارته للمدينة خصص لها راتباً تقاعدياً مدى الحياة لقاء خدمات قدمتها في وزارة الخزانة ، حيث لم تكن يوماً موظفة . لقد كانت توزع عطايا منعتها إلى اقصى ما أتاحتها لها الجسد ، ورغم ان سلوكها غير اللائق كان معروفاً للجميع ، فانه لم يكن بإمكان أحد تقديم أدلة دامغة ضدها ، لان زبائنها البارزين كانوا يحمونها كما

(١) آلة موسيقية وترية شائعة الاستخدام في كولومبيا .

يحمون انفسهم، مدركين انهم هم وليس هي من سيخسر اكثر بالفضيحة. وقد خرق فلوريتينو اريشا من أجلها مبدؤه المقدس بعدم الدفع، وخرقت هي قانونها بالآثار الحب مجاناً حتى ولومع الزوج. اذ اتفقا على سررمزي هوييزو واحد عن كل مرة، لكنها لم تكن تأخذ البيزو كما لم يكن هويعطيهما آياه في يدها، وانما كان يسقطه في الحصادلة إلى ان يصل لمبلغ الى ما يكفي لشراء أية بدعة من زقاق الكتبة العموميين. وهي التي عزت إلى الحقن الشرجية التي يستخدمها في إمساكه، حسية مختلفة في الحب، وأقنعت بصواب فكرتها، ليستخدما الحقن الشرجية معاً في امسياتها المجنونة، محاولين بذلك ابتداء مزيد من الحب في الحب.

كان يرى نفسه محظوظاً، لان الوحيدة التي اذاقته قطرة مرارة وسط كل هذه اللقاءات الخطرة، هي سارا نوريفا المتقلبة، التي انتهت حياتها في مشفى الراعية الالهية للمجاذيب، ملقية اشعاراً شيخوخية بذاتها تتجاوز كل الحدود، مما اضطرهم في المشفى إلى عزلها حتى لا تسبب الجنون للمجنونات الاخريات. وحين تسلم فلوريتينو اريشا كامل مسؤوليات ش.ك.م.ن. لم يعد لديه متسع كبير من الوقت لمحاولة احلال أحد محل فيرمينا دانا: كان قد أوقن بانها عصبية على الاستبدال. وراح يهوي شيئاً فشيئاً في روتين زيارته لمن يعرفهن، ليضاجعهن إلى المدى الذي تستطعن، وإلى حيث يستطيع، وإلى حيث تسمح لهم الحياة، وفي يوم أحد العنصرة، حين مات خوفينال اوربينو، لم تكن قد بقيت له سوى واحدة، واحدة فقط، لها أربعة عشر عاماً من العمر اكملتها لتوها، وتتمتع بكل ما لم تمتلكه الاخريات حتى ذلك الحين لجعله يحسن حياً.

اسمها اميركا فيكونيا. وكانت قد جاءت قبل سنتين من بلدة بويرتوبادري البحرية، مبعوثة من أهلها إلى فلوريتينو اريشا، ولي امرها الذي تربطهم به صلة قرى معروفة. جاءت بمنحة حكومية لتتأهل كمعلمة، وبدأت كدمية حين وصولها بصرة سفرها وحقيبتها الصفيحية. ومنذ نزولها من السفينة بحذاءها الأبيض وصغيرتها الذهبية، خطرت له الفكرة الفظيعة بانها سيقضيان معاً قيلولات آحاد كثيرة. كانت ما تزال طفلة بكل ما في ذلك من معنى، القلق في اسنانها، وقروح المدرسة الابتدائية في ركبتيها، لكنه تحيل فوراً المرأة التي ستصيرها عما قريب. فرعاها لنفسه خلال سنة بطيئة من سبوت في السيرك، وآحاد في الحداثق ومحلات المثلجات، وأمسيات طفولية نال بها ثقتها، وكسب دها، وراح يفودها من يدها برقة خبيثة كجد كريم إلى مسلخه السري. وكانت استجابتها فورية: لقد فتحت لها أبواب الساء فانفجرت في تفتح وردي جعلها تفيض سعادة، وكان ذلك دافعاً ناجحاً لدراستها، اذ احتفظت دوماً بالموقع الأول في الفصل كي لا تخسر الخروج من المدرسة في نهاية

الاسبوع. وكانت بالنسبة له الركن الاكثر خفاء في خليج شيخوخته. فبعد سنوات طويلة من الغراميات المحبوسة، احس للذائق البراءة المفسدة فتنة ضلال مستجد.

انسجما. كانت تتصرف على سجيتهما: طفلة متأهبة لاستكشاف الحياة تحت اشراف رجل موثر لا يفاجأ بشيء، وتصرف وهو وواع بالشكل الذي كان يخشى ان يصير اليه في الحياة: خطيب شافخ. ولم يطابق بينها وبين فيرمينا دانا أبداً، رغم التشابه الكبير بينهما، وليس في السن، والزي المدرسي، والصفيرة، والمشية البرية فقط، بل وبالطبع المتكبر وغير المتوقع. ثم ان فكرة الاستبدال، التي كانت حافزاً جيداً له في استعطاء الحب من قبل، قد تلاشت نهائياً من ذهنه. انها تعجبه كما هي، ويحبها لما هي عليه بحمى لذة غسقية. وكانت الوحيدة التي اتخذ معها احتياطات صارمة للحيلة دون حبل عرضي. وبعد بضعة لقاءات، لم يعد لكليهما من حلم سوى مساء الآحاد.

بما انه الشخص الوحيد المخول باخراجها من المدرسة الداخلية، فقد كان يذهب بحثاً عنها في سيارة الهدسون ذات الستة سلندرات التابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وكان ينزع غطاء السيارة القماشية في بعض الامسيات غير المشمسة ليتنزها على الشاطئ، هو بقبعة الكتيبة، وهي منفجرة بالضحك، وممسكة بكلتا يديها بعتها البحرية التي تشكل جزءاً من زيا المدرسي، كي لا تطير مع الريح. لقد قال لها أحدهم يوماً ألا ترافق ولي امرها اكثر من اللازم، وألا تاكل شيئاً كان قد تذوقه وألا تقترب كثيراً من انفاسه، لان الشيخوخة معدية. لكنها لم تول ذلك اهتماماً. كلاهما كان يبدي لا مبالاة لما يمكن للناس ان يظنوه بها، لان قرباتهما كانت معروفة جيداً، ثم ان سنيهما التقيضين يضعانها بمعنى عن كل الشبهات. كانا قد انتهيا من ممارسة الحب يوم أحد العنصرة، في الرابعة بعد الظهر، حين بدأ قرع النواقيس. وقد فوجيء فلوريتينواريثا لفرع قلبه. فقرع النواقيس كان يدخل - في شبابه - ضمن تكاليف الجنائز، وكان يحظر على الفقراء فقط. وبعد حربنا الاخيرة، في الجسر الواصل بين القرنين، رسخ النظام المحافظ تقاليد الموروثة من العهد الاستعماري وأصبحت الالهة الجنائزية مكلفة بحيث لم يعد هناك من هو قادر على دفعها سوى اغنى الاغنياء. وحين توفي الاسقف اركوي دي لونا، قرعت نواقيس المقاطعة كلها لتسعة أيام بلياليها، وبلغ الضيق العام حداً دفع خليفته إلى الغاء تقليد قرع اجراس الكنائس في المآتم، وحصره بالموتى البارزين. ولذلك حين سمع فلوريتينواريثا قرع النواقيس في الكتدرائية في الرابعة من مساء يوم أحد العنصرة، أحس ان شعباً من أيام شبابه المنسية يزوره. لم يتصور مطلقاً ان قرع النواقيس هذا هو الذي تشوق اليه لسنوات وسنوات، منذ يوم الأحد الذي رأى فيه فيرمينا دانا تخرج من القديس الكبير وهي جلي في الشهر السادس.



قال في العتمة :

- اللعنة . لا بد انه حوت سمين كي تقرع من اجله اجراس الكندراية .

أما اميركا فيكونيا، التي استيقظت لئوها، عارية تماماً، فقالت :

- لا شك انها من أجل العنصرة .

لم يكن فلورينتينوارشا خبيراً أو ما شابه ذلك في شؤون الكنيسة، كما انه لم يذهب الى الصلاة مذ كان يعزف الكمان في الكورس مع ألماني علمه كذلك علم التلغراف، ولم يتوصل إلى خبر مؤكد عن مصيره أبداً . لكنه كان يعرف دون شك ان النواقيس ما كانت من اجل العنصرة . صحيح ان في المدينة مأتماً، وهو يعرف ذلك؛ اذ زارت بيته لجنة من لاجئي الكاريبي لتخبره ان جبرميادي سانت - آمور قد وجد ميتاً في معمل تصوييره . ومع ان فلورينتينوارشا لم يكن من اصدقائه المقربين، إلا انه كان صديقاً لعدد كبير من اللاجئين الذين اعتادوا على دعوته إلى مناسباتهم العامة، وخصوصاً المآتم . لكنه كان متأكداً من ان الاجراس لا تقرع لجبرميادي سانت - آمور، الذي كان ملحداً مصمماً وفوضواً متنادياً، اضافة إلى انه قتل نفسه بيده .

قال :

- لا . ان قرع اجراس كهذا لا يمكن ان يكون إلا من أجل حاكم فما فوق .

لم تكن اميركا فيكونيا، بجسدها الشاحب الموقط بفعل انعكاس اشعة الضوء المتسربة من اباججور النافذة المغلقة، قد بلغت سنّاً يمكنها من التفكير بالموت . كانا قد مارسا الحب بعد الغداء واضطجعاً في سكّون القيلولة، عازرين تحت مروحة السقف التي لم يطفئ ازيزها على فقرطبور الرحمة التي كانت تدب كحبات البرد فوق سطح الصفيح الساخن . كان فلورينتينوارشا يحبها كما أحب كثيرات من النساء الاخريات العابرات في حياته الطويلة، لكنه كان يحب هذه بكرب أشد، لانه كان موقناً من انه سيكون قد مات من الشيخوخة حين تنتهي هي من المدرسة العليا .

كانت الحجرة تبدو اشبه بقمرة سفينة، بجدرانها المصنوعة من ألواح خشبية طليت مرات ومرات فوق طلائها الأول، كما هو الحال في السفن . لكن الحركان أشد من حرقمرات سفن النهر في الرابعة مساء، رغم المروحة المعلقة فوق السرير، وذلك للحر الذي يعكسه السقف المعدني . لم تكن حجرة نوم عادية وانما قمرة على اليابسة أمر فلورينتينوارشا ببناؤها خلف مكاتبه في ش.ك.م.ن.، دون نية أو ذريعة اخرى سوى الحصول على ملجأ جيد لغرامياته كعجوز . كان النوم هناك مستحيلاً في الايام العادية بسبب صراخ عمال شحن السفن وقعقة رافعات الميناء النهري، وجوار السفن الضخمة في الميناء . ولكنها كانت بالنسبة للطفلة جنة

أيام الأحاد.

فكرا بالبقاء معاً في يوم العنصرة حتى موعد عودتها إلى المدرسة الداخلية، قبل خمس دقائق من صلاة التبشير، لكن قرع النواقيس ذكر فلوريتينو أريشا بوعده في حضور جنازة جيرميلا دي سانت - أمور، فارتدى ملابسه بأسرع مما يفعل في العادة، وكان قد جدل قبل ذلك، كعادته، صغيرة الطفلة التي يحملها قبل ممارسة الحب، ورفعها فوق الطاولة ليعقد لها شريط حدائها المدرسي، الذي لم تحسن ربطه يوماً. كان يساعدها دون خبث، وكانت تساعده ليساعدها كما لو كان ذلك واجباً عليها. لقد فقد كلاهما الاحساس بالسمن منذ لقاءتهما الأولى، وتعاملا بثقة زوجين اخفيا عن بعضهما أموراً كثيرة في هذه الحياة حتى لم يعد لديهما ما يقولانه.

كانت مكاتب الشركة مقفلة وغارقة في الظلام لان اليوم عطلة، لم يكن في الميناء المغير سوى سفينة واحدة مراجلها مطفأة. وكان الحر المحتدم ينذر بهطول المطر، أول أمطار السنة، لكن شفافية الهواء وصمت الميناء الاحدي بدا وكأنها من شهر لطيف. وكانت الدنيا من هناك أكثر فجاجة من ظلمة القمر، وكان قرع النواقيس أكثر إبلاماً دون معرفة لمن تفرع. نزل فلوريتينو أريشا والطفلة إلى فناء ملح البارود الذي استخدمه الاسبان فيما مضى كميناء للنخاسة وحيث ما زالت بقايا المتقال وحداثد أخرى من تجارة الرقيق. كانت السيارة تنتظرهما في ظل الحانات، ولم يوقظا السائق النائم فوق المقود إلى ان استقرا في مقعديهما. دارت السيارة من وراء الحانات المسيجة بشبكة معدنية كشباك أقنان الدجاج، واجتازت الفراغ الذي كان يشغله في السابق سوق لاس اينساس، حيث كانت جماعة من البافعين شبه العراة يلعبون بالكرة، وخرجت من الميناء النهري وسط زويدة من الغبار الملهب. كان فلوريتينو أريشا متأكداً ان التشريف الجنائزي لا يمكن ان يكون من اجل جيرميلا دي سانت - أمور، لكن الحاح النواقيس جعله يرتاب. وضع يده على كتف السائق وسأله صارخاً لماذا تفرع الاجراس.

فقال السائق:

- انها من أجل هذا الطبيب المعروف. ما اسمه؟

لم يكن على فلوريتينو أريشا ان يفكر بالأمر ليعرف من المقصود. ولكن سرعان ما غار الوهم الفوري حين روى له السائق كيف مات، لانه لم يجد الأمر محتملاً. فلا شيء يشبه الانسان كطريقة موته، وليس من موت يبدو أقل شبيهاً للرجل الذي تصوره من هذه الميتة. لكنه كان هو نفسه، حتى ولو بدا الأمر غير معقول: فالطبيب الاكبر سنًا والاكثر تأهيلاً في

المدينة ، وأحد رجالها المرموقين لمشاركته في نشاطات أخرى كثيرة ، قد مات اثر تهشم نخاعه الشوكي ، عن احدى وثمانين سنة ، لدى سقوطه من شجرة مانغا وهو يحاول امساك ببناء .  
كل ما فعله فلوريتينو اريثا منذ زواج فيرمينا دانا ، كان يتركز على أمل هذا الخبر . ولكن حين ازفت الساعة لم يشعر برعشة الانتصار التي كثيرا ما تصورها في اوقات ارقه ، وانما أحس بضربة من غلب الرب : لقد رأى بوضوح عجيب انه كان يمكن لهذه النواقيس ان تقرع لموته هو . وفزعت اميركا فيكونيا ، الجالسة إلى جواره في السيارة المتقافزة على الشوارع الحجرية ، لشحوبه وسألته عما أصابه . فأمسك فلوريتينو اريثا يدها بيده المتجمدة ، وتهد قائلاً :

- أه يا صغيرتي . تلزمني خمسون سنة أخرى لأروي لك . نسي جنازة جيرميادي سانت - آمور . وترك الصغيرة أمام باب المدرسة الداخلية واعدأ ايها على عجل بالمجيء اليها يوم السبت القادم ، ثم أمر السائق بالتوجه إلى بيت الدكتور خوفينال اورينو . وجد ازدحام سيارات وعربات اجرة في الشوارع المجاورة ، وحشداً من الفضوليين مقابل البيت فمدعوا الدكتور لاثيبيس اوليفيا ، الذين تلقوا النبأ المشؤوم وهم في اوج الحفلة ، جازوا على عجل . ولم يكن التحرك في البيت سهلاً بسبب الازدحام ، لكن فلوريتينو اريثا تمكن من شق طريقه حتى غرفة النوم الرئيسية ، ورفع نفسه أعلى من المجموعة المحتشدة أمام الباب ، ورأى خوفينال اورينو على السرير الزوجي كما غنى رؤيته مذ سمع باسمه لأول مرة ، محاطاً بوقار الموت . انتهى النجار حينئذ من أخذ المقاسات لصنع التابوت . وإلى جانبه ، بفستان الجدة حديثة الزواج الذي ارتدته للحفلة ، كانت تقف فيرمينا دانا منذهلة وكثيبة .

كان فلوريتينو اريثا قد تحمّل تفاصيل تلك اللحظة منذ أيام شبابه ، حين كرس نفسه كلياً لقضية هذا الحب المنهور . فمن أجلها أحرز لقباً وثروة ، ومن أجلها عني بصحته وبمظهره الشخصي عناية لم تكن تبدو جديرة بالرجولة لآبناء عصره ، وانتظر ذلك اليوم كما لم يستطع أحد انتظار أحد أوشيء في هذا العالم : دون لحظة واحدة من التقاعس . ويقينه بان الموت قد تدخل اخيراً لصالحه ، بث فيه الشجاعة التي كان يحتاجها ليكرر أمام فيرمينا دانا ، في ليلتها الأولى كأرملة ، يمين الولاء الابدي وجبه الدائم .

لم ينف أمام نفسه بان ما فعله كان عملاً طائشاً ، لا معنى له في هذا الوقت وهذه الطريقة ، وانه قد تسرع لخوفه من أن لا تسنح له الفرصة ثانية . كان قد أعد ما يريد به بطريقة أقل فظاظلة ، لكن الحظ لم يسعفه بأحسن مما فعل . خرج من بيت العزاء متألماً لانه تركها تعاني حالة الاضطراب التي كان يعانيها هونفسه ، ولكنه لم يستطع عمل شيء لمنع ذلك عنها ، لانه أحس بان تلك الليلة الهمجية كانت مكتوبة منذ الأزل في قدرهما معاً .

لم يستطع النوم ليلة واحدة خلال الاسابيع التالية . كان يتساءل يائساً أين يمكن ان تكون فيرميسا دائماً من دونه، وبماذا تفكر، وماذا ستفعل خلال السنوات المتبقية لها في الحياة بثقل الرعب الذي خلفه بين يديها . عانى من نوبة امساك نفخت بطنه كطبل، وكان عليه ان يلجأ إلى المسكنات الاكثر لطفاً من الحقن الشرجية . كما ان آلام الشيخوخة، التي كان يحتملها خيراً من معاصريه، لانه عرفها منذ شبابه، هاجته كلها دفعة واحدة . وعندما حضر إلى المكتب، يوم الاربعاء، بعد اسبوع من الغياب، ارتعدت ليونا كاسياني لرؤيته على تلك الحالة من الشحوب والاسترخاء . لكنه طمأنها: انه الأرق ثانية كالعادة، وعاد يعض لسانه كي لا تنفلت الحقيقة من ثقب قلبه الكثيرة . ولم يمنحه المطر هدنة مشمسة ليفكر فقضى اسبوعاً لا واقعياً آخر، دون قدرة على التركيز في شيء . وكان يأكل بشكل سيء وينام بطريقة أسوأ، ويحاول تحسس اشارات مبهمة تهديه إلى سبيل الخلاص . لكن طمأنينة داهمته منذ يوم الجمعة بلا اية مبررات، ففسرها على انها نذير بان شيئاً جديداً لن يحدث، وان كل ما فعله في الحياة كان بلا جدوى وليس لديه ما يتابع من اجله : انها النهاية . ومع ذلك، فلبدى وصوله يوم الاثنين إلى بيته في شارع لاس فينتاناس، اصطدم برسالة مبللة بالماء المتجمع وراء الباب، وتعرف من المغلف في الحال على الخط المتسلط الذي لم تستطع تبديله كل تقلبات الحياة، بل انه احس برائحة العطر الليلي لازهار الياسمين الذابلة، لأن قلبه حدثه بكل شيء منذ الرهبة الأولى : انها الرسالة التي انتظرها، دون لحظة راحة واحدة، خلال اكثر من نصف قرن .

لم تتصور فيرмина دأنا انه يمكن لفلورينتينوارثا فهم تلك الرسالة التي دفعها الغضب لكتابتها على انها رسالة حب. لقد ضمنتها كل السخط الذي استطاعته، مستخدمة أقسى ما لديها من عبارات واهانات جارحة، وظلمة أيضاً، ومع ذلك رأت انها ضئيلة أمام حجم الاساءة. كانت الرسالة ذروة مرارة دامت اسبوعين، وقد حاولت الوصول من خلالها إلى مصالحة مع وضعها الجديد. أرادت ان تعود إلى ذاتها، وان تسترد كل ما اضطرت للتخلي عنه خلال نصف قرن من العبودية التي كانت سعيدة بها دون شك. ولكن موت زوجها لم يترك لها اثراً من هويتها. كانت شبحاً في بيت غريب تحول بين يوم وآخر إلى بيت فسيح موحش، وكانت هي تهيم فيه على غير هدى، متسائلة بمرارة من هو الميت: أهو الذي مات أم هي التي بقيت على قيد الحياة.

ما كانت قادرة على تصريف احساس عميق بالغضب من الزوج الذي تركها وحيدة وسط بحر الظلمات. كان كل شيء من اشيائه يدفعها للبكاء: البيجاما التي تحت الوسادة، والخف الذي كان يبدو لها دوماً وكأنه خف مريض، وذكرى صورته المطبوعة في عمق المرأة وهو يخلع ملابسه فيها هي تسرح شعرها للنوم، ورائحة بشرته التي ستبقى عالقة ببشرتها لوقت طويل بعد موته. كانت تتوقف عن أي عمل تقوم به وتضرب جبهتها بكفها، لانهما تذكرت فجأة شيئاً نسيت ان تخبره به. وترد إلى ذهنها في كل لحظة الاسئلة اليومية الكثيرة التي لا يستطيع الاجابة عنها أحد سواه. لقد قال لها في أحد الايام شيئاً لم تستطع تصوره: ان المبثورين يحسون الألم، وحلداً، ودغدغة في ارجلهم التي ما عادوا يمتلكونها. وهذا ما شعرت به هي من دونه. كانت تشعر بوجوده حيث لم يعد له من وجود.

لدى استيقاظها في ليلتها الأولى كأرملة، تقلبت في السرير دون ان تفتح عينيها، بحثاً عن وضع مريح لمتابعة النوم، فكان ان مات بالنسبة لها في هذه اللحظة. اذ رعت حينئذ فقط بانه

قضى الليل لأول مرة خارج البيت . ثم كان انفعالها الاخر على المائدة ، ليس لشعورها بانها وحيدة ، كما كانت فعلاً ، وانما لقناعتها الغريبة بانها تتناول الطعام مع شخص ما عاد موجوداً . وانتظرت قدوم ابنتها اوفيليا من نيو اورليانز ، مع زوجها وبناتها الثلاث ، كي تجلس من جديد إلى المائدة لتناول الطعام ، ولكنها لم تستخدم الطاولة المعتادة ، وانما مائدة مرتجلة ، أصغر حجماً ، أمرت بوضعها في الممر . ولم تكن حتى ذلك الحين قد أعدت وجبة نظامية ، بل كانت تمر من المطبخ في أي وقت ، حين تشعر بالجوع ، فتغرز الشوكة في القدر وتأكل قليلاً من كل شيء دون ان تضع الطعام في طبق ، وهي واقفة أمام الموقد ، تتحدث إلى الخادومات اللواتي كانت تشعر معهن وحدهن بانها على مايرام ، وتتفاهم معهن على أحسن وجه . ورغم كل محاولاتها ، لم تتمكن من تجنب حضور زوجها : فحيث ذهبت وحيث مرت ، ومهما فعلت ، كانت تصطدم بشيء من اشياءه يذكرها به . ومع ان ذلك الألم كان يبدو لها نبيلاً ولازماً ، الا انها كانت تريد عمل أي شيء أيضاً كي لا تتلذذ بالألم . وهكذا اتخذت قرارها الحاسم باخراج كل ما يذكرها بالزوج الميت من البيت ، وهي الوسيلة الوحيدة التي خطرت لها كي تتمكن من مواصلة الحياة بدونه .

كانت عملية استئصال . وافق الابن على أخذ الكتب لتحول المكتب إلى غرفة الخياطة التي لم يمتلكها أبداً وهي متزوجة . أما الابنة ، فأخذت بعض الاثاث وعدداً من الاشياء التي تبدو ملائمة جداً للبيع في مزاد العاديات في نيو اورليانز . كان هذا كله مهدئاً لغيرنا دانا ، التي لم ترأية ظرافة في تحقيقها من أن ما اشترته في رحلة زفافها قد صار اثاثاً قديمة . وأمام الدهول الصامت للخادومات ، والجيران ، والصدقات المقربات اللواتي كن يأتين لمرافقتها في تلك الايام ، أضمرت محرقة في أرض خلاء وراء البيت ، وأحرقت هناك كل ما يذكرها بزوجها : اكثر الملابس التي ارتاها المدينة منذ القرن الماضي كلفة واناقة ، واكثر الاحذية دقة ، والقبعات التي تشبهه اكثر من صوره ، وكبرسي القبلولة الهزاز الذي نهض عنه اخر مرة ليموت ، واشياء لا تحصى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياته وتشكل جزءاً من هويته . فعلت ذلك دون أي تردد ، وبيقين كامل في ان زوجها كان سيؤيد ذلك ، ليس لأسباب تتعلق بالوقاية الصحية فقط ، بل ولانه كثيراً ما أعرب لها عن رغبته بان تحرق جثته ، والا يحترق في الظلام دون أية فجوة في صندوق من خشب الارز . ان دينه يمنع ذلك دون ريب : وكان بإمكانها ان تتجراً على جس نبض الاسقف ، لترى وجهة نظره على أية حال ، وكان هذا سيرد عليه بجواب سلبي قاطع . فالأمر محض وهم ، لان الكنيسة لا تسمح باقامة افراخ لاحراق الجثث في مقابرنا ، حتى ولو كانت تابعة لاديان غير الدين الكاثوليكي . كما انه لم يخطر لأحد سوى خوفينال اوربينو جدوى بناء محارق كهذه . لم تس فرميننا دانا رعب زوجها هذا ، بل انه

تذكرت في فوضى الساعات الأولى التي تلت موته ان تأمر النجار بترك ثغرة تسمح بدخول الضوء الى الثابوت.

كانت محروقة بلا جدوى على اي حال. فسرعان ما ادركت فيرمينا دانا ان ذكرى زوجها الميت كانت مقاومة للنار كمقاومتها لمرور الايام على ما يبدو. ورغم ذلك، فانها لم تحتفظ بعد احراق الثياب بحنينها لكل ما أحبت فيه فقط، وانما أيضاً، وقيل كل شيء، لأكثر ما كان يزعمجها فيه: الضجة التي كان يثيرها عند استيقاظه. وقد ساعدتها هذه الذكريات على الخروج من أحراش الحداد. فالتحذت قراراً حاسماً بمتابعة الحياة، متذكرة زوجها وكأنه لم يمت. كانت تعلم ان استيقاظها كل صباح سيكون صعباً، لكنه سيصبح أقل وطأة يوماً بعد يوم.

وبدأت تلمح فعلاً، عند انتهاء الاسبوع الثالث، أول الانوار. ولكن كلما ازدادت تلك الانوار وأصبحت أشد وضوحاً، كانت تعي ان في حياتها شيئاً مطعوناً لا يتركها لحظة بسلام. لم يكن الشبح المثير للشفقة الذي كان يترصدها في حديقة البشارة، والذي اعتادت تذكره منذ شيخوختها بشيء من الرقة، وانما الشبح البغيض الذي يرتدي ستره الجلاد ويعمل قبعته مستندة إلى صدره، والذي أفلقتها سفاهته السخيفة إلى حد يستحيل عليها عدم التفكير به. لقد كانت مقتنعة دوماً، منذ صدته وهي في الثامنة عشرة من عمرها، بانها تركت فيه بذرة حقد لم يفعل الزمن شيئاً سوى تسميتها. وكانت تحسب حساب هذا الحقد في كل لحظة، وتشعر به في الهواء حين يكون الشبح قريباً منها، وكانت مجرد رؤيته تغلفها وترعبها إلى حد انها لم تجد أبداً أسلوباً طبيعياً للتعامل معه. وفي الليلة التي كرر فيها عرض حبه، حين كانت ازهار زوجها الميت ما تزال تعيق في جو البيت، لم تستطع ان تفهم تلك الحركة الخبيثة إلا كخطوة أولى من انتقام مشؤوم لا يعرف مداه أحد.

وقد فاقم الحاج ذكراه من غضبها. وحين استيقظت وهي تفكر به، في اليوم التالي للدفن، استطاعت محوه من ذاكرتها بإشارة بسيطة من ارادتها. لكن الغضب كان يعاودها دوماً، وسرعان ما أدركت ان رغبتها في نسيانه كانت أقوى محرض لتذكره. حينئذ تجرأت لأول مرة، في اذعانها للحنين، على استحضار ذكرى الزمان الوهمي لذلك الحب اللاواقعي. كانت تحاول ان تتذكر كيف كانت الحديقة بالضبط في ذلك الحين، وكيف كانت اشجار اللوز المحطمة، والمقعد الحجري الذي كان يحبها منه، لان شيئاً من هذا ما عاد موجوداً كما كان يومها. لقد تبدل كل شيء، اذ استأصلوا الاشجار وسجاداتها من الاوراق الصفراء، وأقاموا مكان تمثال البطل مقطوع الرأس تمثالاً لشخص آخر يرتدي زي المراسم العسكري، بلاسم ولا تاريخ وبلا تفسير يبرر نصبه هناك، على قاعدة فخمة وضعوا في جوفها لوحة مفاتيح

التحكم بكهرباء الحي . اما بيتها ، الذي بيع اخيراً ، فقد كان يتهاوى خراباً بعد هذه السنوات الطويلة بين يدي الحكومة الاقليمية . ولم يكن من السهل عليها تصور فلورينتينو اريشا كما كان في ذلك الحين ، كما لم تكن قادرة على ان تصدق بان ذلك الشاب المكفهر ، البائس جداً تحت المطر ، هو ذات الشيخ المنخور الذي وقف امامها دون أي اعتبار لحالتها ، وبلا أي احترام لآلها ، وكوى روحها بإهانة لاهية ما زالت تثقل على انفاسها .

كانت ابنة الخال هيلديراندا سانتشيث قد جاءت لزيارتها بعد وقت قصير من عودتها من مزرعة فلوريس دي ماريا ، وحين كانت تستجمع قواها من ساعة نحس الانسة لينتش . لقد جاءت هيلديراندا عجوزاً ، بدنية وسعيدة ، يرافقها ابنها البكر ، الذي اصبح عقيداً في الجيش ، مثل ابيه الذي تبرأ منه اثر تصرفه الدنيء في مجزرة عمال الموز في سان خوان دي لايناغا . كانت ابنة الخال وابنة العمّة قد التقتا مرات عديدة ، وكانتا تقضيان الساعات دوماً وهما تحنان إلى الحبّة التي تعارفتا فيها . وقد كانت هيلديراندا اكثر حنيناً في زيارتها الاخيرة مما كانت عليه في أي لقاء آخر ، واكثر تأثراً بثقل الشيخوخة . وكناكيد لحنيتها ، أحضرت معها نسحتها من الصورة التي التقطها لها المصور البلجيكي مساء اليوم الذي وجه فيه الشاب غوفينال اورينوطعنة الرحمة لارادة فيرمينا دائاً . كانت نسخة هذه الاخيرة من الصورة قد فُسّخت ، بينما كانت نسخة هيلديراندا غير واضحة المعالم ، لكنها تعرفتنا على نفسيهما من خلال غلالة الخيبة : شابتان وهيلتان كما لن تصبحا أبداً .

كان مستحيلاً ألا نتحدث هيلديراندا عن فلورينتينو اريشا ، لانها كانت تجدد قدرها في قدره . وكانت تتذكره كما رآته يوم بعثت أولى برقياتها ، ولم تتمكن أندأ ان تنزع من قلبها ذكراه كعصفور كتيب محكوم عليه بالنسيان . أما فيرمينا ، فقد رآته مرات ومرات ، دون ان تبادلنه الحديث طبعاً ، ولم تكن قادرة على ان تتصور انه هو حبه الأول ذاته . لقد كانت تصلها على الدوام اخبار عنه ، مثلما تصلها عاجلاً أو آجلاً أخبار كل من له مكانة في المدينة . كان يقال بانه لم يتزوج لانه ذوعادات مختلفة ، ولكنها لم تول هذه الأقاويل اهتماماً أيضاً ، لانها لم تهتم يوماً بالشائعات من جهة ، ولانه كانت تقال أشياء مشابهة عن رجال كثيرين لا مجال للشك فيهم من جهة اخرى . وكانت تستغرب بالمقابل احتفاظ فلورينتينو اريشا بزيه الصوفي ، وعطره الغريب ، وبقائه غامضاً هكذا بعد ان شق سبيله في الحياة بطريقة جد استعراضية اضافة إلى كونها شريفة . ولم تكن لتصدق بانه الشخص نفسه ، وكانت تفاجأ دائماً حين تنتهد هيلديراندا قائلة : « يا للرجل المسكين ، كم تألم ا » . اذ كانت تراه دون آلام منذ زمن بعيد :  
فهر شبح محو .



ومع ذلك، فقد أصاب قلبها شيء غريب ليلة التقت به في السينما، بعد رجوعها من فلوريس دي ماريا. لم تفاجأ بخروجه مع امرأة، وامرأة زنجية كذلك. لكن ما فاجأها هو أنه مازال في حالة جيدة، وأنه يتصرف بطلاقة شديدة، ولم يخطر لها أن تفكر بأنها قد تكون هي، وليس هو، من طرأ عليه التبدل بعد دخول الأنسة لينتش العاصف في حياتها الخاصة. منذ ذلك الحين، وخلال أكثر من عشرين سنة، تابعت رؤيته بعينين أكثر اشفاقاً. وفي ليلة السهر على زوجها الميت لم يبد لها وجوده هناك أمراً مفهوماً وحسب، بل رأت فيه النهاية الطبيعية للاحقاد: تصرف ينم عن العفو والنسيان. ولهذا لم تكن تتوقع إعادة المساواة لعرض حب لم تشعر بوجوده يوماً، وفي سن لم يبق لفلوريتينواريثا ولها فيها من شيء ينتظرانه من الحياة.

بقي غضب السهولة الأولى القاتل بكامل زخه بعد الاحراق الرمزي للزوج، وراح ينمو ويتشعب أكثر فأكثر كلما شعزت بانها أقل قدرة في السيطرة عليه. بل وأكثر من ذلك: ففراغات الذاكرة التي تمكن من اخلائها باقصاء ذكرى الميت منها، كان يحتلها شيئاً فشيئاً، ولكن باصرار، مرج البرقوق الذي كانت ذكرى فلوريتينواريثا مدفونة فيه. وهكذا كانت تفكر فيه دون أن تحبه، وكلما فكرت فيه أكثر ازداد غضبها عليه، وكلما ازداد غضبها منه كانت تفكر فيه أكثر، إلى أن أصبح شيئاً لا يطاق وطفح به ذهنها. حينئذ جلست إلى طاولة زوجها الميت، وكتبت إلى فلوريتينواريثا رسالة من ثلاث صفحات متهورة ومشحونة بالسباب والاستفزازات الشنيعة، التي هدأت من روعها لاقتراها بذلك أحط فعله في حياتها الطويلة. لقد كانت تلك الاسابيع الثلاثة بالنسبة لفلوريتينواريثا أيضاً أسابيع احتضار. ففي الليلة التي كرر فيها عرض حبه على فيرمينا داثا هام على غير هدى في الشوارع المخربة بطوفان المساء، متسائلاً بفزع ما الذي سيفعله بجلد النمر الذي انتهى من قتله بعد أن قاوم حصاره لأكثر من نصف قرن. كانت المدينة تعيش حالة طوارئ، بسبب عنف الأمطار. وفي بعض البيوت كان ثمة رجال ونساء شبه عراة يحاولون انقاذ ما يشاءه الله من وسط الطوفان، وأحس فلوريتينواريثا بأن لتلك الكارثة الجماعية علاقة ما بكارنته الشخصية. لكن الهواء كان ديباً وكانت نجوم الكاريبي ساكنة في مواقعها. وفجأة، كما في سكوت أزمة أخرى، تعرف فلوريتينواريثا على صوت الرجل الذي كان قد سمعه وليونا كاسيانو يغني مرات كثيرة، في مثل هذه الساعة وعند الناصية نفسها: من الجسر رجعت بللاً بالدموع. أغنية كان لها، بالنسبة له فقط، علاقة ما بالموت في تلك الليلة.

لم يشعر يوماً بالحاجة إلى ترانسيواريثا كما شعر يومئذ، كان بحاجة لكلبتها الحكيمه، ورأسها كملكة سخرية متوجة بأزهار ورقية. ولم يستطع الحيلولة دون ذلك: فكلما وجد نفسه في، ضم الكارثة، احس حاجته إلى الانزواء في كنف امرأة. وهكذا مر من أمام مدرسة

المعلمات بحثاً بمن هن في متناول يده، ورأى نوراً ينبعث من نافذة اميركا فيكونيا. وقد اضطر للقيام بمجهود كبير كي لا يقدم على حماقة جدّ هرم باخراجها في الساعة الثانية فجراً، وهي دافئة بالحلم بين اقمطتها، ورائحة المهد مازال تفوح منها.

في الطرف الأحمر من المدينة كانت ليونا كاسياني، وحيدة وحرة. ومستعدة دون ريب لان تقدم له الحناذ الذي يحتاجه سواء أكانت الساعة الثانية، أو الثالثة فجراً، أو أي ساعة اخرى. ولم تكن المرة الاولى التي يدق بابها في ارقه المقفر، لكنه أحس بانها ذكية إلى حد بعيد، وانها يجبان بعضهما كثيراً، بحيث لا يمكنه الذهاب للبكاء في حضنها دون ان يفضي لها بالسبب. وبعد تفكير طويل، سار مسرعاً في المدينة المقفرة، وخطر له بانه لن يجد بينهن خيراً من بروديثيا بيترا: أرملة الرب. كانت أصغر منه بعشر سنوات. وكانا قد تعارفا في القرن الماضي، وادا كانا لا يلتقيان منذ زمن فلائها أصرت ألا تسمح لأحد بان يراها وهي في الحال الذي صارت اليه: شبه عمياء، وعلى جافة الشيخوخة فعلاً. وما ان تذكرها فلورينتينو ارثا حتى عاد إلى شارع لاس فيتناساس، ودس في حقيبة المشتريات زجاجتي نبيذ وقطرميز مخلل، ومضى لزيارتها دون ان يدري ان كانت ما تزال في بيتها نفسه، أو اذا كانت وحدها، أو اذا كانت ما تزال على قيد الحياة.

لم تكن بروديثيا بيترا قد نسيت اشارة الخمش على الباب، التي كان يُعرف بها على نفسه حين كانا يظنان انها ما يزالان شابين رغم انها لم يكونا كذلك، وفتحت له دون اسئلة. كان الشارع مظلماً ولم يكن هومزياً ببذله السوداء وقبعته القاتمة ومظلة الخفافش المعلقة بذراعه، كما لم تكن لعينيها القدرة على رؤيته إلا في وضوح الضوء، لكنها عرفت عليه من انعكاس وميض عمود النور على اطار نظارته المعدني. كان يبدو كقاتل مازالت يذاه ملطختين بالدم. قال :

- الماوى ليتيم بائس.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع قوله. وفوجيء بكم هرمت مذراً لآخر مرة، وكان مدركاً بانها تراه كذلك. ولكنه عزى نفسه بالتفكير بانها بعد دقيقة، وحينما يستعيدان انفاسهما من اثر الهولة الأولى، سيلاحظ كل منهما اقل فأقل اثار السن في الآخر، وسيعودان ليريا بعضهما اكثر شهاباً، كما كان كل منهما بالنسبة للآخر عندما تعرفا. قالت له :

- تبدو وكأنك ذاهب إلى جنازة.

ولقد كان كذلك. كما انها وقفت هي أيضاً إلى النافذة منذ الساعة الحادية عشرة، مثلما فعل جميع أهل المدينة تقريباً لرؤية مرور اكثر المواكب حشداً وفخامة منذ موت الاسقف دي

لونا. لقد ايقظتها من النوم أصوات المدافع التي كانت تمز الأرض، واختلاط فرق الموسيقى العسكرية، وفوضى الاغاني الجنازية التي تملأ على ضجة نواقيس جميع الكنائس المدوية دون توقف منذ اليوم السابق. وقد رأت من شرفتها العسكريين وهم يمشون على صهوات جيادهم بزي المراسم، والهيئات الدينية، وتلامذة المدارس، وسيارات السلطات اللامرئية الطويلة السوداء، وعربة الدفن الفاخرة التي تجرها خيول رؤوسها مزينة بالريش وسروجها بالذهب، والتابوت الاصفر المغطى بالعلم فوق عربة مدفع تاريخية، واختبراً مجموعة عربات الفيكاتوريا القديمة المكشوفة والتي ما زالت على قيد الحياة لحمل اكاليل المآتم. وبعد حوالي نصف ساعة من مرورهم أمام شرفة برودينشيا بيترا، انهمر المطر طوفاناً، وتفرق الموكب في كل الانحاء.

قالت :

- يالها من طريقة سخيفة في الموت.

فقال :

- ليس في الموت ما هو مضحك - ثم أضاف بحزن - : وخصوصاً في مثل سنا.

كانا يجلسان على المصطبة، مقابل البحر الفسيح، يتأملان القمر المحاط بهالة تحتل نصف السماء، ويرنوان إلى الاضواء الملونة المنبعثة من السفن في الاق، وينعمان بالنسيم الدافئ والعطر بعد العاصفة. كانا يشربان النبيذ ويأكلان المخلل مع قطع من الخبز القروي الذي اقتطعته برودينشيا بيترا من رغيف في المطبخ. لقد امضيا معاً ليالي كثيرة مثل هذه الليلة بعد ان أصبحت أرملة وبلا أولاد وهي في الخامسة والثلاثين من العمر. لقد التقاها فلوريتينو اريشا في حقبة كانت مستعدة فيها لاستقبال أي رجل يرغب بعراقتها، حتى لو استأجرته بالساعة، وتمكنا من اقامة علاقة اكثر جدية وأطول أمداً مما بدا ممكناً.

ورغم انها لم تلمح للأمر أبداً، إلا انها كانت مستعدة لأن تباع روحها للشيطان في سبيل الزواج منه في زفاف ثان. كانت تعلم ان الخضوع لشحه ليس سهلاً، وكذلك الاذعان لحاجاته كشيخ مبكر، وأوامره المخبولة، وجشعه في طلب كل شيء دون اعطاء أي شيء. ولكنها لم تكن تمجد بالمقابل رجلاً يمكن العيش معه في هذه الدنيا خيراً منه، لانه لا وجود في الدنيا لرجل آخر فقير مثله الى الحب لهذا الحد. ولكن لم يكن هناك في الوقت ذاته من هو اكثر تعلقاً منه، اذ لم يكن يمكن للحب ان يصل إلى ابعده مما كان يصل اليه : الى حيث لا يؤثر في قراره بالاحتفاظ بحريته من اجل فيرمينا دانا. ومع ذلك، استمرت علاقتها لسنوات طويلة، حتى بعد ان رتب أمر زواج برودينشيا بيترا ثانية من وكيل تجاري كان يستقر ثلاثة شهور في المدينة ثم يقضي ثلاثة شهور أخرى مرتحلاً، وانجبت منه ابنة واحدة وابربعة ابناء،

كان أحدهم، حسب زعمهما، من فلورينتينواريثا.

تحدثنا دون احساس بالوقت، لانها كانا معتادين على مشاطرة بعضهما سهاد شبابها، وكان ما سيخسرانه في سهاد الشيوخوخة أقل بكثير. ورغم ان فلورينتينواريثا ما كان يتجاوز الكأس الثانية حين يشرب، إلا انه لم يستعد انفاسه يومها رغم تناوله الكأس الثالثة. كان يتعرق بغزارة، وقالت له أرملة الرب ان يخلع سترته، ان يخلع صدرته، بنطاله، ان يخلع كل ما يشاء، اللعنة، فهما في نهاية المطاف يعرفان بعضهما عاريين خيراً من معرفتهما بالملابس. وقال انه سيفعل ذلك ان هي فعلت، لكنها لم تقبل: لقد رأت نفسها منذ زمن في مرآة الخزانة، وأدركت فجأة بان الشجاعة لن تواتيها للظهور عارية امامه أو أمام سواه.

وفي حالة الهيجان التي لم يستطع فلورينتينواريثا تهدئتها بأربع كؤوس من النبيذ، تابع الحديث عن الماضي، عن ذكريات الماضي الطيبة موضوع حديثه الوحيد منذ زمن بعيد، لكنه كان يتشوق، للعشور على طريق سري في الماضي ليغرق نفسه فيه. كان هذا هو ما يحتاجه: ان يذهب روحه من فمه. وحين أحس بأول بريق في الأفق حاول الاقتراب من الموضوع مداورة، فسألها بطريقة بدت عرضية: «ماذا تفعلين اذا ما عرض أحدهم عليك الزواج، هكذا كما أنت، أرملة وفي هذه السن؟». ضحككت ضحكة مجمدة كمجوز، وسألت بدورها:

- أتعني بهذا أرملة اوريينو؟

كان فلورينتينواريثا ينسى دائماً، حين لا يحب النسيان، ان النساء يفكرن بالمعنى الخفي للاسئلة اكثر من تفكيرهن بالاسئلة ذاتها، وتفعل بروديثيا بيترا ذلك اكثر من سواها. قال لها وقد احس بأنه وقع ضحية ربح مباحثة نتيجة تسديده الطائش: «انني اعنيك انت بهذا». فعادت تضحك: «اذهب واسخر من العاهرة أمك، ليرحمها الله». ثم ألحت عليه ليصارحها بما يريد ان يقوله، لانها تعلم انه لا يمكن له ولا لأي رجل آخر ان يوقظها في الثالثة فجراً، بعد الانقطاع عنها كل هذه السنوات، ليشرب النبيذ ويأكل الخبز القروي مع المخلل فقط. قالت: «لا يحدث هذا إلا لمن يبحث عن يود البكاء معه». ارتعش فلورينتينواريثا ثانية، وقال لها:

- انك مخطئة هذه المرة. فاسباب مجيئي الليلة يناسبها الغناء.

فقالت:

- فلنغن اذن.

بدأ يدندن بصوت لا بأس به الاغنية الدارجة: رامونا، لا أستطيع العيش بدونك. وكان في ذلك نهاية تلك الليلة، اذ انه لم يعد يجزئ على لعب ألعاب محرمة مع امرأة قدمت له أدلة

كافية في معرفة الوجه الاخر للمقر. خرج الى مدينة مختلفة تعبق برائحة ازهار الداليا الاخيرة لشهر حزيران، وسار في شارع من شوارع شبابه حيث تمر الأراذل في العتمة وهن خراجات من صلاة الساعة الخامسة. وكان هو الذي انتقل الى الرصيف الآخر هذه المرة، وليس هن، كي لا يرين دموعه التي ما عاد يطبق حبسها، ليس منذ منتصف الليل، كما كان يظن، لان هذه الدموع كانت دموعا اخرى: انها التي غص بها منذ حوالي احدى وخمسين سنة وتسعة شهور واربعين يوماً.

كان قد فقد الاحساس بالزمن حين استيقظ دون أن يدري المكان الذي هو فيه، مقابل نافذة مضيئة. ونقله الى الواقع صوت اميركا فيكونيا التي كانت تلعب بالكرة مع الخاديات في الحديقة. انه في سرير امه التي ما زالت حجرة نومها على حالها، حيث اعتاد النوم كي لا يشعر بالوحدة في المناسبات القليلة التي اقلقته فيها العزلة. وكانت تنتصب مقابل السرير مرآة مطعم دون سانتشو الضخمة، والتي كانت رؤيتها عند استيقاظه كافية لجعله يرى فيرمينا دائماً مرسومة فيها. عرف ان اليوم هو السبت، لانه اليوم الذي يُحضر فيه السائق اميركا فيكونيا من المدرسة الداخلية، ويأتي بها الى بيته. وانتبه الى انه قد نام دون ان يدري. حالما انه غير قادر على النوم، في حلم يعذبه فيه وجه فيرمينا دائماً الغاضب. استحم وهو يفكر كيف ستكون الخطوة التالية، وارتندى أفضل ملابسه على مهل، وتعطر وصمغ شاربه الابيض ذا الطرفين المدبيين، ولدى خروجه من حجرة النوم، رأى من ممر الطابق الثاني النية الجملة ذات الزبي المدرسي وهي تمسك الكرة في الهواء بالسحر الذي بعث فيه القشعريرة لأحد كثره، لكنها لم تبعث فيه هذا الصباح أي قلق. أشار لها بأن تأتي معه، وقبل ان يصعدا الى السيارة قال لها دون داع للقول: «لن نفعل أشياء هائلة اليوم». ورافقها الى المقهى الاميركي للمثلجات، الذي كان يفض في مثل هذه الساعة بآباء يتناولون البوظة مع اطفالهم تحت المراوح ذات الرياش الكبيرة المعلقة بالسقف. طلبت اميركا فيكونيا بوظة من عدة طبقات متنوعة الالوان في كأس كبير، وهو النوع الذي تفضله، والذي يلقى رواجاً شديداً لان بخاراً سحرياً كان ينبعث منه. تناول فلورنتينواريثا قهوة قوية، وهو يتأمل الطفلة دون ان يتكلم، فيما هي تتناول البوظة بملعقة طويلة جداً، تصل الى قاع الكأس. ثم قال لها فجأة، دون ان يتوقف عن مراقبتها:

- سأ تزوج.

نظرت الى عينيه نظرة مرتابة، وهي ترفع الملعقة في الفضاء، لكنها استعادت انفاسها فوراً، وابسمت قائلة:

- انها خدعة. فالشيخ لا يتزوجون.

أوصلها مساء هذا اليوم الى المدرسة الداخلية عند موعد صلاة الانجيلوس، تحت وابل من المطر العنيد، بعد ان رأيا معاً دمي الحديقة، وتناولوا الغداء في اكشاك السمك المظلي عند ملطم الامواج، وبعد ان رأيا أفضاص الحيوانات المقترسة التابعة لسيرك وصل يومئذ الى المدينة، واشترى من الأزقة كل انواع الحلوى لتحملها معها الى المدرسة الداخلية، وبعد ان جابا المدينة عدة مرات بالسيارة المكشوفة لتبدأ الاعتياد عليه باعتباره ولي امرها، وليس عشيقاً لها. وفي يوم الأحد التالي بعث اليها السيارة لتقوم اذا كانت ترغب بنزعة مع صديقاتها، لكنه لم يشأ رؤيتها، لانه وعى منذ الاسبوع الفائت وعياً كاملاً فارق السن بينها. وفي هذه الليلة بالذات قرران يكتب الى فيرمينا داثا رسالة اعتذار، حتى ولو كان ذلك لمجرد عدم الاستسلام، لكنه أجل الأمر لليوم التالي. وفي يوم الاثنين، بعد ثلاثة اسابيع كاملة من الآلام، دخل الى بيته مهلباً بالمطر، ووجد رسالتها.

كانت الساعة الثامنة ليلاً. وكانت فتاتنا الخدمة قد نامتا، تاركتين الضوء الوحيد الذي يبقى مضاء في الممر ليتمكن فلورنتينو اريثا من الوصول الى حجرة نومه. كان يعلم ان عشاءه البسيط موجود على طاولة حجرة الطعام، لكن الجوع الذي كان يشعر به بعد كل هذه الايام من الأكل العشوائي تلاشى بانفعال الرسالة. ووجد صعوبة في اضاءة نور حجرة النوم الرئيسي لارتعاش يديه. وضع الرسالة المبللة على السرير، واضاء مصباح الكوميدينو، ثم خلع سترته المبللة بهدوء مصطنع، هومن اساليبه في طمأنينة نفسه، وعلقها على مسند الكرسي، ثم نزع الصدرية ووضعها بعد طيها جيداً فوق السترة، وحل شريط العنق الحريري الازرق والياقة القاسية التي ما عادت تستعمل في العالم، وفك ازرار القميص حتى الحصر ثم حل الحزام ليتنفس براحة، ونزع القبعة اخيراً ووضعها الى جوار النافذة لتجف، ارتعش فجأة لانه لم يدرك ان هي الرسالة، ووصل به الانفعال حداً جعله يفاجأ حين وجدها، فهو لا يذكر بأنه وضعها على السرير. وقبل ان يفتحها جفف المغلف بمنديل، محاذراً ألا يسمح الحبر المكتوب به اسمه، وفيما هو يفعل ذلك انتبه الى ان ذلك السر لم يعد مشتركاً بين اثنين فقط، وانما بين ثلاثة على الأقل، فلا بد ان حامل الرسالة، كائناً من كان، قد انتبه الى ان ارملة اوربينو تكتب لشخص من خارج عالمها ولما تمخض على وفاة زوجها سوى ثلاثة اسابيع، وانها تفعل ذلك بتسرع لم يتح لها ارسال الرسالة بالبريد، وبتكتم شديد جعلها تطلب عدم تسليمها باليد، وانما دسها من تحت الباب كما لو كانت رسالة من مجهول. لم يكن بحاجة الى تمزيق المغلف، لان الماء حلل صمغه، لكن الرسالة كانت جافة: ثلاث وراقات، دون ترويسة، موقعة بالحروف الاولى من اسمها كمتزوجة.

قرأها أول مرة بسرعة وهو جالس على السرير، مستسلماً للهجتها أكثر من ثمنه بمضمونها، وقبل ان ينتقل الى الصفحة الثانية كان متأكداً من عدالة الشكائم التي انتظر تلقيها. وضعها مفتوحة تحت ضوء مصباح الكوميدينو، ونزع حذاءه والجوربين المبللين، ثم أطفأ نور الحجرة الرئيسي بمفتاح الكهرباء المجاور للباب، ووضع على وجهه غطاء الشوارب المصنوع من الشمواة واستلقى دون ان يخلع بنطاله والقميص، مسنداً رأسه الى وسادتين كبيرتين كان يستخدمهما كمسند حين يقرأ. وهكذا أعاد قراءة الرسالة حرفاً حرفاً، مدققاً في كل حرف كي لا تبقى أية نية من نواياها الخفية دون حل. ثم قرأها أربع مرات أخرى، الى ان تشعب بها وأصبحت الكلمات المكتوبة تنقد معناها. بعد ذلك خبأ الرسالة دون المغلف في درج الكوميدينو، واستلقى شابكا يديه على عنقه، وثبت نظره لأربع ساعات في المرأة حيث كانت هي، دون ان يرمش، ودون ان يتنفس تقريباً، وكان أكثر موتاً من ميت. وعند منتصف الليل تماماً خرج الى المطبخ، فأعد ترمس قهوة كثيفة كالبترول الحام، وحمله الى حجرة نومه، وألقى بساننه الاصطناعية في كأس الماء المزوج بمطهر البورون الذي كان يده بانتظاره دوماً فوق الكوميدينو، وعاد ليستلقي بوضعية مثال الممرم السابقة مع حركة محدودة بين وقت وآخر لارتشاف بعض القهوة، وبقي على هذا الحال الى ان دخلت الخادمة في الساعة السادسة وهي تحمل ترمساً آخر مليئاً بالقهوة.

في هذه الساعة كان فلورينتينو اريثا قد عرف تماماً كل خطوة من خطواته التالية. الحقيقة ان الشكائم لم تسبب له الألم كما لم تقلقه الاتهامات الجائرة، التي كان يمكن لها ان تكون أقسى نظراً لمعرفته طبع فيرمينا دانا وخطورة السبب. الشيء الوحيد الذي كان يهيم هو الرسالة ذاتها لانها تتيح له الفرصة وتعترف له بحق الرد عليها. بل وتتطلب ذلك منه. وهكذا وصلت الحياة الى الحد الذي أراد ايصالها اليه. وكل ما سوى ذلك يعتمد عليه الآن. كان مقتنعاً قناعة راسخة ان جميعه الخاص المستمر منذ نصف قرن سيقدم له مزيداً من التجارب القاتلة الكثيرة التي أصبح مستعداً لمواجهة بحماسة أشد ومعاناة أصعب وحب أقوى من كل ما فات، لانها ستكون التجارب الاخيرة.

بعد خمسة أيام من تلقيه رسالة فيرمينا دانا، ولدى وصوله الى مكاتب شركته، أحس بأنه يطغى الفراغ الوعر وغير المؤلف لآلات الكتابة، اذا أن ضجيجها المطري لم يكن ملحوظاً كصمتها. كانت وقفة قصيرة. وحين عاد الضجيج من جديد أطل فلورينتينو اريثا الى مكتب ليونا كاسيان وتاملها وهي جالسة وراء التها الكاتبة، التي تستجيب لرؤوس أصابعها وكأنها أداة بشرية. فأحسست هي بأنها مراقبة، ونظرت نحو الباب بإبتمامتها الشمسية المذهلة، لكنها لم تتوقف عن الكتابة حتى نهاية الفقرة.

سألها فلورينتينواريثا :

- اخبريني يا لبوة روعي . بماذا ستشعرين اذا تلقيت رسالة حب مكتوبة على هذه الاداة ؟  
وبدت عليها ، هي التي لم تفاجأ بشيء ، علائم مفاجأة حقيقية ، وهتفت :  
- يا للرجل ! لم يحدث لي شيء من هذا القبيل .

لم تجد جواباً آخر على الاقل . ولم يكن فلورينتينواريثا قد فكر بالأمر حتى ذلك الحين ، لكنه قرر المضي بالمغامرة الى نهايتها . نقل الى بيته احدى آلات المكتب وسط سخرية مرؤوسيه المتوددة : « لا يمكن لبيغاء عجوز ان تتعلم الكلام » . وعرضت عليه ليونا كاسياني ، المتحمسة لكل جديد ، ان تعطيه دروساً بالكتابة على الآلة في البيت . لكنه كان ضد التعليم المنهجي مذ أراد لوتاريو توغوت تعليمه عزف البيت عزف الكمان على النوتة ، متوعداً بأنه سيحتاج لسنة على الأقل كي يبدأ ، وخمس سنوات ليُقبل في فرقة اوركسترا محترفة ، وحياته كلها ، بمعدل ست ساعات يومياً لعزف بشكل جيد . ولكنه استطاع رغم ذلك اقناع امه بأن تشتري له كمان عميان ، ومن خلال القواعد الاساسية الخمس التي علمه اياها لوتاريو توغوت ، تجرأ على العزف ضمن كورال الكتدرائية قبل مضي أقل من سنة وعلى عزف السيرانادات لغير مينا دانا من مقبرة الفقراء حسب اتجاه الريح . فاذا كان قد فعل ذلك وهو في العشرين بآلة صعبة الكمان ، فلماذا لا يستطيعه أيضاً وهو في السادسة والستين بآلة تحتاج إلا لاصبع واحد كآلة الكتابة .

وهذا ما فعله . احتاج لثلاثة أيام كي يتعرف على مواقع الحروف على لوحة الملاصق ، وستة أيام ليتعلم التفكير في الوقت الذي يكتب فيه ، ثم ثلاثة أيام اخرى لينهي الرسالة الأولى دون أخطاء ، بعد أن مزق نصف ماعون من الورق . بدأ الرسالة بمقطع وقور : سيد تهي . ووقعها بالحروف الأولى من اسمه ، كما اعتاد ان يفعل في رسائل الحب المعطرة في شبابه . وبعثها بالبريد ، في مغلف خاص برسائل التعزية كما هو محتم في رسالة مرسلة الى أرملة حديثة الترميل ، وبدون كتابة اسم المرسل على الوجه الآخر للمغلف .

كانت رسالة في ست ورقمات لا علاقة لها بأي رسالة من رسائله السابقة . لم تكن لها النبرة ، ولا الاسلوب ولا النفس الخطابي الذي كان يتمتع به في سنوات الحب الأولى ، بل كانت معالجة عقلانية ومتقنة التأمل ، لوخالطتها رائحة زهرة ياسمين لبدت غير لائقة . لقد كانت ، الى حد ما ، اقتراباً من الرسائل التجارية التي لم يستطع كتابتها أبداً .

ان رسالة شخصية مكتوبة بوسائل آلية ستعتبر أمراً مهيئاً بعد سنوات ، أما في ذلك الحين ، فكانت الآلة الكاتبة ما تزال مجرد حيوان مكتبي ، بلا فلسفة خاصة بها ، ولم يكن تدجينها للاستخدامات الخاصة وارداً في مناهج التمدن . وكانت تبدو كصرعة جريئة ، ولا بد ان



فبرمينا دائما قد فهمت الأمر كذلك، لأنها حين كتبت رسالتها الثانية الى فلورنتينواريتا، بعد ان تلقت منه ما يزيد عن الاربعين رسالة، بدأت بالاعتذار لمثرات خطها، لكونها لا تملك وسائل كتابة أحدث من قلم الحبر ذي الريشة الغولاذية.

لم يشرف فلورنتينواريتا مجرد اشارة الى الرسالة الرهبة التي بعثتها اليه، بل جرب منذ البداية منهجاً مختلفاً في الغواية، دون أية إشارة الى غراميات الماضي، أو الماضي بعد ذاته: شطب كل ما سبق وفتح صفحة جديدة. كانت الرسالة أشبه بتأمل مسهب في الحياة، يستند الى أفكار وتجارب في العلاقات بين الرجل والمرأة، التي فكر بكتابتها يوماً كملحق متمم لسكرتير العاشقين. ولم يفعل حينئذ سوى صياغة تلك التأملات بأسلوب بطريكي، للذكريات شيخ، كي لا تظهر بوضوح حقيقة كونها رسالة حب. لقد كتب قبل ذلك عدة مسودات على الطريقة القديمة، قد تتأخر في قراءتها ببرودة أعصاب أكثر مما تتأخر في القاءها الى النار. كان يعلم ان اي زلة في الاشارة الى الماضي، أو اي طيش في الحنين قد يثير في قلبها ترسبات قديمة، ومع انه كان يشعر بانها ستعيد اليه مئة رسالة قبل ان تتجرأ على فتح الرسالة الأولى، إلا انه تمنى ألا يحدث ذلك ولولمة واحدة. وهكذا وضع مخططه بكل تفاصيله كما في معركة حاسمة: كل شيء يجب ان يكون مختلفاً ليعث فضولات جديدة، ووساوس جديدة وآمالاً جديدة، في امرأة عاشت حياة كاملة على اتساعها. لا بد له من جعل الأمر حلماً لا معقولاً، قادراً على منحها الشجاعة الكافية لتلقي الى القمامة باعراو طبقة لم تكن هي طبقتها الاصلية، ولكنها انتهت الى الاندماج فيها وجعلها طبقتها اكثر من أي طبقة أخرى. كان عليه ان يعلمها التفكير بالحلب على انه حالة غير وسيطة لأي شيء، بل هو منشأ ومستقر بعد ذاته.

لقد كان من القناعة بحيث انه لم يعد ينتظراً فوراً، بل اكتفى بالآعاد اليه الرسالة. ولم تعد، كما لم تعد الرسالة التالية. وكلما مرت الأيام كانت اشواقه تتأجج، وكلما ازدادت الايام التي تمر كانت آماله بالبرد تزداد. كان تواتر سائله مشروطاً بمهارة أصابعه: بدأ برسالة واحدة في الاسبوع اول الأمر، ثم رسالتين، الى ان تمكن اخيراً من كتابة رسالة في كل يوم. ولقد اثلج صدره التطور الذي حققه البريد بالمقارنة مع زمانه، حين كان يعمل رافع أعلام، لانه لم يكن مستعداً للمغامرة بالظهور في مكتب البريد كل يوم كي يبعث رسالته الى الشخص ذاته، ولا لارسالها مع أحد قد يحصيها عليه. أما الآن، فمن السهل ارسال موظف ليشترى الطوابع البريدية لشهر بكامله، ثم لقاء الرسالة في واحد من صناديق جمع الرسائل الثلاثة الموزعة في المدينة القديمة. وسرعان ما ادخل تلك المهمة في روتينه اليومي. كان ينتهز ساعات ارقه ليكتب، واثناء ذهابه الى المكتب في اليوم التالي، يطلب من السائق التوقف للحظة أمام

صندوق بريد معلق عند ناصية أحد الشوارع ، فينزل بنفسه ويلقي الرسالة فيه . لم يسمح للسائق أبداً القيام بهذا العمل بدلا منه ، رغم انه طلب ذلك في صباح يوم مطر . وصار يحتاج أحيانا فيرسل مجموعة رسائل في الوقت ذاته بدلا من رسالة واحدة ، كي يبدو الأمر أكثر طبيعية . ولم يكن السائق يعلم بكل تأكيد ، ان الرسائل الأخرى ليست إلا أوراق بيضاء يبعثها فلورنتينواريشا بنفسه لنفسه ، لانه لم يكن يرتبط بمراسلة خاصة مع أحد ، باستثناء تقريره الذي يبعثه كوصي في اواخر كل شهر الى والدي اميركا فيكونيا ويضمنه انطباعاته الشخصية حول سلوك الصغيرة ، ومعنوياتها وصحتها ، وتقدمها المطرد في الدراسة .

أخذ يرقم الرسائل منذ الشهر الأول ، وصار يبدأها بملخص للرسائل السابقة كما هو الحال في روايات الصحف المسلسلة ، خشية ألا تنبئه فيرمينا دائما إلى ان الرسائل مترابطة ببعضها إلى حد ما . وحين أصبحت الرسائل يومية ، استبدل مغلفات الحداد التي كان يستخدمها بمغلفات بيضاء وطويلة ، مما منحها مظهر الرسائل التجارية الغامض والمتواطيء . حين بدأ يبعث رسائله كان مستعداً لاضعاص صبره لتجربة أكبر ، الى ان يجد على الأقل دليلاً قاطعاً بأنه يضيع وقته بهذا الأسلوب الوحيد الذي استطاع تصوره . وانتظر فعلا دون الاحساس بالقلق الذي كان يسببه له الانتظار في شبابه . . . انتظر بعناد شيخ اسمتي ليس لديه ما يفكر فيه ولا ما يفعله في شركة ملاحه نهريه كانت تبهر وحدها في ذلك الحين مدفوعة برياح مواتية ، اضافة الى بقينه بأنه سيكون حياً في الغد ، أجلا أو أبداً ، حين تقتنع فيرمينا دائما أخيراً بأنه لا علاج لجزعها كأرملة متروكة إلا بانزوال جسور حصنها له .

وتابع اثناء ذلك حياته المعتادة . متهيئاً لتلقي رد ايجابي . بدأ بأعمال ترميم جديدة في البيت ليكون جديراً بمن يمكن اعتبارها صاحبه وسيدته منذ تم شراؤه . وتردد عدة مرات على بروينثيا بيترا ، كما وعدها ، ليثبت لها بأنه يحبها رغم اثار السن ، في وضع النهار ، وليس في ليالي خذلانه فقط . وتابع المرور مقابل بيت اندريه بارون الى ان وجد نور الحمام مطلقاً ، وحاول تخدير نفسه في حماقة من حماقات السرير كي لا يفقد قدرته على الحب ، حسب خرافة أخرى من خرافاته التي لم يجد ما ينقضها حتى ذلك الحين ، والقائلة بأن الجسد يستمر ما دام صاحبه مواظباً .

كانت علاقته باميركا فيكونيا هي العائق الوحيد . لقد ثابر على ارسال السائق لاحضارها من المدرسة الداخلية في الساعة العاشرة من صباح أيام الاحاد ، لكنه لم يكن يدري ما الذي يفعله بها خلال عطلة نهاية الاسبوع . ولقد أحست بالتغير حين لم يبد اهتماماً بها في المرة الأولى . كان يعهد بها للخدمات كي يرافقتها الى السينما المسائية ، ومشاهدة الدمى المتحركة في حديقة الأطفال ، وإلى البانصبيات الخيرية ، او يدعوها الى برامج أحاد احتفالية مع

زميلات اخريات لها من المدرسة كي لا يضطر لمرافقتها الى اللجنة السرية وراء المكاتب، حيث كانت تود الذهاب دوماً مذ أخذها هناك أول مرة. ولم ينتبه وهو في غيبوبة حلمه الجديد، الى ان النساء قد يصحن راشدات في ثلاثة أيام، بينما انقضت ثلاث سنوات منذ استقبلها في بويرتوبادري حين جاءت في السفينة الشراعية المرودة بمحرك. ورغم كل محاولاته لاضفاء الحلاوة على الوضع الجديد، إلا ان التبدل الذي طرأ كان قاسياً بالنسبة لها، لكنها لم تستطع تصور سبب هذا التبدل. يوم قال لها في مقهى المثلجات انه سيتزوج، كاشفاً لها بذلك عن الحقيقة، عانت صدمة ذعر عابرة، لكن الأمر بدا لها بعد ذلك احتيالا لا معقولا ما ليئت ان نسيته تماماً. لكنها سرعان ما أيقنت انه يتصرف كما لو كان ذلك صحيحا، بمراوغة لا تفسير لها، وكما لو لم يكن اكبر منها بستين سنة، وانما أصغر منها بستين سنة.

وفي مساء أحد أيام السبت، وجدها فلورنتينوارثا وهي تحاول الكتابة على الآلة الكاتبة في غرفة نومه، وكانت تفعل ذلك بشكل لا بأس به، إذ انها تتلقى في المدرسة دروساً في الضرب على الآلة الكاتبة. كانت قد كتبت ما يزيد على نصف صفحة، وكان من السهل افراز عبارة من بعض الفقرات تكشف عن حالتها المعنوية. انحنى فلورنتينوارثا فوق كتفها ليقرأ ما كتبه، فاخترجت بحرارته الرجولية، ونفسه المتقطع، وعطر ملايسه، الذي هو عطر وسادته ذاته. لم تعد تلك الطفلة حديثة الوصول التي كان يعربها من ثيابها قطعة قطعة بخدع أطفال: هذا الحذاء أولاً للذب، ثم هذه البلوزة للكلب، ثم هذا السروال الداخلي المزين بالازهار للأنرب. . . والآن قبله حلوة سيطبعها البابا على هذه الحمامة الصغيرة. لا : انها الآن امرأة مكتملة الانوثة تحب ان تمسك زمام المبادرة. واصلت الكتابة باصبع واحدة من يدها اليمنى، وبحثت باليد اليسرى عن ساقه باللمس. . . استكشفت، ووجدته، وأحست به ينبعث، ينمو، يتهد بشوق، فتعثر تنفسه كشيخ وصار ثقيلًا. كانت تعرفه: فمنذ هذه اللحظة سيفقد السيطرة على نفسه. . . ستفكك مفاصله. . . سيصبح تحت رحمتها، ولن يجد سبيلا للرجوع قبل ان يصل الى النهاية. قادته من يده الى السرير، كما تقود ضريراً بالأسا في الشارع، وعمرته من ثيابه قطعة قطعة برقة خبيثة، رشت ملحا لذوقه، وهياراً ذا رائحة، وفص ثوم، وبصلة مفرومة، وعصير ليمونة، وورقة غار، الى ان تبلته تماماً في الصينية وجهزت الفرن بدرجة الحرارة المناسبة. لم يكن في البيت أحد. فالخادما خرجن، وعمال البناء والنجارين الذين كانوا يرمون البيت لا يشتغلون أيام السبت: كان العالم بأسره لها. لكنه خرج من غيبوته وهو على شفير الهاوية، فلزاح يدها ونهض قائلاً بصوت مرتعش:

- حذار، لا توجد هنا موانع للحمل.

بقيت مستلقية في الفراش لوقت طويل، وهي غارقة في التأمل، وحين رجعت الى المدرسة الداخلية، قبل ساعة من الموعد، كانت قد تجاوزت الرغبة بالبكاء، وركزت حاسة شمها وشحذت اظافرها لتجد اثار الأرنبة البرية المختلفة التي قبلت لها حياتها رأساً على عقب. اما فلورنتينواريشا، فقد أقدم بالمقابل على ارتكاب خطأ آخر من أخطاء الرجال. ظن بانها قد اقتنعت بعدم جدوى نواياها وقررت نسيانها.

كان غارقاً في شؤونه. وحين لم يتلق أية إشارة، بعد مرور ستة شهور، وجد نفسه يتقلب في السرير حتى الفجر، تائهاً في صحراء أرق مختلف. كان يفكر بان فيرمينا دائماً قد فتحت الرسالة الأولى لمظهرها البريء، وتمكنت من رؤية المطلع المعروف لها من رسائل اخرى غابرة، وألقت بها في محرقة القمامة دون ان تتكلف مشقة تمزيقها. وكان يكفيها ان ترى مغلف الرسائل التالية لتحكم عليها بالمصير نفسه دون ان تفتحها، وهكذا حتى نهاية الازمان، فيما هويصل الى نهاية تأملاته المكتوبة. لم يكن يصدق بان هناك امرأة قادرة على مقاومة فضول نصف سنة من الرسائل دون ان تعرف حتى لون الحبر الذي كتبت به. ولكن اذا كان من وجود لامرأة من هذا النوع، فلا يمكن إلا أن تكون هي وحدها.

بدأ فلورنتينواريشا يشعر بان زمن الشيخوخة ليس تياراً أفقياً، وانما خزاناً مثقوب القعر تنسرب منه الذاكرة. كانت قريحته تُستفد. وبعد عدة أيام من التجوال في حي لامانغا، ادرك ان ذلك الاسلوب الشبابي لن يتمكن من تحطيم الابواب المحكومة بالحداد. وفي صباح أحد الأيام، وبينما هويبحث عن رقم في دليل الهاتف، وجد مصادفة رقمها. اتصل بها. ورن الجرس مرات كثيرة، واخيراً تعرف على الصوت، جدياً وأبع: « من؟ ». أعاد وضع الساعة دون ان يتكلم، لكن البعد اللانهائي لذلك الصوت الغائم اعاد التماسك لمعنوياته. في أحد هذه الايام، احتفلت ليوننا كاسياني بعيد ميلادها، ودعت مجموعة محدودة من الاصدقاء الى بيتها. كان هوساهياً فلوث ملابسه بصلصة الدجاج. غمست طرف الفوطة في كأس الماء ومسحت طية سترته، ثم وضعت له الفوطة كمريلة لتحول دون وقوع حادث اكبر: فبدا كرضيع هرم. ولاحظت انه نزع نظارته عدة مرات خلال تناول الطعام ليمسحها بالمنديل، لان عينيه كانتا تدمعان. وعند تناول القهوة، غفا وهو يحمل الفنجان بيده، فحاولت انتزاع الفنجان دون ايقاظه، لكنه افاق خجلاً: « كنت اريح بصري فقط ». وقد نامت ليوننا كاسياني تلك الليلة مذهولة وهي تفكر كيف ان الشيخوخة أخذت تبدو عليه بوضوح.

في الذكرى الأولى لموت خوفينال اوربينو، بعثت اسرته ببطاقات دعوة لصلاة على ذكراه في الكتدرائية. كان فلورنتينواريشا قد بعث في ذلك الحين الرسالة رقم مئة واثنتين وثلاثين دون

ان يتلقى اي رد، وهذا ما دفعه الى اتخاذ القرار الطائش بحضور الصلاة رغم انه لم يكن مدعواً. لقد كان حدثاً اجتماعياً باذخاً أكثر من كونه ذكرى مؤثرة. كانت مقاعد الصفوف الأولى محجوزة لورثة الألقاب الكبيرة، وكانت على قفاكل مقعد لوحة نحاسية تحمل اسم صاحبه. حضر فلورنتينو أريثا مع أول الضيوف ليجلس في مكان لا يمكن لفيرمينا داثا ان تمر دون ان تراه. وفكر بان أفضل المقاعد، بعد الاماكن المحجوزة، هي مقاعد القسم الأوسط، لكن عدد الحضور كان كبيراً لدرجة انه لم يجد مكاناً هناك ايضاً، فاضطر للجلوس في الصف المخصص للاخوة الفقراء. ومن هناك رأى فيرمينا داثا تدخل ممسكة بذراع ابنها. كانت ترتدي ثوباً غملياً أسود يصل الى معصمها، ولا وجود فيه لآية حلية سوى مجموعة من الازرار المتسالية من العنق وحتى القدمين، فكان يبدو أشبه برداء قسيس، وكانت تضع ياقة ذات تحريسات قشتالية بدلا من القبة ذات الحمار التي تستخدمها الارامل، وكثير من السيدات اللواتي يأملن بان يصبحن ارامل. كان لوجهها السافر بريق كبريتي المرمز المعرق، وكانت عينها الرمحيتان تعيشان حياة خاصة تحت الثريات الضخمة في عمر الكتدرائية الأوسط، وكانت تمشي باستقامة، وكبرياء، وسيطرة تامة على نفسها، حتى انها لم تكن لتبدو اكبر سناً من ابنها. أستند فلورنتينو أريثا، الواقف، بأطراف أصابعه على المقعد الذي امامه الى انه مررت الاغماة التي احس بها مرور الكرام، فقد شعر بان المسافة الفاصلة بينها ليست ست خطوات كما هي في الواقع، وانما هما في يومين مختلفين.

احتملت فيرمينا داثا طقوس الحفل في المقعد العائلي مقابل المذبح الكبير، ممضية معظم الوقت وهي واقفة، مثلما كانت تفعل عند حضورها حفلات الاوبرا. لكنها حطمت طقوس المراسم الدينية في النهاية، ولم تق في مكانها لتتلقى تجديد العزاء، كما هي التقاليد السائدة، وانما شقت طريقها لشكر كل واحد من المدعوين: انها لفئة تجديدية تنفق تماماً مع اسلوبها في الحياة. صافحت الموجودين هنا وهناك الى ان وصلت الى مقاعد الاقارب الفقراء، ثم التفتت اخيراً فيما حولها لتتأكد من انها لم تنس أحداً تعرفه. أحس فلورنتينو أريثا حينئذ ان ريحاً غير مألوفة قد أخرجته من جوه: لقد رآته. وفعلاً، ابتعدت فيرمينا داثا عن مرافقها بطلاقتها التي تتصرف بها في المجتمع، ومدت له يدها، وقالت بابتسامة شديدة الرقة:

.. شكراً لحضورك.

لم تكن قد تلقت الرسائل وحسب، بل انها قرأتها كذلك باهتمام بالغ، ووجدت فيها اسباباً جدية للتأمل والاستمرار في الحياة. كانت تجلس الى المائدة لتناول العطور مع ابنتها حين تلقت الرسالة الأولى. فتحتها بفضول لكونها مكتوبة على الآلة الكاتبة، وأتقنت وجنتها بتوردد سريع حين تعرفت على الحروف الأولى من اسم صاحب التوقيع. لكنها سيطرت على

نفسها في الحال وخبأت الرسالة في جيب مريلتها. قالت: « انها رسالة تعرية من الحكومة ». فوجئت الابنة: « ولكنها وصلت كلها ». فلم تتأثر هي: « وهذه واحدة اخرى ». كانت تنوي احراق الرسالة فيما بعد، بعيداً عن أسئلة ابنتها، لكنها لم تستطيع مقاومة اغراء القاء نظرة عليها قبل ذلك. كانت تتوقع رداً جديراً برسالتها المليئة بالاهاانات، والتي سببت لها ضيقاً منذ لحظة ارسالها، ولكنها حين رأت مطلع الرسالة التوقيري ونوايا الفقرة الاولى، ادركت ان شيئاً قد تبدل في الدنيا. سيطر عليها الذهول لدرجة انها حبست نفسها في حجرة النوم لتقرأها بهدوء قبل احراقها، وقرأتها ثلاث مرات دون ان تلتقط انفاسها.

كانت الرسالة تتضمن تأملات حول الحياة، والحب، والشيخوخة، والموت: أفكار طالما مرت مرفرفة كمصاصير ليلية فوق رأسها، لكنها كانت تقذفها بنشارة ريش كلما حاولت امساكها. وها هي الآن واضحة، بسيطة، تماماً كما كانت تحب ان تقولها. وتألمت مجدداً لان زوجها ليس حياً لتناقشها معه، كما اعتادا ان يناقشا بعض الامور اليومية قبل النوم. وهكذا تكشف لها فلورنتينو اريشا مجهولاً، ذا بصرية لا تتفق مع رسائل الحب المحمومة في شبابه ولا مع سلوكه الغامض طوال حياته. كانت أقرب الى كلمات الرجل الذي بدا للعبة اسكولاستيكا بأنه ملهم بالروح القدس، فعاد هذا الخاطر ليفزعها كما أفزعها في المرة الاولى. وكان اكثر ما ساعد في تهدئتها على أي حال هويقيتها بأن رسالة الشيخ الحكيم تلك ليست محاولة لتكرار سفاهة ليلة المأتم، وانما طريقة جد نبيلة لمحو الماضي.

وجاءت الرسائل التالية لتبعث فيها الطمأنينة. لكنها أحرقتها على أي حال بعد ان قرأتها باهتمام متزايد، رغم انها كلما أحقرت الرسائل كانت تشعر برواسب احساس بالذنب ما تلبث ان تزيجها. وحين بدأت تتلقى الرسائل مرقمة، وجدت ذريعة أخلاقية لرغبتها في وقف اتلافها. لقد كانت نيتها الأولية، على أي حال، عدم الاحتفال بالرسائل لذاتها، وانما لانتظار ان تسنح فرصة لاعادتها الى فلورنتينو اريشا كي لا يفقد شيئاً يبدو لها انه ذا قيمة انسانية. ولكن الوقت كان يمضي والرسائل تتوالى، واحدة كل ثلاثة او اربعة أيام خلال سنة كاملة، ولم تعرف كيف تعيدها دون ان يبدو ذلك على انه صد من جانبها ما عادت ترغب في القيام به، ودون ان تجدها نفسها مضطرة لشرح الامر في رسالة يمنعه كبرياؤها من كتابتها. كانت تلك السنة كافية لان تعتمد على حياتها كأرملة. ولم تعد ذكرى الزوج النقية تشكل عائقاً أمام أعمالها اليومية، وتحول حضوره في افكارها الحميمة، وفي أبسط نواياها إلى حضور حارس، يراقبها دون ان يزعجها. وكانت تجده أحياناً، ليس كزوج، وانما بلحمه وعظمه، حيث تحتاج اليه حقاً. كان اليقين يلهمها بانه هنا، ما يزال حياً، انها دون نزواته كرجل، دون طلباته البطيريركية، دون الحاجة المضنية لأن تحبه بنفس طقوس القبلات غير المناسبة

والكلمات الرقيقة التي يحبها بها . كانت تفهمه حينئذ أفضل مما فهمته وهو حي ، فهمت قلن حبه ، واستعجاله للعثور فيها على الأمن الذي كان يبدو أنه ركيزة حياته العامة ، والذي لم يحصل عليه في الواقع أبداً ففي أحد الأيام ، صرخت به وهي في قمة أسها : « ألا تشعر كم أنا تعيسة » . فنزع نظارته بحركة من صميم حركاته ، دون أن يتأثر ، وأغرقها بهاء عينيه الصبائيتين الصافي ، وألقى على كاهلها ثقل حكمته الذي لا يطاق بعبارة واحدة : « تذكرني دائماً أن أهم شيء في زواج جيد ليس هو السعادة وإنما الاستقرار » . ومنذ أيام عزلتها الأولى كأرملة أدركت أن تلك العبارة لا تخفي التهديد المسكين الذي نسبه إليها يوم قالها ، وإنما هي الحجر القمري الذي خصص لها معاً ساعات طويلة من السعادة .

كانت فيرمينا دائماً ، في رحلاتها الكثيرة عبر العالم ، تشتري كل جديد يلفت نظرهما . كانت ترغب الأشياء لانطباعها الأولي وكان زوجها يشاركها منطلقها . ولقد كانت تلك الأشياء جميلة ونافعة ما دامت في بلدتها المنشأ ، في واجهات روما ، وباريس ، ولندن ، أوفي نيويورك ذلك الزمان المتهرة بالشارلستون ، حيث بدأت ناطحات السحاب بالنمو ، لكنها لا تحتمل تجربة فالسنت شتروس مع شحم الخنزير القاسي ومعارك الزهور في درجة حرارة تصل إلى الأربعين في الظل . وهكذا كانت ترجع من رحلاتها ومعها نصف دسمة من الصناديق المعدنية البراقة ، المزودة بأقفال وزوايا نحاسية ، تشبه نموشاً خيالية . فتجد نفسها صاحبة وسيدة آخر عجائب الدنيا التي لم تكن مع ذلك تساوي ثمنها ذهباً إلا في اللحظة السريعة التي يراها فيها أخذ من عالمها المحلي لمرة واحدة . إذ أنها مشتراه لهذا الغرض : كي يراها الآخرون مرة واحدة . لقد وعت لا جدوى صورتها العامة قبل أن تبدأ بالشيخوخة بزمان طويل ، وكثيراً ما سمعت تقول في البيت : « لا بد من التخلي عن كل هذه التشاوهات التي لا تترك مكاناً للمعيشة » . وكان الدكتور أوربينوسخر من نواياها العقيمة ، لأنه يعرف أن الأماكن الشاغرة لن تفيد إلا للثمن من حديد . لكنها كانت تصر على موقفها ، لأنه لم يكن يوجد في الواقع مكان لأي شيء جديد ، ولم يكن يوجد في أي مكان شيء صالح لشيء ، كالمقصان المعلقة على مقابض الأبواب أو المعاطف الشنوية الأوروبية المدسوسة كيفما اتفق في خزائن المطبخ . وهكذا فإنها كانت تنفض في صباح أحد الأيام بمعنويات عالية لتلقي إلى الأرض كل ما في الخزائن ، وتفرغ الصناديق ، وتجرد غرف المهملات ، وتعلنها حرباً على اكوام الملابس التي شوهدت بها يكفي ، والقبعات التي لم تلبسها أبداً لأنها لم تجد فرصة مناسبة أثناء شيوخ مومتها ، والأحذية التي كان يحاكي بها فنانون أوروبا احذية الامبراطورات في حفلات تشويهن ، والتي كانت تقابل هنا باحتقار الأنسات النبيلات لأنها تشبه تماماً الأحذية التي تشتريها الزنجيات من السوق لاستخدامها في البيت . وتبقى الشرفة الداخلية للبيت في حالة

طوارئ خلال فترة الصباح كلها، ويصبح التنفس في البيت أمراً شاقاً بفعل الرائحة الحادة لكرات النفطالين. لكن الهدوء ما يلبث ان يعم بعد ساعات قليلة، اذ انها ترق لكل هذا الحرير المبعثر على الأرض، وكل هذا البر وكار الفائض مع بقايا الحرير المخرم، وكل ذبول الثعالب الزرقاء هذه المحكومة بالحرقة.

وكانت تقول:

- ان احراقها، بينما هناك اناس كثيرون لا يجدون ما يأكلونه، هو خطيئة.

وهكذا كانت عملية الاحراق تتأجل. لقد تأجلت دوماً، وكل ما في الأمر هو ان أماكن الأشياء كانت تتبدل، فتنتقل من مواقع الامتياز إلى الحظائر القديمة التي تحولت إلى مستودع للتصفيات، بينما تبدأ الاماكن التي أخلت بالامتلاء من جديد، كما كان يقول هو بالضبط، إلى أن نفيز بأشياء تعيش للحظة زهو ثم تمضي لتموت في الخزائن، ريشاً يحين موعد التصفية التالية. كانت تقول: «يجب ابتداء ما يمكن عمله بالأشياء التي لم تعد نافعة لشيء والتي لا يمكن الالقاء بها كذلك». انها هكذا: ترتعد للنهم الذي تغزوبه الأشياء اماكن المعيشة، محتلة مكان البشر، وزاحة بهم في الزاوياء، إلى ان تضعها فيرمينا داثا حيث لا تبدو للعيان. لم تكن امرأة مرتبة اذن كما يشاع عنها، وانما كان لديها منهج خاص ويأس لتبدو كذلك: انها تخفي الفوضى. ولقد اضطروا يوم وفاة خوڤينال اوربينو إلى افراغ نصف محتويات المكتب، وتكوير الأشياء في غرف النوم ليجدوا مكاناً يسهرون فيه على الميت.

مرور الموت من البيت جاء بالحل. فما ان احترقت فيرمينا داثا ملابس زوجها، حتى لاحظت ان نبضها لم يرتعش، فتابعت بالنفض ذاته ايقاد المحرقة بين فترة واخرى، ملقية اليها بكل شيء، القديم والحديد، دون ان تفكر بحسد الأغنياء ولا بالأم الفقراء الذين يموتون جوعاً. ثم أمرت اخيراً بقطع شجرة المانغا من جذورها حتى لا يبقى أي أثر من اثار المحنة، وأهدت البيغاء حية إلى متحف المدينة الجديد. وعندئذ فقط تنفست حسب رغبتها في بيت كالببيت الذي حلمت به دوماً: فسيح وبسيط ولها وحدها.

أقامت ابتتها اوفيليا معها لثلاثة شهور ثم رجعت إلى نيواورليانز. وكان الابن يأتي مع اسرته لتناول غداء عائلي أيام الاحاد، وكلما اتيح له ذلك خلال أيام الاسبوع. وبدأت صديقات فيرمينا داثا المقربات يزرنها بعد اجتيازها ازمة الحداد، ويلعن معها الورق مقابل الفناء المقفر، ويجربس اعداد اصناف جديدة من الطعام، ويطلعنها على اخبار الحياة الخفية للعالم الجشع الذي ما زال قائماً من دونها. ومن اكثرهن مواطبة على زيارتها كانت لوكريشيا دل ريسال دل اوبيسبو، وهي استقرابية على الطريقة القديمة، كانت تربطها بها صداقة متينة



من قبل ، وقد تقربت منها اكثر بعد وفاة خوفينال اوربينو. ولم تكن لوكريشيا دل ريال المخدرة بالتهاب المفاصل والساخطة على حياتها السيئة ، خير رفيقة لها وحسب ، بل انها كانت تستشيرها حول المشاريع التمدنية والدينية التي يجري الاعداد لها في المدينة ، مما يجعلها تشعر بقيمتها لنفسها وليس لظل زوجها الحامي ، رغم انها لم ترتبط به أبداً كارتباطها به حينئذ ، فقد نزعا عنها اسمها الذي كانوا ينادونها به دوماً ، لتصبح أرملة اوربينو.

لم تكن فيرمينا دائاً قادرة على تصور الأمر ، لكنها كلما اقتربت من الذكرى الأولى لوفاة زوجها ، كانت تشعر بانها تلج عالماً ظليلاً ورطباً وساكناً : انها الابكة التي لا مخرج منها . لم تكن واعية حينئذ ، كمالن تمي لعدة سنوات ، كم ساعدتها التأملات التي كان يكتبها فلورينتينوارثا على استعادة سلامها الروحي . فالرسائل ، بمطابقتها مع تجاربها ، هي التي اتاحت لها فهم حياتها بالذات ، واعانتها على انتظار تقدم الشيوخة وباطمئنان وهدوء . وقد كان اللقاء في ذكرى وفاة الزوج فرصة دبرتها العناية الالهية لفهم فلورينتينوارثا بانها هي أيضاً وبفضل رسائله المشجعة ، كانت مستعدة لمحو الماضي .

بعد يومين من ذلك ، تلقت منه رسالة مختلفة : مكتوبة بخط اليد على ورق مسطر ، واسمه الكامل موضح على المغلف . كان الخط هو خط رسائل الشباب الأولى نفسه ، والعبارات الغنائية نفسها ، مسبوكه في مقطع شكر بسيط لاهتمامها بمصافحته في الكندراتية . وبقيت فيرمينا دائاً تفكر بها بحنين قليلاً بعد عدة أيام من قراءتها ، حتى انها سألت لوكريشيا دل ريال دل اوييسبو ، دون اي مناسبة ، اذا ما كانت تعرف فلورينتينوارثا ، صاحب السفن النهرية . وأجابت لوكريشيا ان نعم : « يبدو انه شاذ ضائع » . وأعادت سرد الرواية المتداولة بانه لم يعرف امرأة أبداً رغم انطلاقته الطيبة ، وان له مكتباً سريراً يأخذ اليه الصبية الذين يلاحظهم ليلاً على أرصفة الميناء . كانت فيرمينا دائاً قد سمعت هذه الاسطورة منذ أمد بعيد ، ولكنها لم تصدقها يوماً ولم توها اي اهتمام . اما حين سمعت لوكريشادل ريال دل اوييسبو ، التي اشيع عنها يوماً انها ذات امزجة غريبة ، ترددها بهذه القناعة ، لم تستطع مقاومة رغبته بوضع الأمور في نصابها . فروت لها بانها كانت تعرف فلورينتينوارثا منذ الصغر . وذكرتها بان امه كانت تملك دكان خردوات في شارع لاس فينتاناس ، وانها كانت تشتري كذلك القمصان والشراشف القديمة لتنسل خيوطها وتبيعها كفن طوارئ اثناء الحروب الاهلية . وحثمت حديثها بقول صحيح : « انه رجل شريف ، كون نفسه بنفسه » . كانت محدثة حدادفع لوكريشيا لان تسحب ما قالته : « ثم انهم في آخر المطاف يقولون عني . أنا اشياء مشابهة » . لم يكن لدى فيرمينا دائاً فضول لتسألها عن تلك الاشياء لانها كانت تقوم بدفاع مؤثر عن رجل لم يكن اكثر من ظلٍ في حياتها . تابعت التفكير فيه ، وخصوصاً حين كانت تصلها رسالة منه وبعد مضي

اسبوعين من الصمت، أيقظتها احدى الخدمات من قيلولتها لتهمس لها منذرة :  
- سيدتي ، ها هو دون فلوريتينو هنا .

ها هو هنا . كانت ردة فعل فيرمينا داثا الأولى صدمة دعر . وفكرت ان لا ، فليرجع في يوم آخر ، وانها ليست قادرة على استقباله ، وانه ليس لديها ما تتحدث واياه به . لكنها استردت انفاسها في الحال وأمرت بادخاله إلى الصالة وتقديم القهوة له ريثما تستعد لمقابلته . كان فلوريتينو ارثيا ينتظر عند الباب الخارجي ، متقدماً تحت شمس الساعة الثالثة الجهنمية ، ولكنه كان مسيطراً تماماً على اعصابه وممسكاً الاعنة بقبضته . فهو موقن من انها ستعتذر اعتذاراً لطيفاً عن استقباله ، وكان يقينه هذا يمنحه الطمأنينة . لكن القرار الذي نقل اليه هزه حتى النخاع ، وعند دخوله الى عتمة الصالة الرطبة ، لم يتسع له الوقت للتفكير بالمعجزة التي يعيشها ، لان أحشاءه انتلأت فجأة بانفجار رغبة مؤلمة . جلس حابساً أنفاسه ، تحاصره ذكرى ذرق العصفور . اشؤوم على رسالته الغرامية الأولى ، وبقي متجمداً في العتمة ريثما تفارقه القشعريرة ، مستعداً لتقبل أي نكبة قد تلحق به في هذه اللحظة ، باستثناء تلك المحنة الظلمة .

لقد كان يعرف نفسه جيداً : ويعلم انه رغم اصابته بالامساك المزمن ، إلا ان امعائه قد خانتها في اساكين عامة ثلاث أو أربع مرات خلال حياته الطويلة ، ولم يجد بداً من الاستسلام لجسده في تلك المرات الثلاث أو الأربع . وكان يرى في هذه المناسبات فقط ، وفي مناسبات اخرى شديدة الحرج ، حقيقة العبارة التي يجب ترديدها مازحاً : «انا لا أومن بالرب ، ولكنني أخشاه» . ولم يكن له حينئذ متسع للشك ، فحاول تلاوة أي صلاة يذكرها ، لكنه لم يجد شيئاً في ذاكرته . لقد علمه زميل له ، حين كان طفلاً ، بضع كلمات سحرية لاصابة العصفير بحجر «تاك تاك تاك» . ان لم اصبك سادوحك» وقد جربها حين ذهب إلى الجبل لأول مرة حاملاً مقلعاً جديداً ، فهو العصفور مصعوقاً . وأعاد العبارة بحرارة كحرارة الصلاة ، لكنه لم يصل إلى النتيجة ذاتها . ثارت احشاؤه بحركة ملتوية وكان فيها محوراً محلزناً رفعه عن مقعده ، وانبعثت قرقرة من رغبة بطنه المتعاطمة الكثافة والألم ، تركته مغطى بعرق مثليج . ارتعدت الخادمة التي حملت اليه القهوة لسياء الميت التي بدت عليه . فتهد قائلاً : «انه الحر» . فتحت النافذة معتقدة انها تسعده بذلك ، لكن شمس الاصيل لفحت وجهه ، مما اضطرها لاغلاقها من جديد . احس بانه عاجز عن الاحتمال لدقيقة اخرى ، حين ظهرت فيرمينا داثا وهي لا تكاد ترى في العتمة ، وارتعدت لرؤيته على هذا الحال ، فقالت له :  
- يمكنك خلع السترة .

لكن ما كان يؤلمه آثر من التواءات المغص القاتلة هو خوفه من ان تتمكن من سماع قرقرة

أحشائه . واستطاع الصمود للحظة قال فيها ان لا ، وانه انها جاء ليسأل متى يمكنها استقباله فقط . فقالت وهي ما تزال واقفة وقد اصابها الذهول : « ها أنتذا هنا . ودعته للدخول إلى شرفة الفناء حيث الحر أقل . فرفض بصوت بدا لها وكأنه تنهدة أسف : - ارجوك ان تؤجلي اللقاء ليوم غد .

تذكرت ان يوم غد هو الخميس ، يوم الزيارة المنتظمة للوكريشيا دل ريال دل اوبيسبو ، لكنها عرضت له حلاً نهائياً : « بعد غد الساعة الخامسة » . شكرها فلورينتينوارشا ، وأشار لها بحركة وداع متعجلة بقبعته ، وانصرف دون ان يتذوق القهوة . بقيت حائرة في وسط الصالة ، دون ان تفهم ما الذي حدث ، إلى ان سمعت فرقة السيارة في الشارع . بحث فلورينتينوارشا حيثش عن الوضع الأقل المأ في مقعد السيارة الخلفي ، وأغمض عينيه وأرخى عضلاته ، واستسلم لمشيئة الجسد . وأحس حيثش وكأنه يولد من جديد . أما السائق ، الذي لم يعد يفاجأ بشيء بعد عمله لسنوات طويلة في خدمته ، فقد حافظ على عدم تأثره . لكنه حين فتح باب السيارة أمام البيت ، قال له :

- حذار يا دون فلورو ، قد تكون الكوليرا .

لكن الأمر كان كالمعتاد . ولقد حمد فلورينتينوارشا الله يوم الجمعة في الساعة الخامسة تماماً ، حين قادته الخادمة عبر الصالة المظلمة إلى شرفة الفناء ، ووجد فيرمينا دانا جالسة وراء طاولة معدة لشخصين . عرضت عليه ان يتناول الشاي أو الشوكولاته أو القهوة ، فطلب فلورينتينوارشا قهوة ، ساخنة جداً وقوية جداً . وأمرت هي الخادمة قائلة : « ولى الشراب المعتاد » . الشراب المعتاد هو شراب قوي محضر من تشكيلة متنوعة من الشاي الشرقي ، يساعدها في رفع معنوياتها بعد القيلولة . حين انتهت من تناول ابريق الشاي ، وانتهى هومر ابريق القهوة ، كانا قد خاضا واجتازا عدة موضوعات ، ليس لانهما كانت تهكما كثيراً ، وانما لتجنب الدخول في المسائل الأخرى التي لم يكن أي منهما ليتجرأ على ملاستها . كلاهما كان مرتعداً ، لا يعرف ما الذي يفعلانه بعيداً عن شبابهما ، على شرفة بلاطها قرعة الشطرنج في بيت ليس ملكهما ولا يزال يعقب برائحة ازهار الميت . انهما يجلسان معاً للمرة الأولى ، لا تفصل بينهما سوى هذه المسافة الضيقة ، ولديهما فائض من الوقت ليريا بعضهما بهدوء بعد نصف قرن من الانتظار . ولقد رأى كل منهما الآخر كما هما : عجوزان يترصدهما الموت ، لا يجمعهما شيء سوى ذكرى ماض غابر لم يعد ملكاً لهما وانما للشابين مخمطين كان يمكن أن يكونا حفيديهما . وفكرت بانه سيقنتع أخيراً بعدم واقعية حلمه ، وهذا سيخلصه من سفاخته .

وللحيلولة دون لحظات صمت غير مريحة أو أحاديث غير مرغوبة ، وجهت اليه اسئلة محددة حول السفن النهرية . ولم تكده تصدق انه هو ، صاحب السفن ، لم يسافر فيها إلا مرة

واحدة، منذ سنوات بعيدة، حين لم تكن له أية علاقة بالشركة. ولم تكن هي تعرف النهر أيضاً. أذ أن زوجها كان يمقت الاهواء الانديزية، ويعلل ذلك بذرائع متنوعة: مخاطر الارتفاعات على القلب، المخاطرة بالاصابة بذات الرئة، نفاق الناس. وهكذا كانا يعرفان نصف العالم ولكنهما لا يعرفان بلدهما. كانت هناك يومئذ طائرة مائية من نوع جنكيز تنطلق من قرية إلى قرية في حوض نهر مجدليينا، كجرادة من الألمنيوم، تسع لطاقتها المؤلف من شخصين، ولسته مسافرين اضافة إلى اكياس البريد. وقد علق فلورينتينوارثا قائلاً: «إنها اشبه بتأبوت طائر في الجو». وكانت هي قد شاركت في الرحلة الأولى بالمنطاد، ولم تعان أية صعوبة، ولكنها لاتكاد تصدق اليوم إنها هي نفسها التي تجرأت على تلك المغامرة، وقالت: «الأمر مختلف». تعني بذلك أنها هي التي تغيرت، وليس أساليب السفر.

كان أوزير الطائرات يفاجئها أحياناً. فمع أنها رأتهما تمر على ارتفاع منخفض، وتقوم بمناورات بهلوانية، في الاحتفال بالذكرى المثوية لموت بطل التحرير، ورغم أنها رأت إحدى تلك الطائرات، سوداء مثل طائر رحمة عظيم، وهي تلامس اسطح بيوت لامانغا، مخلقة جزءاً من جناحها عالقاً بشجرة مجاورة، قبل ان يبقى هيكلها معلقاً بأسلاك الكهرباء، إلا ان فيرمينا دائماً لم تستوعب مع ذلك حقيقة وجود الطائرات. بل إنها لم تشعر بالفصول في السنوات الاخيرة للذهاب إلى خليج مانثانيو، حيث كانت تطير الطائرات المائية بعد ان تقوم زوارق خضر السواحل بإبعاد مراكب الصيادين وزوارق اللهو، التي كانت اعدادها في ازدياد. وقد اختاروها وهي عجزوا بهذه الحالة لاستقبال تشالز لينديبرغ بباقة زهور حين جاء بطائرته في رحلة نوايا حميدة، ولم تستطع ان تفهم كيف كان لرجل بهذه الضخامة، وهذه الشقرة، وهذا الجبال ان يرتفع في الجوبجهاز بيدو وكأنه من الصفيح المجعد، يقوم ميكانيكيان بدفعه من ذيله لمساعدته على الصعود. ولم يكن رأسها ليتسع لفكرة وجود طائرات اكبر من تلك بقليل تتسع لشمانية أشخاص. بينما سمعت بالمقابل ان السفن النهرية هي متعته خالصة لأنها لاتتأرجح كمسفن البحر. ولكن هذه السفن مخاطرها الاقوى، كاصطدامها بالمصاطب الرملية في قاع النهر، وتعرضها لهجمات قطاع الطرق.

وبين لها فلورينتينوارثا ان هذه ليست إلا اساطير من ازمئة غابرة: ففي السفن الحالية صالة رقص، وقمرات واسعة وفخمة كأنها غرف الفنادق مزودة بحمامات خاصة ومراوح كهربائية، كما انه لم يحدث أي هجوم مسلح على السفن النهرية منذ انتهاء الحرب الاهلية الاخيرة. وبين لها كذلك، بسعادة من حقق نصراً شخصياً، ان هذا التقدم يعود قبل كل شيء إلى حرية الملاحة التي دعا اليها هو، مما شجع المنافسة: فبدلاً من شركة واحدة وحيدة، كما كان الحال من قبل، أصبحت هناك ثلاث شركات نشيطة ومزدهرة. ومع ذلك

فان تقدم الطيران السريع يشكل خطراً حقيقياً على الجميع . حاولت مراسلاته : فانه من سبقي دائماً ، لان المجانين المستعدين لحشر أنفسهم في جهاز يبدو مناقضاً للطبيعة ليسوا بالكثيرين . واخيراً تحدث فلوريتينو اريثا عن التقدم الذي احرزه البريد ، سواء في اساليب نقله أو توزيعه ، آملاً بذلك ان تحدثه عن رسائله . لكنه لم يتوصل لما أراد .

وجاءت الفرصة بعد قليل وحدها . كانا قد ابتعدا كثيراً عن الموضوع ، حين قاطعتها احدى الخادصات لتسلم فيرمينا دانا رسالة نقلتها حيثئذ من البريد المديني الخاص ، الذي انشئ مؤخراً ، وكان يستخدم في توزيع الرسائل اسلوب توزيع البرقيات ذاته . ولم تجد هي نظارة القراءة ، كما يحدث معها دائماً . فقال لها فلوريتينو اريثا برزانه :  
- لا لزوم لذلك . فهذه الرسالة مني .

وكانت كذلك فعلاً . لقد كتبها في اليوم السابق ، وهويعاني حاله انقباض رهيبه لانه لم يستطع تناسي خجله من زيارته الاولى الفاشلة . وكان يعتذر في تلك الرسالة عن سفاهته بالاقدام على زيارتها دون اذن مسبق ، ويبيد تجليه عن نية العودة لزيارتها . لقد القاهها في صندوق البريد دون ان يفكر مرتين ، وحين تروى بالامركان الوقت قد فات لاستردادها لكن هذه الشروحات كلها لم تبد له ضرورية ، فاكتمى بالطلب إلى فيرمينا دانا ان تتفضل بعدم قراءة الرسالة .

فقالت :

- طبعاً . فالرسائل في نهاية المطاف هي ملك لمن كتبها . أليس كذلك ؟

فخطا خطوة واثقة بقوله :

- أجل . ولذا فانها أول شيء يعاد عند وقوع القطيعه .

مرت على امارته دون اهتمام ، وأعادت له الرسالة قائلة : «من المؤسف انني لن أستطيع قراءتها ، فقد كانت الرسائل الاخرى ذات نفع كبير لي» . اخذ نفساً عميقاً عندما فوجيء بانها قالت بشكل عفوي اكثر بكثير مما كان ينتظره منها ، وقال لها : «لايمكنك ان تتصورى مدى سعادتي لمعرفة ذلك» . لكنها غيرت الموضوع ، ولم يتمكن من العودة اليه ثانية في بقية المساء . ودعها بعد الساعة السادسة ، حين بدأوا يضيئون أنوار البيت . كان يشعر بثقة اكبر ، ولكنها ثقة بلا أوهام ، لانه لم ينس طبع فيرمينا دانا المتقلب وردود فعلها المفاجئة حين كانت في العشرين ، ولم يكن لديه من الاسباب ما يدفعه للتفكير بانها قد تغيرت . ولهذا تجرأ على سؤالها بمذلة صريحة ان كان يستطيع العودة في يوم آخر ، وجاء الجواب ليفاجئه مجدداً .

قالت :

- عد متى شئت . فأنا وحيدة في اغلب الاحيان .

بعد أربعة أيام ، أي يوم الثلاثاء ، عاد دون ابلاغ مسبق ، ولم تنتظر هي ان يقدموا لها الشاي لتحدثه عن مدى النفع الذي اصابته من رسائله . فقال لها بانها ليست رسائل بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانها هي أوراق متفرقة من كتاب كان يمتنى تأليفه . وكانت هي قد فهمت الرسائل على هذا النحو أيضاً ، لدرجة انها فكرت باعادتها اليه ، اذا هو لم يرد ذلك على انه صد من جانبها ، كي يجعل تلك الرسائل إلى مصير أفضل . تابعت الحديث عن الدور الطيب الذي قدمته اليها الرسائل في لحظة قاسية من حياتها ، وكانت تقول ذلك باندفاع شديد ، وعرفان بالجميل شديد ، وربما بعاطفة شديدة أيضاً ، مما جعل فلورينتينو اريثا يتجراً على التقدم باكثر من خطوة واثقة : اذ انه قفز قفزة قاتلة بقوله :

- لقد كنا نتخاطب دون كلفة من قبل .

كانت كلمة من قبل كلمة محرمة . وأحست بمرور ملاك الماضي الوهمي ، وحاولت تفاديه . لكنه توغل اكثر : وأعني في رسائلنا التي تبادلناها من قبل . استاءت ، وكان عليها القيام بمجهود حدي كي تخفي استياءها . لكنه انتبه للأمر ، وأدرك ان عليه التقدم بحذر ، وتلمس مواقع اقدمه جيداً ، رغم ان العثرة اطلعته على انها مازالت على شراستها التي كانت عليها في شبابه ، لكنها تعلمت ان تكون شرسة بركة .

قال :

- أعني ان هذه الرسائل هي شيء آخر مختلف تماماً .

فقلت :

- كل شيء في الدنيا يتغير .

قال :

أنا لم أتغير . وحضرتك ؟

أوقفت فنجان الشاي في منتصف الطريق الى فمها ، وزجرته بعينين استمرتتا تلمعان بالحياة رغم القسوة . وقالت :

- لقد صار الأمر سيان . فقد اكملت اثنتين وسبعين سنة .

تلقي فلورينتينو اريثا الطعنة في القلب . وودّ العثور على جواب سريع كسرعة السهم وتلقائيته ، لكن ثقل السن هزمه : لم يشعر أبداً بمثل هذا الارهاق في محادثة قصيرة كهذه . كان قلبه يؤله ، وكانت كل ضربة منه ترتد دويّاً معدنياً في شرايينه . أحس بأنه شيخ ، حزين ، عديم النفع ، وراودته رغبة ملحّة في البكاء حتى لم يعد قادراً على البكاء . تناولا فنجان الشاي الثاني بصمت ثلثته الحواطر المنذرة ، وحين عادت هي للتكلم ، فعلت ذلك بان

توجهت إلى إحدى الخادومات طالبة منها احضار حقيبة الرسائل . كاد ان يطلب منها الاحتفاظ بالرسائل ، لان لديه نسخة كربون منها ، لكنه فكر بان كشفه عن اتخاذه مثل هذا الاحتياط سيبدو عملاً غير نبيل . ولم يعد لديها ما يتحدثان فيه . وقبل ان يودعها ، اقترح ان يعود يوم الثلاثاء التالي في نفس الساعة . فسألته لماذا عليه ان يكون متلفظاً إلى هذا الحد . وقالت :

- لا أرى من معنى لهذه الزيارات .

فقال :

- أنا لم أفكر بان يكون لها أي معنى .

وعاد على أي حال في يوم الثلاثاء التالي ، في الساعة الخامسة ، ثم في جميع أيام الثلاثاء التالية ، دون اعلان مسبق ، لان الزيارة الأسبوعية دخلت في روتين كل منها اعتباراً من نهاية الشهر الثاني . كان فلورينتينواريثا يأتي حاملاً معه البسكوت الانكليزي لتناوله مع الشاي ، والكستناء الملبس بالسكر ، والزيتون اليوناني ، وغيرها من لذائذ الصالونات الصغيرة التي يجدها في عابرات المحيطات التي تتوقف في الميناء . وفي أحد أيام الثلاثاء جاءها بصورتها الفوتوغرافية مع هيلديراندا ، التي التقطها لها مصور بلجيكي منذ اكثر من نصف قرن ، وكان قد اشترها بخمسة عشر سنتافوس مزاد بطاقات بريدية في بوابة الكتبة العموميين . لم تستطع فيرمينا دانا ان تفهم كيف وصلت الصورة إلى هناك ، كما لم يستطع هوفهم الأمر إلا على انه معجزة غرامية . وفي أحد الأيام ، وبينما كان فلورينتينواريثا يقطف وروداً من حديقته ، لم يستطع مقاومة اغراء حل وردة اليها في زيارته التالية . وكانت تلك مشكلة عويصة في لغة الزهور ، لانها تتعلق بأرملة حديثة الترميل . فوردة حمراء ، ترمز إلى العاطفة المتأججة ، قد تعتبر اهانة لحدادها . أما الورد الصفراء التي ترى فيها إحدى لغات الزهور رمزاً لحسن الطالع ، فهي في العرف الشائع تعبير عن الغيرة . ورغم انه سمع يوماً عن ورود تركيا السوداء ، التي قد تكون الاكثر ملاءمة ، إلا انه لم يستطع الحصول عليها ليأقلعها مع الجوفي حديقة بيته . لكنه غامر بعد تفكير طويل بحمل وردة بيضاء ، كان اعجابه بها أقل من اعجابه بالزهور الاخرى ، لانها بكاء لا تعني شيئاً . وخوفه من أن يجد حُبَّ فيرمينا دانا معنى لها ، قام بتقليم اشواكها في اللحظة الاخيرة .

وجدت الوردة لديها صدى طيباً ، على انها هدية بلا أية نوايا خفية . مما اثارى تقليد الثلاثاء بطقس جديد ، حتى انه أصبح يجد مزهرية مملوءة بالماء في وسط طاولة الشاي الصغيرة لدى وصوله حاملاً الورد البيضاء . وفي أحد أيام الثلاثاء ، وفيما هويضع الوردة ، قال بطريقة بدت عرضية :

- لم يكن أحد يهدي وروداً في رماننا، بل كانوا يتبادلون ازهار الباسمين .

فقلت :

- هذا صحيح ، ولكن الغرض منها كان مختلفاً كما تعلم حضرتك .

هذا ما كان يحدث دوماً : فكلما حاول التقدم خطوة قطعت عليه الطريق . لكنه في هذه المناسبة ، ورغم الجواب الدقيق ، أدرك انه قد أصاب الهدف ، لأنها اضطرت للالتفات جانباً كي تخفي توردها . كان تورداً متقدماً ، فتيماً ، له حياته الخاصة ، مما اثار سخطها ضد نفسها . وقد احسن فلورينتينوارثا صنعاً بالانصراف إلى موضوعات أقل فظاظة ، لكن شهامته كانت بينة بحيث انها انبثت اليها ، وضاعف هذا من سخطها . كان يوم الثلاثاء منحوساً . فقد كادت ان تطلب منه عدم الرجوع لزيارتها ، ولكن فكرة الخوض في خصام كخصومات فترة الخطوبة بدت لها مضحكة وهما في هذه السن وهذا الوضع ، مما سبب لها نوبة ضحك . وبينما كان فلورينتينوارثا يضع الوردة في المزهرة يوم الثلاثاء التالي ، أمنت التأمل في وعيها وتأكدت وهي سعيدة بانه لم يبق لديها ادنى اثر للغضب الذي اعترافا في الاسبوع السابق .

وسرعان ما بدأت الزيارات تتخذ بعداً عائلياً غير مريح ، اذ كان الدكتور اوربينوداثة وزوجته يحضران أحياناً بشكل يبدو كأنه مصادفة ، ويقيان هناك للعب الورق ، لكن فيرمينا دائماً علمته ذلك خلال زيارة واحدة ؛ وبعثا كلاهما إلى الزوجين اوربينوداثة بتحديد مكتوب للقاء في لعبة ورق يوم الثلاثاء التالي . كانت لقاءات مفرحة للجميع ، سرعان ما اتخذت طابعاً منتظماً كالزيارات ، وأقررت لها أعراف بان يأتي كل منهم بشيء معه في كل لقاء . فالدكتور اوربينوداثة وزوجته التي كانت حلوانية بارعة ، يساهمان باحضار قوالب حلوى متقنة ، وذات طعم مختلف في كل مرة ، أما فلورينتينوارثا فتتابع احضار طرائف مشيرة للفضول كان يجدها في السفن الأوروبية ، بينما كانت فيرمينا دائماً تبتدع لهم كل اسبوع مفاجئة جديدة . وكانت مباريات لعب الورق هذه تجري في الثلاثاء الثالث من كل شهر ، ورغم انهم ما كانوا يتراهنون على نقود ، إلا انه كان يُفرض على الخاسر المساهمة باحضار شيء خاص للمباراة التالية .

كانت طبيعة الدكتور اوربينوداثة منسجمة مع صورته الاجتماعية : فهو رجل ذو امكانيات ضئيلة ، واساليب مضطربة يعاني من نوبات قلق مفاجئة ، مبعثها السعادة أو السخط على حد سواء ، كما كان وجهه يتورد بلا مناسبة مما يثير المخاوف حول متانته الذهنية . لكنه كان بلا شك ، وكما يدع عليه من النظرة الأولى ، رجلاً طيباً . وقد كان فلورينتينوارثا يخشى ان يعتبره الدكتور كذلك أيضاً . أما زوجته فكانت ذكية وفيها شرارة امرأة لعب ، كما كانت تقدم



بانسجامها وتوافقها لمسة اكثر انسانية إلى سعادتها . ولم يكن فلورينتينوارثا ان يتمنى زوجين أفضل منها للعب الورق ، ثم ان حاجته للحب التي لا تزوي ، توجت اخيراً بأحاساس انه في وسط عائلي .

في احدى الليالي ، وعند خروجها معاً من البيت ، دعاه الدكتور اورينودا لتناول الغداء معه : «غداً، الساعة الثانية عشرة والنصف ، في النادي الاجتماعي» . وكانت وليمة لذیذة مع نبيذ فاخر . كان النادي الاجتماعي يحتفظ لنفسه بحق عدم السماح بالدخول لاسباب متنوعة ، وأحد أهم هذه الاسباب هو حالة الابن الطبيعي الذي لا أب له . ولقد كانت للعم ليون الثاني عشر تجربة مثيرة في هذا المجال ، كما عانى فلورينتينوارثا نفسه عار اخراجه من النادي يوماً بعد جلوسه إلى الطاولة بدعوة من أحد الاعضاء المؤسسين ، كان فلورينتينوارثا قد قدم له خدمات كبيرة في مجال التجارة النهرية ، وما كان من الداعي إلا ان اصطحبه لتناول الطعام في مكان آخر ، قائلاً له :

- علينا نحن الذين نضع الانظمة ، ان نكون أول من يطبقها .

لكن فلورينتينوارثا غامر رغم ذلك بالذهاب مع الدكتور اورينودا ، وقد استقبل هناك استقبالاً خاصاً ، رغم انهم لم يطلبوا منه التوقيع في السجل الذهبي المخصص للمدعوين البارزين . كانت دعوة محدودة ، اقتصرت عليها فقط ، ودار الحديث بينها بصوت منخفض . والمخاوف التي ساورت فلورينتينوارثا منذ مساء اليوم السابق بشأن ذلك اللقاء ، تلاشت مع تناولها كأس الاوبرتو الفاتح للشهية . كان الدكتور اورينودا يود الحديث عن امه . وكثرة ما تحدث ، انتبه فلورينتينوارثا إلى انها قد حدثت عنه . كما انتبه إلى شيء اكثر اثاراً : لقد كذبت على ابنها لصالحه ، اذ اخبرته بانها كانا صديقين منذ الطفولة ، وكانا يلعبان معاً منذ قدومها من سان خوان دي لانيغا ، وانه هو الذي شجعها على قراءتها الأولى ، ولذا فهي مدينة له بجميل قديم . وقالت له كذلك انها كثيراً ما كانت تذهب بعد خروجها من المدرسة لقضاء ساعات طويلة مع ترانستوارثا الباردة ، التي كانت تطرز أعمالاً رائعة في دكان الخردوات . واذا كانت لم تعد تلتقي بفلورينتينوارثا كما كانت تلتقيه في السابق ، فليس لانها غير راغبة في ذلك ، وانما لافتراق حياتيهما .

وقبل ان يصل إلى عمق اغراضه ، جال الدكتور اورينودا حول موضوع الشيخوخة . كان يرى ان العالم سيتقدم بسرعة اكبر لو انه تخلص من عرقلة الشيخوخة . قال : «ان الانسانية كالجيوش في المعركة ، تقدمها مرتبط بسرعة أبطأ افرادها» . وكان يأمل بمستقبل اكثر انسانية ، وبالتالي اكثر تحضراً ، تغزل فيه الكائنات البشرية التي لم تعد قادرة على الاعتماد على نفسها في مدن هامشية ، كي تتجنب عار وآلام وعزلة الشيخوخة المخيفة . وقال ان حد السن

المناسب لذلك من وجهة نظره يمكن ان يكون ستين عاماً. ولكن ريثما يتم الوصول الى هذا المستوى من الاحسان، فان الحل الوحيد هو اللجوء، حيث يتسنى للشيخ ان يتسلوا مع بعضهم البعض، وان يتفقوا فيما يحبسون ويمقتون، وفي عاداتهم واحزانهم، بعيداً عن الخلافات الطبيعية مع الاجيال التالية. وقال: ان اجتماع الشيخ مع الشيخ يجعلهم أقل شيخوخة». حسناً اذن: كان الدكتور اورينودانا يود شكر فلورينتينو اريثا على مرافقته الطبية لأمه في وحدة الترميل، ورجاء الاستمرار في ذلك لمصلحتهم معاً ولراحة الجميع، وطلب منه الصبر على مزاحها الشيخوخي. أحس فلورينتينو اريثا بالراحة لنتائج اللقاء، وقال له: «كن مطمئناً. فأنا اكر منها بأربع سنوات، وهذا ليس الآن فقط، وإنما من قبل.. قبل مولدك بكثير». ثم استسلم لآغراء التخفيف عن نفسه بضربة تهكم، فاختتم قائلاً: - في مجتمع المستقبل، عليك ان تذهب إلى المقبرة، لتحمل إليها وإلي باقية من الانثوريو من اجل الغداء.

لم يكن الدكتور اورينودانا قد لاحظ حتى ذلك الحين عدم لياقة نبوءته عن المستقبل، فدخل في متاهة من الشروحات لم تزده إلا تخطيطاً. لكن فلورينتينو اريثا ساعده للخروج من ورطته. كان مشعاً، لأنه كان يعلم بأن عليه أن يلتقي عاجلاً أو آجلاً مع الدكتور اورينودانا في لقاء كهذا، لاستكمال شرط اجتماعي لا يمكن تحاوزه: طلب يد أمه رسمياً وقد كان جو الغداء مشجعاً، اذ ين له سهولة ذلك الطلب وحتمية الترحيب به. ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه، لو انه كان حاصلاً على موافقة فيرمينا دانا. بل ان رسميات الطلب، بعد حديثهما خلال ذلك الغداء التاريخي، كانت تبدو فائضة عن الحاجة.

لقد اعتاد فلورينتينو اريثا صعود الادراج ونزولها بحذر خاص، حتى حين كان شاباً، فقد كان يفكر دوماً بأن الشيخوخة انما تبدأ بزلة قدم أولى لا أهمية لها، ثم يتلوها الموت في الزلة الثانية. وكان يرى ان أخطر الادراج هو درج مكتبه، لأنه ضيق وشبه منتصب. وقد اعتاد منذ زمس طويل، قبل ان يبدأ بجرح قدميه بصعوبة على صعوده متفحصاً كل درجة من درجاته جيداً وممسكاً الدرابزين بكلتا يديه. ورغم انهم كثيراً ما اقترحوا عليه استبداله بدرج اقل خطورة، الا ان قراره كان يتأجل إلى الشهر التالي دائماً، لان استبداله كان يبدوله كإقرار بشيخوخته. وكان يحتاج لوقت أطول في الصعود كلما تقدمت به السن، ليس لأنه كان يتكلف مشقة أكبر، كما يدعي هو باصرار، بل لأنه كان يضاعف من حذره في كل مرة. ومع ذلك، فانه بعد عودته من الغداء مع الدكتور اورينودانا، وبعد كأس الاوبورتو الذي تناوله قبل الطعام ونصف كأس النبيذ الاحمر مع الطعام، وبعد تلك المحادثة الطافرة خصوصاً، حاول الوصول إلى الدرجة الثالثة بخطوة بخطوات راقص شاب بما لوى كاحله الايسر وجعله

يهوي على ظهره، وينجومس الموت باعجوبة. لقد كان يتمتع في لحظة وقوعه بوحي كاف ليفكر بأنه لن يموت في تلك العشرة، لأن منطق الحياة لا يسمح لرجلين تدهلها لسنوات طويلة في حب المرأة ذاتها، بأن يموتا بالطريقة نفسها ويفارق سنة واحدة بينهما. وكان محقاً. لفوا ساقه من القدم وحتى ربله الساق وأجبروه على البقاء في السرير دون حراك، لكنه كان حياً أكثر مما كان عليه قبل الوقوع. وعندما أمره الطبيب بالبقاء ثابتاً لمدة ستين يوماً، لم يستطع ان يصدق كل هذه التعاسة، فقال له متوسلاً:

- لا تفعل بي هذا يا دكتور. ان شهرين من حياتي هما كعشر سنوات من حياتك أنت. وحاول ان ينفض غدة مرات، حاملاً ساقه التي كالتمثال بكتلتا يديه، فكان الواقع يهزمه دوماً. لكنه حين عاد للمشي أخيراً وكاحله ما يزال يؤلم، وظهره مسلوخ من النوم الطويل في الفراش، كانت لديه اسباب كافية للاعتقاد بان القدر قد كافأ اصراره بزلة من العناية الالهية. أسوأ أيام مرضه كان يوم الاثنين الأول. كان الألم قد تراجع، وكان التشخيص اطبي مشجعاً، إلا انه كان يرفض الرضوخ لنكبة عدم رؤية فيرمينا داتا مساء اليوم التالي، لأول مرة منذ اربعة أشهر. ولكنه بعد قليلة اذعان، أخضع نفسه للواقع وكتب لها بطاقة اعتذار. كتبها بخط يده على ورق معطر وبحبر فوسفوري لتقرأها في الظلام، وبالغ في مأساويته حيال خطورة الحادث دون خجل، محاولاً استنهاض عطفها. وردت عليه بعد يومين، متأثرة جداً، ولطيفة جداً ولكن دون كلمة واحدة خارج الحدود، مثلاً كانت في أيام الحب العظيمة. وتشبت بالفرصة فوراً ليكتب اليها ثانية. وحين ردت عليه للمرة الثانية، قرر المضي أبعد مما كانت عليه احاديثهما المملغة أيام الثلاثاء، فأمر بوضع هاتف إلى جوار السرير بحجة أنه يريد متابعة سير العمل اليومي في الشركة. وطلب من مقسم الهاتف المركزي ان يصلوه بالرقم الثلاثي الذي حفظه في ذاكرته منذ اتصل بها لأول مرة. سمع صوت الجرس الخافت، المتوتر بغموض البعد، ثم الصوت المحبوب يرد، وتعرفت هي على الصوت الآخر فودعته بعد ثلاث عبارات عادية حول الصحة. أحسن فلوريتينو اربثا بالغم هذه اللامبالاة، ورأى انه يعود إلى نقطة البداية من جديد.

لكنه تلقى بعد يومين رسالة من فيرمينا ترجوه فيها الا يتصل بالهاتف ثانية. وكانت اسبابها وجيهة. فقد كان عدد الهواتف في المدينة محدوداً جداً، وكانت المكالمات تتم عبر عاملة مقسم تعرف جميع المشتركين، وحياتهم ومعجزاتهم، وليس مهما اذا هم كانوا خارج البيت: فهي تجدهم حيث يكونون. ومقابل هذه الفعالية، كانت تنصت الى المحادثات، وتكشف اسرار الحياة الخاصة، والمآسي المحفوظة بتكتم، ولم يكن غريباً عليها ان تتدخل في حوار دائر لتدلي

بوجهة نظرها اولتخفف من حدة الغضب . كما كانت قد تأسست في تلك الايام أيضا جريدة العدالة ، وهي صحيفة مسائية هدفها الوحيد انتقاد العائلات ذات الالقاب الكبيرة ، بالاسم الصريح وبلا أية اعتبارات ، كرد من صاحب الجريدة على عدم قبول ابنائه كاعضاء في النادي الاجتماعي . ورغم نظافة حياتها ، فقد كانت فيرمينا دائما تلتزم جانب الحذر حينئذ اكثر من أي وقت مضى في كل ما تقوله أو تفعله ، حتى مع اصدقائها المقربين . وهكذا بقيت مرتبطة مع فلورييتينو اريشا بخيط الرسائل البائد . واصبح تبادل الرسائل ما بينها كثيفا الى حد جعله ينسى ساقه المصابة ، وعقوبة البقاء في السرير ، وكل شيء اخر ، ويكرس نفسه تماما للكتابة على طاولة متقلبة كذلك المستخدمة في المشافي لتقديم الطعام للمرضى .

رفعا الكلفة بينها من جديد ، وعادا لتبادل الآراء حول حياتهما كما كانا يفعلان في رسائلهما السابقة ، لكن فلورييتينو اريشا حاول المضي ثانية بسرعة : كتب اسمها بونخز دبوس على وريقات زهرة كاميليا ، وبعتها في رسالة ، وبعد يومين أعيدت اليه دون أي تعليق . لم تستطع فيرمينا دائما منع ذلك : فالأمر كله كان يبدو لها كلعبة أطفال . وحين أصر فلورييتينو اريشا على استعادة ذكرى اسميات الاشعار الكثيرة في حديقة البشارة ، ومخابيء الرسائل في الطريق الى المدرسة ، ودروس التطريز تحت أشجار اللوز . وضعت في مكانه الطبيعي ، وروحها تنأى ، بسؤال بدا عرضيا وسط مجموعة أخرى من الاحاديث المطروقة : « لماذا تصر على الحديث في أمر لا وجود له ؟ » . ثم أثبت فيما بعد عناده العقيم في عدم الرضوخ لشيخوخة طبيعية . وهذا هو حسب رأيها ، سبب سقوطه واجباطاته الدائمة في تذكر الماضي . لم تكن تفهم كيف يمكن لرجل قادر على صياغة الافكار التي ساعدتها على تجاوز السرم ، ان يورط نفسه بتلك الطريقة الصيبانية حين يحاول تطبيق افكاره على حياته بالذات . فانقلبت الأدوار ، واصبحت هي حينئذ من حاولت تشجيعه ليرى المستقبل بعبارة لم يستطع فهمها في تسرعه الطائش : « دع الزمن يمضي وسنرى ما الذي يحمله ، اذ لم يكن في يوم من الايام تلميذاً نجيبا كما كانت هي . ان قعوده الاجباري ، وبقينه الذي كان يتضح اكثر فأكثر بتسرب الزمن ، ورجته المجنونة لرؤيتها ، اكادت له ان يخافه من الزلزل كانت اكثر اصابة ومأساوية مما توقعه . وبدأ يفكر لأول مرة بحقيقة الموت تفكيراً عقلانياً

كانت ليونا كاسياني تساعد في الاستحمام واستبدال البيجاما مرة كل يومين ، وتضع له الحقن الشرجية ، والمبولة ، وكما دات البابونج على قروح ظهره ، وتجري له المساجات بارشاد الطبيب كي لا يسبب له انعدام الحركة مشاكل أخرى اسوأ . وكانت تحل محلها في هذه المهامات يومي السبت والاحد اميركا فيكوبيا ، التي كانت ستهي دراستها كمعلمة في شهر كانون الاول من تلك السنة . وقد وعدا بايفادها في دورة عليا الى الاباما على نفقة الشركة

النهرية، وذلك ليكمّ فم صميره من جهة، وليتخلص من مواجهة تعنيفاتها التي لا تجد مناسبة لقولها، والتفسيرات التي يتوجب عليه ان يقدمها اليها من جهة اخرى. لم يتصور يوماً مدى معاناتها في ساعات ارقها في المدرسة الداخلية، وفي نهايات الاسبوع التي تقضيها بعيداً عنه، وفي حياتها من دونه، لانه لم يتصور أبداً كم كانت تحبه. وعلم من رسالة بعثتها إليه المدرسة ان الموقع الاول الذي كانت تحتله دوماً قد اصبح الاخير، وانها على وشك الرسوب في الامتحانات النهائية. لكنه تناسى واجبه كوصي ولم يبلغ والدتي اميركا فيكونيا بالأمر، يمنعه احساس بالذنب يحاول التخلص منه. كما انه لم يبحث الامر معها. وذلك لمخاوفه الراسخة بانها ستحاول القاء جريرة فشلها عليه. وهكذا ترك الامور على حالها. وأخذ يؤجل مشاكلها دون ان يدري، على أمل ان يتكفل الموت بحلها.

لم تصب المفاجأة المرأتين اللتين كانتا تسهران على العناية به فقط، بل ان فلورينتينوارثا نفسه فوجيء بالتبديل الذي طرأ عليه. فمئذ أقل من عشر سنوات، كان قد هاجم احدي خادmates وراء السلم الرئيسي في بيته، وهي بملابسها وواقفة على قدميها، وتركها حبلية في وقت أقصر مما يحتاجه ديك فيليبيني، وكان عليه ان يهديها بيتاً مفروشاً لتقسم ان الفاعل الذي لطمخ شرفها هو صديق لها تخرج معه أيام الاحاد، لم يكن في الواقع قد قبلها مجرد قبله، فقام أبوها وأعمامها، وهم من أمهر قاطعي القصب بالسيف في موسم الحصاد، باجباره على الزواج منها. ولم يكن يبدو على فلورينتينوارثا انه الرجل نفسه الذي قلبه ظهراً وبطناً امرأتان كانتا حتى زمن لا يتجاوز بضعة شهور تجعلانه يرتعش حبا، فتدعكانه بالصابون من فوق ومن تحت، وتنشفانه بمناشف من قطن مصري وتدلكانه في كل اجزاء جسده، دون ان تفلت منه نهدة نشوة. وكان لكل منها تفسيرها لفقدانه الرغبة. فليونا كاسياني نظن بانها مقدمات الموت، بينما تعزوه اميركا فيكونيا الى منشأ خفي لا تستطيع إدراك كنهه. وكان هو وحده يعرف الحقيقة، ويعرف ان لها اسماً محدداً. لكن ذلك كان ظلياً على أي حال: فقد كانتا تعانيان وهما تخدمانه اكثر من معاناته هو الذي يتلقى أحسن الخدمات.

ان ثلاثة أيام ثلاثاء فقط كانت كافية لتدرك فيرمينا دائماً مدى الفراغ الذي تركته زيارات فلورينتينوارثا. كانت تقضي تلك الايام مع صديقاتها المواظبات على زيارتها. وكانت لوكريثا دل ريال دل اوبيسو قد ذهبت الى بناما لتتظر في أمر ألم أصاب سمعها ولم يعد يتوقف باي ثمن، وعادت وهي مطمئنة جداً بعد شهر، لكن سمعها كان أخف مما كان عليه قبلاً يبقو تضعه في اذنها. وكانت فيرمينا دائماً هي الصديقة الأكثر احتيالا لاختلاط اسئلتها واجاباتها، مما شجع لوكريثا على زيارتها يومياً، وفي أي وقت يخطر لها. لكن فيرمينا دائماً لم تجد في أحد تعويضاً عن اسميات فلورينتينوارثا المسكنة.

لم تكن ذكرى الماضي لتعوض عن المستقبل، كما كان يظن. بل انها على العكس من ذلك، كانت ترسخ قناعة فيرمينا دانا الدائمة في ان ذلك الهياج المحوم في العشرين من العمر انما كان شيئاً نبيلاً وجميلاً جداً، لكنه ليس بالحب. ورغم صراحتها الفجة، فانها لم تشأ ان تكشف له ذلك سواء بالبريد او شخصياً، كما لم تجد في قلبها متسعاً لتقول له كم هوائف رنين العواطف في رسائله بعد ان عرفت آية تأملاته المكتوبة، وكيف تخفف اكاذيبه الغنائية من قيمته، وكم يضربه إصراره المجنون على استعادة الماضي. لا... لم يكن بإمكان اي سطر من سطور رسائله القديمة ولا أية لحظة من لحظات شبابها المضجر اشعارها بأن امسيات الثلاثاء ستكون بهذه الرحابة، كما هي في الواقع، من دونه، وهذا التوحد والخواء.

كانت قد بعثت الى مستودع المهملات في الاصطبل خلال احدى نوباتها المفاجئة بمذيع اهداها اياه زوجها في ذكرى زواجهما لأحد الاغوام، وقد فكرا كلاهما بتقديمه الى المتحف باعتباره اول مذيع وصل الى المدينة. وكانت قد قررت وهي في عتمة حدادها عدم استخدامه، لأن أرملة لها القابها لايمكن لها الاستماع الى أية موسيقى دون ان تسيء الى ذكرى زوجها الميت، حتى ولو فعلت ذلك في مخدعها. ولكنها بعد يوم الثلاثاء الثالث للوحدة أمرت باعادته ثانية الى الصلاة، لالتستمتع باغنيات اذاعة ريو بامبا العاطفية، كما كانت من قبل، وانما لتشغل ساعات فراغها بالاستماع الى روايات الدموع التي تبثها اذاعة سنثياغودي كوبا. وكان ذلك قراراً صائباً، لانها بدأت تفقد منذ ميلاد ابنتها عادة المطالعة التي اكسبها اياها زوجها باجتهاد منذ رحلة الزفاف، وفقدت تلك العادة تماماً مع ما اصاب بصرها من ضعف متزايد، الى ان أصبحت تمضي بضعة شهور أحياناً دون ان تعرف أين هي نظارتها.

لقد استهوتها الروايات الاذاعية من اذاعة سنثياغودي كوبا، حتى صارت تنتظر بجزع الحلقات اليومية المتسلسلة. وكانت تستمع بين الحين والآخر الى الاخبار لتعرف ما الذي يحدث في الدنيا، وفي بعض المناسبات النادرة، حين تبقى وحدها في البيت، كانت تستمع بصوت منخفض جداً، الى موسيقى الميرينغي من اذاعة سانتودومينغو وموسيقى بلينا من اذاعة بورتوريكو اللاتين والواضحتين. وفي احدى الليالي، سمعت خبراً مؤثراً من محطة اذاعة محمولة انطلقت فجأة بقوة ووضوح كما لو كانت تبث من البيت المجاور، وجاء في الخبر ان عمجوزين اعتادا ان يكررا شهر عسلهما في نفس المكان منذ اربعين سنة، قد قُتلا بضربات مجداف على يد صاحب الزورق الذي كان يحملهما في نزهة، وذلك ليسرق ما معهما من مال: أربعة عشر دولاراً. وكان تأثرها أشد حين روت لها لوكر يبادل ريال القصة الكاملة كما نشرتها احدئ الصحف المحلية. فقد اكتشفت الشرطة ان العمجوزين المقتولين - المرأة في الثامنة والسبعين والرجل في الرابعة والتنانين - هما عاشقان سريان، يقضيان اجازتهما معاً منذ اربعين

سنة ، لكن كل منها متزوج زواجا محترماً ومستقراً وسعيداً ، ولكل منها عائلة كبيرة . وفيرمينا داثا التي لم تنك يوماً بسبب المسلسلات الاداعية ، جاهدت بصعوبة لفتح عقدة الدموع التي علقت في حلقها ، حين بعث اليها فلوريتينو ارشيا في رسالته التالية قصاصة الجريدة التي تحمل الخبر بلا أي تعليق منه .

لم تكن تلك الدموع هي آخر دموع تضطر فيرمينا داثا لفتحها . فقبل ان يكمل فلوريتينو ارشيا ايام اعتكافه الستين ، كشفت صحيفة العدالة على صدر صفحاتها الاولى مع صور المعلنين ، عن غراميات سرية مزعومة للدكتور خوفينال اورينو ولوكريثيا دل ريال دل اوييسو . واسهبت الجريدة في تفاصيل العلاقة ، ومداهها واسلوبها ، وكذلك حول نواطف الزوج ، المستسلم لانحرافات السدوية مع الزوج العاملين في مصنع لتكرير السكر . وكان للقصة المنشورة بحروف بارزة وبحبر له لون الدم دويماً كدوي رعد الكارثة في اوساط الطبقة الارستقراطية الاخذة بالتفسخ . ومع ذلك لم يكن فيها سطر واحد يحمل الحقيقة : صحيح ان خوفينال اورينو ولوكريثيا دل ريال كانا صديقين حميمين مذ كانا غازبين وبقيا صديقين بعد زواجهما ، لكنهما لم يكونا عاشقين في يوم من الايام . ولم يكن هنالك ما يشير على كل حال الى ان المقال المنشور كان يريد التشهير باسم الدكتور خوفينال اورينو ، الذي تتمتع ذكراه باحترام مجمع عليه ، وانما كان المقصود هو زواج لوكريثيا دل ريال ، الذي اختير رئيساً للنادي الاجتماعي في الاسبوع السابق . وقد تم احماد الفضيحة خلال ساعات قليلة . لكن لوكريثيا دل ريال لم تعد لزيارة فيرمينا داثا ، واعتبرت هذه الامر على انه اعتراف بالذنب .

وقد اتضح بعد وقت قصير جداً ان فيرمينا داثا نفسها لم تكن كذلك بمنحى من مخاطر طبقتها . فقد حملت عليها جريدة العدالة مستغلة نقطة ضعفها الوحيدة : أعمال أبيها التجارية . فعندما اذعن هذا للنفي الاجباري ، كانت تعرف حادثة واحدة من اعماله الغامضة ، كما روتها لها غاللا بلاثيديا . وفيما بعد ، حين أكد لها الدكتور اورينو الامر بعد مقابلته للحاكم ، أيقنت ان أباهما كان ضحية مكيدة مدبرة . والمسألة هي ان اثنين من رجال الشرطة الحكوميين حضرا ومعهما أمر بتفتيش بيت حديقة الشارة ، وقد فتشا البيت كله دون أن يجدا ما يبحثان عنه ، ثم امرا اخيراً بفتح خزانة الملابس ذات الابواب المغطاة بمرايا والموجودة في حجرة نوم فيرمينا داثا سابقاً . كانت غاللا بلاثيديا وحدها في المنزل حينئذ ، ولم يكن لديها من وسيلة لانذار أحد ، فرفضت فتح الخزانة متذعرة بانها لا تملك المفتاح . عندئذ حطم أحد الشرطيين مرايا الابواب بعقب مسدسه ، واكتشف وجود فراغ ما بين الزجاج والخشب مملؤ بأوراق نقدية مزيفة من فئة المئة دولار . كانت هذه هي ذروة سلسلة من الابحاث التي قادت الى لورينشو داثا على انه الحقبة الاخيرة من عملية دولية واسعة . وكان

التزوير متقناً جداً، فالأوراق النقدية المزيفة تتمتع بجميع مواصفات ورق النقود الاصيلي : اذ انهم محو الكتابة والرسم عن أوراق من فئة دولار واحد باستخدام مادة كيمياوية تشبه السكر، ثم طبعوا على الورق ذاته نقوداً من فئة المئة دولار. وادعى لورينثودانا انه اشترى الخزنة بعد زمن طويل من زواج ابنته، وان الخزنة وصلت الى البيت دون شك والأوراق النقدية مخبأة فيها، لكن الشرطة اثبتت ان الخزنة موجودة في البيت مذ كانت فيرمانا دانا تذهب الى المدرسة. وانه لا يمكن لأحد سواه اخفاء الثروة الزائفة وراء المرايا. هذا هو الشيء الوحيد الذي رواه الدكتور اورينولز ورجته يوم تعهد أمام الحاكم باعادة حماه الى موطنه للتغطية على الفضيحة. أما الجريدة فروت أموراً كثيرة أخرى.

روت ان لورينثودانا توسط خلال احدى الحروب الاهلية الكثيرة في القرن الماضي، بين حكومة الرئيس الليبرالي اكيلوبارا وشخص بولوني الاصل، يدعى جوزيف ك. كورزينوفسكي، أقام هنا عدة شهور مع طاقم السفينة التجارية سانت انطون، التي ترفع العلم الفرنسي، في محاولة لتصريف صفقة سلاح معقدة، ولم يعرف احد كيف اتصل كورزينوفسكي، الذي ذاع صيته للعالم فيما بعد باسم جوزيف كونراد، مع لورينثودانا، الذي اشترى منه شحنة الاسلحة لحساب الحكومة، بوثائق وايصالات نظامية، ودفع الثمن ذهباً حقيقياً. وحسب رواية الجريدة، فقد ادعى لورينثودانا ضياع الاسلحة في هجوم مباغت، ثم انه أعاد بيعها بضعف الثمن الحقيقي الى المحافظين الذين يخوضون حرباً ضد الحكومة.

وروت العدالة أيضا ان لورينثودانا اشترى بثمان زهيد جداً شحنة احذية عسكرية فائضة لدى الجيش الانكليزي، في الزمن الذي أسس فيه الجنرال رافائيل رئيس البحرية الحربية، وانه ضاعف في هذه العملية وحدها ثروته خلال ستة شهور. وحسبها جاء في الصحيفة، فانه لدى وصول الشحنة الى هذا الميناء، رفض لورينثودانا استلامها لان الاحذية التي وصلت كانت جميعها للقدم اليمنى فقط، ولكنه كان المشارك الوحيد في المزايدة التي اعلنتها الجمارك حسب القوانين النافذة، واشترى الشحنة بمبلغ رمزي هومنة بيزو. وفي اثناء ذلك، اشترى شريك له في ظروف مشابهة شحنة احذية للقدم اليسرى، كانت قد وصلت الى جمارك ريوهاتشا. وما ان انتظمت الاحذية مع بعضها حتى باعها لورينثودانا، مستفيدا من نسبة مع ال اورينودي لا كايي، للبحرية الحربية الناشئة بأرباح بلغت الفين بالمتة.

وانتهت رواية العدالة الى القول ان لورينثودانا لم يغادر سان خوان دي لايناغا في اواخر القرن الماضي بحثاً عن مكان أفضل لمستقبل ابنته، كما كان يدعي، واننا لانكشف أمره في مزج التبغ المستورد مع ورق مفروم، وهي الصناعة المزدهرة التي مارسها بمهارة فائقة، حتى



انها كانت تنطلي على المدخنين المحترفين. كما كشفت علاقاته بشركة سرية دولية، كان نشاطها الرائج في اواخر القرن الماضي يتمثل في تهريب الصينيين من بناما الى البلاد بأساليب غير مشروعة. أما تجارة البغال المشبوهة، والتي أساءت كثيرا الى سمعته، فيبدو انها التجارة الشريفة الوحيدة التي مارسها في حياته.

عندما غادر فلوريينوارثا الفراش، وظهره ملتهب بالقروح، مستخدما لأول مرة في حياته عكازا بدلا من المظلة، كان خروجه الاول الى بيت فيرمينا دائما. وجدها وقد تبدلت تماما، بفعل آثار السنين على بشرتها، ويحقد أفقدها الرغبة في الحياة. وفي الزيارتين اللتين قام بهما الدكتور اوريبنودانا لفلوريينوارثا اثناء مرضه، حدثه عن الاسى الذي سببه لأمه مقاتل العدالة. فالمقالة الاولى اثارت فيها غضبا مجنونا لخيانة زوجها وغدر صديقتها، مما جعلها تتوقف عن زيارتها لضريح زوجها التي كانت تقوم بها في يوم من أيام الاحد كل شهر، وذلك لسخطها من انه لن يستطيع وهو في تابوته سماع اللغات التي تريد ان تكيها له: لقد اختلفت مع الميت. وبعثت الى لوكرثيا دل ريال، مع كل من يريد ان يوصل الكلام اليها، تقول لها بان تقنع بالعرزاء لانها وجدت على الاقل رجلا بين جميع من مروا في فراشها. أما في المقالة عن لورينودانا لم يكن معروفا ما هو الذي يؤلمها اكثر: أمي المقالة، ام اكتشافها المتأخر لهوية ابنيها الحقيقية. لكن أحد الاحتمالين، أو كلاهما معا، قصص ظهرها. فالشعر ذو اللون الفولاذي الذي كان يزيد من نبيل وجهها، صار يبدو وكأنه نسلات الذرة الصفراء، وعينا الفهدة الجميلتان معا دنا تلمعان ببريقهما القديم رغم روعة الغضب فيها. وكان قرارها برفض الاستمرار في الحياة يظهر في كل حركة من حركاتها. ورغم اقلعها منذ سنوات طويلة عن عادة التدخين، سواء وهي محبوسة في الحمام أو في أي مكان آخر، فقد عادت اليه مجددا بشكل علني وبشراهة لا كايح لها. وبدأت أول الامر بتدخين سجائر تلفها بنفسها، كما كانت تحب ان تفعل من قبل، ثم أخذت تدخن الانواع العادية التي تجدها في المتجر، لانها لم تعد تجد متسعا من الوقت والصبر للفت السجائر.

لو ان أي رجل آخر كان في موقع فلوريينوارثا لتساءل ما الذي سيقدمه المستقبل لشيخ مثله، اعرج ومكوي الظهر بقروح كفروح حمار، ولا امرأة لاتتوق لسعادة اخرى سوى الموت. أما هو فلم يتساءل. بل وجد بصيصا من الأمل مابين انقراض الكارثة، وبداله ان نكبة فيرمينا دائما تجعلها أعظم شأنا، والغضب يجعلها أجمل، والحد على العالم قد أعاد اليها طبعها الجموح الذي كانت عليه وهي في العشرين من العمر.

كان لديها الان سبب آخر للاعتراف بجميل فلوريينوارثا. فقد بعث على اثر المقالات الشعبية برسالة نموذجية الى العدالة حول مسؤولية الصحافة الاخلاقية ودورها في احترام

شرف الآخرين . لم تنشر الصحيفة الرسالة ، لكن الكاتب بعث بنسخة منها الى دياريو دول كوميرثو، أقدم صحف ساحل الكاريبي واكثرها جدية ، فأبرزتها هذه على صفحتها الاولى . كانت الرسالة تحمل توقيع جويتر ، وكانت عقلانية ولاذعة ومتقنة ، مما حمل البعض لنسبتها الى بعض ابرز كتاب المقاطعة . كانت صوتا منفردا وسط الاقيانوس ، لكنه سمع بعمق ووصل بعيدا جداً . وعرفت فيرمينا داثا هوية الكاتب دون ان يخبرها أحد بذلك ، لانها تعرفت على بعض الافكار ، بل وعلى جملة حرفية ، من تأملات فلورينتينو اريثا الاخلاقية . ولذا ، فقد استقبلته بحبوية في فوضى ياسها . وفي هذه الفترة بالذات ، وجدت اميركا فيكونيا نفسها وحيدة في مساء احد الايام في غرفة النوم ببيت شارع لاس فيتناناس ، واكتشفت دون أي بحث ، وبمحض الصدفة ، في خزانة بلا مفاتيح ، نسخا من تأملات فلورينتينو اريثا المطبوعة على الالة الكاتبة ، ورسائل فيرمينا داثا المكتوبة بخط اليد .

ابتهج الدكتور اورينودا لتجدد الزيارات التي ترفع كثيرا من معنويات امه . وكان بذلك على عكس اخته اوفيليا ، التي رجعت في أول سفينة فواكه قادمة من نيو اورليانز فور ساعها باخبار الصداقة الغريبة التي تقيمها فيرمينا داثا مع رجل ، سمعته الاخلاقية ليست على ما يرام . وقد تسبب هياجها بنشوب أزمة منذ الاسبوع الاول ، حين لاحظت درجة اللفة والسلطة التي يدخل بها فلورينتينو اريثا الى البيت ، والوشوشات والنزاعات العابرة الشبهة بوشوشات ونزاعات خطيبين وذلك اثناء زيارته التي تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل . وما كان يراه الدكتور اورينودا تألفاً صحياً بين عجوزين متوحدين ، كانت ترى فيه أسلوبا مريباً في اتخاذ خليل سري . هكذا كانت اوفيليا اورينودوماً ، اقرب شهباً بدونيا بلانكا جدتها لابيها ، منها لامها . فهي مترفعة مثل جدتها ، ومتعجرفة مثلها ، وتعيش مثلها على الاوهام . ما كانت قادرة على تصور صداقة بريشة تجمع بين رجل وامرأة حتى ولو كانا في الخامسة من العمر ، فكيف اذا كانا في الثمانين . وفي احدي نزاعاتها المعتادة مع اخيها ، قالت ان الشيء الوحيد المتبقي لكي يواسي فلورينتينو اريثا به امها هو ان ينام معها في سريرها كأملة . ولم تكن لدى الدكتور اورينودا الشجاعة لمواجهتها ، لانه لم يكن يمتلك الشجاعة امامها يوماً ، لكن زوجته تدخلت بشبر يرجدي حول الحب في أي سن كان . فققدت اوفيليا صوابها وصرخت بها :

- ان الحب في سننا شيء مضحك ، أما في سننها فهو قدارة خنازير .

وقررت في حدة اندفاعها ان تطرد فلورينتينو اريثا من البيت ، ووصل هذا الى سمع فيرمينا داثا . فاستدعتها إلى حجرة النوم ، كما تفعل كلما ارادت الحديث في أمر لا تريد ان تسمعه الخادومات ، وطلبت منها ان تعيد أمامها ما قالته من شتائم . ولم تحاول اوفيليا ان تخفف

من قسوتها : كانت موقنة ان فلورينتينواريثا، بسمته الفاسدة التي لا تخفى على أحد، انها يريد الوصول إلى علاقة آثمة، ستشوه اسم العائلة الطيب اكثر مما شوهته اساءات لورينثو داثا ومغامرات خوفينال اورينينو الغبية . استمعت اليها فيرмина داثا دون أن تنطق بكلمة واحدة، بل ودون ان ترمش، ولكنها حين انتهت من الاستماع كانت قد تحولت إلى امرأة اخرى . . كانت قد عادت إلى الحياة، فقلت لها :

- الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو انني لا أملك القوى لضربك الضرب الذي تستحقين، لوقاحتك وخبث نيتك . ولكنك ستخرجين الآن من هذا البيت، وأقسم لك برفات أمي انك لن تدخله ما دمت على قيد الحياة .

لم تكن هنالك من قوة قادرة على ثنيها عن قرارها . فذهبت اوفيليا للاقامة في بيت اخيها، وبعثت من هناك بكل انواع التوسلات عبر وسطاء من الاعيان . ولكن دون جدوى . فلا وساطة الابن ولا تدخل الصديقات استطاع ثنيها . ثم انها أطلقت اخيراً أمام كتتها التي كانت تربطها بها دائماً علاقة بعيدة عن الرسميات ، سرّاً باحت به بطلاقة كطلاقتها في سنوات شبابه : «منذ قرن من الزمان أفسدوا حياتي مع هذا الرجل المسكين لاننا كنا ما نزال صغيرين ، وها هم يريدون افسادها الآن ثانية لاننا أصبحنا عجوزين» . ثم أشعلت سيجارة من عقب الأخرى، ونفثت السم الذي كان ينخر جوفها قائلة :

- فليذهبوا الى الجحيم . ان كان لنا نحن معشر الأرامل من مكسب، انه لم يعد هناك من يأمرنا .

لم يكن للصلح من مكان . وحين اقتنعت اوفيليا اخيراً بعدم جدوى جميع المحاولات، رجعت إلى نيواورليانز . والشيء الوحيد الذي استطاعت التوصل اليه مع امها هوان تودعها . ووافقت فيرмина داثا على ذلك بعد توسلات كثيرة، لكنها لم تسمح لها بالدخول إلى البيت : لقد أقسمت على ذلك بعظام أمها، التي كانت بالنسبة لها، في تلك الايام الغائمة، الشيء الوحيد الذي بقي طاهراً .

في احدى زياراته الأولى، واثناء الحديث عن سفنه، وجه فلورينتينواريثا دعوة رسمية لفيرمين داثا لتقوم برحلة استجمام عبر النهر . حيث يمكنها من هناك الوصول، بعد يوم واحد في القطار، إلى عاصمة الجمهورية، التي ما زالا، مثلهم كمثمل معظم الكاريبيين من ابناء جيلهم، يطلقون عليها الاسم الذي كانت تحمله حتى القرن الماضي : سانتافي . لكنها كانت تحتفظ بوجهة نظر زوجها ولا تريد معرفة مدينة باردة وقائمة حيث النساء لا يخرجن من بيوتهن إلا إلى صلاة الخامسة، ولا يستطعن الدخول إلى مقاهي بيع الثلجات ولا إلى الدوائر العامة، كما قيل لها، وحيث توجد في كل وقت زحمة جنازات في الشوارع ومطر خفيف متواصل

منذ سنوات البغلة ذات الحدودات . . انها أسوأ من باريس . ولكنها كانت تشعر بالمقابل بميل شديد إلى النهر، فهي تريد رؤية التماسيح تتشمس على الضفاف، وتريد الاستيقاظ في منتصف الليل على نواح الأطم الذي يشبه بكاء النساء، لكن فكرة القيام برحلة شاقة في هذه السن، إضافة إلى كونها أرملة ووحيدة، كانت تبدو لها أمراً لا واقعياً.

كرر فلورينتينو أريشا الدعوة لها فيما بعد، حين كانت قد قررت الاستمرار في الحياة بدون زوجها، فبدت لها الفكرة حينئذ أكثر احتمالاً . ولكن بعد خلافها مع ابنتها، واحساسها بالمرارة للاهانات الموجهة الى ابوها، وحقدتها على زوجها الميت، وغضبها من تملقات لوكريشيا دل ريال المناقاة، والتي اعتبرتها لسنوات طويلة أفضل صديقاتها، أخذت تشعر بانها مجرد شيء زائد عن الحاجة في بيتها . وفي مساء أحد الأيام، وفيما هي تشرب شرابها الخاص المحضّر من أوراق شاي كونيّة، نظرت إلى مستنقع الفناء، حيث لم تعد تبرعم شجرة نكبتها، وقالت:

- ما أريده هو هجر هذا البيت، والانطلاق قدماً، قدماً قدماً، وعدم العودة اليه أبداً.

فقال فلورينتينو أريشا:

- اذهبي في سفينة نهرية.

نظرت اليه فيرمين داثا وهي ساهمة وقالت:

- يمكنك الاعتقاد بأن هذا وارد.

لم تكن قد فكرت بذلك لحظة واحدة قبل ان تنطق به، ولكن مجرد ورود الاحتمال كان كافياً لاعتبار الامر ناجزاً . وقد سر الابن والكنة حين علما بالخبر . وسارع فلورينتينو أريشا ليؤكد ان فيرمينا داثا ستكون ضيفة شرف على سفنه، وستجد تحت تصرفها قمرة مجهزة بكل شيء وكأنها في بيتها، وستكون الخدمة على اكمل وجه، وسيكلف القبطان بالذات حمايتها والسهر على راحتها . وجاء بخرائط تبين خط سير الرحلة ليشجعها، وبطاقات بريدية لمناظر غروب هائلة، وقصائد شعرية عن جنة نهر مجدلينا البدائية كتبها رحالة مشهورون، أو انهم أصبحوا مشهورين لروعة القصيدة . فكانت تلقي عليها نظرة عابرة حين يكون مزاجها رافقاً وتقول له:

- ليس عليك ان تخافني كما لو انني طفلة . اذا كنت أريد الذهاب فلاني قررت ذلك، وليس اهتماماً بالمناظر الطبيعية .

وحين اقترح ابنها بان تذهب زوجته معها لمرافقتها، قاطعته بلهجة مسالمة : «لقد كبرت ولم أعد بحاجة لمن يرعاني» . ورتبت بنفسها تفاصيل الرحلة . وكانت تشعر براحة كبيرة لفكرة ان ابنها ستمضي ثمانية أيام في صعود النهر وخمسة أيام في نزوله دون ان تحمل معها شيئاً باستثناء

الحاجات التي لا غنى عنها: نصف ذينة من الفساتين القطنية، وادوات زيتتها ونظافتها، وزوج من الاحذية للصعود به إلى السفينة وللنزول إلى البر، ونعال يتي لاستخدامه اثناء الرحلة، ولا شيء آخر. انه حلم حياتها.

في شهر كانون الثاني لعام ١٨٢٤، قام الريان خوان برناردو اليرس، مؤسس الملاحة النهرية، برفع راية السفينة البخارية الاولى التي نخرت مياه نهر مجلينا، وقد كانت آلة بدائية بقوة اربعين حصاناً، تدعى وفاء. وبعد مرور اكثر من قرن، في السابع من تموز، وفي الساعة السادسة مساء، رافق الدكتور اوربينودا وزوجته، فيرmina دانا لتركب السفينة التي ستحملها في رحلتها الاولى عبر النهر. وكانت تلك السفينة هي الاولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية، وقد عمدوا فلورينتينواريا باسم وفاء الحديدية تحليداً لذكرى سلفتها المجيدة. ولم تستطع فيرmina دانا ان تصدق ابدأ بان ذلك الاسم ذا المعنى الشديد هو مجرد مصادفة تاريخية حقاً، وليس ظرافة اخرى من ظرافات فلورينتينواريا، الرومسي المزمّن.

وعلى خلاف جميع السفن النهرية الاخرى، القديمة منها والحديثة، كان في وفاء الجديدة، والى جانب قمرة القبطان، قمرة اضافية واسعة ومريحة، مكونة من صالة استقبال مؤنثة بمفروشات من البامبو الملون باللوان احتفالية، ومخدع زوجي مزخرف بكامله برخارف صينية، وحمام فيه حوض بانيوودوش، وشرفة مغلقة وفسيحة جداً، فيها نباتات زينة معلقة وتسمح بالرؤية إلى أمام السفينة وجانبيها، ومزودة باجهزة نريد صامتة تحافظ على الجوى ربيع دائم بعيداً عن القيقظ المتقد في الخارج. كان هذا الجناح الفاخر يعرف باسم قمرة الرئاسة، لان ثلاثة من رؤساء الجمهورية سافروا فيه حتى ذلك الحين، ولم يكن لهذه القمرة اي غرض تجاري، بل كانت مخصصة للسلطات العليا والضيوف الخاصين جداً. وقد بناها فلورينتينواريا لهذا الغرض المعلن فور تعيينه رئيساً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية. لكنه كان متأكداً في دخيلته من انها ستكون عاجلاً أو آجلاً الملجأ السعيد لرحلة زفافه مع فيرmina دانا.

وفعلاً جاء اليوم المنتظر، واتخذت موقعها في القمرة الرئاسية كربة وسيدة للمكان. وقدم القبطان فروض التشريف للدكتور اوربينودا وزوجته وفلورينتينواريا بالشمبانيل والسلمون المدخن. كان اسمه ديفوساماريتانو، وكان يرتدي بدلة من الكتان الابيض، محكمة على مقاسه تماماً، من الحذاء وحتى القبعة التي تحمل شعارش. ك.م. ن مطرزاً بخيوط ذهبية، وكان يشبه غيره من قباطنة السفن النهرية بضخامته التي كضخامة اشجار الليبا، وبصوته الحازم وحركاته التي كحركات كريدنال فلورنسي.

في الساعة السابعة ليلاً أطلقت أولى اشارات الابحار، واحست بها فيرمينا داثا تدوي بألم حاد في اذنها اليسرى. لقد حملت في الليلة السابقة أحلاماً مثلمة ذات نذر مشؤومة لم تتجراً على تفسيرها. ومنذ الصباح الباكر ذهبت إلى مدفن المجمع الاكليريكي الذي صار يعرف باسم مقبرة لامانغا، وصالحت زوجها الميت، وهي واقفة أمام قبره، وذلك بمنولوج أطلقت فيه العنان للموها العادل الذي كانت تغص به. ثم روت له تفاصيل الرحلة، وودعته متمنية اللقاء به قريباً. لم تشأ ان تخبر أحداً آخر بانها ذاهبة، وذلك ما كانت تفعله كلما سافرت إلى اوروبا، لتحول دون الوداعات المنهكة. ورغم رحلاتها الكثيرة، فقد أحست وكأن هذه هي رحلتها الاولى، وكان قلقها يتزايد كلما تقدم النهار واقترب الموعد. وحين أصبحت على متن السفينة، أحست بالهجران والكآبة، ورغبت بالبقاء وحيدة لتبكي.

عند انطلاق اسارة الابحار الاخيرة، ودعها الدكتور اوربينوداثا وزوجته دون دراماتيكية، ورافقهما فلوريتينو اريثا إلى جسر النزول إلى البر. حاول الدكتور اوربينوداثا ان يفسح له الطريق ليمشي وراء زوجته، ولكنه انتبه حينئذ فقط إلى ان فلوريتينو اريثا ذاهب في الرحلة أيضاً. ولم يستطع الدكتور اوربينوداثا السيطرة على حيرته، فقال:

- ولكننا لم نتحدث في هذا من قبل.

اراه فلوريتينو اريثا، مفتاح قمرته كدليل كاف على حسن نواياه: قمرة عادية في جناح المسافرين العاديين. ولكن الدكتور اوربينوداثا لم ير في ذلك دليلاً كافياً على البراءة. فاتجه الى زوجته بنظرة عريق، باحثاً عن نقطة استناد لحيرته، ولكنه التقى بعينين ثلجيتين. وقالت له بصوت خافت جداً، وحازم في الوقت ذاته: «وأنت أيضاً؟» أجل. هو أيضاً، مثل اخته اوفيليا، يفكر ان للحب سناً معيناً يصبح بعده امرأ غير لائق. لكنه استطاع السيطرة على نفسه في الوقت المناسب، وودع فلوريتينو اريثا شاداً على يده بحركة فيها من الاذعان اكثر مما فيها من الشكر.

رآهما فلوريتينو اريثا ينزلان من السفينة وهو واقف عند درابزين الصالة. تماماً كما كان ينتظر ويأمل، والتفت الدكتور اوربينوداثا وزوجته بنظرهما اليه قبل ان يدخلوا السيارة، فودعهما ملوحاً بيده. وردا عليه بتحية ماثلة. وبقي عند الدرابزين إلى ان اختفت السيارة وسط غبار باحة الشحن، ثم مضى إلى قمرته ليرتدي ملابس اكثر ملائمة للعشاء الأول على متن السفينة، في صالة الطعام الخاصة بالقبطان.

كانت ليلة رائعة، تبليها القبطان ديغو ساماريتانو بحكايات لذيذة عن سنواته الاربعين في النهر، لكن فيرمينا داثا اضطرت للقيام بمجهود كبير لتبدو سعيدة. ورغم انطلاق صفارة التنبيه الاخيرة في الساعة الثامنة، ورغم انزال الزائرین ورفع جسر النزول في هذه الساعة

أيضاً، فإن السفينة لم تنطلق إلى ان انتهى القبطان من تناول طعامه وصعد إلى مركز القيادة ليشرّف على مناورة الخروج من الميناء. بقيت فيرمينا داثا وفلورينتينواريثا يتطلّعان من فوق درابزين الصالة العامة، مختلططين مع المسافرين الصّاحبين الذين كانوا يلعبون لعبة تميز أضواء المدينة، إلى ان خرجت السفينة من الميناء، وولجت قنوات لامرئية ومستنقعات مبرّقة بانوار متموجة تنبعث من زوارق الصيادين، وشخرت اخيراً ملء رئتها في الهواء الطلق لنهر مجدلينّا العظيم. حينئذ انطلق الفرقة الموسيقية في عزف مقطوعة شعبية دارجة، وهيمنت على المسافرين موجة من المرح، وبدأ الرقص الصّاحب.

فضلت فيرمينا داثا اللجوء إلى القمرة. لم تكن قد نطقت بأية كلمة خلال الليل، وقد تركها فلورينتينواريثا تته في تأملاتها، ولم يقاطعها إلا ليوذعها أمام قمرتها. لكنها لم تكن تشعر بالنعاس، وانما بشيء من البرد فقط، واقترحت ان يجلسا قليلاً ليراقبا النهر معاً من الشرفة الخاصة. فسحب فلورينتينواريثا كرسيين خيزرانيين إلى الشرفة، وأطفأ الانوار، ووضع لها بطانية صوفية على كتفها، وجلس إلى جانبها. لفت سيجارة من العلبة التي أهداها اياها. لفتها بمهارة مذهلة، ودخنتها ببطء واضعة الجمرة في فمها، دون ان تتكلم، ثم لفت سيجارتين اخريين متتاليتين وخذنتهما دون توقف. وشرب فلورينتينواريثا ترمسين من القهوة المرة رشفة بعد اخرى.

كانت أضواء المدينة قد اختفت في الافق. ومن خلال الشرفة المظلمة كان النهر المنبسط الساكن، ومرباع العشب على ضفتيه تبدو تحت ضوء القمر المكتمل بداراً وكأنها سهوب فوسفورية. وبين الحين والحين كان يظهر كوخ من القش إلى جانب محارق كبيرة يعلنون بها انهم يبيعون هناك حطباً لمراحل السفن. كان فلورينتينواريثا يحتفظ بذكريات غائمة عن رحلته النهرية في شبابه، ولكن مرأى النهر جعله يستعيدّها في دقائق مبهرة كما لو انها حدثت بالأمس. روى بعضاً من تلك الذكريات لفيرمينا داثا معتقداً ان ذلك قد يثبت فيها الحماس، لكنها كانت تدخن في عالم آخر. فتخلّى فلورينتينواريثا عن ذكرياته وتركها وحيدة مع أفكارها، وكانت اثناء ذلك تلف السجائر وتشعلها إلى ان نفدت العلبة. توقفت الموسيقى بعد منتصف الليل، وتلاشى صخب المسافرين، ثم تحول إلى همسات هاجعة، وبقي القلبان وحدهما في الشرفة المظلمة يعيشان ايقاع أنفاس السفينة.

بعد مرور بعض الوقت، نظر فلورينتينواريثا إلى فيرمينا داثا من خلال بريق النهر، فرأها طيفية، ورأى بروفيّل وجهها الذي كتمثال يصبح أكثر حلالة تحت البريق الازرق الخفيف، وانتبه إلى انها كانت تبكي بصمت. ولكنه بدلاً من مواساتها، أو الانتظار إلى ان تنفد دموعها، كما كانت ترغب هي، سمح للقلق بان يداهم، فسأها:

- اتودين البقاء وحدك ؟

قالت :

- لو كنت اريد ذلك لما طلبت منك الدخول .

عندئذ مد أصابعه الباردة في الظلام ، وبحث باللمس عن اليد الاخرى ، ووجدها بانتظاره . لقد كانا يتمتعان ، في اللحظة السريعة ذاتها بما يكفي من الصحو ليدركا أن أياً من اليدين لم تكن هي اليد التي تخيلها قبل ان يلمساها ، وانما كانتا يدين هرمتين معروقتين . ولكنهما ما لبثتا ان أصبحتا كما أرادا في اللحظة التالية . بدأت تتحدث في الزمن الحاضر ، عن زوجها الميت ، وكأنه ما يزال حياً ، وعرف فلورينتينواريثا انه قد ازفت بالنسبة لها أيضاً لحظة التساؤل بوقار وعظمة ، ورغبة جاعحة في الحياة ، ما الذي تفعله بالحب الذي بقي لديها دون سيد .

توقفت فيرمينا دائماً عن التدخين كي لا تفلت يدها التي كان يمسكها بيده . كانت تائهة في قلق البحث عن الوعي . ما كانت قادرة على تصور زوج أفضل من ذلك الذي كان زوجها ، ولكنها كانت تجد العراقيل بدلاً من السهولة في استحضار حياته ، كانت تجد كثيراً من سوء الفهم المتبادل والنزاعات الجوفاء ، والاحقاد التي فضت على غير ما يرام . وتنهدت فجأة : « لا أستطيع ان أصدق كيف يمكن للانسان ان يكون سعيداً خلال سنوات طويلة ، وسط كل هذه الخلافات ، وكل هذه المشاكل ، اللعنه ، وكل ذلك دون ان نعرف ان كان هذا حباً أم لا » . وعندما انتهت من التفرّيج عن قلبها ، أطفأ أحد القمر . كانت السفينة تتقدم بخطواتها المحسوبة ، واضعة قدماً قبل ان ترفع الاخرى : كحيوان ضخم يترصد . وكانت فيرمينا دائماً قد افاقت من ذهوها . فقالت :

- انصرف الآن .

ضغط فلورينتينواريثا على يدها ، ومال نحوها ، محاولاً تقبيل وجنتها . لكنها أعرضت عنه قائلة بصوت أبج ورقيق :

- لا ، ما عاد هذا ممكناً . ان لي رائحة عجوز .

أحست به يخرج في الظلام ، وأحست بوقع خطواته على الادراج ، وأحست باختفائه عن الوجود حتى اليوم التالي . أشعلت فيرمينا دائماً سيجارة اخرى ، وفيها هي تدخنها رأت الدكتور خوفينال اوريبنوبملاسه الكتانية الناصعة ، وصرامته المهنية ، ولطفه المبهر ، وحبه الرسمي ، وأشار لها مودعاً بقبعته البيضاء من سفينة اخرى من الماضي . « لسنا نحن معشر الرجال سوى عبيد مساكين للوهم . أما حين تقرر امرأة مضاجعة أحد الرجال ، فليس هناك من حاجز إلا وتجتازه ، لا حصن إلا وتحطمه ، ولا اعتبار أخلاقي إلا وتكون مستعدة لخرقه من اساسه :



وليس ثمة رب ينفع . » هذا ما قاله لها في احد الأيام . وبقيت فيرمينا داثا جامدة حتى الفجر ، تفكر بفلوريتينواريثا ، ليس كحارس كتيب في حديقة البشارة لا تثير ذكراه فيها أي حنين ، وانما كما هو حينئذ ، عجوز وأعرج ، ولكنه واقعي : انه الرجل الذي كان رهن اشارتها دوماً ولم تستطع التعرف اليه . وفيما السفينة اللاهثة تسحبها نحو بريق الازهار البدائي ، كانت تدعو الله ان يلهم فلوريتينواريثا ليعرف كيف يبدأ ثانية في اليوم التالي .

وقد عرف . كانت فيرمينا داثا قد أعطت تعليماتها للجرسون بان يتركها نائمة إلى ان تستيقظ من تلقاء نفسها . وحين استيقظت وجدت على الكوميدينو مزهرية فيها زهرة بيضاء طازجة ، ما تزال مضمخة بالندى ، ومعها رسالة من فلوريتينواريثا مؤلفة من الصفحات التي استطاع كتابتها مذ ودعها . كان رسالة هادئة ، لا غرض لها سوى التعبير عن الحالة المعنوية التي عاشها منذ الليلة الماضية . . وكانت شديدة الغنائية كرسائله الاخرى ، وخطابية مثلها جميعها ، ولكنها مستندة الى الواقع . قرأتها فيرمينا داثا ببعض الخجل من نفسها لقفزات قلبها المكشوفة . وكانت الرسالة تنتهي بالطلب اليها ان تحب الجرسون حين تكون جاهزة ، لان القبطان ينتظرهما في مركز القيادة ليشرح لهم سير العمل في السفينة .

في الساعة الحادية عشر كانت جاهزة ، مستحمة ومنتعشة بالصابون الذي له رائحة ازهار ، ومرتبدة فستان ارملة رمادي اللون وشديد البساطة ، موفورة النشاط بعد هيجان الليلة الماضية . طلبت فطوراً بسيطاً من الجرسون الذي يرتدي ملابس بيضاء ناصعة ، ويعمل في خدمة القبطان شخصياً ، لكنها لم تبعث اليهم كي يحضروا لمرافقتها . صعدت وحدها ، مبهورة بالسما الصافية ، ووجدت فلوريتينواريثا يتحدث إلى القبطان في مركز القيادة . بدا لها مختلفاً ، ليس لانها رآته بعينين اخريين حينئذ ، وانما لانه كان مختلفاً بالفعل . فبدلاً من الملابس الجنائزية الي ارتداها طوال حياته ، كان ينتعل حذاء ابيض ويرتدي بنطالاً وقميصاً من الكتان مفتوحاً عند العنق واكمامه قصيرة وعلى جيبه الذي فوق الصدر نقشت الحروف الأولى من اسمه . وكان يعتمر قبعة اسكتلندية ، بيضاء اللون أيضاً ، ويضع نظارة ذات عدسات قائمة فوق نظارة قصر النظر الازلية . وما لاشك فيه ان كل ذلك كان يستخدم للمرة الأولى ، وانه اشتراه من اجل الرحلة ، باستثناء حزام الجلد البني العتيق ، والذي لفت انتباه فيرمينا داثا من النظرة الأولى وكأنه ذبابة في طبق الحساء . حين رآته على هذا الحال ، مرتديا ملابس متميزة من أجلها ، لم تستطع منع تورد ناري من الصعود إلى وجنتيها . وانبهرت عند مصافحته ، وانبهر هو اكثر لانبهارها . وادراكهما بانهما يتصرفان كخطيبين زاد من انبهارهما ، ووعيهما بانهما منبهرين كليهما أبهرهما إلى الحد الذي جعل القبطان ساماريتانويلا حظ ذلك بارتعاشة حب . وأخرجهما من الحرج بان شرح لهما مهمات القيادة والآلية العامة للسفينة

خلال ساعتين . كانوا يحرون ببطء شديد في نهر بلا ضفاف ، يتبدد بين كثبان رملية قاحلة حتى الافق . وعلى عكس مياه المصب العكرة ، كانت تلك المياه بطيئة وصافية ، ولها بريق معدني تحت الشمس الحارقة . وأحست فيرمينا داثا بان المكان هودلنا تتخللها جزر رملية . فقال لها القبطان :

- هذا ما تبقى لنا من النهر .

لقد فوجيء فلوريتينواريثا حقاً بالتبدل الذي أصاب النهر ، وازدادت مفاجأته في اليوم التالي ، حين أصبح الابرار أصعب ، ورأى ان النهر الأب ، نهر مجدلينا ، أحد الأنهار الكبرى في العالم ، ليس إلا وهماً من اوهام الذاكرة . واخبرهما القبطان ساماريتانو ان عمليات قطع الغابات اللاعقلانية قد قضت على النهر خلال خمسين سنة : فمراحل السفن التهمت غابات الاشجار الضخمة المتشابكة التي أحسها فلوريتينواريثا تثقل على انفاسه في رحلته الاولى . وأفنى صيادو جلود الدباغة القادمين من نيواورليانز التباسيح التي كانت تتظاهر بالموت واشداقها مفتوحة لساعات وساعات فوق رمال الضفاف لتقتنص الفراشات ، بينما راحت تموت البيغاوات ذات الرطانة الغريبة والقروذ ذات الصرخات المجنونة كلما تناقصت الغابات ، بينما كانت الاطم التي ترضع صغارها من ائدائها الامومية وتبكي بأصوات كأصوات النساء الثكالى على الضفاف هي الصنف المفضل لرصاص صيادي المتعة . كان القبطان ساماريتانو يشعر نحو الاطم بعاطفة شبه امومية ، لانه كان يرى فيها سيدات مُسخن لخطيئة حب اقترفها ، وكان يؤمن بصحة الاسطورة القائلة بانها الاناث الوحيدة التي لا ذكور لها في مملكة الحيوان . وكان يعارض دوماً اطلاق النار عليها من سفينته ، كما هي العادة ، رغم وجود قوانين تحظر ذلك . وقد رفض صياد من كارولينا الشمالية ، يحمل وثائق نظامية ، الرضوخ لتعليماته يوماً ، وهشم رأس أطومة أم بطلقة صائبة من بندقيته السبرينغفيلد ، وبقي الوليد الذي أطار الألم صوابه يبكي صارخاً فوق جثة امه الممددة فحمل القبطان الأطوم اليتيم ليتدبر له مخرجاً ، وترك الصياد مهجوراً على الشاطئ المقفر إلى جوار جثة الأم المقتولة . وقد أمضى ستة اشهر في السجن ، بفعل الاحتجاجات الدبلوماسية ، وكاد يفقد تصريح عمله كبهار ، لكنه خرج من السجن وهو مستعد لتكرار ما فعله كلما اقتضى الأمر منه ذلك . وقد كان ذلك الحادث حدثاً تاريخياً : فالأطوم اليتيم ، الذي رُعي وعاش لسنوات طويلة في حديقة الحيوانات النادرة في سان نيكولا دي لاس بارانكاس ، كان الأطوم الاخير الذي شوهد في النهر .

قال القبطان :

- كلما مررت من هذا الشاطئ ، أدعو الله ان يعود ذلك الامريكي للابحار في سفيني ،

كي اتركه وحيداً من جديد.

فيرميننا دائماً، التي لم تكن تستلطفه أول الأمر، أحست بميل شديد نحو ذلك المارد الرقيق، وانزلته منذ ذلك الصباح في منزلة متميزة من قبلها. وقد أحسنت صنعاً بذلك: فالرحلة لم تكبد تبدأ بعد، وستجد مناسبات كثيرة لتتأكد من انها لم تكن مخطئة.

بقيت فيرمينا دائماً مع فلورينتينواريا في مركز القيادة حتى موعد الغداء، بعد قليل من مرورهما قبالة بلدة كالامار، التي كانت تعيش منذ بضع سنوات في عيد دائم، ولم تعد الآن سوى اطلال ميناء شوارعها مقفرة. الكائن الوحيد الذي رأوه من السفينة، هو امرأة متشحة بالبياض تلوح بمندبل في يدها. ولم تفهم فيرمينا دائماً لماذا لم يحملوها في السفينة، مع انها كانت تبدو مغسومة جداً، ولكن القبطان أوضح لها بانها شبح امرأة غارقة تلوح للمراكب بإشارات مخادعة لتحرفها نحو الدوامات المائية الخطرة عند الضفة الاخرى. ولقد مروا قريباً جداً منها حتى ان فيرمينا دائماً رأتها بكل نقاطيها، واضحة تماماً تحت الشمس، ولم ترتب في انها غير موجودة حقاً، لكن وجهها بدا لها مألوفاً:

كان يوماً طويلاً وقائظاً. وقد رحعت فيرمينا دائماً إلى القمر بعد الغداء، لتنام قيلولتها المعتادة، لكنها لم تنم نوماً مريحاً بسبب ألم اذنها، الذي اشتد بعد ان تبادلت السفينة تحية قوية مع سفينة اخرى تابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية التقت بها على بعد عدة فراسخ من بارانكا بيبخا. قطع فلورينتينواريا حليماً عابراً وهو جالس في الصالون الرئيسي، حيث ينام معظم المسافرين كما لو كان الوقت منتصف الليل. حلم بروساليا، قريباً جداً من المكان الذي رأها تنزل فيه من السفينة إلى البر. رأها في حلمه تسافر وحدها، بملابس من القرن الماضي، وكانت هي، وليس الطفل، تنام القيلولة في قفص الخيزران المعلق على حافة جانب السفينة. كان حليماً غامضاً ومسلية في الوقت ذاته، وبقي يعيش متعته طوال ما بعد الظهر، حين كان يلعب الدومينو مع القبطان واثنين من المسافرين.

كان الحر يجمع مع غروب الشمس، فتنبت الحياة في السفينة يخرج المسافرون كما لو كانوا يخرجون من سبات طويل، وقد استحموا وارتدوا ملابس نظيفة، ويحتلون مقاعد الخيزران في الصالة بانتظار العشاء، الذي يعلن عنه في الخامسة تماماً جرسون يذرع السفينة من طرف إلى آخر وهو يقرع وسط التصفيق الساخر جرس شماس. وفيها هم يأكلون، تبدأ الفرقة بعزف موسيقى فاندانغو الراقصة، ويستمر الرقص بعد ذلك حتى منتصف الليل.

لم تشأ فيرمينا دائماً العشاء بسبب ألم اذنها، وتفرجت على تحميل شحنة الخطب الأولى للمراجل، وذلك في وهدة جرداء حيث لاشيء سوى جذوع مكومة، ورجل عجوز جداً يشرف على تلك التحارة. لم يكن يبدو ان هناك أحداً على مدى فراسخ كثيرة. ولقد كان

التوقف بالنسبة لفيرمينا داثا بطيئاً ومُلاً، وغير وارد في عابرات المحيط الاوروية، وكان الحر شديداً حتى داخل الشرفة المبردة. ولكن حين انطلقت السفينة من جديد، تحركت ريح باردة محملة بروائح بطن الغابة، وأصبحت الموسيقى اكثر مرحاً. وفي بلدة سيتيونويغو، كان ثمة ضوء وحيد ينبعث من نافذة وحيدة في بيت وحيد، ولم يعط مكتب الميناء الاشارة الاصطلاحية بوجود بضائع أو مسافرين لحملهم في السفينة، لذلك تابعت السفينة قدماً دون ان تطلق صفارة تحية.

كانت فيرمينا داثا قد أمضت طوال ما بعد الظهر متسائلة عن الذرائع التي سيلجأ اليها فلوريتينو اريثا ليراهها دون أن يقرع باب القمرة، ولم تعد عند حلول الليل قادرة على احتمال شوقها للقاءه. فخرجت إلى الممر على أمل اللقاء به بشكل يبدو عرضياً، ولم يكن عليها ان تمشي كثيراً: كان فلوريتينو اريثا يجلس على أحد مقاعد الممر، صامتاً وحزيناً كما كان يجلس في حديقة البشارة، وكان يسائل نفسه منذ اكثر من ساعتين ما الذي سيفعله ليراهها. وأبدى كلاهما سيماء الدهشة والمفاجأة التي يتقنان تصنعها على حد سواء، ومضيا معاً إلى القسم المخصص لركاب الدرجة الأولى من سطح المركب، وكان يغص بمسافرين شبان معظمهم من الطلبة الصالحين الذين يتهكون انفسهم مع بعض القلق في الحفلة الاخيرة من الاجازة. وتناول فلوريتينو اريثا وفيرمينا داثا من الكانتين زجاجتي مربطات وهما جالسان كالطلاب مقابل البار، ورأت نفسها فجأة في موقف مخيف. وقالت: «يا للهول!». وسأها فلوريتينو اريثا ما الذي تفكر به ويسبب لها هذا الانطباع. فقالت:

- بالمعجوزين المسكينين، اللذين قتلوا بضربات المجذاف في القارب.

ومضيا للنوم عندما توقفت الموسيقى، بعد محادثة طويلة دون عثرات في الشرفة المظلمة. لم يكن هناك قمر، وكانت السماء ملبدة، وفي الافق تلمح بروق بلا رعود فتضيئها لهنيهة. لف فلوريتينو اريثا لها السجائر، لكنها لم تدخن منها سوى اربع، وهي تتعذب بالآلم الذي كان يهدأ للحظات ثم ما يلبث ان يشتد حين تجار السفينة لدى لقاءها بسفينة اخرى، أو مرورها مقابل قرية هاجعة، أو حين تمضي ببطء لتسبر عمق النهر. روى لها كيف انه كان يراها بشوق في مهرجانات الربيع، وفي رحلة المنطاد، وعلى الدراجة الاكروباتية، وحدها عن الشوق الذي كان ينتظره الاحتفالات العامة طوال السنة، وذلك ليراهها فقط. وكانت هي تراه أيضاً في مناسبات كثيرة، ولم تتصور يوماً بأنه موجود ليراهها فقط. ومع ذلك، فقد تساءلت فجأة حين قرأت رسائله قبل أقل من سنة، كيف امكن له الا يشارك أبداً في مسابقات مهرجان الزهور، لانه كان سيفوز دون ريب. وكذب فلوريتينو اريثا عليها: لم يكن يكتب إلا لها، جميع أشعاره لها، ولم يكن يقرأها أحد سواه. حينئذ بحثت هي عن يده في

الظلام، ولم تجدها في انتظارها كما انتظرت هي يده في الليلة السابقة، وانما امسكت بها بغتة.  
فتجمد قلب فلوريتينو اريشا، وقال :  
- يا لغرابة النساء .

أفلتت ضحكة عميقة، ضحكة يمامة فتية، وعادت تفكر بشيخي القارب . لقد كان ذلك مقدراً : وستلاحقها تلك الصورة دوماً . لكنها قادرة على احتلالها هذه الليلة، لانها تشعر بالطمأنينة والراحة، كما شعرت مرات قليلة في حياتها : احست انها مطهرة من أي خطيئة . وكانت قادرة على ابقاء هكذا حتى الفجر، صامتة، ويده تتعرق في يدها، لكنها لم تستطع احتمال ألم اذنها . فحين انطفأت الموسيقى، وتوقفت حركة مسافري الدرجة العادية الذين كانوا يعلقون اراجيح نومهم في الصالة، أدركت ان ألمها أقوى من رغبتها في البقاء معه . كانت تعلم ان مجرد اخباره بالمها سيخفف عنها لكنها لم تفعل كي لا تقلقه . اذ كانت تشعر حينئذ بانها تعرفه كما لو انها عاشت معه حياتها كلها، وكانت ترى انه لن يتورع عن اعطاء الامر بعودة السفينة إلى الميناء اذا كان هذا يخلصها من الألم .

أحس فلوريتينو اريشا ان الامور ستمضي هذه الليلة على هذا الحال، فانسحب . وفيما هو عند باب القمرة، حاول توديعها بقبلة، لكنها وضعت له خدها الايسر . فاصر، وقد تهدجت انفاسه، فقدمت له خدماً الآخر بفتح لم يعرفه في تلميذة مدرسة . وعندئذ أصر للمرة الثانية، فتلقته بشفتيها، وضمت برعشة عميقة حاولت خنقها بضحكة منسية منذ ليلة زفافها وقالت :

- رباه، كم أنا مجنونة في السفن !

ارتعش فلوريتينو اريشا : فقد كانت تنبعث منها حقاً، كما قالت، رائحة الشيخوخة . ولكنه فيما كان يتقدم نحو قمرته شاقاً طريقه وسط مناهة اراجيح النائمين، عزى نفسه بان له رائحة كذلك، إلا انها اكبر بأربع سنوات، ولا بد انها قد احستها بالانفعال نفسه . انها رائحة الخبائر البشرية التي أحسها في عشيقاته القديمت وأحسها في . لقد قالت له أرملة ناثاريت، التي لا تحفي شيئاً، بطريقة فجأة يوماً : «ان رائحتنا أصبحت كرائحة طيور الرخمة» . وكان كلاهما يمتثل رائحة الآخر، لانها كانا متساويين : رائحتي مقابل رائحتك . لكنه كان شديد الحذر مع اميركا فيكونيا، فرائحة الاقمطة التي تنبعث منها كانت توقظ غرائزه الامومية، لكنه كان يتعذب لفكرة انها لا تستطيع احتمال رائحته : رائحة الشيخ المتصابي . غير أن هذا كله أصبح من الماضي . والمهم الآن هوان فلوريتينو اريشا لم يشعر بسعادة كسعادته هذه الليلة منذ ذلك المساء الذي تركت فيه العمة اسكولاستيكا كتاب الصلوات على طاولة مكتب التلغراف . . . انها سعادة غامرة إلى حد يبعث فيه الخوف .

كان قد بدأ يغفو، حين ايقظه مراسل السفينة في الساعة الخامسة عند ميناء ثامبرانو ليسلمه برقية مستعجلة. كانت البرقية تحمل توقيع ليونا كسياني، وتاريخ اليوم السابق، وكل رعبها ضمنت في سطر واحد: اميركا فيكونيا ماتت أمس. الاسباب غير معروفة. وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً عرف التفاصيل من خلال اتصال تلغرافي مع ليونا كاسياني، وقام هو نفسه بالعمل على جهاز الارسال كما لم يفعل منذ سنواته كعامل تلغراف. وعلم ان اميركا فيكونيا، التي وقعت ضحية احباط قاتل لرسوها في الامتحانات النهائية، شربت قنينة لودنوم سرقته من مستوصف المدرسة. كان فلوريتينو اريثا يعلم في اعماق روحه ان ذلك الخبر غير مكتمل. ولكن لا: فاميركا فيكونيا لم تترك اية ملاحظة تتيح القاء مسؤولية قرارها على أحد. كان أفراد عائلتها قد وصلوا من بوينتو بادري، بعد ان أعلمتهم ليونا كاسياني بالامر، وسيتم الدفن في الخامسة مساء. تنفس فلوريتينو اريثا الصعداء. فالشيء الوحيد الذي يستطيع عمله كي يستمر في الحياة هو ألا يسمح لنفسه بالعذاب في تلك الذكرى. بما الامر من ذاكرته، رغم انه يشعر به ينبعث على نحو مفاجيء بين الحين والآخر في سنوات حياته الباقية، دون أي داع، وكأنه وخزة عابرة في جرح قديم مندمل.

كانت الأيام التالية حارة لا تطاق. وأصبح النهر عكراً وأخذ يضيق شيئاً فشيئاً، وبدلاً من الأشجار الضخمة المتشابكة التي أذهلت فلوريتينو اريثا في رحلته الأولى، كانت هناك بطاح كلسية، وبقايا غابات التهمتها مارجل السفن، وانقراض قرى مهجورة لرحمة الله، ما زالت شوارعها غارقة في أزمنة الجفاف القاسية. ولم تكن توقفهم في الليل اغنيات عرائس الماء التي تغنيها الأطم على الضفاف، وإنما روائح النشانة المنبعثة من الجثث التي تمرطافية صوب البحر. لم تكن ثمة حروب ولا أوبئة، لكن الجثث المنتفخة ما زالت تمرطافية. وقد كان القبطان متواضعاً لمرة واحدة: «لدينا وامر بان نقول للمسافرين باننا جثث غرقى». وبدلاً من رطانة البيغاوات وصخب القروء اللامرية التي كانت تغاقم من احتدام حر الظهيرة في أزمنة اخرى، لم يبق سوى صمت الأرض الخراب.

كانت أماكن التحطيط المتبقية قليلة جداً، ومتباعدة أحدها عن الآخر، مما ابقى وفاء الجديدة بلا وقود بعد أربعة أيام من بدء الرحلة. ورسد لمدة اسبوع تقريباً، إلى ان توغل أفراد الطاقم في المستنقعات الرمادية بحثاً عن آخر الأشجار المبعثرة. لم تكن هنالك أشجار اخرى: فالخطابون هجروا عملهم هرباً من قسوة ملاكي الاراضي، وهرباً من الكوليرا اللامرية، وهرباً من الحروب الخفية التي تحاول الحكومات التستر عليها بمراسيم تشغل الناس عنها. واثناء ذلك، نظم المسافرون الضمجون مسابقات في السباحة، وحملات صيد، كانوا يعودون منها بعباءات ضخمة حية يشقون صدورها ويعيدون خياطتها ثانية بابر تنجيد

بعد ان يستخرجوا منها عناقيد البيض البراقة الطرية، التي يعلقونها في سلاسل لتجف على حواف السفينة. واقتفت عاهرات القرى المجاورة البائسات أثر حملات الصيد، فنصبن خياماً مرتجلة عند ضفة النهر، وجئن بالموسيقى والخمر، وأقمن مهرجاناً مقابل السفينة التوقف.

قبل ان يصبح رئيساً لشركة الكاريبي النهرية بوقت طويل، كان فلورينتينو اريشا يتلقى تقارير مفزعة عن حالة النهر، لكنه لم يكن ليهتم بقراءتها. وكان يطمئن شركاءه: «لا تقلقوا، فحين ينتهي الحطب ستكون قد بنيت سفن تعمل بالبرّ ول». ولم يكلف نفسه يوماً مشقة التفكير بالأمر، لانه كان مهوراً بهوى فيرمينا دائماً، وحين وعى الحقيقة كان الوقت قد فات ولم يعد بإمكانه عمل شيء، اللهم إلا شق نهر جديد. في الليل وحتى في مواسم ارتفاع منسوب الماء، كان لابد من ربط السفن للنوم، وحينئذ يصبح مجرد كون المرء حياً أمراً لا يطاق. ويغادر معظم المسافرين، والاوربيين منهم بشكل خاص، عفونة القمرات ويقضون الليل سائرين على سطح السفينة، وهم يهشون جميع أنواع الهوام بالمناثيف ذاتها التي يسمحون بها عرقهم المتواصل، ويذكرهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بلسع الحشرات. لقد كتب رحالة انكليزي في اوائل القرن التاسع عشر، مشيراً إلى الرحلة التي كانت تتم في الزوارق أولاً ثم على متن البغال، والتي كانت تدوم حتى خمسين يوماً، يقول: «انها من أسوأ الأسفار التي يمكن لانسان ان يقوم بها وأكثرها مشقة». ولكن هذا التقدير لم يعد صحيحاً خلال ثمانين السنة الأولى من الملاحة البخارية، ثم عاد ليصبح كذلك وإلى الأبد، حين أكلت التماسيح آخر الفراشات، وانقرضت الأطم الامومية، واختفت البغاوات، والقروء، والقرى: وانتهى كل شيء.

كان القبطان يقول ضاحكاً:

«لأ وجود لأي مشكلة، فخلال بضعة سنوات سنذرع مجرى النهر الجفاف في سيارات فاخرة.

احتمت فيرمينا دائماً وفلورينتينو اريشا خلال الايام الثلاثة الأولى في كنف الشرفة المغلقة ذات الجوارب الربيعي، ولكن جهاز التبريد بدأ يتوقف حين جرى تقنين الحطب، فتحولت القمرة الرئاسية إلى ما يشبه طنجرة الضغط. وكان الفضل في بقاء فيرمينا دائماً على قيد الحياة خلال الليل يعود إلى الهواء النهرى الذي يدخل من النوافذ المفتوحة، فيما هي همس البعوض بالمنشفة، لان مضخة المبيد الحشري كانت بلا جدوى اثناء توقف السفينة. وأصبح ألم اذنها لا يطاق، لكنه توقف تماماً عند استيقاظها في صباح أحد الايام فجأة، كما يتوقف غناء زيز منفجر. ولكنها لم تدرك حتى حلول الليل انها فقدت السمع باذنها اليسرى، وذلك حين كلمها فلورينتينو اريشا من هذه الجهة، فاضطرت لان تلتفت برأسها كي تسمع ما يقوله. لم

تخبر أحداً بذلك، مؤمنة بان الأمر ليس سوى نقيصة أخرى لامناس منها من نقائص التقدم في السن .

لكن تأخر السفينة كان بالنسبة لها محنة مباركة رغم كل شيء ولقد قرأ فلورينتينواريتا ذلك يوماً : « ان الحب يصبح أعظم وأنبل في المحن » . كانت رطوبة القمرة الرئاسية تغرقها في سبات لا واقعي يصعب الحب فيه دون اسئلة . كانا يعيشان ساعات لا يمكن تخيلها وهما يمسكان أحدهما بيد الآخر اثناء جلوسهما على مقاعد الشرفة ، يتبادلان قبلاً بطيئة ، وينعمان بنشوة المداعبات دون عراقيل الغضب . وفي ليلة السات الثالثة ، انتظرتة وقد هيات زجاجة من خمر اليانسون ، الذي كانت تشرب منه خفية مع عصابة ابنة خالها هيلديبراندا ، ثم مع صديقات عالمها المستعار فيما بعد ، حين تزوجت وصارت أم . لقد كانت تحتاج لبعض الشوة كي لا تفكر في مصيرها بوعي تام ، ولكن فلورينتينواريتا ظن انها تريد بذلك الحصول على الشجاعة للاقدام على الخطوة الاخيرة ، ومدفوعاً بهذا الوهم ، تجرأ على التقدم برؤوس اصابعه لاستكشاف عنقها الذاوي ، وصدرها المصنع بأسياخ معدنية وردفيها العظميين المتآكلين ، وفخذي الغزالة الهرمة . وتقبلت ذلك منتشية ، بعينين مغضبتين ، ولكن دون ان ترتعش ، فيها هي تدخن وتشرب رشقات متباعدة من الخمر . واخيراً حين نزلت المداعبات إلى بطنها وأصبحت كمية الخمر في قلبها كافية ، قالت :

- اذا كنا سننارس الحماقات ، فلنفعل ؛ على ان يكون ذلك كأناس طاعنين في السن .  
قادتة إلى المندع ، وراحت تتعري دون خفرازائف تحت الانوار المضاءة . واستلقى فلورينتينواريتا على ظهره فوق السرير ، محاولاً استعادة السيطرة على نفسه ، دون ان يدري ثانية ما الذي يفعله بجلد النمر الذي قتله . قالت له : « لا تنظر » . فسألها لماذا دون ان يرفع نظره عن السقف الأملس .

فقالت :

- لانني لن أعجبك .

عندئذ نظر اليها ، ورآها عارية حتى وسطها ، تماماً كما تخيلها . كان كتفها مجعدين وذيهاها متهدلين ، وأضلأها مغطاة بجلد شاحب وبارد كجلد ضفدع . غطت صدرها ببلوزتها التي انتهت من خلعها ، وأطفأت النور . حينئذ اعتدل في السرير وبدأ بخلع ملابسه في الطلام ، قاذفا ايها بكل قطعة يخلعها من ثيابه ، وكانت تعيد قذفه بها وهي غارقة في الضحك .

بقيا مستلقين على ظهرهما لوقت طويل ، وكان يزداد ذهولاً كلما فارقته الشوة ، فيها هي هادئة ، وشبه هامة ، لكنها كانت تدعو الله ألا يجعلها تفجر بالضحك دون سبب ، مثلما يحدث لها كلما فقدت السيطرة على نفسها بفعل خمر اليانسون . تحدثا لشغل الوقت . تكلياً



عن نفسها، وعن حياتيها المختلفتين، وعن المصادفة التي لا تصدق في كونها عارين داخل قمرة مظلمة في سفينة متوقفة، في الوقت الذي كان عليها ان يفكرا بأنه لم يبق لبيها متسع من الوقت إلا لانتظار الموت. لم تكن قد سمعت يوماً بأنه كان على علاقة بامرأة، ولوليامة واحدة، في مدينة يشيع فيها كل شيء قبل حدوثه. قالت له ذلك عرضاً، فرد عليها مباشرة ودون أية ارتعاشة في صوته:

- لقد احتفظت بعذريتي من أجلك.

ما كانت ستصدق ذلك على أية حال، حتى ولو كان صحيحاً، لان رسائله الغرامية كانت مصوغة من عبارات كذلك التي لا تكمن قيمتها في معناها، وانما في قدرتها على الابهار. لكنها أعجبت الشجاعة التي قال فيها ذلك. وتساءل فلورينتينوارثا بدوره بغتة حول الأمر الذي ما كان يتجرأ على التفكير فيه: أي نوع من الحياة السرية مارست على هامش حياتها الزوجية. ولم يكن ليفاجأ بأي شيء، لأنه كان يعلم ان النساء مثل الرجال في مغامراتهن السرية: يلجأن إلى الحيل ذاتها، والمكائيد المبالغية ذاتها، والخبائث بلا وازع من ضمير ذاتها. ولكنه أحسن صنعا بعدم توجيه السؤال إليها. ففي حقبة كانت علاقاتها بالكنيسة متردية إلى حد بعيد، سألها كاهن الاعتراف دون أي مبرر إذا ما كانت غير وفيه لزوجها يوماً، فنهضت دون ان تحجب، ودون ان تنتهي، ودون ان تودع، ولم تعد منذ ذلك الحين للاعتراف سواء مع هذا الكاهن أو مع أي كاهن آخر. أما فطنة فلورينتينوارثا فقد جاءت بمردود غير متنتظر: مدت يدها في الظلام، وداعبت بطنه، ونخاصرته، وعانته شبه المراء، وقالت: «ان لك بشرة طفل رضيع». ثم قامت بخطوة اخيرة: بحثت عنه حيث لم يكن، وعادت تبحث دون أوهام، فوجدته أعزل.

قالت:

- انه ميت.

لقد كان يحدث له ذلك دوماً في المرة الأولى، معهن جميعاً، ودائماً إلى ان تعلم التعايش مع ذلك الوهم: في كل مرة عليه ان يتعلم من جديد، كما لو كانت المرة الأولى. أمسك يدها ووضعها على صدره، فأحست فيرمينا دائماً عند سطح الجلد تقريباً بالقلب المرم الذي لا يكل وهو يخفق بقوة، وسرعة وعدم انتظام قلب مراهق. فقال: «ان حباً فائضاً له من التأثير على القلب كما لقلة الحب». لكنه قال ذلك دون قناعة: كان خجلاً وغاضباً من نفسه، يتلطف إلى مبرر يتيح له اتهامها بالخفاقه. وكانت تعرف ذلك، فأخذت تستفز الجسد الأعزل بمداعبات ساخرة، كقطعة ناعمة تتلذذ بالقسوة، إلى ان فقد القدرة على احتمال مزيد من العذاب ومضى إلى قمرته، تابعت التفكير فيه حتى الفجر، مقتنعة أخيراً من حبها له،

ولكنما كان الخمر يفارقها بموجات بطيئة، كان القلق يهاجمها بأنه قد غضب منها ولن يعود أبداً.

لكنه عاد في اليوم ذاته، في الساعة الحادية عشرة غير المألوفة، وكان متنعشاً ومرمماً، ووقف يتعرقى امامها بشيء من المباهاة. وابتهجت وهي تراه تحت الضوء الغامر كما تحلته في الظلام: رجلاً بلا سن محدد، ذا بشرة قائمة، ومشدودة كمظلة مفتوحة، دون أي شعر سوى بعض الزغب السبط تحت الابطين وفي العانة. سلاحه عامراً، وانتهت إلى انه لا يُظهره مصادفة وانما هو يعرضه كنصب حربي ليث الشجاعة في نفسه. لم يتح لها الفرصة لخلع قميص نومها الذي لبسته حين بدأ يب نسيم الفجر وسبب لها تسرعه كمبتدىء ارتعاشة عطف، لكنها لم تزعجها، اذ لم يكن من السهل عليها في حالات كذلك التمييز بين العطف والحب. ومع ذلك فقد أحست آخر الأمر بالخواء.

كانت المرة الأولى التي تمارس فيها الحب منذ أكثر من عشرين سنة، وقد مارسته مدفوعة بفضول التعرف إلى كنهه في سنها وبعد عطالة طويلة الأمد. لكنه لم يتح لها الوقت الكافي لتعرف ما اذا كان جسدها يحبه أيضاً. لقد كان سريعاً وحزيناً، وفكرت: «هأنحن ذا قد افسدنا كل شيء الآن». لكنها كانت غخطئة: فرغم خيبة املها، ورغم ندمه لبلادته وتأنبها نفسها لجنون اليانسون، لم يفترقا عن بعضهما للحظة واحدة خلال الأيام التالية. ولم يغادرا القمرة إلا قليلاً لتناول الطعام. وكان القبطان ساماريتانو، الذي يكتشف بالغريزة أي سر خبأ في سفنته، يبعث اليهما بالوردة البيضاء كل صباح، ويأمر بعزف موسيقى من زمنها، ويعد لهما أصنافاً من الطعام بطريقة لا تخلو من مزاح، وذلك بان يضيف اليها مواد مهيجة. ولم يحاولا ممارسة الحب إلا بعد وقت طويل، حين جاءهما الالهام دون ان يسعيا في طلبه. لقد كانا يكتفيان بسعادة وجودهما معاً.

لم يفكرا بالخروج من القمرة لولا ان القبطان بعث اليهما يخبرهما بان السفينة ستصل بعد الغداء إلى ميناء لادورادا، الميناء الأخير، بعد احد عشر يوماً من السفر. ورأت فيرمينا دانا وفلوريتينو اريشا من القمر رابية البيوت المضادة بشمس شاحبة، وظلنا بانها توصلنا لمعرفة سبب تسمية البلدة بهذا الاسم، لكن الأمر ما لبث ان بدا لهما أقل وضوحاً حين أحسا بالحر الذي يلهث مثل مراحل السفينة، ورأيا اسفلت الشوارع وهو يفرور. ثم ان السفينة لم تتوقف هناك، وانما رست عند الضفة المقابلة، حيث المحطة النهائية لقطار سانتافي.

غادرا غيباًهما فور نزول المسافرين إلى البر. وتنفست فيرمينا دانا هواء الخلاص الطيب في الصالون الخاوي، وراقب كلاهما من حافة السفينة الحشود الصاخبة التي كانت تبحث عن أمتعتها في عربات القطار الذي بدا أشبه بدمية. كان يمكن الاعتقاد بانهم قادمون من

اوروبا، وخصوصاً النساء اللواتي كن يرتدين المعاطف الشمالية وقبعات القرن الماضي التي كانت تشكل بقبضاً للقيظ الاخير. وكانت بعض النسوة يزين شعورهن بازهار بطاطا ذابلة بفعل الحر. انهن قادمات من السهل الانديزي بعد رحلة في القطار عبر سهوب حاملة، ولم تسنح لهن الفرصة بعد لاستبدال ملابسهن بما يتلائم مع جو الكاريبي.

وسط صخب السوق، كان ثمة رجل عجوز يخرج صيصاناً من جيوب معطفه الذي كمعطف متسول. لقد ظهر فجأة، شاقاً طريقه وسط الحشود بمعطف مرقع لا بد انه كان لشخص اكثر منه طولاً وبدانة. خلع قبعته ووضعها على الرصيف ليلقي بها نقوداً من يشاء الالتقاء، وراح يخرج من جيوبه حفنات من صيصان لينة وباهتة بدت وكأنها تتكاثر بين اصابعه. وبدأ رصيف الميناء خلال لحظة وكأنه مفروش بالصيصان المرتعدة التي تزرق في كل مكان، بين المسافرين المتعجلين الذين يدوسونها دون ان يشعروا بها. وفيما فيرمينا دائماً مسحورة بالمشهد الرائع الذي بدا وكأنه يجري على شرفها، لانها الوحيدة التي كانت تراقبه، لم تنتبه متى بدأ المسافرون في رحلة العودة يصعدون الى السفينة. لقد انتهت حفلتها: اذ رأت بين القادمين عدداً كبيراً من الوجوه المعروفة، منهم بعض الاصدقاء الذين رافقوها في حداثها منذ وقت قريب، فسارعت الى اللجوء مجدداً في القمرة. وجدها فلوريتينواريثا مدعورة: كانت تفضل الموت على ان يكتشفها جماعتها وهي في رحلة متعة، ولما يبيض على موت زوجها سوى هذا الوقت القليل. وقد تأثر فلوريتينواريثا بشديد التأثير لجزعها، مما جعله يعدها بالتفكير في وسيلة لحمايتها غير السجن في القمرة.

لقد خطرت له الفكرة فجأة اثناء تناولهم العشاء في صالة الطعام الخاصة. كان القبطان قلقاً لمشكلة يريد ان يناقشها منذ زمن طويل مع فلوريتينواريثا، الذي كان يتجنب الخوض في هذا الحديث دوماً بذريعة عادية: «بامكان ليونا كاسياني تدبر هذه الامور خيراً مني». ولكنه استمع اليه هذه المرة. المسألة هي ان السفن تشحن البضائع في صعودها، ولكنها تعود فارغة في رحلة العودة، بينما يكاد يحدث العكس بالنسبة للمسافرين، وقال: «هذا مع افضلية البضائع، لان أجور شحنها اعلى اضافة الى انها لا تأكل». كانت فيرمينا دائماً تناول العشاء بلا شهية، ضجرة من المناقشة الخافتة بين الرجلين حول ضرورة اقرار فروق في التعرفة. استمع فلوريتينواريثا حتى النهاية، وحينئذ فقط وجه سؤلاً بدا للقبطان على انه فكرة الخلاص، اذ قال:

- يمكننا، نظرياً، القيام برحلة مباشرة بلاحولة ولا مسافرين، ودون التوقف في أي ميناء، ودون أي شيء؟

وقال القبطان ان ذلك ممكن نظرياً فقط، لان لدى ش.ك.م.ن. التزامات عمل يعرفها

فلورينتينو ارثا افضل من سواه، وهي ملتزمة بعقود لشحن البضائع والركاب والبريد وأشياء اخرى كثيرة لا يمكن تجنب معظمها. والسبيل الوحيد الذي يتيح القفز فوق كل شيء هو وجود مصاب بالوباء على متن السفينة. لان السفينة ستعتبر حينئذ محجورة صحيا، وسترفع الراية الصفراء وتبحر في حالة طواريء. لقد اضطر القبطان ساماريتانو لعمل ذلك عدة مرات بسبب اصابات الكوليرا الكثيرة في قرى النهر، رغم ان السلطات الصحية كانت تحبر الاطباء فيما بعد على اصدار وثائق تثبت ان الحالة ليست الا ديزنطاريا عادية. ثم ان راية الوباء الصفراء رفعت كثيرا عبر تاريخ النهر للنهرب من الضرائب، أوللتخلص من مسافر غير مرغوب فيه، أوللحيلولة دون عمليات التفتيش غير الملائمة. وجد فلورينتينو ارثا يد فيرمينا دائما تحت المائدة، وقال:

- حسناً، فلنعمل هذا.

فوجيء القبطان، ولكنه بغريزة الثعلب العجوز التي يتمتع بها، رأى كل شيء واضحا في الحال. فقال:

- أنا أمر في هذه السفينة، ولكنك تأمر علينا، فاذا كنت تتكلم بجذ، اعطني الامر مكتوبا، وستنطلق الآن في الحال.

كان جديا بالطبع، ووقع فلورينتينو ارثا الامر. فالجميع يعلمون في نهاية المطاف ان الكوليرا لم تنته بعد، رغم احصائيات السلطات الصحية المتفائلة. أما بالنسبة للسفينة فلا وجود لاية مشكلة. تم تحويل البضائع القليلة لنقلها في سفينة اخرى، وقيل للمسافرين ان عطلا طرا على المحركات، وانهم سينقلونهم في سفينة تابعة لشركة اخرى في الصباح. ولم يجد فلورينتينو ارثا ما يمنع من اقتراف هذه الامور في سبيل الحب، اذا كانت تقترب لاسباب كثيرة غير اخلاقية، وغير وقورة احيانا. والرجاء الوحيد الذي تقدم به القبطان هو التوقف في ميناء بويرتوناريه، لاصطحاب من ترافقه في الرحلة: فقد كان له قلبه المخبأ أيضا.

وهكذا أبحرت وفاء الجديدة عند فجر اليوم التالي، بلا بضائع ولا مسافرين، فيما راية الكوليرا الصفراء تخفق طربا على صاريها الاكبر. وعند الظهر التقطوا من ميناء بويرتوناريه امرأة أطول من القبطان وأصخم منه، ذات جمال فطيع، لانتقصها سوى اللحية كي تتعاقد للعمل في سيرك. زينايدا ينفيس، لكن القبطان كان يدعوها عموسوتي: انها صديقة قديمة، اعتاد حملها من أحد الموانئ وتركها في ميناء اخر، وما ان صعدت الى السفينة حتى هبت ربيع شديدة مواتية. وفي ذلك الحجر الكئيب، استعاد فلورينتينو ارثا الحنين لذكرى روسالبا وهو يرى قطار انفيغا دويصعد بمشقة على الطريق القديم الذي كانت تسلكه البغال، وهطل وابل من المطر الامازوني، سيستمر طوال الرحلة تتخلله انقطاعات قصيرة. ولكن احدا لم

يهتم لذلك : اذ ان للحفلة العائمة سقفها الخاص . في تلك الليلة ، ومساهمة شخصية في الحفلة ، نزلت فيرمينا داينا الى المطابخ ، وسط تشجيع طاقم السفينة ، وأعدت طبقاً مبتكراً للجميع ، عمده فلوريتينو اريثا باسم : باذنجان الحب .

كانوا يلعبون الورق خلال النهار ، ويأكلون حتى التخمّة ، وينامون قيلولات غرائبية تستنفد قواهم ، وما ان تغيب الشمس حتى يطلقون الموسيقى ويشربون خمر البانسون مع السلمون الى ما بعد الارتواء . لقد كانت رحلة سريعة ، في السفينة الخفيفة والمياه الطيبة ، التي تحسنت بالفياضانات الرافدة من الجبال ، حيث هطل مطر غزير في ذلك الاسبوع كالطر الذي هطل على طول مجرى النهر . وكانوا يطلقون لهم في بعض القرى مدافع الرحمة لانفraz الكوليرا ، فيردون شاكرين بجوار حزين . وكلما التقوا بسفينة تابعة لاية شركة نهرية ، كانت تبادلهم اشارات المواساة . وفي بلدة ماغانغيه ، حيث ولدت ناديا ، حملوا حطباً لبقية الرحلة .

فزعت فيرمينا داينا حين بدأت تحس بصفاة السفينة تدوي في اذنها السليمة ، ولكنها في اليوم الثاني من تناول خمر البانسون ، أصبحت تسمع جيداً بكلتا اذنيها . واكتشفت ان للازهار رائحة اقوى بكثير من رائحتها السابقة ، وان العصافير تغرد في الصباح افضل بكثير من تغريدها السابق ، وان الله خلق اطومة ووضعها عند ضفة تامالاميكى لتوقظها فقط . سمعها القبطان ، فحرف السفينة عن مسارها ، وأوا أخيراً الام الضخمة وهي ترضع صغيرها على ذراعيها . لم تنتبه فيرمينا كما لم ينتبه فلوريتينو كيف اندجما معا الى هذا الحد : كانت تساعد في ارتداء سترته ، وتستيقظ قبله لتنظف بالفرشاة اسنانه الاصطناعية التي يتركها في كأس الماء حين ينام ، وحلت مشكلة النظارات ، لان نظارته كانت تناسبها تماماً للقراءة ورفع الجوارب . وعند استيقاظها في صباح أحد الايام ، رآته في الظلمة يحيط زراً لقميمه ، فسارعت لتفعل ذلك بنفسها ، قبل ان يكرر العبارة الروتينية عن حاجته لزوجتين . والشئ الوحيد الذي طلبته هي منه كان ان يضع لها كأس حجارة لآل أصاب ظهرها .

ومن جهة اخرى ، كان فلوريتينو اريثا يتحرق شوقاً للعرزف على كمان الفرقة الموسيقية ، وقد استطاع ان يعزف لها فالس الربة المتوجة بعد ان تدرب عليه في نصف نهار ، وعزفه خلال ساعات وساعات ، الى ان اوقفوه مكرها . وفي احدى الليالي ، استيقظت فيرمينا داينا للمرة الاولى في حيائها محتقة بكبها لم يكن وليد غضب وانما بكاء حزن ، لذكرى العجوزين اللذين ماتا بضربات مجداف صاحب القارب الذي كانا فيه . أما المطر المتواصل فلم يكن يؤثر فيها ، وفكرت متأخرة بان باريس قد لا تكون كثيفة الى الحد الذي تصورته من قبل ، وان سانتاني ليست مدينة جنازات كثيرة تجوب الشوارع فقط . ووسع من افاقها الحلم برحلات اخرى مع فلوريتينو اريثا في المستقبل : رحلات مجنونة ، بلا صناديق كثيرة ، وبلا التزامات اجتماعية :

أقاموا عشية الوصول حفلة كبيرة، وعلقوا اكاليل ورقية ومصابيح ملونة. كان المطرق قد توقف عن المطول عند المغيب. ورقص القبطان وزينايدا متلاصقين رقصة البولير والتي كانت تخلب القلوب في تلك السنوات. وتجراً فلورينتينوارثا، فاقترح على فرمينادانا ان يرقصا فالس الانسجام، لكنها رفضت. ومع ذلك، فقد أمضت الليل وهي تضبط الايقاع بحركة من رأسها وكعبي حذاءها، ووصل بها الامر في بعض اللحظات الى الرقص وهي جالسة دون ان تنبه الى ذلك، بينما القبطان يتيه مع ممسوسته في عتمة البولير. شربت كثيرا من الخمر مما اضطرهم لمساعدتها في ارتقاء السلم، واجتاحتها نوبة ضحك صاخب مترافقة مع دموع أثارت قلقهم جميعا. لكنها حين سيطرت على نفسها في سكون القمر المعطرة، مارست مع فلورينتينوجا هادئا وصحياً. حب جدين ملوثين، سيسفر في ذاكرتها كأفضل ذكرى من تلك الرحلة الدسلية. ما عادا يشعران بنفسيهما كخطيئين حديثين، على خلاف ما كان يفترضه القبطان زينايدا، ولا كعاشقين متأخرين. كانا يشعران وكأنهما قد اجتازا جلجلة الحياة الزوجية الصعبة، ووصلا دون لف ولا دوران الى جوهر الحب. كانا ينسابان بصمت كزوجين قديمين كوتها الحياة، الى ما وراء خدع العاطفة، الى ما وراء حيل الاوهام القاسية وسراب خيبة الأمل؛ الى ما وراء الحب. لقد عاشا معا ما يكفي ليعرفا ان الحب هو ان نحب في أي وقت وفي أي مكان، وان الحب يكون أكثر زخما كلما كان أقرب الى الموت. استيقظا في الساعة السادسة. كانت تعاني وجع رأس مضمخ باليانسون، وكان قلبها مذهولا لاحساسها بان الدكتور خوفينال اورينو قد رجع، أكثر بدانة وشبابا مما كان عليه حين انزلق عن الشجرة، وانه يجلس بانتظارها على الكرسي الهزاز أمام باب البيت. ولكنها كانت «ساحية بما يكفي لتدرك ان ذلك لم يكن بتأثير خمر اليانسون، وانما بفعل الوصول الوشيك.

قالت:

- سيكون هذا الرجوع كأنه الموت.

- فوجيء فلورينتينوارثا، لأنها عبرت بما قالت عن فكرة لم تنتج له العيش منذ بدأت رحلة العودة. لم يكن بإمكانه ولا بإمكانها تصور نفسيهما يعيشان في بيت آخر سوى القمر، أو يأكلان بطريقة غير طريقة الاكل في السفينة، أو يندججان في حياة ستكون غريبة عليهما الى الابد. لقد كان ذلك كأنه الموت حقا. ولم يستطع العودة الى النوم. بقي مستلقيا في السرير، ويداه متقاطعتين وراء رقبته. وفي لحظة معينة، وخرته ذكرى اميركا فيكونيا وجعلته يتلوى الماء، فلم يستطع تأجيل الحقيقة أكثر: حبس نفسه في الحمام وبكى ماشاء له البكاء، دون تسرع، الى ان جفت دمعته الاخيرة. وحينئذ فقط واثته الشجاعة ليعترف لنفسه كم أحبها.

عندما استيقظا وارتديا ملابسهما للنزول الى البر، كانت السفينة قد خلفت وراءها مجاري ومستنقعات القنال الاسباني القديم، وكانوا يحرون وسط انقراض السفن ويقع الزيت الميت في الخليج. وكان يوم خميس مشع يعلو قباب مدينة الفيريس المذهبة، لكن فيرمينا داا التي كانت تنظر الى المدينة من الشرفة، لم تستطع احتمال عفونة امجادها، ولا غطرسة حصونها التي تنتهكها السحالي. . لقد كانت تشعر بالرعب من الحياة الواقعية. لم يشعر هوكما لم تشعر هي، دون ان يقول احدهما ذلك للآخر، بالرغبة في الاستسلام بمثل هذه السهولة.

وجدا القبطان في صالة الطعام، في حالة اضطراب لاتتفق مع عاداته المذهبة: كانت ذقته غير حليقة، وعيناه محتقنتين بالأرق، وعلى جسده مازالت ملابس الليلة الماضية المضمخة بالعرق، وكانت كلماته المضطربة تخرج مختلطة بتجشؤات خر اليانسون. أما زينايدا فكانت ما تزال نائمة. بدأوا بتناول الفطور صامتين، حين اقترب زورق يسير بالسترول تابع لسلطات الميناء الصحية وأمر السفينة بالتوقف.

ورد القبطان صارخا من فوق مركز القيادة على أسئلة الدورية المسلحة. كانوا يريدون معرفة نوع الوباء الذي يحملونه، وعدد المسافرين في السفينة، وعدد المرضى بينهم، وماهي احتمالات انتقال العدوى الى آخرين. ورد القبطان بان السفينة تحمل ثلاثة مسافرين فقط، وجيمهم مصابين بالكوليرا، ولكنهم معزولون بشكل صارم، وأن احدا لم يتصل بهم، سواء من المسافرين الذين كانوا يصعدون الى السفينة في لادورادا او من رجال الطاقم. لكن قائد الدورية لم يطمئن، فأمرهم بالخروج من الميناء والانتظار في مستنقع لاس ميريدس حتى الثانية بعد الظهر، ريثما يجهزون لهم اجراءات الحجر الصحي على السفينة. اطلق القبطان فرقة حوزي من فمه، وأمر عامل الدفة باشارة من يده للدوران والعودة الى المستنقعات.

سمع كل من فيرمينا داا وفلوريتينو اريثا مادار من حديث وهما على المائدة، ولكن لم يبد على القبطان انه مهتم بالامر. تابع تناول طعامه بصمت، وكن تعكر المزاج يبدو حتى في خرقه لقوانين التمدن التي ترسخ سمعة قباطنة النهر العريقة. ونز برأس السكين البيضات الاربع المقلية، وحركها في الطبق مع شرائح من الموز الاخضر كان يدهسا كاملة في فمه ويمضغها بلذة متوحشة. نظرت فيرمينا داا وفلوريتينو اريثا اليه دون كلام، وكانها بانتظار الامتحان النهائي على مقعد مدرسي. لم يتبادلا اي كلمة خلال حواراه مع الدورية الصحية، ولم تخطر لهما ادنى فكرة عما سيصيب حياتيهما، لكنهما كانا يعرفان ان القبطان يفكر من اجلهما: كان ذلك يبدو في نبض صدغيه.

وفيا هويلتهم وجبة البيض، وصحن الموز الاخضر، وفنجان القهوة مع الحليب، خرجت السفينة ومراجلها مطفأة من الميناء، وشقت طريقها في المجاري المائية عبر مفاراش الطحالب،

ونباتات اللوتس الطافية ذات الازهار البنفسجية والاوراق الكبيرة التي لها شكل قلوب ،  
وهادت الى المستنقعات . كان الماء براقا بفعل عالم الاسماك الطافية على جنوبها ، مينة  
بديناميت الصيادين ، وكانت طيور الارض والماء تحوم فوقها مطلقة صرخات معدنية . ونفذت  
ريح الكاريبي من النوافذ محملة بصخب المصافير ، فأحست فيرمينا دانا في دماها خفقات  
حريتها القلقة . والى اليمين ، كان مصب نهر مجدلينا العظيم المعكرو والرصين يمتد حتى  
الجانب الاخر من الدنيا .

عندما لم يبق في الاطباق شيء يؤكل ، مسح القبطان شففيه بطرف شرشف الطاولة ،  
وتكلم برطانة قوضت الى الابد سمعة حسن التحدث التي عرف بها قباطنة النهر . لم يتكلم  
عنهما ولا عن أحد ، وانما كان يحاول التوافق مع غضبه . والنتيجة التي وصل اليها بعد سلسلة  
من الشتائم البربرية ، هي انه لا يجد سبيلا للخروج من وطة راية الكوليرا التي ادخلوا  
انفسهم فيها .

استمع اليه فلوريتينو اريثا دون ان يطرف له رمش . ثم نظر عبر النافذة الى دائرة ساعة  
سجهره الملاحه ، والى الافق الرائق ، والى سماء كانون الاول التي لاتشوبها غيمة ، والى المياد  
المواتية للابحار الى الابد ، وقال :

- فلتنسابع قدما ، قدما ، قدماً ، ونرجع الى لادورادا ثانية . ارتعشت فيرمينا دانا ، لانها  
تصرفت على الصوت القديم المضاء بنعمة الروح القدس ، ونظرت الى القبطان : كان هو  
القدر . لكن القبطان لم يرها ، لانه كان غارقا في قدرة فلوريتينو اريثا الرهيبة على الالهام .  
وسأله :

- أقول هذا جاداً؟

فقال فلوريتينو اريثا :

- منذ ولدت لم أقل كلمة واحدة غير جدية .

نظر القبطان الى فيرمينا دانا ورأى في رموشها البريق الاول لصقيع شتوي . ثم نظر الى  
فلوريتينو اريثا ، يتماسكه الذي لا يقهر ، وجبه الراسخ ، وأرعبه ارتياحه المتأخر بان الحياة ، اكثر  
من الموت ، هي التي بلا حدود .

سأل :

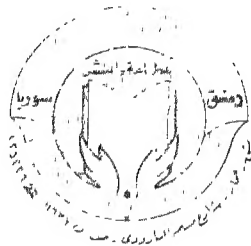
- والى متى تظن باننا سنستطيع الاستمرار في هذا الذهاب والاياب الملعون؟



كان الجواب جاهزاً لدى فلورييتينو اريثا منذ ثلاث وخمسين سنة وستة شهور وأحد عشر يوماً بلياليها. فقال:  
- مدى الحياة.







دمشق - بيروت

بيروت : شارع الحمراء ، ص.ب ١١٣ / ٥٧٢

دمشق : الجعكار ، ص.ب ١٦٢٧

د.اتف ٢٤٥٤٩٦ - صحن تجاري ٤٩٨٥٧